تاريخ
الوطن العربي والغزو الصليبي

د. خاشع المعاضيدي

د. سوادي عبد محمد

د. رشيد عبد القادر نوري

الطبعة الثانية

١٩٨٦

تاريخ
الوطن العربي والغزو الصليبي

تأليف

د. خاشع المعاضيدي
أستاذ التاريخ الاسلامي المساعد
عميد كلية التربية - جامعة بغداد

د. سوادي عبد محمد
مدرس التاريخ الاسلامي
كلية التربية - جامعة البصرة

د. رشيد عبد القادر نوري
مدرس التاريخ الاسلامي
كلية الآداب - جامعة الموصل

الطبعة الثانية
١٩٨٦

المقدمة

يعتبر التاريخ ودراسة احداثه الماضية ، احد اهم العوامل المساعدة على فهم حاضر الانسان ومستقبله ، ذلك لأن التاريخ هو ذاكرة الامة . وان طمس هذه الذاكرة يعني فقدانها لحيويتها واصالتها ، ولذلك اصبحت قراءة التاريخ بوجه عام والوعي به ، ضرورة من ضرورات العصر الذي تعيشه الامة العربية في مرحلة النهوض العالي الذي اوجدته الثورة العربية المباركة في العصر الحاضر .

وعلى الرغم من ان تاريخ الغزو الصليبي للوطن العربي يعود الى اواخر القرن الخامس الهجري ، غير انه بوجه عام يشكّل احدى التجارب المهمة والفتية في تاريخ العرب والمسلمين ، وان آثار هذا الغزو ماتزال ماثلة للعيان . وقد كان الضعف والانحلال السياسي في جسم الدولة الاسلامية والخلافات الجانبية من العوامل المهمة التي مهدت السبيل لهذا الغزو .

ويعتبر عصر الحروب الصليبية من اهم الفترات التاريخية بالنسبة للشرق والغرب على السواء ، نظراً لأن هذه الفترة مليئة بالحوادث والعظات . وان الوطن العربي لايزال الى اليوم يعاني من الهجمات الاستعمارية والصهيونية التي احتلت مكانة الصليبيين في اضعاف العرب والسعي للاستمرار في احتلال فلسطين . ولذلك فان دراسة فترة الحروب الصليبية امر مفيد ومهم لابناء امتنا خاصة وان العديد من حوادث الحروب الصليبية وظروفها يشابه وضعنا الراهن من نواحي عديدة .

ونتيجة للغزو الصليبي لبلاد الشام . فقد ظهر حكام مسلمون تمكنوا ان يحتلوا مركز القيادة لمنطقة الشام او لبعض مدنه وان يتزعموا الجبهة الموحدة التي يكونونها مما يمكنهم توحيده من بلاد مصر والشام والجزيرة . نظراً لضعف السلطة المركزية في بغداد من ناحية . وامكانية اولئك الزعماء من اكتشاف امنيات امتهم في الوحدة والتحرير من ناحية ثانية . ولذلك تمكنوا من الوصول الى القيادة بشكل سهل نظراً لاكتشافهم لاهداف شعبهم واجهادهم انفسهم في العمل على تحقيقها .

وما عماد الدين زنكي ونور الدين وصلاح الدين الايوبي وسيف الدين قلاوون والظاهر بيبرس الا امثال من اولئك الزعماء الذين تطلعوا بعمق الى اهداف امتهم . ولما كانت محاربة الصليبيين لاتتأتى بالعمل البطولي الارتجالي وحده بل بالوحدة وبناء الجبهة الداخلية . ثم باعداد العدة ومن ثم الدخول في مرحلة التحرير . لذلك فقد شمل موضوع بحث هذا الكتاب فقرتان اساسيتان ، كانت اولاهما في ماهية السياسة التي اتبعها اولئك القادة في سبيل بناء الجبهة الداخلية والاعداد للحرب . على حين شملت الفقرة الثانية موقفهم من الصليبيين والخطوات

التي اتبعوها في صد الهجوم الصليبي الذي استهدف الارض والانسان والمعتقد متمثل ذلك في السيطرة على بلاد الشام والقضاء على الوجود الاسلامي في المنطقة .

وقد شمل الكتاب ثلاثة ابواب في ثمانية فصول : تحدث الباب الاول عن الحملات الصليبية الاولى على بلاد الشام وعن دوافع الاوربيين في تلك الغزوات ، وعن اسباب تمكنهم من تأسيس ممالكهم ومقوماتها . في حين تحدث الباب الثاني عن رد الفعل الاسلامي وتكوين الجبهة المتحدة التي وقفت بفخر متصدية لذلك العدوان . اما الباب الثالث فقد شمل الحديث عن حروب التحرير التي ابتدأت منذ عهد صلاح الدين الايوبي بتحريره القدس ، وانتهاءاً بآخر سلاطين المماليك (السلطان خليل) الذي تمكن من تحرير عكا . وعليه فقد شمل هذا الباب الحديث عن الحملة الصليبية الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة ، ليعقب كل ذلك شرح وافي ومفصل لاهم نتائج الحروب الصليبية على المشرق الاسلامي وعلى اوربا .

ومما يجدر ذكره ان الدكتور خاشع المعاضيدي قام بتأليف الباب الاول بفصليه الاول والثاني المتضمن فلسطين وبلاد الشام قبيل الغزو الصليبي والغزوة الصليبية الاولى . اما الباب الثاني فقد قام بتأليف الفصل الاول منه ومعظم الفصل الثاني الدكتور سوادي عبد محمد بالاضافة الى الفقرة الثانية من الفصل الرابع وهو موضوع (تحول النشاط الاوربي الى التوسع في مناطق اخرى) . اما الفصل الاول والثاني والثالث من الباب الثالث المتضمن : امارة صلاح الدين الايوبي وجهود الايوبيين في دحر الغزاة الصليبيين بعد وفاة صلاح الدين والحروب الصليبية في مراحلها الاخيرة فقد كان من نصيب السيد دريد عبد القادر بالاضافة الى الفقرة الاولى والثالثة من الباب الثالث وهو موضوع (نتائج الحروب الصليبية على المشرق الاسلامي واوربا .

وقد راعينا في تأليف هذا الكتاب الدقة واعتماد اسلوب واضح وبسيط علماً بأن الحقيقة التاريخية كانت الهدف الاسمى الذي سعينا من اجل اخراجها واضحة جلية لطلابنا الاعزاء ، بعيدة عن الهوى والضلال معتمدين في ذلك على امهات المصادر العربية القديمة والمراجع الاجنبية والعربية المعاصرة لاكمال الصورة بعيدة عن كل تشويش .

وانا لنرجو ، في الختام ، ان نكون قد وفقنا الى تحقيق الهدف الذي وضع الكتاب من اجله والله تعالى ولي التوفيق .

المؤلفون

الباب الاول

الحملات الصليبية الاولى على بلاد الشام

الفصل الاول ـ فلسطين وبلاد الشام قبيل الغزو الصليبي

الفصل الثاني ـ الحملة الصليبية الاولى على بلاد الشام

الوطن العربي والحروب الصليبية

(البـاب الاول)

الحملات الصليبية الاولى على بلاد الشام

الفصـل الاول

فلسطين وبلاد الشام قبيل الغزو الصليبي

اولاً ـ عروبـة المنطقـة :

سكن العرب بلاد الشام منذ زمن بعيد ، يمتد الى ماقبل الميلاد بعدة قرون فقد خرجت هجرات مستمرة من شبه جزيرة العرب ـ بوصفها الموطن الاصلي لسكان المنطقة ـ الى اطرافها خلال العصور التاريخية المتعاقبة ، بعضها موسمي ، والبعض الآخر إستقر في مواطنه الجديدة ، ومن هذه الهجرات التي استقرت في بلاد الشام قديماً ، الكنعانيون في الطليعة الاولى التي نزحت من جزيرة العرب الى ارض فلسطين في الالف الثالث قبل الميلاد وقد اسسوا اولى المدن في العالم ويقال ان مدينة اريحا بفلسطين التي تحمل اسماً كنعانياً هي اقدم مدينة في العالم لم تزل قائمة حتى الان .

اما مدينة القدس التي يسميها اليهود اورشليم وينسبونها لانفسهم فلم يوجد اي دليل على صحة هذه الدعوة ، لان هذه المدينة اسسها اليبوسيون ابناء عم الكنعانيين قبل اكثر من خمسة الاف سنة ، وقد حمل ملوكها لواء التوحيد وسكنها العديد من الانبياء .

واول من اختط اورشليم هو الملك اليبوسي الكنعاني (ملكي صادق) وكان على سنة الله القديمة ، وغالبية شعبه من الوثنيين الكنعانيين وكانت تسمى انذاك بـ (بروشالم) و (شالم) وهو اسم آله كنعان ومعناه (سلام) وكل هذا يدل على قدم اورشليم الكنعانية العربية قبل ان يكون لليهود ولغيرهم وجود في التاريخ والمنطقة(١) .

ثم جاء بعد الكنعانيين (الفينيقيون) وهم كنعانيون اطلق عليهم اليونانيون لاول مرة اسم فينيقيا فسموا بالفينيقيين وقد اسسوا لهم عدة مدن في بلاد الشام منها

---

(١) انظر . جعفر الخليلي . الملحق لكتاب العرب واليهود في التاريخ لاحمد سوسة (بغداد ، ١٩٧٧) ص ٣١ ـ ٣٢

حيفا وصرخد في فلسطين . وصور وصيدا وبيروت وجبيل في لبنان . وبعدهم جاءت الهجرة العمورية التي استوطنت اواسط سوريا ولبنان وامتدت جنوباً الى فلسطين واسست دولة (عمورو)[١].

كذلك ومن الموجات العربية السامية التي هاجرت من جزيرة العرب الى بلاد الشام هجرة الاراميين الذين استوطنوا الفرات الاوسط واقاموا لهم عدة ممالك اهمها دمشق وحماه . وعليه فأن الكنعانيين والعموريين والاراميين وما تفرع منهم كانوا جميعاً من اصل عربي وهم اول من استوطن بلادُ عربية الاصل .

ومما زاد في عروبة المنطقة حدوث الموجة العربية الاسلامية في القرن السابع الميلادي . وقد انطلقت هذه الموجة من شبه جزيرة العرب لاسباب تختلف اختلافاً جوهرياً عن الاسباب الكامنة وراء الهجرات السابقة اذ اندفعت هذه الموجة بوحي من رسالة السماء الخالدة التي حملت العرب مسؤولية دعوة البَشر الى طريق الحق والنور ولكن هذه الموجة العربية . لم تقف عند حدود الوطن العربي لتستقر فيه . انما انساحت شرقاً حتى بلغت حدود الصين . وغرباً حتى تجاوزت حدود الاندلس .

ولما تقدمت الجيوش العربية الاسلامية نحو بلاد الشام لتحريرها من ايدي البيزنطيين في عهد الخليفة ابي بكر الصديق وعمر بن الخطاب (رض) . رَحب عرب هذه البلاد باخوانهم عرب الجزيرة . فكان النصر لهم بمعركة اليرموك العظيمة سنة ١٣ هـ / ٦٣٤ حيث هزم الروم وتحررت بلاد الشام كلها من نفوذهم[٢]

ولقد تعزز دور العرب كثيراً في بلاد الشام في ظل الدولة الاموية وقد انتقلت عاصمة الخلافة الى بلاد الشام ومن هناك خرجت الجيوش العظيمة لمقاتلة الاعداء . وقد كتب لها النصر المؤزر على اعظم امبراطوريتين في العالم انذاك وهما الامبراطورية الفارسية في الشرق والبيزنطية في الشمال والغرب .

ثم قامت الدولة العباسية ونتيجة لكثرة الداخلين الى الاسلام من الفرس والترك فقد شارك العرب في قيادة الدولة العديد من رجالات الفرس والترك . وقد ادى ذلك في بعض فترات التاريخ الى تلاعبهم بمقدرات الدولة الامر الذي ادى الى نكبتهم وعزلهم وبالتالي اعادة القيادة الفعلية الى ايدي العباسيين

---

(١) انظر . جعفر الخليلي . الملخص لكتاب العرب واليهود في التاريخ لاحمد سوسة (بغداد ١٩٧٧) ص ٤٠ ـ ٤٦

(٢) البلاذري فتوح البلدان . ص ١١٧

ولما اشتد النزاع بين العباسيين في بغداد . والفاطميين في مصر للاستيلاء على بلاد الشام والجزيرة الفراتية . تهيأت الظروف لقيام عدد من الدويلات والامارات العربية في هذه المنطقة . فاقام بنو حمدان دولتهم في الموصل وحلب . كما اقام بنو عقيل دولتهم في الموصل وامتد نفوذها الى اجزاء من بلاد الشام(١).

كما سكن بنو الجراح في فلسطين وهم احد بطون طي وقد كانت منازلهم في بلاد اليمن ثم خرجوا الى الحجاز قبل الاسلام وانتشروا بعد ذلك الى بلاد الشام والعراق . وفي القرنين الرابع والخامس الهجريين شارك زعماؤهم في احداث المنطقة وخاصة في فلسطين مما يلي الرحلة للفترة ما بين سنتي (سنة ٣٥٨ الى سنة ٤٣٣ هـ) (٩٦٨ ـ ١٠٤١ م) حيث بسطوا نفوذهم على فلسطين واستولوا على اقامية شمال سوريا بعد ان هزم الامبراطور البيزنطي سنة ٤٢٢ هـ / ١٠٣٠ م وقد اشتهر من زعمائهم مفرج بن دغفل بن الجراح الطائي وابنه حسان(٢).

وقد ادى اعتماد العباسيين على العناصر الاجنبية في بلاد الشام من فارسية وتركية . الى تبلور النشاط العربي والقومي لدى سكان المنطقة . وتحويل هذا النشاط الى اقامة العديد من الدويلات والامارات العربية التي لعبت دوراً بارزاً في الاحداث التي سبقت ورافقت قيام الغزو الصليبي . ولعب العرب من خلال هذه الدويلات دوراً واضحاً في التصدي للهجمات البيزنطية على بلاد الشام وخاصة المروانيين . ثم تصديهم الى الغزو الصليبي . فضلاً عن الاشتباكات المستمرة بينهم وبين المتغلبين على الخلافة العباسية في بغداد من البويهيين والسلاجقة . ثم تصديهم للتوسع الفاطمي في بلاد الشام .

وقد ظلت بلاد الشام محط اطماع البيزنطيين حتى اواخر القرن الخامس الهجري . وخاصة في حلب . فتصدى لهم بنو مرداس . وهي قبيلة عربية من بني كلاب . وهم من عرب الشمال . وكانت مساكنهم في الجاهلية قرب يثرب (المدينة) ثم رحلوا الى اليمامة ومنها الى الجزيرة الفراتية واستقروا قرب حلب . وقد برز بنو مرداس على مسرح السياسة في بلاد الشام منذ عهد الاخشيديين عندما قلد محمد بن طفج . زعيمهم احمد بن سعيد الكلابي امر حلب . فاستدعى هذا انصاره واقرباءه . فازداد الكلابيون عدداً في المنطقة وازداد نفوذهم فيها بعد(٣).

---

(١) مسكويه تجارب الامم ٦ : ٤٠١ ـ ٤٠٢

(٢) ابو شجاع ذيل تجارب الامم ٣ : ٢٢٦

ابن بدران تهذيب تاريخ ابن عساكر ص ٤٠

(٣) القلقشندي نهاية الارب ص ٤٠١

ونظراً لتزايد نفوذ هذه القبيلة العربية في بلاد الشام ، فقد حاول الفاطميون الاستعانة بهم لتثبيت نفوذهم في هذه البلاد . وسيطر بنو كلاب في مطلع القرن الخامس الهجري على شمال الشام لما بدأ نفوذ الحمدانيين بالضعف ، واستطاع زعيمهم صالح بن مرداس ان يوقع الهزيمة بالحمدانيين ويقيم دولته في حلب سنة ٤١٤ هـ ، لكن هذه الدولة تعرضت لضغط متزايد من قبل البيزنطيين والفاطميين المتنازعين للسيطرة على بلاد الشام وما زال الامر على ذلك حتى زال حكمهم من حلب سنة ٤٧١ هـ / ١٠٧٨ م(١) وغدت بلاد الشام من الضعف والانقسام ماهيأ الظروف لنجاح الغزو الصليبي .

٢ ـ اهميتها الحضارية :

لاشك ان الهجرات المتعاقبة من الجزيرة العربية الى بلاد الشام ادت الى ازدهار الحضارة فيها ، ذلك ان هذه الاقوام كانت قد تركت حياة البداوة واستقرت تدريجياً في المناطق الجديدة واختلطت بسكانها الاصليين فحصل الامتزاج الحضاري والاحتكاك الاجتماعي ، الذي ادى بالضرورة الى الازدهار والتقدم الذي طغى عليه الطابع الاصلي لهذه الاقوام التي خرجت من الجزيرة العربية ، والواقع ، فأنه يمكن القول ، بأن ازهى العصور الحضارية في بلاد الشام والعراق ، هي تلك التي حصلت في اعقاب الهجرات العربية القديمة الى هذه البلاد ، ثم كانت الموجة الاسلامية التي حملت معها بذور الحضارة العربية الاصيلة في ظل دولة العرب ، والتي آتت أُكلها ونضجها العظيم في العصر العباسي الزاهر .

ولقد امتلكت بلاد الشام تراثاً حضارياً متميزاً سبق العصر الاسلامي مازالت بقايا اثاره قائمة حتى اليوم خاصة اثار مملكة الانباط ودولة تدمر ، والغساسنة والتي تعتبر من اهم الاثار القديمة(٢) وقد تعززت مكانة هذه الحضارة وتقدمت في العصر الاسلامي ، وخاصة عندما اصبحت دمشق (الشام) عاصمة الدولة العربية الاسلامية طيلة العصر الاموي ، واصبحت هذه الديار من بين مراكز النشاط الحضاري والعمراني والفني والادبي ، الى جانب المراكز الاسلامية الكثيرة الاخرى(٣).

اما في العصر العباسي وقد زال النفوذ العربي من هذه الدولة فقد اصاب بلاد

---

(١) ابن العديم ، تاريخ حلب ، ١ / ٢٢٧
المسعودي ، مروج الذهب ، ٢ / ٤٤
(٢) حتي ، تاريخ العرب ، ١ / ٨٨ و ١٠٢ .
(٣) المرجع السابق ، ١ / ٣٣٤ ـ ٣٣٦ .

الشام بعض التأخر في الجانب الحضاري . خاصة وقد اصبحت هذه البلاد مركز للنزاعات السياسية بين القوى الكبرى في المنطقة وهي الخلافة العباسية في بغداد والمتغلبين عليها من ناحية والخلافة الفاطمية في مصر من ناحية ثانية الى جانب الاطماع البيزنطية التي سبقت الغزو الصليبي . وقد سيطر الجانب السياسي العسكري على مجريات الامور فيها . فنشأت في ظل هذه الظروف الامارات والدويلات العربية المختلفة . وهي رغم اهتمام بعض امرائها وزعمائها بالحياة الفكرية والادبية والعمرانية وخاصة بني حمدان الا انها كانت منشغلة بنزاعاتها الداخلية . فيما بينها من جهة وبينها وبين قوى النفوذ الكبرى في المنطقة من جهة اخرى الامر الذي ادى الى ضعف النشاط الحضاري فيها في هذه الفترة التي سبقت الغزو الصليبي .

٣ ـ تفككها السياسي :

كانت منطقة الشام قبيل الغزو الصليبي تعيش حالة من التعقيد الذي اكتنف وضعها السياسي والاقتصادي والديني . فقد كانت تحكمها قوى مختلفة وكثيراً ماكانت المنازعات الداخلية سمة ذلك الاختلاف في الوقت الذي كانت فيه قوى الصليبيين تنتهز الفرص الملائمة لتوقع بالخصم . ومن ثم لتؤسس لها ملكاً على انقاض ذلك البنيان

فقد كانت الخلافة العباسية في بغداد تريد الحفاظ على الشام كجزء من ممتلكاتها . اما مصر فقد خضعت طويلاً لحكم الطولونيين ومن بعدهم لحكم الاخشيديين حتى اصبحت مصر تابعة للنفوذ الفاطمي . وكل هذه الدويلات التي حكمت مصر كانت تسعى جاهدة لضم بلاد الشام لحكمها لانها كانت ترى فيه امتداداً طبيعياً لمصر وقاعدة عسكرية يستطيعون بها ان يؤمنوا حدود مصر الشرقية ضد الروم والعباسيين(٢).

ومن ناحية ثانية فقد كان يسكن منطقة الشام العديد من القوى التي كانت تسعى هي الاخرى للاستقلال بالبلاد بعيداً عن نفوذ الخلافة العباسية او اي نفوذ متغلب على مصر . وكثيراً ماكان النزاع يدب بينها ومن تلك القوى : اتباع الفاطميين والقبائل العربية المحلية والامراء والقادة العسكريين من السلاجقة والاتراك . بالاضافة الى الهيئة العامة من السكان(٣).

---

(١) انظر : دريد عبد القادر . سياسة صلاح الدين الايوبي (بغداد : ١٩٧٦) . ص ٤٩ ـ ٤٩

(٢) محمد حمدي المناوي . الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي (القاهرة : ١٩٧٠) . ص ١٨٧ .

(٣) انظر : هامتلوب جب . صلاح الدين الايوبي (بيروت : ١٩٧٣) ص ٤٥ ـ ٦٠ .

اما الصليبيون فقد توجهت انظارهم نحو بلاد الشام لكسب مغانم دينية وسياسية واقتصادية فقد وجد الغزاة في بلاد الشام الغنى والجمال الذي يحقق للكثيرين من الفقراء والاقطاعيين مغانم كثيرة( ). في حين هدف البعض السيطرة على بعض مدن الشام كانطاكية مثلاً لتأمين الطريق التجاري المهم الذي يربط الدول الاوربية بالعالم الشرقي . هذا بالاضافة الى ان بلاد الشام تقع فيها الارض المقدسة التي رأى فيها النصارى مولد السيد المسيح ومنبع النصرانية ولذلك توجهت انظارهم الى بلاد الشام لاسباب دينية هدفت تخليص الارض المقدسة من ايدي المسلمين على حد زعمهم .

وعلى العموم فقد كانت بلاد الشام محل اطماع المتغلبين على الامور في ولاية مصر . لكن نفوذ هؤلاء المتغلبين لم يستقر فيها . بسبب تعرضها للخطر من قبل القوى السياسية المختلفة داخل المنطقة وخارجها . وخاصة امراء القبائل العربية في بلاد الشام ذاتها الى جانب المتغلبين على دار الخلافة العباسية في بغداد من امراء الجيش وقادته . وكانت الخلافة العباسية تجهز الحملات العسكرية ضد حكام بلاد الشام وتهدد نفوذها باستمرار( ).

فقد تعرضت بلاد الشام مثلاً لاطماع الحمدانيين الذين اسسوا دولتهم في الموصل وهددوا نفوذ الاخشيديين في هذه الديار وخاصة بعد ان اقاموا دولتهم في حلب سنة ٣٣٣ هـ / ٩١٤ م . كما تعرضت هذه البلاد ايضاً لغارات قرامطة البحرين في عهد اميرهم احمد بن ابي سعيد وذلك سنة ٣٥٣ هـ / ٣٥٧ هـ / ٩٦٧ م وعجز الاخشيديون عن صدهم . وسقطت الرملة بايديهم وبذلك امتد نفوذ قرامطة البحرين الى بلاد الشام في اواخر حكم الاخشيديين( ).

ومما تقدم يتضح اضطراب الاحوال السياسية في بلاد الشام في اواخر حكم الاخشيديين . الامر الذي ادى الى نجاح دعاة الفاطميين باخذ البيعة للمعز الفاطمي في هذه البلاد . وهو مازال في المغرب( ).

ولما استقر الفاطميون في مصر . واتخذوا القاهرة عاصمة لدولتهم . دعتهم الضرورة السياسية والحربية . لان يتجهوا نحو بلاد الشام بهدف اتخاذ هذه المنطقة مجالاً لنشر الدعوة الفاطمية فيها وما وراءها . وخاصة بلاد الحجاز والمشرق . الى جانب العمل على تقويض دعائم الخلافة العباسية وانتزاع زعامة العالم الاسلامي منها . فضلاً

( ) (4) Look: Champdor. Saladin Lepius pur burheros de Islam. P. 28.

( ) الكندي . الولاة والقضاة . ٢٩٢ .

سيدة كاشف . مصر في عصر الاخشيدين : ٨٦ .

( ) المقريزي . الخطط : ٢ / ٤٢

عن رغبة الفاطميين في تأمين حدود دولتهم بمصر والمغرب من ناحية الخلافة العباسية . وليتمكنوا من الوقوف بوجه القرامطة والروم الذين اصبحوا خطراً كبيراً على دولتهم(١).

لم ينجح الفاطميون في بسط سلطانهم على جميع بلاد الشام رغم استيلاء قائدهم جعفر بن فلاح على دمشق سنة ٣٥٩ / ٩٦٩. م ونجاحه في القضاء على الفتن والاضطرابات هناك . فقد بقي الجزء الشمالي من بلاد الشام حيث يقيم الحمدانيون دولتهم في حلب . خارجاً عن نفوذهم . لكن الحمدانيين لم يتمكنوا من الوقوف بوجه الفاطميين في بلاد الشام بسبب ضعف دولتهم واختلاف ارائهم على السلطة فيها .(٢)

كذلك واجه الفاطميون في بلاد الشام خطر قرامطة البحرين . والذي يعتبر من اشد الاخطار التي هددت حكمهم في هذه الديار . وكان القرامطة يهدفون الى بسط سلطانهم على جميع بلاد الشام(٢).

وكان النزاع بين قرامطة البحرين والفاطميين . قد بدأ منذ ان نجح الجيش الفاطمي بقيادة جعفر بن ابي فلاح من الاستيلاء على دمشق سنة ٣٥٩ هـ وامتناع الفاطميين عن اداء الجزية لهم والتي كان يدفعها الاخشيديون لهم عن بلاد الشام وقدرها ثلاث مائة الف دينار سنوياً(٣). وبذلك استقلت بلاد الشام عن نفوذ القرامطة لتقع بيد الفاطميين .

ونتيجة لذلك اتجه امير القرامطة الحسن بن احمد الى الخلافة العباسية والبويهية في العراق يطلب منهم العون والمساعدة . ضد الفاطميين . فاجاب امير البويهيين طلبه . وامده بالمال والسلاح . في حين امتنع الخليفة العباسي المطيع عن اجابة طلبه . وقد طلب امير البويهيين عز الدولة بختيار الى الحمدانيين بالموصل امداد زعيم القرامطة بالاموال ايضاً . فسار القرامطة الى بلاد الشام . واوقعوا الهزيمة بجيش الفاطميين واستولوا على دمشق . واعادوا الخطبة للعباسيين بدل الفاطميين على منابرها . واصبحت معظم بلاد الشام في ايدي القرامطة . وقضوا على مابقي للفاطميين من سلطان في هذه البلاد بعد ان اقاموا الخطبة فيها للعباسيين(٤).

لم يكتف الحسن بن احمد القرمطي . بالاستيلاء على معظم بلاد الشام من

---

(١) خاشع المعاضيدي . الحياة السياسية في بلاد الشام : ٣٢ .

(٢) ابن ظافر . الدول المنقطعة : ٢٥ .

(٣) خاشع المعاضيدي . الحياة والسياسة في بلاد الشام : ٣٣ .

(٤) ابن القلانسي . ذيل تاريخ دمشق : ١ .

الفاطميين . بل عزم على المسير من الرملة الى مصر بجيش ضم عدداً كبيراً من بقايا الاخشيديين في بلاد الشام وكثيراً من العرب وخاصة بني الجراح بفلسطين ، فهاجموا مدينة القلزم (السويس) المصرية . واسروا واليها الفاطمي . ثم واصلوا الزحف نحو مصر حتى نزلوا في عين شمس على اطراف القاهرة(١).

لكن القرامطة انهزموا امام الجيش الفاطمي وانسحبوا الى بلاد الشام فنزلوا الرملة ومنها الى يافا ثم تقهقروا وعادوا الى بلادهم في البحرين الامر الذي مكن الفاطميين من استعادة سلطانهم على بلاد الشام مرة اخرى سنة ٣٦١ هـ / ٩٧١ م .

غير ان الاحوال السياسية لم تستقر للفاطميين في بلاد الشام . فقد قامت الفتنة من جديد . بين اهالي دمشق وجند الفاطميين المغاربة . وعمت الفوضى والاضطرابات البلاد . وخاصة في اواخر عهد المعز لدين الله الفاطمي . مما تسبب في اضعاف النفوذ الفاطمي في هذه المدينة . ومهد السبيل امام طامع جديد . هو القائد التركي افتكين الذي تولى رئاسة الترك في بغداد . واتجه بعدد قليل من جنده الى دمشق . وبذلك واجه الفاطميون عنصراً في بلاد الشام . لعب دوراً كبيراً في مناهضة نفوذهم بتلك الديار(٢) .

طمع افتكين في بسط سلطانه على معظم مدن الشام . بعد استولى على دمشق سنة ٣٦٤ هـ ـ ٩٧٤ م . فسار الى بعلبك واخذها من الفاطميين . لكن الخليفة الفاطمي العزيز بالله الذي آلت اليه الخلافة سنة ٣٦٥ هـ / ٩٧٥ م . وجه اهتمامه الى استعادة نفوذ الفاطميين في هذه البلاد . فراسل افتكين في الموادعة والمصالحة . فلم ينجح . فسير القائد جوهر الصقلي على راس جيش كبير الى دمشق واشتبك مع قوات افتكين . فلما اشتد الحصار على افتكين . راسل القرامطة في البحرين . فاستجابوا لطلبه . وساروا بقواتهم نحو الشام . مما اضطر جيش الفاطميين الى الانسحاب . ولما رأى جوهر عدم قدرته على مقاومة الفريقين . عرض الصلح فتم له مااراد . وعاد الى مصر . وابلغ الخليفة الفاطمي حقيقة الامر في بلاد الشام . وما اصاب سلطان الفاطميين فيها من ضعف وانحلال . فسار الخليفة الفاطمي بنفسه على رأس جيش كبير . لاستعادة نفوذه هناك . ونجح الخليفة الفاطمي . في القضاء على

---

(١) المقريزي . اتعاظ الحنفا : ١٧٩ ـ ١٨١ .

(٢) ابو شجاع . ذيل تجارب الامم : ٣٣٤ .

ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق : ١١ .

حركة افتكين التركي في بلاد الشام . كما نجح في ازالة نفوذ القرامطة في هذه البلاد ايضاً . ولذلك استعاد نفوذه فيها(١).

كما ناوأ امراء العرب بالشام سلطان الفاطميين . فقد عمل بنو الجراح بفلسطين ـ وهم اسرة عربية من قبيلة طي اليمانية ـ على الوقوف بوجه النفوذ الفاطمي خصوصاً . وبلاد الشام بوجه عام . وتحالف زعيمهم حسان ابن المفرج بن الجراح مع القرامطة الذين هاجموا مصر سنة ٣٦١ هـ / ٩٧١ م . كما اشترك بنو الجراح مرة اخرى مع القرامطة عندما هاجموا الفاطميين بمصر سنة ٣٦٣ هـ / ٩٧٣ م ثانية(١).

لكن الفاطميين ادركوا اهمية هذه القبيلة العربية فاستمالوها الى جانبهم لمواجهة خطر القرامطة في بلاد الشام. ونجحوا في ذلك. عندما اعلن زعيم بني الجراح الدخول في طاعة الفاطميين دون الدخول في مذهبهم غير ان عدم استقرار الامور في بلاد الشام لصالح الفاطميين . دفع بني الجراح للعمل على الاستقلال في فلسطين. واثبات شخصيتهم المستقلة . واعترف لهم الخليفة الفاطمي بالزعامة عل القبائل العربية هناك . فقويت شوكتهم على سائر العرب بفلسطين . وكثر حسادهم في البلاد. فعمد الفاطميون على اقصائهم . وذلك سنة ٣٧٠ هـ / ٩٨٠ م ثم نشط بنو الجراح مرة اخرى في هذه البلاد في اواخر القرن الرابع الهجري . فحاولوا تكوين دولة مستقلة لهم بفلسطين بعيداً عن الخلافة الفاطمة . فاستولى زعيمهم مفرج ابن دغفل على الرملة سنة ٣٩٨ هـ / ١٠٠٧ م ثم سار الى عسقلان. لكن الفاطميين تمكنوا من ارسال حملة الى فلسطين تمكنت من استعادتها . بعد ان اخضعت ثوارها بني الجراح . ثم عادت الفتنة ثانية بفلسطين سنة ٤٠٠ / ١٠٠٩ م . عندما تمرد بنو الجراح مرة اخرى وبايعوا امير مكة ابا الفتوح الحسن بن جعفر بالخلافة سنة ٤٠١ هـ / ١٠١٠ م . لكن الفاطميين تمكنوا من القضاء على هذه الحركة . ومع ذلك، فقد ظل بنو الجراح متغلبين على فلسطين حتى سنة ٤٠٤ هـ / ١٠١٣ م وظلوا يشكلون خطراً كبيراً على النفوذ الفاطمي في بلاد الشام . حتى سنة ٤٢٢ هـ / ١٠٣٠ م حيث زال نفوذهم من هذه البلاد(٣).

---

(١) ابن القلانسي : ١٦ . ١٨ . ٢٠ .
ابن خلدون . العبر : ٤ / ١٠٨ .

(٢) ابن بدران . تهذيب تاريخ ابن عساكة : ٣٤ .
النويري . نهاية الارب : ١٨ / ٧٦ .

(٣) مسكويه . تجارب الامم . : ٤٠٢
امينة البيطار . امراء الدين بالشام . : ٦٦

اما الحمدانيون فقد شكلوا في حلب قوة جديدة . وقفت بوجه النفوذ الفاطمي على شمال بلاد الشام . وذلك منذ اقام سيف الدولة الحمداني دولته في حلب . لكن الحمدانيين لم يكونوا من القوة ، بحيث يستطيعون صد نفوذ الفاطميين كلياً من هذه البلاد . وخاصة بعد وفاة سيف الدولة سنة ٣٥٦ هـ / ٩٦٦ م . وما تبع ذلك من اضعاف مكانة هذه الدولة وسقوطها فيما بعد تحت الضغط الفاطمي المتزايد(١) .

وكان الحمدانيون عندما تتعرض بلادهم لهجمات الروم . يضطرون الى اعلان تأييدهم للفاطميين ويخطبون لهم على منابرهم . كما حدث سنة ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م لكنهم لم يلبثوا ان يخرجوا عن الطاعة . ويعيدوا الخطبة للعباسيين على منابرهم في حلب . ومع ذلك فقد نجح العزيز بالله الفاطمي في استعادة نفوذه على حلب سنة ٣٨٢ هـ / ٩٩٢ م غير انه لما علم بقدوم الروم الى بلاد الشام . وعجز قواده وولاته في هذه البلاد عن صدهم وعدم قدرتهم الاستيلاء على حلب من الحمدانيين . امر بتجهيز حملة برية خرج بنفسه على رأسها . واخرى بحرية الى بلاد الشام وذلك سنة ٣٨٦ هـ / ٩٩٦ م . لكنه مرض وتوفي في بلبيس . وما زال الامر على ذلك من الفوضى والاضطراب في هذه البلاد حتى سنة ٤٠٢ هـ / ١٠١١ م . حيث امتد نفوذ الفاطميين الى حلب ، وتمهد السبيل للقضاء على نفوذ الحمدانيين فيها(٢) وقد ظل قواد الفاطميين يتناوبون الحكم في حلب بعد ان تم لهم القضاء على الحمدانيين بشكل نهائي .

هذا وقد شكل بنو مرداس في حلب بوجه النفوذ الفاطمي عقبة جديدة بعد الحمدانيين في شمال بلاد الشام . وبنو مرداس . قبيلة عربية بني كلاب . كانت مساكنهم الاصلية قرب يثرب ، رحلوا منها الى اليمامة . ثم اتجهوا بعد الاسلام الى مشارق الشام والعراق . واستقروا في الجزيرة الفراتية وظهروا على مسرح السياسة سنة ٤٠٠ هـ / ١٠٠٩ م . عندما اتجهت اطماع قائدهم صالح بن مرداس الى حلب(٣) .

فلما تداعت الامور في الجزيرة الفراتية وشمال الشام ، من جراء ضعف نفوذ الحمدانيين ، وعدم قدرة الفاطميين على بسط سيادتهم على هذه البلاد تطلعت بعض العناصر العربية للاستيلاء على تلك النواحي . فاستولى بنو عقيل على الموصل والجزيرة واستولى صالح بن مرداس الكلابي على حلب سنة ٤١٥ هـ / ١٠٢٤ م من ولاتها الفاطميين وتحالف مع بني الجراح والكلابيين على اقتسام الشام وعقدوا حلفاً

---

(١) خاشع المعاضيدي . الحياة السياسية في بلاد الشام : ٦٢ .

(٢) ابن خلدون . العبر : ٤ / ٥٤٤ ؛
حسن ابراهيم حسن . الدولة الفاطمية / ٢٣٦ .

(٣) ابن الاثير ــ الكامل : ٩ / ٢١٠ ــ ٢١١ ؛
ابن خلدون ــ العبر : ٤ / ٥٨٠ .

لذلك فلما بلغ امرهم الى الخليفة الفاطمي الظاهر ، الذي احس بالخطر على سلطان الفاطميين في بلاد الشام ، ارسل جيشاً كبيراً للقضاء عليهم والتقى الجانبان بموقع يعرف (الاقحوانة) على مقربة من طبرية ، فاوقع الفاطميون بهم الهزيمة وذلك سنة ٤٢٠ هـ / ١٠٢٩ م ، استعادوا نفوذهم في هذه البلاد(١).

غير ان الاحوال السياسية اضطربت كثيراً في حلب وشمال بلاد الشام من جراء استمرار المنازعات بين بني مرداس وولاة الفاطميين هناك . وما زال الامر على ذلك ، حتى تعرضت البلاد الى غزو السلاجقة بعد ان استقر لهم السلطان على الخلافة العباسية في بغداد ، فأعلن محمود بن نصر ابن مرداس الطاعة والخطبة للخليفة العباسي وللسلطان السلجوقي وبذلك دخل عنصر جديد في بلاد الشام لمواجهة النفوذ الفاطمي فيها والعمل على اقتسامها واضعافها امام الغزو الصليبي الجديد .

وجه سلاجقة العراق اهتمامهم الى استعادة مافقدته الخلافة العباسية من البلاد . فاتجهت انظارهم الى بلاد الشام حيث اضطربت الامور فيها . وخاصة حلب وفلسطين في عهد بني مرداس وبني الجراح وسير السلاجقة العساكر الى هذه الديار سنة ٤٦٣ هـ / ١٠٧٠ م حتى اضطر امير حلب ابن مرداس الى اعلان الولاء والطاعة للسلاجقة والخلافة العباسية وبذلك ازداد نفوذ السلاجقة في هذه البلاد(٢).

واصل السلاجقة سياستهم الرامية الى الاستيلاء على بلاد الشام وانتزاعها من ايدي الفاطميين . فعهد السلطان ملك شاه سنة ٤٦٥ هـ / ١٠٧٢ الى قائده اتسز بن أبق الخوارزمي بالمسير اليها . ففتح الرملة وحاصر القدس واستولى عليها وعلى ماجاورها من البلاد . عدا عسقلان ثم قصد دمشق فحاصرها(٣). ثم عاود السلاجقة حصارها . فاستسلمت لهم بالامان سنة ٤٨٨ هـ / ١٠٧٥ م واقيمت الخطبة فيها للعباسيين بعد ان كانت للفاطميين .

لم يكتف قائد السلاجقة اتسز بالاستيلاء على بلاد الشام من الفاطميين بل سار قاصداً الاراضي المصرية سنة ٤٦٩ هـ / ١٠٧٦ م عن طريق ساحل الشام . وتوغل في البلاد حتى وصل الدلتا . فاستعد امير الجيوش بدر الجمالي للدفاع عن القاهرة

---

(١) ابن القلانسي . : ٧٢ ـ ٧٤ ؛
ابن العديم . تاريخ حلب : ١ / ٢٣٨ ـ ٢٣٩ .

(٢) ابن القلانسي : ٩٨ .
ابن العديم : ٢ / ٢٣ .

(٣) خاشع المعاضيدي . الحياة السياسة فى بلاد الشام : ٨٩ .

وخرج بعسكره للقاء جيش السلاجقة ، فاوقع بهم الهزيمة ، واعلنت بعض المدن الرئيسة في بلاد الشام ولاءها من جديد للفاطميين .

على ان الاحوال السياسية في بلاد الشام ازدادت سوءاً ، فقد تنازع عليها كل من السلاجقة والفاطميين ، كما استقل باجزاء منها بعض امراء العرب من بني عقيل وبني مرداس وغيرهم ، فضلاً عن الهجمات المستمرة من قبل الروم على هذه البلاد وتزايد اطماعهم فيها وجميع هذه القوى الخارجية والداخلية كانت تعمل على اضعاف قوى خصمها الامر الذي اضعف قواهم جميعاً وجعلهم عاجزين عن الدفاع عنها ضد الصليبيين . فلم يتمكن الفاطميون من الاحتفاظ بنفوذهم على مدن الساحل السوري ، بسبب تطلع السلاجقة الى بسط سلطانهم عليها . كما لم يستطع السلاجقة من الاحتفاظ بنفوذهم على الجزء الداخلي والشمالي من هذه البلاد ، بسبب تعرضها لاضطرابات الامراء العرب المحليين الى جانب تهديد الروم(١).

وقد ازدادت احوال بلاد الشام سوءاً واضطراباً ، بعد فصل تاج الدولة تتش السلجوقي في سنة ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م حيث استبد السلطان بركياروق السلجوقي في حكمه للعراق والمشرق ، بينما اقتسم رضوان ودقاق ابناتتش ، بلاد الشام ، فاستقل رضوان بامارة حلب ، وانفرد دقاق بدمشق . ومع ذلك فلم يكن الاخوان علـى وفاق ، الامر الذي ادى الى زرع بذور الفرقة والشقاق في هذه البلاد(٢).

وصفوة القول ، فانه يمكن اعتبار مقتل تاج الدولة تتش السلجوقي سنة ٤٨٨ هـ . في الحرب التي دارت بينه وبين ابن اخيه بركياروق ، بداية فعلية ، لنهاية نفوذ السلاجقة في بلاد الشام ، فقد ضعف قوامهم فيها ، واختلفوا على انفسهم ، وتنازعوا ، وغلب على امرهم الاتابكة والامراء ، فضلاً عن أستمرار النزاع بينهم وبين الفاطميين الذين مازالوا يعملون من اجل الاستيلاء على دمشق واستعادة نفوذهم في عموم بلاد الشام ، الامر الذي ادى الى عدم استقرار الامور في هذه البلاد وضعف الجبهة الاسلامية فيها ومهد السبيل امام الغزو الصليبي لبلاد الشام(٣).

---

(١) ابن الاثير ، ١٠ / ٢٠ .
ابو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ٥ / ١٢٥ .
(٢) الراوندي ، راحة الصدور / ٢٢٠ .
الفارقي ، تاريخه ، ٢٤٤ ـ ٢٤٥ .
(٣) انظر ابن ميسر ، اخبار مصر / ٣٧ ـ ٣٨ .
خاشع المعاضيدي ، الاحوال السياسية في بلاد الشام / ١٠٧

الفصل الثاني

(الغزوة الصليبية الاولى على بلاد الشام)

اولاً ــ دوافع الاوربيين للقيام بالغزو

اختلف المؤرخون في تعريف الغزو الصليبي او الحروب الصليبية . وتحديد بدايتها . فمنهم من يرى انها حلقة من حلقات الصراع التقليدي القديم بين الشرق والغرب . منذ عهد الفرس واليونان . ولم يكن الدافع وراء ذلك الصراع . سبب ديني بقدر ماهو دافع حضاري واعتبار ذلك صراع بين حضارتين مختلفتين . شرقية وغربية . بينما يرى آخرون . ان الغزو الصليبي الى المشرق العربي . يشكل الحلقة الاخيرة في سلسلة الهجرات الكبرى التي صحبت سقوط الامبراطورية الرومانية الغربية . في حين يرى فريق ثالث ان الحركة الصليبية . ليس الا انطلاقة كبرى نتجت عن عملية الاحياء الديني التي بدأت في غرب اوربا في القرن العاشر الميلادي . والتي بلغت اشدها في القرن الحادي عشر . ويرى هذا الفريق ان الغزو الصليبي الذي بدأت الدعوة له سنة ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م ليس الا استمرار لحركة الحج الجماعي الى بيت المقدس . مع حدوث تطور في الاسلوب . وهو ان الحج الجماعي . صار حربياً بعد ان كان سياسياً ويرى فريق رابع ان الغزو الصليبي للوطن العربي . هو الوسيلة التي حاولت بها اوربا ان تتخلص من اوضاع العصور الوسطى السيئة . والانطلاق الى حياة اوسع افقاً(١).

وعلى هذا الاساس فانه يمكن القول . بأن الغزو الصليبي . عبارة عن حركة كبرى ظهرت في الغرب الاوربي في العصور الوسطى وقد اتخذت طابع الهجوم الحربي على بلاد المسلمين . وخاصة بلاد الشام . بقصد امتلاكها وقد ظهرت هذه الحركة . من طبيعة الاوضاع الفكرية والاقتصادية والدينية التي سادت غرب اوربا في القرن الحادي عشر . واتخذت من استغاثة نصارى الشرق بالاوربيين ضد المسلمين . ستاراً دينياً . لتعبر عن نفسها تعبيراً علنياً واسع النطاق(١).

---

(١) سعيد عاشور . الحركة الصليبية : ١ / ٢١ ــ ٢٤ .
جمال الدين الالوسي . اسامة بن منقذ ص ٢٠

(١) سعيد عاشور . الحركة الصليبية . ١ / ٢٥ .

وكان قد ساد المجتمع الاسلامي في الفترة التي سبقت الغزو الصليبي في اواخر القرن الخامس الهجري ـ كما اشرنا من قبل ـ اضطرابات داخلية وانقسامات كثيرة ، ففي المشرق خلافة عباسية مركزها بغداد ، تخضع لسيطرة السلاجقة ، كما تدهور نفوذ السلاجقة العباسيين في بلاد الشام من جراء استمرار النزاع بين نوابهم هناك وفي المغرب خلافة فاطمية متداعية مركزها القاهرة . واصبحت بلاد الشام يتجاذبها السلاجقة والفاطميون ، الامر الذي اتاح الفرصة للامراء المحليين بالشام والجزيرة الفراتية لان يستقل كا منهم بما تحت يديه من البلاد ، والعمل على توسيع نفوذه على حساب الآخرين ، وتوزعت بلاد الشام من جراء تلك الاضطرابات ، الى امارات عديدة ، تركزت حول الموصل وانطاكية والرها وحلب ودمشق وطرابلس وبيت المقدس وشيزر ، وغيرها من الامارات التي لم تكن لها حدود ثابتة ، لايجمع بينها ولاء لاي من الخلافتين الفاطمية والعباسية .

اما الحياة السياسية في اوربا فكانت هي الاخرى تمر بمرحلة مضطربة اختلفت فيها اطماع الملوك والامراء والاقطاعيين والحكام ، وتنافست خلالها السلطات الدينية والدنيوية على السيادة والنفوذ وتدهورت الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية تدهوراً كبيراً ، وفي وسط هذه الظروف التي عاشها المشرق الاسلامي من الضعف والانقسام ، والغرب المسيحي من التدهور والاضطراب ، اندلعت نيران الغزو الصليبي ، وزحفت جيوشهم الى بلاد الشام ، تباعاً من اجل الاستيلاء على بيت المقدس واقامة الامارات الصليبية في هذه البلاد(١).

وعلى العموم فقد شهدت العصور الوسطى حركة من اخطر الحركات في تاريخ الانسانية ، لما تمخضت عنه من نتائج فعالة في ميادين السياسة والاقتصاد والحياة العامة ذلك الصراع الطويل الذي شمل الناس في الشرق والغرب على حد سواء ، وتلك هي الحركة او الغزو الصليبي الذي كان هدفه الظاهر ، تخليص بيت المقدس من ايدي المسلمين ، وتهيئة جو مسيحي خالص للحجاج النصارى في زيارتهم للاماكن المقدسة في فلسطين(٢).

وخلاصة القول فانه يمكن اجمال دوافع الغزو الصليبي الذي قامت به اوربا المسيحية على الشرق الاسلامي بما يأتي(٣): ـ

---

(١) ابو شامة . كتاب الروضتين : ١ / ١ ـ ٢
جمال الدين الالوسي . اسامة بن منقذ / ٢١ .

(٢) حسن حبشي . الحرب الصليبية الاولى / د .

(٣) سعيد عاشور . الحركة الصليبية : ١ / ٢٧ ـ ٤٣
بروكلمان . تاريخ الشعوب الاسلامية . ٣٤٥ .

١) الدافع الديني

ينظر اكثر المؤرخين القدامى ، الى الغزو الصليبي من زاوية واحدة ، هي زاوية الدين ، وعالجوها في ضوء ذلك . وقد تجاهلوا الدوافع الاساسية الاخرى السياسية والاقتصادية والاجتماعية والحضارية لهذا الغزو .

لاشك ان الغزو الصليبي في ظاهره ، وفي طريقة الدعوة له اعطى للصفة الدينية ، دوراً بارزاً فيها ، على ان التيار الديني ، ليس هو القوة الفعالة والوحيدة لهذا الغزو ، فقد ضعف الدافع الديني في كثير من الحالات اثناء الغزو ، وذاب وسط التيارات السياسية والاقتصادية والاجتماعية في المجتمع الجديد .

ان اعطاء الدافع الديني دوره الصحيح في الغزو الصليبي ، يتطلب التعرف على اوضاع اوربا في العصور الوسطى وما اصابها من تطورات حتى اواخر القرن الحادي عشر الميلادي ، دون الانزلاق في تصوير احوال النصارى في البلاد الاسلامية ، بأنها سيئة ، وانهم يتعرضون لاضطهادات وحشية من قبل الحكام المسلمين ، ان هذا الاتجاه لمعالجة الدافع الديني في الغزو الصليبي اتجاه غير صحيح ذلك لأن هذا الادعاء باضطهاد النصارى في البلاد الاسلامية لا ينسجم وروح الاسلام وطبيعة الدعوة اليه ، خاصة وان القرآن الكريم شمل اهل الكتاب برعاية واضحة ، ومما يؤكد هذا الاتجاه ، تلك الحياة الهادئة التي عاشها اهل الذمة عامة في ظل الدولة العربية الاسلامية منذ قيامها على يد الرسول الكريم محمد (ص) وحتى سقوط بغداد بايدي المغول سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م . فقد سمح لهم خلالها بتشييد الكثير من الكنائس في جميع ارجاء الدولة الاسلامية ، دون ان يتدخل احد في شؤونهم الخاصة كما استخدم العديد منهم في اشغال مناصب ادارية كبيرة . ولو قارنا معاملة النصارى واليهود للاقوام التي عاشت او تعيش في ظل حكمهم ، بما كانوا عليه هم في ظل حكم العرب والدولة الاسلامية لبدا الامر واضحاً وجلياً .

ورغم ان كثيراً من دعاة الغزو الصليبي في غرب اوربا ، دعوا لهذا الغزو ، بحجة سوء احوال المسيحيين في تركيا وبلاد الشام الخاضعة لحكم السلاجقة . الا ان هناك عدداً من المؤرخين الاوربيين ، اشاروا بصراحة الى ان المسيحيين الذين كانوا يعيشون في ظل الدولة الاسلامية وخاصة في بلاد الشام ، كانوا احسن حالاً من المسيحيين الذين عاشوا في ظل الدولة البيزنطية نفسها . وان مااصابهم من بعض المتاعب في بلاد الشام في ذلك العصر ، يرجع الى الصراع بين السلاجقة والبيزنطيين على النفوذ وانه لا يوجد اي دليل واضح على قيام المسلمين باضطهاد المسيحيين الذين يعيشون في ظل دولتهم ..

ومع ذلك فانه لا يمكن اهمال اثر الدافع الديني في تحريك الغزو الصليبي فقد استغل رجال الدين المسيحيين ، وعلى رأسهم البابا اوربان الثاني نفسه ، فكرة الاضطهاد الخاطئة هذه ، للدعاية لغزوهم هذا .

لقد اثرت الكنيسة لما لها من سلطان ، على قلوب الناس في غرب اوربا في تلك العصور ، على الدعوة لهذه الغزوة، خاصة وقد كانت الكنيسة الغربية التي تتمثل في شخص زعيمها البابا هي التي دعت للغزو الصليبي سنة ١٠٩٥ م . وترتب على هذه الدعوة ، خروج الناس افواجاً في حملات صليبية ضخمة ومتلاحقة الى المشرق العربي ، منظمة وغير منظمة وفضلاً عن ذلك ، فان البابوية ، كانت ترغب في اخضاع الكنيسة الشرقية لزعامتها ، فعندما استنجد البيزنطينيون بالغرب المسيحي ضد السلاجقة وجد البابا فرصته الفريدة لتحقيق اطماعه في اخضاع الكنيسة الشرقية (البيزنطية) للكنيسة الغربية (روما) تحت ستار محاربة المسلمين .

اما عامة الناس فقد استجابوا لنداء البابا ، وخرجوا الى بلاد الشام ليس بسبب الدافع الديني فحسب ، انما بدافع الاستطلاع وتحقيق الاطماع الشخصية الى جانب الخلاص من حالة الفقر التي كانوا يعيشونها في اوربا في ظل نظام الاقطاع البغيض ، او الهرب من دولتهم ، وفراراً من العقوبات المفروضة على المجرمين منهم او لتحقيق مكاسب سياسية واقتصادية في البلاد الاسلامية .

على انه رغم الدوافع الكثيرة التي خرج من اجل تحقيقها الصليبيون في بلاد الشام ، فان الروايات التاريخية على اختلافها ـ تشير الى ان اوربا رفعت راية الصليب ونادت في حربها ضد المسلمين بشعار (هذه ارادة الله) وان رجال حربهم تجمعوا تحت زعامة رجال الدين الذين كانوا يثيرونهم بالخطب الحماسية ضد المسلمين(١) .

٢) الدافع الاقتصادي :

للعوامل الاقتصادية اهمية كبيرة في تحريك الكثير من الحروب والغزوات والهجرات في تاريخ البشرية ونظراً لسوء الاحوال الاقتصادية في اوربا عموماً ، وفرنسا بوجه خاص . خلال القرن الحادي عشر الميلادي فقد قلّ وجود المواد الغذائية وارتفعت اثمانها ، حتى وصل الامر ، الى حدوث مايسمى ، ازمة الحصول على الخبز لذلك اندفع الكثير من الفرنسيين للاشتراك في الغزو الصليبي اكثر من بلدان اوربا الغربية .

ان الازمة الاقتصادية التي تعرضت لها اوربا الغربية ، الجأت الناس الى اكل

---

(١) انظر دريد عبد القادر ، سياسة صلاح الدين الايوبي ، ص ٥٢ .

النباتات مباشرة وباتت اوربا مهددة بالفقر والمجاعة ولذلك اندفع الاوربيون للانخراط في هذا الغزو . ومما زاد في سوء الاحوال الاقتصادية لديهم كثرة الحروب الاهلية وتنافس الامراء والاقطاعيين على السلطة ، الامر الذي اضر بالتجارة والزراعة ، ولذلك كان الغزو الصليبي ، مخرجاً للفقراء والجياع والعاطلين من اوربا للهجرة الى الشام والخلاص من الاوضاع المعاشية السيئة التي كانوا يمرون بها في غرب اوربا .

ومما يؤكد اثر الجانب الاقتصادي في الغزو الصليبي ، ذلك النشاط الملحوظ للمدن التجارية في اوربا ، وخاصة الايطالية ، للمساهمة في حركة الغزو هذه ، وذلك من خلال نقل الصليبيين عن طريق البحر او نقل المؤن والمعدات وكافة الادوات الى الصليبيين بالشام ، الى جانب مساعدتهم في الاستيلاء على الموانيء العربية في بلاد الشام وتقديم المعونات البحرية لحمايتها من هجمات الاساطيل الاسلامية .

وقد قدمت الاساطيل التجارية للمدن الايطالية ، وخاصة البندقية وجنوه وبيزا مساعدات كبيرة لتحقيق الصلة بين الغرب الاوربي وبلاد الشام التي استولى عليها الصليبيون ، وقد حصلت هذه المدن التجارية ، مقابل خدماتها هذه على امتيازات اقتصادية وتجارية هامة في معظم موانيء الشام ومدنه الكبرى ، منها اعفاءات خاصة في الضرائب والمساعدة على انشاء الاسواق والفنادق والحمامات والمخابز الخاصة بتجار المدن الايطالية لتسهيل مهمة التجار الاجانب .

وبناء على ماتقدم ، فانه يمكن القول ، بأن الغزو الصليبي اصطبغ منذ البداية بالصبغة الاقتصادية المستقلة ، وان معظم هؤلاء الغزاة الذين اشتركوا في هذه الحركة لم يأتوا لخدمة الصليب وحرب المسلمين وانقاذ القدس ، كما يزعمون ، انما كانوا يبحثون عن الاموال ، واقامة المستعمرات والمراكز التابعة لهم في قلب الوطن العربي ، بهدف استغلال موارده والحصول على اكثر قدر ممكن من ثرواته .

ومما يؤكد التأثير الواسع ، للنزعة الاستغلالية والاقتصادية في اذهان الكثيرين ممن اسهموا في الغزو الصليبي ، مانشأ بينهم من منازعات ومخاصمات ، وحروب اهلية بين بعضهم البعض ، في بلاد الشام بحيث فشلت كافة الدعوات التي قام بها رجال الدين والبابوات لتوحيد الصليبيين المتنازعين امام خطر المسلمين ، الذين اخذوا يجمعون شملهم في المنطقة وكانت المنافسات التجارية والمعوقات المادية ، بين هؤلاء الغزاة الصليبيين اعمق واكثر اثراً ، من شعورهم بالولاء للكنيسة والدين ، الذي كانوا يزعمون انه دافعهم الرئيسي لهذا الغزو .

٣) الدافع الاجتماعي :

ساد المجتمع الاوربي في العصور الوسطى ، تمايز طبقي كبير ، فقد سادت فيه ، طبقة رجال الدين وطبقة المحاربين من النبلاء والفرسان . اما طبقة الفلاحين من الاقنان ورقيق الارض ، فقد ظلت الطبقة الكبرى والمغلوبة على امرها ويعمل افرادها لخدمة الطبقتين الاولى والثانية .

لقد عاش هؤلاء الفلاحون عيشة سيئة في ظل نظام الاقطاع . فكانت مساكنهم اكواخاً قذرة ، واثاثهم بسيطة ، وكانوا وقد ارتبطوا بالارض وراثياً يعملون لصالح اسيادهم وهم يفتقرون الى ابسط شروط الحياة ، وكانوا مثقلين بالالتزامات الخدمية لاسيادهم الاقطاعيين ، في شتى المجالات الى جانب حرمانهم من منتجاتهم ، وبذلك تظهر مدى التعاسة والبؤس الذي كان يعيشه غالبية شعب اوربا في القرن الحادي عشر الميلادي .

وهكذا لما ظهرت الدعوة للغزو الصليبي ، وجدت هذه الغالبية العظمى فرصتها للخلاص من حياتها الشاقة المليئة بالذل والهوان ، ونظروا الى اخطار الاشتراك في هذا الغزو ، نظرة هينة امام ماكانوا يعيشون فيه فان ماتوا في هذه الحرب ، كان لهم الخلاص وان نجوا ، كانت لهم حياة جديدة افضل مما كانوا عليه .

٤) الدافع السياسي :

ان نظرة عامة للفئات والطبقات التي اشتركت في الغزو الصليبي على بلاد الشام ، رغم تناقض مصالحها وتضادها ، يكشف بوضوح اثر الدوافع المختلفة ، وهي مجتمعة في هذا الغزو ، فالى جانب رجال الدين والفقراء والتجار والاقطاعيين ، اشترك عدد من ملوك وامراء وفرسان اوربا في الغزو الصليبي ، فقد شارك عدد من ملوك غرب اوربا ، مثل فردريك بربروسا ، ورتشارد قلب الاسد وفليب اغطس ، وفردريك الثاني ، ولويس التاسع ملك فرنسا ، وكان خروجهم في هذا الغزو ، بتأثير وضغط من البابوية والحاحها ، بل تهديدها لهم ، وكان هؤلاء الملوك لا يستطيعون عصيان البابا ، خوفاً من تعرضهم للحرمان والطرد من الكنيسة ورحمتها .

اما الامراء الذين اشتركوا في الغزو الصليبي ، فكان كل منهم يجري وراء اطماعه السياسية بهدف توسيع اقطاعياتهم ، خاصة وقد وجد في اوربا ، في ظل نظام الاقطاع ، عدد كبير من الامراء والفرسان بدون ارض ، وهذه هي طبيعة النظام الاقطاعي في غرب اوربا ، الذي يقضي بأن يرث الابن الاكبر الاقطاعية عن ابيه ، في حين يبقى بقية الابناء من الامراء والفرسان ، بدون ارض ، الامر الذي حمل

هؤلاء الامراء والفرسان المحرومين على الاشتراك في الغزو الصليبي الذي فتح لهم باباً لايجاد الارض . فاستجابوا بسهولة لنداء البابا واسرعوا للمساهمة في تلك الحركة ، لعلهم ينجحون في تأسيس امارات لهم في الشرق ، كما ان عدداً آخر من الامراء الذين يمتلكون الاقطاعات والاراضي في اوربا ، وجدوا الفرصة مواتية للمشاركة في هذا الغزو للحصول على شيء اهم واكبر .

ومما يؤكد اهمية الجانب السياسي في الغزو الصليبي ، عند ملوك وامراء اوربا الذين اسهموا في هذه الحركة ، الخلافات الكثيرة التي نشأت بينهم فيما بعد ، وميلهم الى اقسام الغنائم قبل وصولهم الى بلاد الشام ، وقبل تحقيق اي نصر لهم فعلاً ، كما نشأ الخلاف فيما بينهم بشكل مسلح ، منذ تمكنوا من الاستيلاء على بلاد الشام ، وخاصة حول حكم هذه الامارة او تلك ، والفوز بهذه المدينة او تلك ، كما سنرى ، ولم يكن يهمهم رضا البابا او سخطه ، بل ان بعض هؤلاء الامراء الصليبيين تحالفوا مع بعض القوى الاسلامية المجاورة لهم في بلاد الشام ، ضد اخوانهم الصليبيين ، الامر الذي يؤكد ضعف الدافع الديني عندهم ، امام مصالحهم السياسية في هذه البلاد .

٥) الدافع التاريخي :

وقد ترجع الاسباب التاريخية ، للعداء بين المسلمين والمسيحيين ، الى زمن سقوط بيت المقدس بايدي المسلمين سنة ١٥ هـ على عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب (رضي) ، وبقيت بيت المقدس بايدي المسلمين ، حتى استولى عليها الصليبيون سنة ٤٩٢ هـ .

وربما ادى سوء العلاقات بين الحاكم بامر الله الفاطمي ، وبين الدولة البيزنطية ، في اوائل القرن الخامس الهجري ، وما عرف عنه من التعصب ضد المسيحيين على خلاف طبيعة التسامح التي عرف بها الاسلام والمسلمون ازاء رعاياهم المسيحيين في ظل دولتهم . غير ان الضغط الذي تعرض له بعض النصارى في مصر اثار حدة النزاع بين الشرق والغرب .

وقد انتقل امر رعاية الاماكن المقدسة الى الامبراطور البيزنطي ، وظل ذلك الانتقال مصدر نزاع بين الكنيستين الشرقية والغربية (القسطنطينية وروما) وترتب على هذا التغيير ان اصبح قدوم الحجاج المسيحيين من الغرب عن طريق الامبراطورية البيزنطية امراً اكثر صعوبة وعسراً(١).

---

(١) ارنست باركر . الحروب الصليبية / ١٤ ــ ٢٥ ؛

حسن حبشي . الحروب الصليبية / ١٥ ــ ١٦ .

وعلى العموم فقد ادى عامل الحج الى بيت المقدس والذي لعب دوراً كبيراً في توجيه الغرب المسيحي روحياً الى بلاد الشام ، الى تكتل العالم المسيحي الغربي حربياً ضد الاسلام في الشرق . على ان هؤلاء الحجاج لاقوا عنتاً كبيراً من الدولة البيزنطية اكثر منه من المسلمين ، وذلك بسبب الشقاق المذهبي الكبير بين الكنيسة الرومانية والبيزنطية(٢).

ثانياً ـ العوامل التي يسرت الزحف الصليبي :

اذا كانت الدوافع الدينية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية والتاريخية ، قد لعبت الدور الاساسي في اندفاع الصليبيين بغزوهم للمشرق العربي ، فأن عوامل اخرى خارجية وداخلية ، يسرت هذا الزحف ومكنته من النجاح ، ويكمن اكثرها في واقع المنطقة ذاتها ، اي في بلاد الشام وآسيا الصغرى .

وفيما يلي اهم العوامل التي يسرت الزحف الصليبي :

١ ـ النورمان والارمن والمسيحيون الشرقيون :

حاول الامبراطور البيزنطي رومانوس الرابع ، ان يستعين بمجموع النورمان المرتزقة الوافدين الى بلاده من صقلية وجنوب ايطالية للوقوف بوجه السلاجقة في آسيا الصغرى ، فلما تكاثروا هناك ، تطلع احد المغامرين المغامرين منهم ويدعى (رسل باليل) وحاول الاستغلال في الجهات المحيطة لقونية وانقرة ، على حساب البيزنطيين والسلاجقة معاً ، فاضطر الامبراطور البيزنطي الى طلب مساعدة خصومه السلاجقة ضد باليل النورماني ، مما ترك ابلغ الضرر بالنفوذ البيزنطي في اسيا الصغرى في حين ثبتت اقدام السلاجقة فيها ، وخاصة بعد ان تم لهم القضاء على النورمان ، الذين تعتبر حركتهم هذه اول محاولة يقوم بها الاوربيون الغربيون لتثبيت اقدامهم في الشرق الادنى قبيل الغزو الصليبي(١).

ورغم ان نفوذ السلاجقة ، شمل معظم بلاد آسيا الصغرى الا ان القسم الجنوبي والشرقي منها ، وخاصة حول طوروس وملطية ثم الرها وانطاكية ، لم يتجهوا اليها ، الامر الذي ادى الى عزلها عن الامبراطورية البيزنطية ووقوعها بين شقي الرحى في الصراع القائم بين السلاجقة والبيزنطيين ولم تلبث هذه الاقاليم ان اصبحت مركزاً لحركة احياء ارمينية فريدة من نوعها وذات اهمية بالغة بالنسبة لتاريخ الغزو الصليبي اللاحق لانها تفسر لنا السهولة التي استطاع بها الصليبيون بعد عشرين عاماً فقط ، الوصول الى الجزيرة الفراتية وبلاد الشام ، والاستيلاء على الرها

---

(٢) (1) Rumciman: History of the Crusades, P.49

(١) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ١/ ٩٥ ـ ٩٧

وانطاكية ، خاصة وان الامبراطورية كانت قد منحت ملوك ارمينية وامرائها ، ضياعاً واسعة في هذه الديار ، مما ترتب عليه ، هجرة اعداد كبيرة من الارمن الى ذلك الاقليم مما ترتب عليه ، هجرة اعداد كبيرة من الارمن الى ذلك الاقليم في شرق آسيا الصغرى ، ولما تعرضوا لضغط السلاجقة ، الاتراك اتجهوا نحو اقليم قيليقية في جنوب شرق آسيا الصغرى الجبلي وتركزا في الجهات المحيطة بملطية والرها وانطاكية(١).

ولاشك ، فقد ادت الهجرة الارمنية الى هذه المنطقة الى تغيير واقعها البشري والديني ، اضافة الى استخدامهم من قبل الامبراطورية البيزنطية ـ رغم عدائها التقليدي ـ ضد اعدائها السلاجقة ، كما اصبحوا فيما بعد ركيزة لمساعدة الصليبيين في المنطقة .

ولما وجد النصارى في انطاكية والرها وغيرها من المدن والاقاليم الشرقية التابعة للامبراطورية البيزنطية ، انفسهم وسط محيط واسع من الاتراك السلاجقة ، وانقطع الطريق بينهم وبين الامبراطورية البيزنطية ، وتعذر وصول النجدات لهم اضطروا الى تكوين امارات صغيرة ، مستقلة تحت زعامة الارمن وقيادتهم ، وهكذا وضع البيزنطيون اساس دولة ارمنية جديدة في جنوب شرق اسيا الصغرى ، واقاموا علاقات طيبة مع إمرائها ، على ان هذه الامارة ، لم تلبث ان سقطت بايدي السلاجقة في عهد سليمان بن قتلمش الذي استولى على انطاكية سنة ١٠٨٥ م اي قبل احتلال الصليبيين لها بثلاثة عشر عاماً ، ومع ذلك فقد بقي بعض الارمن يتحكمون في بعض مدن المنطقة مثل ملطية والرها ، باستثناء فترات قصيرة خضعت فيها الرها للسلاجقة(٢).

وهكذا مهد الحكم الارمني ، في شرق آسيا الصغرى ، واطراف العراق والشام ، لحكم الصليبيين الغربيين فيما بعد ، كما مهد وجود الارمن في هذه المنطقة لقيام مملكة ارمينية الصغرى الصليبية في اواخر القرن الثاني عشر الميلادي ، وهي المملكة التي قامت في الركن الجنوبي الشرقي من آسيا الصغرى ، ونهضت بدور بارز في تاريخ الغزو الصليبي ، بل في تاريخ الشرق الادنى في تلك الحقبة(٣).

---

(١) المرجع السابق : ١ / ٩٧ ـ ٩٨ .
(٢) السابق : ١ / ١٠٠ ـ ١٠١
(٣) نفسه : ١ / ١٠١

٢) **ضعف سلاجقة الشام واسيا الصغرى :**

ازدادت الخلافات كثيراً في صفوف المسلمين في بلاد الشام ، خلال النصف الثاني من القرن الخامس الهجري ، فتطلع امير الموصل شرف الدولة مسلم العقيلي الى اقامة دولة تمتد من اقليم كردستان الى شمال الشام ، مستفيداً من حالة عدم الاستقرار السائدة في المنطقة المحيطة به ، وفي الوقت ذاته ، دخل بلاد الشام الامير تاج الدولة تتش ألسلجوقي ، بهدف اقامة دولة خاصة به في هذه البلاد ، ذلك ان اخاه السلطان ملكشاه اقطعه بلاد الشام ، وما يفتحه في تلك النواحي ، فبدأت المنافسة بين الامير العقيلي مسلم ، والامير السلجوقي تتش حول حلب ، وهي ماتزال بايدي بني مرداس ، فاستولى عليها الامير مسلم ، الذي اختلف ايضاً مع الامير سليمان بن قتلمش السلجوقي فاتح الاناضول ، بسبب استيلاء الاخير على انطاكية ، وكانت تدين بالولاء للعقيلي ، فأدى الصراع بين الفريقين الى استيلاء سلاجقة الشام على البلاد (١) .

ورغم ان ساحل بلاد الشام وفلسطين كانت تخضع للفاطميين فقد نجح احد قادة الاتراك ، من اتباع السلطان الب ارسلان السلجوقي ويدعى اتسز من الاستيلاء على الرملة وبيت المقدس وفلسطين باكملها عدا ارسوف من الفاطميين ، وذلك سنة ١٠٧٥ م / ١٠٧٦ م ، وعمل على اقامة دولة خاصة به ، كما استولى على دمشق والمنطقة المحيطة بها (٢) .

على ان حكم اتسز ، لم يدم طويلاً في هذه البلاد ، فقد تمكن الامير تتش السلجوقي من القضاء عليه وقتله وبذلك صار تتش يسيطر على المنطقة الوسطى من بلاد الشام ، وهكذا اصبحت المعركة المقبلة في شمال الشام محصورة بين اثنين من امراء السلاجقة هما ، سليمان بن قتلمش فاتح الاناضول من نيقية الى انطاكية ، والثاني الامير تتش اخو السلطان ملكشاه فالتقى الفريقان في معركة عند حلب ، انهزمت فيها قوات سليمان وقتل هو في المعركة وذلك سنة ١٠٨٦ م ، وترتب على مقتل سليمان نتائج خطيرة .

وفي بلاد الشام استعاد السلطان ملكشاه ، من اخيه تتش معظمها ووزعها امارات شامية على قواده واصحابه ، فمنح حلب لحاجبه المخلص آق سنقر ، مؤسس البيت الزنكي سنة ١٠٨٧ م وسلم انطاكية الى احد قواده الاتراك ، مؤيد الدولة ياغي سيان ، اما الرها فقد منحها الى قائده بوزان ولم يبق بيد تتش سوى دمشق وجزء من

---

(١) ابن العديم ، تاريخ حلب ، ٢ / ٩١ _ ٩٢ .

(٢) ابن القلانسي ، تاريخ دمشق ، ٩٨ _ ٩٩ .

فلسطين ، وظلت بيت المقدس بيد الامير ارتق وابنه من بعده ، وبذلك استطاع ملكشاه ان يمنع اخاه تتش من اقامة دولة موحدة في بلاد الشام ، الامر الذي اضعف هذه البلاد امام الغزو الصليبي ويسَّر زحفهم اليها (١).

وعلى العموم فقد ادت هذه السياسة في بلاد الشام الى اضعاف سلطة السلاجقة في اسيا الصغرى وعدم قيام حكومة قوية لهم في بلاد الشام ، مما جعل هذه البلاد تعاني كثيراً من الفوضى والانقسامات ، وفي كلتا الحالتين ، استفاد الصليبيون وتيسر زحفهم الى هذه الديار .

ان انغماس بلاد الشام ، في بحر من الفوضى ، بسبب المنازعات بين السلاجقة بعضهم البعض ، وبين السلاجقة والفاطميين ، وبين كل من الفاطميين والسلاجقة من ناحية والبيوت العربية التي كونت لنفسها امارات مستقلة في بلاد الشام من ناحية اخرى ، ادى الى ضعف هذه القوى جميعاً في الوقت الذي بدأ فيه الغزو الصليبي يلوح في سماء الوطن العربي واثر كثيراً في تيسير مهمة زحفهم على هذه البلاد .

٣) الشقاق بين النصارى الشرقيين :

اذا كان الانقسام في البيوت العربية والتركية في العالم الاسلامي ، وبخاصة في بلاد الشام وآسيا الصغرى ، قد مهَّد السبيل لانتصار الصليبيين في غزوهم لبلاد الشام ، فان الشقاق في العالم المسيحي ، وخاصة بين الكنائس الشرقية ، قد سهل وقوعها تحت حماية الكنيسة الرومانية الغربية وبكلمة اخرى ، فقد ساعد هذا الشقاق بين الكنائس الشرقية ، الى قيام دويلات الصليبيين الكاثوليك في الشرق ، خاصة وان العداء المذهبي كان قد بلغ اشده بين البيزنطيين والارمن السريان (اليعاقبة) في هذا الوقت ، مما جعلهم جميعاً يتعرضون لكارثة مشتركة . استفاد منها الصليبيون الغربيون الكاثوليك ، ويسَّر زحفهم على المشرق (٢).

٤ ـ ضعف الدولة البيزنطية :

تعرضت الدولة البيزنطية في اواخر القرن الخامس الهجري الى ضعف شديد من قبل السلاجقة على اقاليمها الآسيوية كما تعرضت في الوقت ذاته لخطر النورمان وضغطهم على اقاليمها الاوربية ، الامر الذي ادى الى ضعفها وبالتالي تراجعها امام

---

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ١ / ١٩ .

(٢) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ١ / ١٢٠ ـ ١٢١

هذين الضغطين ، فتراجعت امام السلاجقة بعد هزيمتها في معركة ملازكرد معهم ، كما تراجعت امام الذين انتزعوا منها اخر معاقلهم في ايطاليا ، ووجهوا انظارهم نحو الشاطىء الشرقي للبحر الادرياتي ، وخاصة بعد ان انتزعوا صقلية من المسلمين ، بل لقد طمعوا في القسطنطينية نفسها ، واخذ النورمان بعد ذلك يحلمون بمواصلة الحرب ضد المسلمين في الشرق ، فاتجه فريق من المغامرين منهم نحو الدولة البيزنطية ، ودخلوا في خدمتها كجند مرتزقة فاستغل هؤلاء النورمان هزائم البيزنطيين امام السلاجقة والاناضول واشتبكوا مع البيزنطيين في مواقع كثيرة كما زحف روبرت النورماني على القسطنطينية نفسها لكنه اضطر الى العودة الى ايطاليا ، وترك قواته في بلاد البلقان لابنه بوهيمند ، الذي صار فيما بعد بطلاً من ابطال الحملة الصليبية الاولى ، وكان النورمان قد اوقعوا في الامبراطورية القسطنطينية خسائر كثيرة ، حتى انها كادت تسقط بايديهم قبل الغزو الصليبي ، الامر الذي فتح لهم طريق الشرق ويسّر زحف الصليبيين الى هذه الديار(١)

٥ ـ استنجاد الدولة البيزنطية بالغرب الاوربي :

عندما تعرضت الدولة البيزنطية في عهد الامبراطور اليكسوس كومنين ، الى هجمات النورمان المتزايدة من الغرب ، والبجناك من الشمال ، والسلاجقة من الجنوب والشرق ، وعجزت عن صدهم والتغلب عليهم ، اضطرت الى طلب النجدة سنة ١٠٨٧ / ١٠٨٨ م من بلدوين امير الفلاندر ، ليرسل اليها العساكر ، فاجاب طلبها ، كما استنجدت بالبابا اوربان الثاني اكثر من مرة لمساعدتها في دفع هذه الاخطار(٢).

وكان البابا ينتظر الفرصة الملائمة لاثارة الغرب الاوربي وتوجيه نشاطه الحربي لخدمة الدين والكنيسة في الشرق وفي الوقت ذاته كان الامبراطور البيزنطي يطمع في استغلال الصليبين وعاطفتهم الدينية لمصلحته الخاصة ضد خصومه وان تسلط سيوفهم لاسترداد مافقدته امبراطوريته من ممتلكات في الشرق وبذلك التقت مصلحة الامبراطورية البيزنطية ومصلحة الكنيسة الغربية بشكلها الظاهري لغزو العالم الاسلامي ، رغم مايحمله الجانبان من تناقض حقيقي بينهما(٣).

ولذلك تعتبر الكنيسة القوة الاساسية التي حولت ملتمس الامبراطور البيزنطي

---

(١) السابق : ١ / ١٢٣ ـ ١٢٥ .

(٢) أرنست باركر . الحروب الصليبية / ٢٠ .

(٣) حسن حبشي . الحروب الصليبية / ٥٩ .

اليكسوس كومنين ، بطلب الامدادات ، الى حرب اسموها مقدسة للاستيلاء على بيت المقدس ، وسموا هذا الغزو بالحروب الصليبية ، ليبرروا المصالح والاطماع التي اتفقت مع مااختاروه من وسائل واساليب لتحقيق أهدافهم المخالفة لاهداف الكنيسة الحقة والسلام الذي جاء من اجله السيد المسيح عليه السلام . وقد نجح البابا اوريان الثاني في توجيه اوربا الى الغزو الصليبي عندما انتقل الى كنيسة كلير مونت في الجنوب الشرقي من فرنسا وعقد اجتماعاً دينياً في شهر اذار ١٠٩٥ م / ٤٨٨ هـ بعد تلقيه رسائل جديدة من الامبراطور البيزنطي ، ثم عقد اجتماعاً آخر في نفس السنة حيث القى فيه خطابه الشهير الذي دعى فيه المسيحيين الى مساعدة الامبراطور البيزنطي ، واعداد الجيوش لغزو يقهر المسلمين ابتغاء الحصول على التوبة الكاملة ، فبادر الالوف من المسيحيين الى تخاذ الصليب شعاراً لهم ، وكان اولهم الاسقف اوهيمار الذي جعله البابا اوريان الثاني نائباً عنه ، ونصبه قائداً روحياً للحملة الصليبية الاولى(٣).

ثالثاً ـ الحملة الصليبية الاولى :

سارت جموع الصليبيين الى الشرق في حملة سميت الحملة الصليبية الاولى ، او الحرب الصليبية الاولى ، او الغزو الصليبي . وكانوا على قسمين في طريق مسارهم وتنظيمهم : القسم الاول ، وقد سمي حملة الشعوب ، او حملات العامة . والقسم الثاني الذي سمي حملة الامراء . وفيما يلي عرض لهاتين الحملتين :

١) حملة الشعوب او العامة :

لما طلب البابا اوريان الثاني من الاساقفة دعوة الناس لهذا الغزو ، استجابوا له . وظهرت منهم طائفة جديدة قامت بجهود كبيرة بالدعاية لهذه الحرب . وكان على رأس هؤلاء الدعاة (بطرس الناسك) الذي طاف في مختلف اقاليم فرنسا وخرج منها ومعه عدد ضخم من الاتباع ، يقدر بحوالي خمسة عشر الفاً من الفقراء والمعدمين ، بينهم الكثير من النساء والاطفال . واتجهوا صوب القسطنطينية وبعد ان كونوا خمسة جيوش كبيرة من غرب اوربا وشرقيها وصلت منها مجموعتان فقط بينما تفرق الباقون او قتلوا بعد ان اساؤا معاملة اهالي البلاد والمدن التي مروا في طريقهم ، واخذوا ينهبون ويسلبون ويعتدون على الاهالي الآمنين . وكان هؤلاء الصليبيون قد شقوا طريقهم الى صوفيا ثم ادرنه . حتى بلغوا القسطنطينية في شهر

(٣) ارنست باركر الحروب الصليبية / ٢٠ ـ ٢٢ .

رجب ٤٩٠ هـ / تموز ١٠٩٦ م ، رغم ماكانوا عليه من سوء الحال ورداءة التنظيم وجهل تام بابسط مبادىء القتال . ولما بلغت جيوش العامة هذه مدينة القسطنطينية طلب اليهم الامبراطور البيزنطي اليكسوس كومنين الانتظار خارج اسوار العاصمة(١).

وعلى الرغم من الممارسات السيئة التي قام بها الصليبيون اثناء مرورهم باراضي الامبراطورية البيزنطية في اقاليمها الغربية فان الامبراطور البيزنطي اليكسوس كومنين احسن استقبالهم وقدم لهم النصح بان لا يتعجلوا في العبور الى اسيا الصغرى قبل ان تصل اليهم الامدادات والقوات النظامية من الغرب .

ولما كثرت اعتداءات الصليبيين على مواطني الامبراطورية البيزنطية وكثر سلبهم ونهبهم ، امر الامبراطور البيزنطي بنقل هؤلاء الصليبيين الى الجانب الشرقي للبسفور ، ومع ذلك فقد استمر عامة الصليبيين بالاعتداء على المزارع والقرى والكنائس القريبة من اماكن تواجدهم . ثم اخذوا يوسعون دائرة نشاطاتهم وعدوانهم باتجاه الجنوب الشرقي ، واقتربوا من مناطق نفوذ السلاجقة في هذه البلاد . وبدأت المناوشات بين الجانبين على مقربة من مدينة نيقيه . وفي تشرين الاول ١٠٩٦ م زحف الصليبيون على هذه المدينة وقد بلغ عددهم حوالي خمسة وعشرين الف صليبي غير ان السلاجقة هاجموهم بغتةً اثناء زحفهم واوقعوا بهم ذبحاً وتقتيلاً . ولم ينج من ذلك الجمع الحاشد من الصليبيين الاّ نحو ثلاثة الاف ، كانوا قد حملوا الى القسطنطينية حيث وقعوا في رعاية الامبراطور البيزنطي حتى وصلت حملة الامراء. وبذلك تكون حملة العامة التي قادها بطرس الناسك ووالتر المفلس ، قد فشلت(٢)

٢ ـ حملة الامراء :

اما الشطر الثاني من الحملة الصليبية الاولى ، فهو حملة الامراء . فقد بدأ الاعداد لها بشكل رئيسي في نفس الوقت الذي سارت فيه حملة العامة من المعدمين والغوغاء ، وخضعت حملة الامراء للروح الاقطاعية عندما تولى زعامتها عدة امراء لكل منهم جنده واتباعه كما كان لكل منهم سياسته الخاصة مما جعل هذه الحملة في حقيقتها مجرد مجموعة من الحملات والاتجاهات المتعارضة في كثير من النواحي والاحيان .

---

(١) سعيد عاشور . الحركة الصليبية الاولى : ١ / ١٣٥ ـ ١٣٧ .

(٢) سعيد عاشور . المرجع السابق : ١ / ١٣٩ ـ ١٤٠

كانت المجموعة الاولى من هذه الحملة تحت قيادة الامير جودفري واخيه الامير بلدوين ، فضلاً عن عدد آخر من كبار الامراء وكانت حملة جودفري هذه اول حملة صليبية نظامية وصلت الى حدود الدولة البيزنطية في اواخر شهر ذي الحجة ٤٩٠ هـ / تشرين الثاني ١٠٩٦ م . وبدأت المسألة الصليبية في تاريخ الدولة البيزنطية . فعقدت الدولة البيزنطية مع الامير جودفري اتفاقية يلتزم بها الصليبيون بعدم القيام باعمال السلب والنهب داخل اراضي الامبراطورية ، ومقابل ذلك يتعهد الامبراطور البيزنطي بامداد الصليبيين بما يلزم من التموين حتى يصلوا الى ساحة الحرب مع السلاجقة . وفي شهر نيسان سنة ١٠٩٧ م امر الامبراطور البيزنطي بنقل الامير جودفري وجيشه الى الشاطىء الاسيوي بانتظار وصول الجيوش النظامية الاخرى(١)

اما الحملة النظامية الثانية ، فكانت بقيادة الامبراطور بوهيمند النورماني ، الذي خرج على رأس حملة كبيرة الى الشرق بصحبة ابن اخته الامير تنكرد وعدد من امراء النورمان من جنوب ايطاليا وصقلية . ووصلت هذه الحملة الى القسطنطينية سنة ١٠٩٧ م ، ودخل قائدهم في طاعة الامبراطور البيزنطي ونقلت جيوشهم الى الشاطىء الاسيوي في نفس السنة ايضاً . واحتلت مواقعها الى جانب حملة الامير جودفري .

اما المجموعة الثالثة فكانت بقيادة الامير ريموند الرابع ، الذي قاد الصليبيين من اقليم بروفانس وعندما اقتربوا من القسطنطينية اقسم قائدهم يمين الولاء والطاعة للامبراطور البيزنطي ، كما فعل زعماء الصليبيين من قبل ، وكان هؤلاء الزعماء يتنافسون جميعاً للحصول على تأييد الامبراطور البيزنطي لهم للانفراد بالقيادة والزعامة العليا للصليبيين(٢) .

ثم وصلت مجموعة رابعة من الصليبيين الفرنسيين الى شاطىء البسفور بزعامة الامير روبرت بن وليم الفاتح ، واعلن قائده الولاء للامبراطور البيزنطي ايضاً . بعد ذلك عبروا مضيق البسفور الى آسيا الصغرى واسرعوا للحاق ببقية الصليبيين الذين كانوا قد شرعوا فعلاً بمهاجمة نيقية(٣) .

على ان الشيء الذي اتسمت به الحملة الصليبية الاولى منذ البداية ، هو عدم التنظيم والتجانس بين افرادها ، فضلاً عن عدم وجود قيادة موحدة لهم ، الامر الذي ادى الى انقسام الصليبيين على انفسهم واختلافهم مع بعضهم ، كما اراد الامبراطور البيزنطي ان يستغل هذه الحركة لصالحه ، فاهتم بتحديد الجانب القانوني للعلاقة

(١) المصدر السابق : ١/ ١٤٥ ـ ١٤٧ .

(٢) سعيد عاشور ، الحملة الصليبية الاولى : ١/ ١٥٣ ـ ١٥٦ .

(٣) السابق ، : ١/ ١٥٦ ـ ١٥٨ .

بينه وبينهم واضطرهم على الاعتراف بالولاء له ضمناً او صراحة ، وان يتعهدوا له باعادة جميع الاراضي التي استولى عليها السلاجقة من الامبراطورية البيزنطية . واندفعت جموع الصليبيين من القسطنطينية الى بلاد الشام(١).

وكانت قوات الصليبيين النظامية قد تجمعت على الشاطيء الاسيوي بالقرب من مدينة ازمير بعد ان تركت القسطنطينية فراداً ، ثم لحق بهم الاسقف بطرس الناسك ومن بقي معه من حملة العوام او حملة الشعوب . واتفق جميع الصليبيين ان يبدأوا زحفهم نحو مدينة نيقية باعتبارها مركز الامير السلجوقي قليج ارسلان ولم يكن هو فيها في ذلك الوقت . فلما بلغوها شددوا الحصار عليها سنة ١٠٩٦ م ارسل الامير السلجوقي قلج ارسلان حامية للدفاع عنه فلما ضاق الامر بالمسلمين من حصار الصليبيين لهم ارسلوا الى الامبراطور البيزنطي سراً يدعونه لاستلام المدينة ، شريطة ان يسمح لهم بالخروج مع نسائهم واطفالهم وجميع مايملكون ، فأجابهم الامبراطور الى ماطلبوا ووضع يده على المدينة وذلك سنة ٤٩٠ هـ / ١٠٩٧ م وبذلك تعتبر مدينة نيقية اول بلد يأخذها الصليبيون البيزنطيون من سلاجقة الروم(٢).

ثم واصل الصليبيون تقدمهم في اراضي سلاجقة الروم بآسيا الصغرى فغادروا نيقية في اواخر حزيران ١٠٩٧ م ، وانقسموا الى قسمين على ان يلتقوا عند ضورليوم ، واشتبكوا مع امير السلاجقة في معركة عنيفة هناك انهزم فيها السلاجقة وغنم الصليبيون منهم الكثير ثم ساروا نحو الجنوب دون ان يصادفوا مقاومة تذكر من السلاجقة ، حتى وصلوا الى سهول قونية الغنية بخيراتها . وكانت قوات السلاجقة قد انسحبت امامهم ، ثم دخل الصليبيون مدينة هرقلة وانقسموا بعدها ثانية الى فرقتين ، احداهما بقيادة الامير بلدوين والامير تنكرد ، ووجهتها النواحي الشرقية من اسيا الصغرى حيث كيليكية وطرسوس . وتتألف الثانية من الغالبية العظمى للصليبيين ، وعلى رأسهم المندوب البابوي والامراء جودفري وبوهيمند وريموند ، ووجهتهم الى انطاكية فاتخذ بولدوين وفرقته الاولى طريقه الى الشرق قاصداً الرها ، بينما اتخذ الصليبيون الاخرون طريقهم الى انطاكية ، واتخذوا مواضعهم امامها في

---

(١) ابو الفداء ، المختصر : ٢ / ٢١٠ .
عبد العزيز سالم ، طرابلس الشام ، / ٧٧ .
(٢) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق / ١٣٤ ،
ابو المحاسن ، النجوم الزاهرة : ٥ / ١٦٠ .

اواخر تشرين الاول ٤٩٠ هـ / ١٠٩٧ م وكان حكم انطاكيا بذلك الوقت بيد الامير ياغي سبان من قبل سلاجقة العراق والشام(١).

رابعاً : قيام الدول الصليبية ومذبحة بيت المقدس :

اقام الصليبيون بعد ان نجحوا في الاستيلاء على اسيا الصغرى وبلاد الشام، تباعاً، عدداً من الامارات والممالك هي : امارة الرها، وامارة انطاكيا، ومملكة بيت المقدس، وامارة طرابلس.

١) امارة الرها :

كانت الرها، لمّا توجه اليها الصليبيون، بعد ان اوقعوا بقوات سلاجقة الروم عند نيقية، تخضع لحاكم من الارمن يدعى طوروس ابن هيتوم، وكان هذا الحاكم قد تمكن من الانفراد بحكمها نتيجة للنزاع الذي استحكم بين امراء السلاجقة سنة ١٠٩٥ م وتجنب الدخول في صراع مباشر معهم. وفي الوقت ذاته حصل هذا الحاكم على سند شرعي في حكم الرها من الامبراطور البيزنطي بعد ان اعترف بالتبعية له. ومع ذلك فقد ظلت الرها مهددة باستمرار من قبل السلاجقة فهم يحيطون بها، الامر الذي جعل حاكمها الارمني ينظر بعين الرضا الى وصول الصليبيين الى هذه الديار(١).

وقد ساعد الارمن المسيحيون الذين كانوا يشكلون اكثرية من سكان الاجزاء الشرقية من اسيا الصغرى وشمال الجزيرة الفراتية ومشارف بلاد الشام، على فتح ابواب الوطن العربي في الشرق امام الصليبيين. وكانت هذه الظاهرة اشد ماتكون وضوحاً في منطقة تل باشر، على الطريق بين الرها وانطاكية. وفي منطقة الراوندان على الطريق بين مرعش وانطاكيا ايضاً(٢).

وقد حقق الامير بلدوين البولوني، الذي قاد الصليبيين الى الشرق باتجاه الرها، تقدماً كبيراً فاستولى على كثير من المواقع والمدن والقلاع في شمال الجزيرة الفراتية، بمساعدة هؤلاء الارمن الذين نظروا الى الصليبيين نظرة ودية، رغبة منهم بالخلاص من حكم الاتراك المسلمين. فنجح الصليبيون في الاستيلاء على تل باشر

---

(١) ابن القلانسي. ذيل تاريخ دمشق. ١٣٤؛
ابن الجوزي. المنتظم. ٩ / ١٠٥.
بروكلمان. تاريخ الشعوب الاسلامية. ص ٣٤٥ ـ ٣٤٦.

(١) سعيد عاشور. الحركة الصليبية : ١ / ١٧٩.

(٢) المصدر السابق : ١ / ١٨٠.

والراوندان . فلما بلغت اخبارهم الى حاكم الرها الارمني . ارسل الى قائد الصليبيين بلدوين ١٠٩٨ م يدعوه للحضور الى الرها . وكان حاكم الرها هذا . رجلاً مسناً . وليس له من يرثه في الامارة على الرها . وخشي ان تضيع الرها من ايدي المسيحيين وتقع في ايدي السلاجقة وخاصة صاحب الموصل الامير كربوقا . لذلك اسرع بلدوين الى الرها ودخلها وسط استقبال اهلها وحاكمها ورجال الدين الارمن فيها بغبطة بالغة(١) .

وكان بلدوين البولوني يطمع في ان يحول امارة الرها الارمنية الى امارة لاتينية . في حين كان حاكم الرها . يطمع في ان يكون قائداً للجيش الصليبي ويكون الصليبيون جنوداً مرتزقة تحت امرته وازاء هذا التناقض بين مصالح الاميرين الشخصية ـ رغم عدائهما المشترك للمسلمين ـ فقد رفض حاكم الرها ان يتبنى الامير الصليبي بلدوين . ويتخذه ابناً ووريثاً شرعياً له في حكم الرهـــا . ونظراً لحاجة كل منهما الى الاخر . في هذه الظروف فقد انتهى الموقف بينهما بان يتبنى ثوروس بلدوين ونودي به وريثاً في حكم الرها . وجرت مراسيم التبني وفقاً للتقاليد المعمول بها في الكنيسة الارمنية وبحكم هذه الاتفاقية وما ارتبط بها من وصايا اصبح العنصر الصليبي هو الوريث الطبيعي للارمن في حكم الرها(٢) .

ونظراً لانقسام اهل الرها على انفسهم ازاء ماتم بين الحاكم الارمني ثوروس والصليبيين من اتفاق فضلاً عن سوء احوالهم الاقتصادية من جراء فرض الضرائب وجمع الاموال منهم . فقد قاموا بثورة عارمة في الرها سنة ١٠٩٨ م تعبيراً عن استيائهم هذا . انتهت بمقتل الحاكم ثوروس وانتقال مقاليد الامور في الرها الى القائد الصليبي الامير بلدوين البولوني الذي اصبح سيد الرها وحاكمها وصاحب السلطان فيها .

وهكذا حقق بلدوين اهدافه فكان اول امير صليبي يتمكن من تأسيس امارة صليبية لنفسه في الشرق . الامر الذي جعل لهذه الامارة اهمية كبيرة لدى الصليبيين باعتبارها حامية لممتلكاتهم في بلاد الشام . ضد اي هجوم يأتي من الشرق عن طريق شمال الجزيرة الفراتية(١) .

وقد عمل بلدوين الصليبي على توسيع امارته بالرها فاستولى على سمياط من السلاجقة والاتراك . كما استولى على حصن سروج الواقع على الطريق المؤدية الى حلب . ثم اكمل بلدوين سيطرته على تلك المنطقة بالاستيلاء على البيرة سنة ١٠٩٩

---

(١) سعيد عاشور . الحركة الصليبية : ١/ ١٨٠ ـ ١٨١ .

(٢) المصدر السابق ١/ ١٨٢ ـ ١٨٣ .

(١) سعيد عاشور . الحركة الصليبية : ١/ ١٨٤ .

م ، وهي قلعة على نهر الفرات ، ذات موقع حربي هام على الطريق بين الرها وعين تاب . وقامت سياسته في حكم هذه الامارة على اساس الترابط بين العناصر المختلفة التي تتألف منها هذه الامارة وخاصة الصليبيون والارمن(٢).

٢) امارة انطاكية :

زحف الجانب الاكبر من الصليبيين ، بعد ان اوقعوا بقوات سلاجقة الروم عند نيقية ، ناحية الجنوب من اسيا الصغرى باتجاه انطاكية . ويتألف هذا الجيش من معظم كبار امراء الصليبيين ، وفي مقدمتهم الامير بوهيمند ، ويصحبهم المتدوب البابوي ، ادهمار اسقف بوي .(Puy). ووصلت جيوش الصليبيين هذه الى مدينة انطاكية يوم ٢١ تشرين الاول ١٠٩٧ م عن طريق مرعش وبغراس ، وقلعة ارتاح ، وذلك في الوقت الذي كان القسم الاخر من الصليبيين يعمل في منطقة الجزيرة الفراتية والرها كما اشرنا سابقاً . وقد احدث وصول الصليبيين الى بلاد الشام قلقاً كبيراً في قلوب الناس . وكانت انطاكية في ذلك الوقت تخضع لحكم الامير ياغي سيان ، من قبل السلاجقة وكان هذا الحاكم على درجة من القدرة والكفاءة في الدفاع عنها ، ضد الصليبيين . وكانت مدينة من اكثر المدن تحصناً ، لكن دون جدوى(٣)

نزل الصليبيون على انطاكية براً ، بينما نزلت من قبرص الى ميناء اللاذقية قوات اخرى ، واحاطت القوات الصليبية البرية بانطاكية وشددوا الحصار عليها ، فعسكر القائد الصليبي بوهيمند مع اربعة آلاف فارس امام احد ابواب المدينة ، حتى لا يمكّن احداً من دخولها او مغادرتها وحاصرت بعثة القوات الصليبية الاخرى بابين اخرين ، ولم يتمكنوا من محاصرة الباب الرابع ، حيث كان يحيطه جبل شامخ(١).

وكانت انطاكية من اقوى المدن تحصيناً في ذلك العصر ، حيث تحيطها الجبال المرتفعة من الجنوب والشرق ويحدها من الغرب نهر العاصي والبحر ، ومن الشمال مستنقعات واحراش ، وكان قلعة حصينة يصعب الاستيلاء عليها ، فلما وصلها الصليبيون ، بقيادة بوهيمند ، واتخذوا مواقعهم في الجبهة الشمالية والغربية ، اخرج ياغي سيان من كان بالمدينة من السريان والارمن ، بحجة العمل في حفر خندق

---

(٢) المصدر السابق : ١ / ١٨٦ ـ ١٨٧ .

(٣) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق / ١٣٤ .

ابن العديم ، تاريخ حلب .

(١) حسن حبشي ، اعمال الفرنجة / ٤٩ ـ ٥٠

حولها ، ثم منعهم من دخولها ، فانحازوا الى جانب الصليبيين في حصار انطاكية الذي استمر قرابة تسعة اشهر سنة ٤٩٠ هـ / سنة ١٠٩٧ م وتم لهم تأمين طريق الاتصال مع اوربا عن طريق البحر(٢).

وقد ساعد الشقاق بين باغي سيان امير انطاكية ، وسيده رضوان ابن تتش السلجوقي ، ملك حلب على تسهيل مهمة الصليبيين في شمال بلاد الشام ، الذي اخذت جيوشهم تتدفق من غرب اوربا الى الشرق عبر اسيا الصغرى يضاف الى ذلك ماكان من نزاع بين الاخوين اميري دمشق وحلب في ذاك الوقت الى جانب كثرة الاضطرابات والحروب الداخلية في هذه البلاد(٣).

اما امير انطاكية باغي سيان ، فقد حاول الحصول على الامدادات من جيرانه المسلمين ، فارسل الرسل الى ملك دمشق وامير حمص واتابك الموصل ، كما ارسل الرسل الى سلاجقة فارس والعراق والى الخليفة العباسي ببغداد ، والى سائر البلاد والاطراف ، يستنجدهم ويحثهم على الجهاد لنصرته ضد الصليبيين ، وفي الوقت ذاته كان قد استعد لمواجهة حصار الصليبيين الطويل لمدينته ، فخزن المؤن وشحن القلاع بالجند والمقاتلين(١).

اما الصليبيون فقد اخذوا بعد ان طال حصارهم لانطاكية دون جدوى بتوجيه نشاطهم ، نحو القرى والمدن المجاورة لها ، بهدف الحصول على المواد الغذائية منها وفي الوقت ذاته وصلت بعض الامدادات الاسلامية لانقاذ انطاكية واصطدمت مع الصليبيين في معركة عند نهر العاصي سنة ١٠٩٧ م . واوقعوا بالصليبيين وقتلوا منهم اعداداً كثيرة(٢).

وقد لاقى الصليبيون اثناء حصارهم لانطاكية ظروفاً حرجة وهددهم شبح المجاعة ، وكثرة الفوضى بين صفوفهم ، وخاصة سوء النظام بين الجند ، وفرار الكثيرين منهم من المعارك ، وفي وسط هذه الاوضاع الصعبة ، برز بوهيمند ، بوصفه الرجل القوي ، وتركزت حوله امال الصليبيين ، واعترف له معظم امرائهم بأحقية حكم انطاكية اذا تم لهم الاستيلاء عليها(٣).

وعلى الرغم من شدة الخطر الصليبي على عموم المنطقة العربية ، فقد ظل المسلمون فيها غير مقدرين لهذا الخطر ، بل فقد حصل العكس من ذلك عندما

---

(٢) ابن الاثير ، الكامل حوادث سنة ٤٩٠ ـ ٤٩١ هـ

(٣) ابن القلانسي / ١٣٢ .

(١) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية : ١ / ١٩٢ .

(٢) ابن العديم ، تاريخ حلب : ٢ / ١٢٢ .

(٣) ابن القلانسي / ١٣٥ .

عمل الفاطميون في مصر على التحالف مع الصليبيين ضد العباسيين والسلاجقة واتفقوا على ان تكون انطاكية للصليبيين وبيت المقدس للفاطميين وارسل الفاطميون جيشاً تمكن من الاستيلاء على بيت المقدس سنة ١٠٩٨ م من السلاجقة وفي الوقت ذاته ارسلوا سفارة فاطمية الى الصليبيين وهم يحاصرون انطاكية . وقد رحب الصليبيون بهذه السفارة ، ولعل هذه الاحداث تكشف بوضوح ، عن مدى انقسام العالم الاسلامي ، وتناقض مصالح حكامه الامر الذي مكن الغزو الاجنبي من تحقيق مكاسبه على حساب الجميع ، كما حاول الصليبيون استمالة امير حلب لكي يتمكنوا من مواجهة القوى الاسلامية ، كل على انفراد ، والاستيلاء عليها واحدة بعد الاخرى(١).

عاود امير انطاكية باغي سيان الاستنجاد ثانية بالقوى الاسلامية القريبة والبعيدة للعمل على انقاذ انطاكية والوقوف بوجه الخطر الصليبي الذي يهدد الجميع فاجتمعت له قوات اسلامية كثيرة ، عند حارم ، الى الشرق من انطاكية ، وكانت خطة المسلمين في هذه المرحلة ، ان تهاجم جيوشهم هذه الصليبيين المحيطين بانطاكية فجأة وفي الوقت ذاته تخرج جيوش باغي سيان من انطاكية ، وتهاجم الصليبيين في الاتجاه المقابل ، غير ان النصارى في حلب وحارم ، وخاصة السريان والارمن ، ابلغوا الصليبيين بهذه الخطة . فلما دارت المعركة بين الفريقين ، حلت الهزيمة بالمسلمين قبل ان ينفذوا خطتهم ، واستولى الصليبيون على حارم ، بمساعدة اهلها السريان والارمن في حين لم يتمكن باغي سيان ايقاع الهزيمة بالصليبيين من جانبه(٢).

ادرك الصليبيون ان طول مدة الحصار على انطاكية ليس في صالحهم ولذلك فقد عزموا على ضرورة التعجيل في الاستيلاء عليها . اما امير انطاكية فقد ادرك هو الآخر بحراجة موقفه داخل انطاكية فارسل الى سلاجقة فارس وامير الموصل يطلب منهم النجدة مجدداً فشدد الصليبيون الحصار على المدينة ومنعوا وصول المؤن والامدادات الاسلامية اليها ، وفي الوقت ذاته وصلت الامدادات للصليبيين بواسطة الاسطول البريطاني الذي حمل لهم الكثير من الآت الحرب والسلاح والآت الحصار واشتدت الاشتباكات بين الفريقين اظهر فيها امير انطاكية شجاعة بالغة وحزماً شديداً غير ان الخيانة لم تلبث ان لعبت دورها في سقوط انطاكية بايدي الصليبيين(١).

---

(١) ابن الاثير ، الكامل حوادث سنة ٤٩١ هـ .

(٢) ابن العديم ، تاريخ حلب ، حوادث سنة ٤٩١ هـ .

(١) ابن الاثير ، الكامل ـ حوادث سنة ٤٩١ هـ .

ذلك انه لما طال حصار الصليبيين لانطاكية ، وضاقت بهم الحال استقر رأي قادتهم على ان يقوم احدهم بالاستيلاء بالقوة على احد حصونها الواقع على ناحية نهر العاصي ، وتقرر ان يحاصر كل قائد منهم هذا الحصن مدة اسبوع بالتتابع وكان على الحصن قائد تركي من قبل الامير باغي سيان يدعى فيروز ، وكان فيروز قد اعتنق الاسلام ونال ثقة باغي سيان فعهد اليه باغي سيان بحراسة احد ابواب المدينة في الجبهة الجنوبية . ولم يلبث هذا الارمني ــ النصراني الاصل ــ ان غلبت عليه روح الخيانة ، فاتصل ببعض الارمن الذين مع الصليبيين وتوسطهم لمراسلة القائد الصليبي بوهيمند ، وانه مستعد لتسليم انطاكية لهم ، ان امنوه واعطوه مااراد ، فراسله الصليبيون وتوثقت عرى الصداقة بينه وبين القائد بوهيمند بعد ان اغراه بالثروة الوافرة والترحيب به اذا اعتنق المسيحية ثانية ، فوثق فيروز بقوله ، واتفق معه على ان يفتح له احد الابراج التي يتولى حراستها وبذل له بوهيمند مالاً كثيراً ، واقطاعاً واحتفظ بوهيمند لنفسه بسر هذه المؤامرة عن اصحابه ، فلما كانت نوبته في محاصرة البرج المذكور فتح له فيروز شباكه ليلاً ، فدخل الصليبيون منه وهدموا جزءاً من السور ، ودخلوا البلد ودوّت الصيحة في احياء المدينة ورفع بوهيمند رايته على رابية مواجهة لقلعة انطاكية ، وقتل الصليبيون في اليوم التالي ، من صادفوه بالمدينة من المسلمين ، عدا الذين لجأوا الى القلعة وقتلوا واسروا وسبوا من الرجال والنساء والاطفال مالا يحصى ، اما الامير باغي سيان فقد هرب هو الآخر مع ثلاثين غلاماً من اصحابه خارج انطاكية وتبعه نائبه فيها ، وكان ذلك مما سهل على الصليبيين الاستيلاء على البلد (٢) .

اظهر سقوط انطاكية بايدي الصليبيين في السادس عشر من شهر رجب سنة ٤٩١ هـ بسبب خيانة فيروز وتباطؤ امراء الشام المسلمين في نجدتها ، موجة من الذعر في البلدان والاقاليم الاسلامية القريبة والبعيدة وهرب من كان من المسلمين بالمدن والقرى القريبة واستولى عليها الارمن وكان لسقوط انطاكية هذا دويٌّ هائل في العالمين المسيحي والاسلامي لايفوقه شيء الا سقوط بيت المقدس بايدي الصليبيين فيما بعد ، على ان الخلافة العباسية تحركت اخيراً ازاء هجوم الصليبيين على بلاد الشام بعد ان طال صمتها ، فنهض صاحب الموصل ، الامير كربوغا ، وجمع العساكر وعبر الفرات الى بلاد الشام واقام بمرج دابق ، حيث اجتمعت اليه عساكر الشام والجزيرة الفراتية ، وسار الى انطاكية ، وكان ذلك بعد ان بلغهم مقتل

---

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، ١٠ / ١٧٤ ــ ١٧٥ .
حسن حبشي ، اعمال الفرنجة / ٦٤ ــ ٧٠ .

صاحبها الامير باغي سيان ونزلوا بظاهرها ، ودخلوا البلد من ناحية القلعة التي مازالت بايدي المسلمين .

لما علم الصليبيون بما جرت عليه الحال خافوا على انفسهم الوهن وقلة المؤن وقبل ان يشترك الفريقان في معركة حاسمة كان امير الموصل كربوغا وهو قائد الجيوش الاسلامية هذه ـ قد اساء معاملة العرب وامرائهم في جيشه فقرروا خيانته عند اللقاء بالصليبيين وعسكرت قوات المسلمين في السهل الممتد جنوب انطاكية عند باب البحر ، وبذلك انحصر الصليبيون داخل اسوار انطاكية قرابة ثلاثة اسابيع وشنت قوات المسلمين عليهم هجوماً عنيفاً من داخل القلعة فارتدوا الى ابراج المدينة واسوارها وضاق بهم الحال . واضطر الكثير منهم الى الهرب في الوقت الذي شددت فيه قوات كربوغا الحصار عليهم حتى طلبوا الامان منه والخروج من انطاكية سالمين(١).

لم يستجب كربوغا لطلب الصليبيين في السماح لهم بالخروج واصر على استسلامهم له دون قيد او شرط ولما استقر رأي الصليبيين على الخروج من انطاكية متفرقين اشار المسلمون على الامير كربوغا ان يقفوا على ابواب المدينة ويقتلوا كل من يخرج منها ، لأن امرهم وهم متفرقون ، اسهل ، لكنه لم يستجب لهذا الرأي ، وقال : امهلوهم حتى يتكامل عددهم فنقتلهم جميعاً(١).

ولما اجتمع الصليبيون خارج مدينة انطاكية ، ولم يبق منهم احد بداخلها حاصروا كربوغا ، وسدوا المنافذ عليه من جميع الجهات وبذلك اطبقوا على المسلمين ، واوقعوا الهزيمة بامراء دمشق وحمص ، في حين انهزم كربوغا واصحابه الى الموصل ، بينما ظلت جماعة من المسلمين تقاتل الصليبيين حتى غلبوا على امرهم(٢).

احتل الصليبيون انطاكية ، بعد ان حلت الهزيمة بالمسلمين ؛ لكنهم وجدوا انفسهم امام مشاكل كثيرة ومعقدة اهمها ، تنافس امرائهم على حكم انطاكية وخاصة ، الامير بوهيمند التورماني ، والامير ريموند ، فضلاً عما هو مطلوب منهم ، من تحشيد طاقاتهم للاستيلاء على بيت المقدس ، هدفهم المنشود اضافة الى ماكانوا

(١) ابن الاثير ، الكامل ، ١٠ / ١٧٦ ـ ١٧٧ .
ابن العديم ، تاريخ حلب ، ٢ / ١٣٦ ـ ١٣٧ .
(١) ابن الشحنة ، تاريخ حلب / ٣١٥ .
حسن حبشي ، الحرب الصليبية ، / ١٤٣ .
(٢) ابن العديم ، تاريخ حلب ، ، ٢ / ١٢٧ .
ابو الفداء ، المختصر ، ٤ / ١٢٥ ـ ١٢٦ .

يعانوه من قلة الذخيرة والمؤن في المدينة . وفوق كل ذلك فقد واجهوا بشكل مباشر اطماع الامبراطور البيزنطي في انطاكية بعد ان استولوا عليها .

اما الامير بوهيمند ، الذي نجح في اختراق اسوار انطاكية واحتلالها من خلال خيانة فيروز النصراني ، سابق الذكر ، فقد طلب من زعماء الصليبيين تسليمه ما بايديهم من ابواب المدينة وابراجها ، فاجابوا طلبه باستثناء ريموند الذي نازعه على حكم انطاكية ، وعندما اشتد النزاع بينهما ، وكاد الامر يصل الى الصدام المسلح بينهما ، تم الاتفاق على اقتسامها ، فاصبحت الاجزاء الشمالية والشرقية والوسطى من المدينة بما فيها القلعة الى بوهيمند ، في حين احتل ريموند القسم الجنوبي الغربي منها ، وازاء هذا الاختلاف ، عقد الصليبيون مجلساً سنة ١٠٩٨ م . قرروا فيه دعوة الامبراطور البيزنطي لاستلام انطاكية شريطة ان يحضر بنفسه اليها ، لكن الامبراطور تأخر في الرد عليهم . وفي الوقت ذاته قرر الصليبيون الزحف على بيت المقدس ، الامر الذي يسر لبوهيمند ان يثبت مركزه في انطاكية(١).

وعلى الرغم من المنازعات التي قامت بين امراء الصليبيين على حكم انطاكية فانهم رأوا ان يجمدوا هذه الخلافات حتى يتيسر لهم المسير الى بيت المقدس ، بعد ان ظلوا بانطاكية تسعة اشهر ، استطاع خلالها الامير بوهيمند ان يثبت مركزه فيها ، ويستولي على معظم ابراجها وحصونها ، في الوقت الذي كانت فيه جموع الصليبيين بدأت زحفها على بيت المقدس سنة ٤٩٢ هـ / ١٠٩٩ م(٢).

وكان الصليبيون لما تم لهم الاستيلاء على انطاكية وقلعتها ، ساروا الى معرة النعمان القريبة منها ، ونزلوا عليها في اليوم التاسع والعشرين من ذي الحجة سنة ٤٩١ هـ ، فدار بينهم وبين اهلها قتال عنيف ، انتهى باستيلاء الصليبيين عليها عنوة ، ثم ساروا الى عرقة فحاصروها اربعة اشهر ، غير انهم لم يتمكنوا من الاستيلاء عليها ، كما راسلهم ابن منقذ صاحب حصن شيزر وصالحهم عليها ، ثم ساروا الى حمص فاضطر صاحبها الى مصالحتهم ، ثم قصدوا عكا ، لكنهم لم يتمكنوا من الاستيلاء عليها(٣).

اما بوهيمند ، صاحب انطاكية ، فقد واصل سياسته التوسعية على حساب المسلمين في بلاد الشام ، فخرج في شهر رجب من سنة ٤٩٣ هـ ، الى حصن افامية ونزل عليه واقام اياماً ، واتلف زرعه ، ثم التقى مع عسكر المسلمين السلاجقة في

(١) سعيد عاشور . الحركة الصليبية : ١ / ٢١٣ ــ ٢١٦ .

(٢) ابن ظافر . الدول المنقطعة / ٨٢ .

ارنست باركر . الحروب الصليبية / ٣٥ ــ ٣٦ .

(٣) ابن ظافر . الدول المنقطعة / ٨٢ .

معركة انهزم فيها بوهيمند امامهم ، وقتل من عسكره عدد كبير ، ووقع هو في الاسر مع بعض اصحابه ، ولم يزل بوهيمند اسيراً حتى اطلق سراحه سنة ٤٩٥ هـ ، فعاود سياسته التوسعية من جديد ضد المناطق الاسلامية في بلاد الشام(١).

وكان زعماء الصليبيين . قد حلوا منازعاتهم قبل الزحف من انطاكية الى بيت المقدس ، فقد انفرد بوهيمند بحكم انطاكية واقام فيها امارة في حين اصبح ريموند الزعيم الذي لا ينافسه احد في قيادة الحملة الصليبية الى بيت المقدس . اما تنكرد ، فقد خلف بوهيمند في حكم انطاكية سنة ٤٩٨ هـ / ١١٠٤ م وواصل سياسة التوسع في بلاد الشام واتجهت اطماعه الى المناطق التابعة لامارة حلب بالدرجة الاولى فقصد حصن ارتاج وعزم على الاستيلاء عليه فخرج صاحب طرابلس لحربه ، ودارت بين الفريقين معركة مهمة ، حلت الهزيمة فيها بالمسلمين(٢).

ثم واصل تنكرد بعد ذلك سياسته التوسعية باتجاه المنطقة الساحلية من بلاد الشام وكذلك المنطقة الداخلية فيها ، فخرج سنة ٥٠٣ هـ من انطاكية في جيش كبير الى الثغور الشامية فاستولى على طرطوس وما والاها من الاعمال واخرج نائب الامبراطور البيزنطي منها ، ثم خرج الى شيزر ، وهي لبني منقذ وفرض عليها الجزية ، اتجه بعد ذلك الى حصن الاكراد فتسلمه منهم ، وكان قد استولى من قبل على بانياس الساحلية ثم قصد حلب سنة ٥٠٤ هـ ، واستولى على حصن الاثارب على مقربة منها ، واستلمت له من منبج وبالس(٣).

وهكذا نجحت امارة انطاكية الصليبية في السيطرة على المواقع الساحلية لبلاد الشام في الوقت الذي كانت فيه حلب المركز الرئيسي للمقاومة الاسلامية في مواجهة التوسع الصليبي هذا ، وخاصة بعد وفاة الامير رضوان ابن تاج الدولة تتش ، وكانت حلب ، الى جانب تصديها للزحف الصليبي من جهة الغرب تتصدى للعدوان التوسعي الذي مارسته ضدها امارة الرها الصليبية من جهة الشمال الشرقي(١).

٣) مذبحة بيت المقدس :

خضعت بيت المقدس للنفوذ الفاطمي منذ تمكن قائدهم جعفر بن فلاح من الاستيلاء على مدينة دمشق من العباسيين سنة ٣٥٩ هـ / ٩٦٩ م . ولم تزل بيت المقدس خاضعة للفاطميين رغم الصعوبات الكثيرة التي واجهوها في اقرار سيادتهم

---

(١) ابن القلانسي ، ١٣٧ ــ ١٣٨ .

(٢) خاشع المعاضيدي . الحياة السياسية في بلاد الشام / ١٣٧ ــ ١٣٨

(٣) ابن القلانسي / ١٦٧ .

(١) حامد غنيم . الجبهة الاسلامية . ١٩١ .

على بلاد الشام، حتى تمكن مقدم السلاجقة بالشام القائد اتسز التركماني من الاستيلاء على فلسطين سنة ٤٦٣ هـ / ١٠٧٠ م وافتتح الرملة وبيت المقدس(٢).

ومع ذلك فقد واصل الفاطميون سياستهم الرامية الى الاستيلاء على بيت المقدس من السلاجقة الذين ضعف شأنهم في هذه الديار وخاصة عندما نجح الصليبيون في الاستيلاء على انطاكية منهم سنة ٤٩٠ هـ / ١٠٩٦ م. فخرج الوزير الفاطمي الافضل بن بدر الجمالي من مصر لغزو فلسطين في عسكر كثير سنة ٤٩١ هـ. ونزل على بيت المقدس وحاصرها، وفيها ابنا ارتق التركماني من قبل السلاجقة فراسلهما الافضل لتسليم القدس له من غير حرب. فتم له ماأراد بعد حصار لها دام اربعين يوماً. ودخل الافضل بيت المقدس واستولى عليها.

عمد الفاطميون بعد الاستيلاء على بيت المقدس الى اصلاح اسوارها واستحكاماتها ثم عاد الافضل بن بدر الجمالي الى مصر، بعد ان استناب على حكمها الامير افتخار الدولة الذي ظل والياً عليها حتى شرع الصليبيون في حصارها سنة ٤٩٢ هـ / ١٠٩٨ م(٣).

ولما قرر الصليبيون في اجتماع عقدوه في انطاكية، الزحف الى بيت المقدس. سارت جموعهم في شهر محرم الحرام سنة ٤٩٢ هـ / تشرين الثاني ١٠٩٨ م، من انطاكية وعلى رأسهم الامير ريموند الصليبي. فوصلوا الى معرة النعمان، ثم الى كفر طاب، حيث لحق بهم عدد آخر من قادة الصليبيين. وبوصول الصليبيين الى هذه المناطق بدأ احتكاكهم مع الامارات العربية الصغيرة التي ادركت خطورة هذا الغزو، ومالت الى اتباع سياسة الموادعة والمسالمة معهم.

وكان الصليبيون قد اختلفوا حول طريق مسيرهم الى بيت المقدس، فقد رأى بعضهم ان عليهم ان يسلكوا طريق الساحل السوري ليضمنوا وصول الامدادات اليهم عن طريق البحر في حين رأى الآخرون ان يستمروا في طريقهم المستقيم، وهو سهل البقاع. رغم ان هذا الطريق قد يجرهم الى الاصطدام مع امير دمشق السلجوقي. ثم استقر رأيهم ان يسلكوا طريقاً وسطاً بين الطريقين الى بيت المقدس اي انهم يسلكون الطريق الداخلي ويقتربون بين حين وآخر من شاطىء البحر.

وهكذا خرجوا من شيرز الى رفنية واستولوا عليها. واضطر صاحب حمص الى اعلان المسالمة معهم وان يحمل لهم الهدايا. وكذلك فعل امير طرابلس لما عرف عن الصليبيين من الاساءة والتخريب في هذه البلاد والقسوة مع اهلها.

---

(٢) المقريزي. اتعاظ الحنفي ١٧٥.

(٣) ابن الاثير. الكامل / ج ١٠ / ٢٨٣.

ابن ميسر. اخبار مصر ٣٨.

ثم سار الصليبيون الى حصن الاكراد وسط سهل البقاع ، فاستولوا عليه ، وتابعوا زحفهم الى عرقة وحاصروها . وسار بعضهم الى طرابلس بينما سار البعض الآخر الى انطرسوس . وقد ظل الصليبيون يحاصرون عرقة مدة اربعة اشهر دون جدوى ، فتركوها وساروا نحو طرابلس حيث قدم لهم اميرها الهدايا والاموال ، ثم ساروا بعدها الى جبيل فاستولوا عليها ، ومنها الى بيروت ثم الى صيدا وصور ثم قصدوا عكا . ولما عجزوا من الاستيلاء على عكا فارقوها الى يافا ثم نزلوا على الرملة فاستولوا عليها واتجهوا منها الى بيت المقدس(١).

عقد الصليبيون في الرملة مجلساً للحرب ناقشوا فيه مسألة الزحف على بيت المقدس او مهاجمة مصر الفاطمية ، باعتبار ان مفاتيح بيت المقدس موجودة فعلاً هناك ، وان الصليبيين ان ارادوا ان ينعموا بالاستقرار في بيت المقدس فعليهم ان يؤمنوا انفسهم بالاستيلاء على الدلتا ، ثم قرر الصليبيون الزحف على بيت المقدس مباشرة وتركو الرملة في شعبان ٤٩٢ هـ / ٦ حزيران ١٠٩٩ م فاستقبلهم بعض المسيحيين الوافدين من بيت لحم واستحثوهم في الاسراع على بيت المقدس بدعوى ان الفاطميين يتوعدون المسيحيين ويتأهبون للثأر منهم فاتجه القائد الصليبي تنكرد الى بيت لحم ، حيث استقبله المسيحيون على اختلاف مذاهبهم ، استقبالاً حافلاً ، ثم اجتمع الصليبيون عند بيت المقدس يوم الثلاثاء ٧ حزيران من نفس السنة ، وحاصروها من جميع جهاتها فكان الامير روبرت النورماندي من الشمال ، وكل من جودفري وتنكرد من الغرب في حين حاصرها ريموند الصنجيلي من الناحية القبلية حيث اقام على جبل صهيون(١).

شرع الصليبيون في مهاجمة بيت المقدس المحاصرة في اليوم السابع من شهر حزيران ١٠٩٩ م / ٤٩٢ هـ ، وهاجموها بعدد كبير من آلات الحصار والهدم لكنهم لاقوا مقاومة في بادىء الامر من قبل الحامية الاسلامية الموجودة فيها ، وكان والي بيت المقدس في هذه الاثناء ، افتخار الدولة من قبل الفاطميين ، قد فوجىء بقدوم هذه الجموع الغفيرة من الصليبيين ، فعمد الى تسميم الا بار ، وردم القنوات ، واخفاء المواشي ، كما طرد جميع من بالمدينة من النصارى واهتم في الوقت ذاته بتقوية التحصينات والتأكد من سلامة الاسوار واعتمد في الدفاع عن هذه المدينة على حامية قوية من عساكر مصرية وفلسطينية وسودانية . وارسل الى مصر يطلب النجدة ضد

---

(١) ابن القلانسي / ١٢٦ .

حسن حبشي ، الحروب الصليبية الاولى ، ١٧١ .

(١) حسن حبشي ، اعمال الفرنجة ، / ١١٤ ــ ١١٥ .

Cetton, A History of the Crusides, I, P. 316.

الصليبيين في حين كانت الدولة العباسية تنظر بعين الرضى على هذا الغزو لهذه المدينة المقدسة كما فعل الفاطميون عندما احتل الصليبيون انطاكية من قبل وهي تابعة للعباسيين . اما الصليبيون فقد حالوا دون وصول الامدادات الى بيت المقدس وقطعوا اتصالها بالخارج وقد دام حصارهم لها اربعين يوماً وقد ساعدهم في الاستمرار في هذا الحصار وصول نجدات بحرية ومؤن مختلفة من اوربا(٢).

ولما طال الحصار على بيت المقدس ، وحالت بعض العوامل دون تمكنهم من اجتياز اسوار المدينة ، عمد الصليبيون الى بناء برجين يطلان على اسوار المدينة ، احدهما عند باب صهيون والآخر عند باب العامود فاحرق المسلمون البرج الاول ، وقتلوا من فيه من الصليبيين ، اما البرج الثاني فقد زحف به الصليبيون حتى الصقوه بالسور واحكموا به البلد وكشفوا من كان عليه من المسلمين ، ثم رموا بالمجانيق والسهام اهل المدينة وكان ذلك ليلة ١٤ تموز سنة ١٠٩٩ م واستطاعوا اقتحام المدينة بعد حصار دام اربعين يوماً ، اثر اكتشافهم لمنفذ يمر عبر سورها وقد تسلل بعضهم منه فيسر لهم الاستيلاء على السور من جهة الشمال ، وبذلك تمكن – جودفري من فتح ابوابها ، فاضطر المسلمون على الاعتصام بالمسجد الاقصى فتبعهم الصليبيون واقتحموا المسجد واحدثوا بداخله مذبحة وحشية رهيبة خاضوا فيها بدماء المسلمين. ولبث الصليبيون سبعة ايام يواصلون قتل الناس حتى بلغ عدد من قتل بالمسجد الاقصى وحده مايربو على سبعين الفاً من المسلمين ، ومن بينهم جماعة كثيرة من ائمة المسلمين وعلمائهم . وأخذ الصليبيون من قبة الصخرة نيفاً واربعين قنديلاً من الفضة والذهب ، كما اخذوا تنوراً من الفضة ، وغنموا مالا يقع عليه الحصر(١).

تركت مذبحة بيت المقدس اثراً سيئاً في نفوس الكثيرين فقد عدّ المؤرخون ، سواء منهم المسلمون او الصليبيون ماارتكبه الصليبيون في هذه المدينة بانه امراً رهيباً . فقد ذكر احدهم وهو صليبي عاش تلك المذبحة وشاهدها بنفسه ، انه لما زار الحرم الشريف غداة المذبحة الرهيبة التي احدثها الصليبيون في بيت المقدس لم يستطع جنود الصليبيين ان يشقوا طريقهم وسط اشلاء المسلمين الآ بصعوبة بالغة « وانهم كانوا يخوضون بدماء القتلى من المسلمين حتى بلغت الركبتين » .

على ان استيلاء الصليبيين هذا على بيت المقدس لم يتم بسهولة فقد واجه

---

(٢) تسميات الحروب الصليبية ، ١ / ٣٩٣ – ٣٩٥ .

(١) ابن القلانسي ، / ١٣٦ – ١٣٧

الصليبيون مقاومة شديدة في القطاع الجنوبي منها ، كما قاتلهم افتخار الدولة والي القدس من قبل الفاطميين ثلاثة ايام ، وكان قد اعتصم في محراب داود مع جماعة من المسلمين ، ثم استسلم لهم بالامان وكان وصحبه الفئة الوحيدة التي سلمت من مسلمي بيت المقدس ، من وحشية الصليبيين بعد ان سمح لهم بالخروج الى عسقلان(١).

وهكذا سقطت مدينة بيت المقدس بايدي الصليبيين في الثاني والعشرين من شهر رمضان سنة ٤٩٢ هـ / ١٠٩٩ م بعد ان قتلوا آلاف الابرياء من المسلمين بغير ذنب . فلم يتركوا مسلماً في الطرقات او البيوت او المساجد الا قتلوه واستباحوا دمه دون ان يفرقوا بين رجل وامرأة وطفل . ولم يرع الصليبيون حرمة المسجد الاقصى الامر الذي يؤكد وحشيتهم وعظمة الجرم الذي اقترفوه ببيت المقدس فاعتبرت تلك المذبحة لطخة عار في تاريخهم(٢) .

٤) مملكة بيت المقدس :

اختلف قادة الصليبيين ، بعد ان تم لهم الاستيلاء على بيت المقدس على حكمها . وتطلع كل منهم للاستبداد بها . وهم كل من الامير ريموند الصنجيلي ، والدوق جودفري وروبرت فلاندر وروبرت النورماندي . ثم انحصر النزاع اخيراً بين القائدين ريموند الصنجيلي والدوق جودفري . ونظراً لما عرف عن ميل ريموند الى جانب الامبراطور البيزنطي ، فقد اتجهت انظار الصليبيين ورغبتهم الى جودفري فتوّج اميراً لبيت المقدس(٣).

بلغت اخبار احتلال الصليبيين لبيت المقدس الى اسماع الخلافة الفاطمية فقوبلت ببرود وظلت الخلافة في سباتها العميق . وكذلك كان الحال بالنسبة لبغداد حيث كانت الخلافة العباسية هي الاخرى في سبات عميق عن هذه الكارثة التي حلت في بلاد العرب والمسلمين من جراء الغزو الصليبي الوحشي لهذه الديار ولم تحرك ساكناً رغم استنجاد واستغاثة سكان هذه البلاد المنكوبة بهم .

واجه الصليبيون مشكلة داخلية هامة بعد ان تم لهم الاستيلاء على بيت المقدس . تلك هي عدم وجود زعيم او رئيس يعترفون له جميعاً بالزعامة ويقدمون له الطاعة ، وخاصة بعد وفاة ادهيمار المندوب البابوي في هذه الحملة ، والذي كان حتى وفاته يقوم بدور الزعيم الروحي لهم ولم تلبث ان ظهرت الاتجاهات الشخصية

---

(١) سعيد عاشور . الحركة الصليبية : ١ / ٢٤٢ ــ ٢٤٤ .

(٢) ابن الاثير . الكامل حوادث سنة ٤٩٢ هـ .

(٣) خاشع المعاضيدي . الحياة السياسية في بلاد الشام / ١٣٠ .

القوية لدى الامراء الصليبيين على السلطة في بيت المقدس حتى تمكن جودفري من الانفراد بها ، وكان وصفهم هذا مثلما فعله بلدوين البولوني في الرها وبوهيمند في انطاكية وما اراد ان يفعله جودفري في جيله وريموند في عرقه(١).

وقد تدارس زعماء الحملة الصليبية في اجتماع لهم في بيت المقدس اسلوب تنظيم فتحهم الجديد واختلفوا حول نوع الحكومة لدولتهم الجديدة ، .هي حكومة دينية تخضع لاشراف الكنيسة ، ام حكومة علمانية تستطيع الدفاع عن هذه الدولة ضد اعدائها المحيطين بها ، خاصة وهي تقوم في بقعة بمثابة القلب من العالم الاسلامي ، فاتجهت الاراء نحو اختيار احد الامراء العلمانيين لتنظيم امور الدولة الجديدة ، وهنا بدأت مشكلة اخرى ، وهي اي الامراء من هؤلاء القادة سيكون زعيم هذه الدولة دولة بيت المقدس الصليبية الجديدة ؟ وكلهم يتطلع اليها ونتيجة المناقشات والمنازعات انحصرت المنافسة بين اثنين منهم ، هما ريموند وجودفري ، ورغم ان ريموند كان اوفر ثروة ، واكثر قوة من منافسه ، فضلاً عن قوة شخصيته ومرونته السياسية الا ان الرأي اتجه نحو جودفري لأن الاول كان ، مع صفاته القوية ، يفضل التحالف مع الدولة البيزنطية(٢).

وعندما فاز جودفري في حكم دولة بيت المقدس لم يحمل لقب ملك بل اكتفى باتخاذ لقب (حامي بيت المقدس) . ومن الواضح فان هذا اللقب يعني الاعتراف بأن هذه الدولة ليست لها صفة سياسية بحتة انما لها صفة دينية تعطي للكنيسة نوعاً من الاشراف عليها .

ولما استقر الحكم لجودفري في بيت المقدس قصد ارسوف وحاصرها مدة شهرين وضيق عليها الحصار ، فاضطر اهلها الى الاستسلام بالامان كما افتتح الصليبيون حيفا وواصلوا بسط سلطانهم على مدن فلسطين تباعاً . فأخذوا الجليل ثم طبريا وارغموا اهلها على مغادرة البلاد .

على ان الصليبيين الذين لاقوا مقاومة من سكان مدن الساحل السوري وبعض النجدات لهم من قبل الفاطميين الضعيفة ، فانهم لم يجدوا نفس الصعوبة في تحقيق اهدافهم التوسعية ، في النواحي الداخلية لبلاد الشام ، لعدم وجود مقاومة اسلامية قوية هناك(١).

ولما قتل جودفري حاكم بيت المقدس من جراء سهم اصابه وهو يحاصر مدينة

---

(١) رنسيمان ، الحروب الصليبية ، ١/ ٢٨٩ .

(٢) حسن حبشي ، الحرب الصليبية الاولى / ١٩٤ .

(١) ابن القلانسي ، ص ١٣٩ ، ابن ظافر ، الدول المنقطعة ، ص ٨٣ .

عكا سنة ٤٩٤ هـ ، اختلف زعماء الصليبيين مرة اخرى وتنافسوا على حكم بيت المقدس ، فلما بلغت اخبارهم الى الرها ، قرر صاحبها الامير بلدوين ـ وهو اخو الامير جودفري ـ الزحف على بيت المقدس والانفراد بحكمها ، باعتباره الوريث الشرعي لاخيه جودفري ، فسار اليها من الرها ، في خمسمائة فارس وراجل ، ودخلها في التاسع من شهر نوفمبر سنة ١١٠٠ م / سنة ٤٩٥ هـ ، واعلن نفسه ملكاً على بيت المقدس ، كما اعلن قادة الصليبيين هناك ولاءهم له ، وبذلك تحولت امارة بيت المقدس على يد الامير بلدوين الى مملكة لاتينية(٢).

واصل بلدوين ملك بيت المقدس ، سياسته التوسعية في فلسطين ، وعمل على تحقيق الكثير من اهداف الصليبيين في هذه البلاد فكانت مدينة عكا من بين اهدافه الاساسية ، خاصة وان اخاه جودفري امير بيت المقدس قبله ، كان قد فشل في الاستيلاء عليها عندما حاصرها سنة ٤٩٤ هـ ، وقتل خلال هذا الحصار ، فسار اليها الملك بلدوين بقوات بحرية وبرية ، وحاصرها بعد ان ملك ثغر جبيل ، وظل الصليبيون يقاتلون عكا ، حتى عجز واليها ورجاله عن حربهم ، كما ضعف اهلها عن مواصلة القتال ، وبذلك تيسر للصليبيين الاستيلاء عليها سنة ٤٩٧ هـ ، وانسحب واليها من قبل الفاطميين لعجزه عن حمايتها ، وكان قد التمس من الصليبيين الامان له ولاهل عكا ، وخرج منهزماً الى الاتابك طغتكين ، وظل مقيماً فيها حتى تمهدت له السبل في العودة الى مصر ووصلها سالماً(١).

ولما استقرت الامور للصليبيين في بيت المقدس وما جاورها ، عملوا على الاستيلاء على بقية مدن فلسطين ، ولم يواجهوا صعوبات كبيرة في تحقيق هذه المهمة ، لأن سقوط بيت المقدس بايديهم ، احدث موجة من الرعب في نفوس اهالي المدن والقرى القريبة والبعيدة ، فاسرع اهل نابلس الى الاستسلام لهم ، وارسلوا وفداً الى الصليبيين يدعوهم لاستلام المدينة ، فتم لهم ذلك سنة ١٠٩٩ م ثم سارت قوات الصليبيين الى قيسارية ومنها الى الرملة ، ثم ساروا الى عسقلان ، وباغتوا القوات الفاطمية هناك ، وكان يقودها الوزير الافضل بن بدر الجمالي ، ودارت معركة بين الطرفين في ١٢ اغسطس سنة ١٠٩٩ ، حلت الهزيمة بالفاطميين ، وهرب قائدهم الافضل الى مصر وتمكنت سيوف الافرنج من المسلمين في عسقلان(٢).

---

(٢) ابن القلانسي ، ص ١٣٨ ـ ١٣٩ .

Combridge; Mid, Hist. Vol. 5, P. 301

(١) ابن ميسر ، اخبار مصر ، ص ٤١ ، خاشع المعاضيدي ، الحياة السياسية ، ص ١٣٦ .

(٢) ابن القلانسي ، ص ١٣٧ ، ابن ميسر ، اخبار مصر ، ص ٦٤ .

٥ ـ امارة طرابلس

عمل ريموند الصنجلي ، وهو احد اهم القادة الصليبيين ، على اقامة امارة له في بلاد الشام شأنه في ذلك شأن معظم زعماء الحملة الصليبية الاولى ، فلم يسعفه الحظ باقامة هذه الدولة في انطاكية ، التي انفرد بها القائد الصليبي بوهيمند فحاول ريموند العمل على تحقيق حلمه في اقامة امارة له ، على حساب امارة حلب الاسلامية ، وخاصة حول البارة ومعرة النعمان لكنه لم ينجح في مسعاه ، فاتجهت انظاره الى ساحل بلاد الشام ، وقصد انطرسوس وعرقة ، فلم ينجح ايضاً ، فلما احتل الصليبيون بيت المقدس ، طمع في امارتها ورشح نفسه لها ، لكنه لم يوفق ، امام منافسه الامير جودفري ، وبذلك ضاعت منه فرص عديدة في هذا الشأن فوجه سياسته الى مهاجمة النفوذ الفاطمي في ثغور الساحل السوري ومال في سياسته كثيراً في التقرب من الدولة البيزنطية والتعاون معها ، بعد ان خذله اصحابه الصليبيون مراراً ، لتحقيق اهدافه ومطامعه المنسجمة مع اهداف واطماع البيزنطيين في بلاد الشام .

لكن ريموند الصنجيلي ، ادرك اخيراً ، ان سياسة التحالف مع الدولة البيزنطية ، لاتحقق اهدافه في اقامة امارة خاصة به في بلاد الشام ، لذلك مال الى التعاون والتفاهم مع القادة الآخرين من الصليبيين الموجودين في بلاد الشام ، وعندما سار ببقية حملته من انطاكية الى بيت المقدس ، لاداء فريضة الحج سنة ١١٠١ م فكر في الاستيلاء على انطرسوس ، فحاصرها واستولى عليها سنة ١١٠٢ م واتخذها قاعدة لاعماله ومشروعاته المقبلة على ساحل الشام ، وكان اول هذه المشروعات ، هو الاستيلاء على مدينة طرابلس نفسها .

فلما استقر ريموند في انطرسوس ، واخذ يصرُّ في عناد على الاستيلاء على طرابلس ، استعد صاحبها القاضي ابو علي بن عمار (١٠٩٩ ـ ١١٠٨ م) والذي عرفت سياسته بالمهادنة والمسالمة مع جميع القوى المتنازعة في بلاد الشام ، الداخلية منها والخارجية استعد للدفاع عن مدينته واتجه الى التعاون التام مع القوى الاسلامية في المنطقة ضد الخطر الجديد ، فاستنجد بالامراء المحليين في هذه الديار ، فاجتمع له عدد كبير من المسلمين ، ودارت معركة بينه وبين الصليبيين الغزاة ، انتصر فيها الصليبيون ، وقتل من المسلمين سبعة آلاف ، وارتد الباقون داخل اسوار طرابلس اما ريموند والصليبيون ، فقد واصلوا حصارهم لطرابلس ولما لم يستطيعوا دخولها ، اضطروا الى الاكتفاء بقبول الجزية من المال والخيل ، وانسحبوا بعد ذلك عن طرابلس الى انطرسوس سنة ١١٠٢ م(١).

---

(١) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، : ١ / ٣٥٥ ـ ٣٥٦ .

حاول ريموند بعد مهادنة ابن عمار صاحب طرابلس، ان يغزو بلاد سهل البقاع، فهاجم حصن الطوبان، ثم حصن الاكراد، وهي ضمن ممتلكات امير حمص الاسلامية المدعو جناح الدولة، ثم هاجم الصليبيون جبيل التي اضطرت الى الاستسلام لهم بالامان سنة ١١٠٤ م(١)

حقق ريموند الصنجلي باستيلائه على انطرسوس في الشمال من طرابلس، وعلى جبيل في الجنوب منها، الاطار الخارجي لامارة طرابلس المقبلة، ولم يبق امامه لتحقيق هذه الغاية سوى الاستيلاء على العاصمة الطبيعية لتلك الامارة، وهي مدينة طرابلس نفسها، ولما كانت هذه المدينة محصنة تحصيناً طبيعياً، يجعل من الصعب الاستيلاء عليها لذلك لجأ ريموند الى بناء قلعة او حصن في مواجهة طرابلس، على الجبال المواجهة لها، اسماها المسلمون، قلعة صنجيل نسبة الى ريموند الصنجيلي وكان ريموند يهدف من ذلك احكام الرقابة على طرابلس وقطع اتصالها بالعالم الخارجي، وكان الامبراطور البيزنطي قد اعانه على بنائها، حيث امده بالميرة والاخشاب والمعدات اللازمة، وبذلك لم يبق امام ابن عمار في طرابلس من المنافذ سوى البحر، ومع ذلك فقد مال النصارى داخل طرابلس الى جانب الصليبيين وخاصة الموارنة منهم، فهاجم ابن عمار وجنده قلعة الصليبيين ليلاً، وكان ريموند الصنجيلي فيها، فاصيب بجروح خطيرة، وتوفي على اثرها وذلك سنة ٤٩٧ هـ / سنة ١١٠٥ م، بعد ان حلت الهزيمة بجنده، فلم يستطع تحقيق امنيته في الاستيلاء على مدينة كبرى من مدن الشام كانطاكيا وبيت المقدس، ليتخذها مركزاً لامارته المنشودة

واذا كانت مدينة طرابلس ذاتها قد صمدت امام الصليبيين ـ لهذا الوقت ولم تسقط بايديهم قبل وفاة ريموند ـ الا ان لريموند الفضل الاول بالنسبة للصليبيين في تأسيس الامارة الرابعة. فيما بعد، بطرابلس فهو الذي وضع الاطار العام لحدودها وسهل مهمة الاستيلاء عليها من قبل خلفائه فيما بعد(٢).

ولما توفي ريموند، اجتمع فرسانه وقادة جيشه واختاروا وليم جوردان لقيادتهم خلفاً لابن خالته ريموند فأستأنف جوردان سياسة سلفه ريموند في التحالف مع البيزنطيين من جهة، واستمر في احكام الحصار على مدينة طرابلس من جهة اخرى وبدأت مناوشاته معها سنة ٤٩٨ هـ، فلما اشتد الحال على اهل طرابلس من جراء هذه الحروب مع الصليبيين، استنجد اميرهم ابن عمار، بصاحب الامير رضوان بن

---

(١) ابن الاثير، الكامل، حوادث سنة ٤٩٧ هـ.

(٢) ابن القلانسي، ص ١٤٦ ـ ١٤٧.

تاج الدولة تتش السلجوقي فخرج اليه الامير رضوان بجمع كبير من الجند لمعاونته ضد الصليبيين (١)

غير ان الحصار الصليبي ، اشتد على طرابلس ، وندرت الاقوات فيها وخشي الناس على اهلهم واموالهم ، وتعذر وصول الامدادات اليهم من الفاطميين في مصر وولاتهم ببلاد الشام ، وانشغل جميع المسلمين في هذه الديار بالاشتباكات مع الصليبيين ، لذلك اتجهت انظار امير طرابلس الى بغداد ، لطلب النجدة والمساعدة ، من الخليفة العباسي المستظهر بالله والسلطان السلجوقي محمد بن ملكشاه (٢).

وقد خرج ابن عمار بنفسه من طرابلس سنة ٥٠١ هـ قاصداً بغداد بعد ان اناب عنه في تدبير امور طرابلس ، ابن عمه ، ابا المناقب ابن عمار ، فلما بلغ دمشق ، اكرمه صاحبها ، وكذلك فعل السلطان السلجوقي ببغداد ، وعهد لبعض امرائه بالمسير مع ابن عمار ، فعاد ابن عمار الى دمشق من بغداد ، في طريقه الى طرابلس بعد ان اطمأن الى مساعدة السلطان له ، وفي هذه الاثناء ، انحاز نائبه ابو المناقب بن عمار الى جانب الفاطميين في مصر ، ذلك لان اهل طرابلس ، كانوا قد طلبوا المساعدة من الفاطميين ايضاً لما ضاق بهم الحال من جراء الحصار الصليبي ، فارسل الفاطميون والياً عليها من قبلهم تمكن من استلام طرابلس من ابي المناقب ، نائب اميرها فخر الملك بن عمار الذي اتجه الى بغداد لطلب النجدة والمساعدة وتم ذلك قبل عودته الى طرابلس (٣).

اما الصليبيون ، فقد جمعوا شملهم في بلاد الشام ، ووصلت امداداتهم وجموعهم لاخوانهم المحاصرين لطرابلس سنة ٥٠٢ هـ فوصلت امدادات جنوة عن طريق البحر اليهم ، ووصل تنكرد صاحب انطاكية ، كما وصل بلدوين ملك بيت المقدس في عسكره ، ونزلت جموع الصليبيين بعد ان سوّى زعماؤهم خلافاتهم ، على طرابلس ، وشرعوا في حصارها ، ومضايقة اهلها ، فلما اشتد الحصار على هذه المدينة العربية الصامدة ، وتباطأ الفاطميون في ارسال الاسطول ، وتأخر وصول النجدة والميرة الى اهلها ، كما لم تصل الامدادات من بغداد ، اضطر اهل طرابلس الى الاستسلام واستولى الصليبيون على مدينتهم سنة ٥٠٢ هـ ، ونهبوا مافيها واسروا رجالها ، وسبوا نساءها واطفالها وغنموا من اموالها وامتعتها الكثير ، وسلم واليهاالفاطمي وجماعة من جنده ، كانوا قد التمسوا الامان قبل فتحها ، ورحلوا عنها قاصدين دمشق ، ولا شك

---

(١) ابن الاثير . الكامل . : ١٠ / ٤١٤

(٢) Stevenson: The Crusaders in the East, P. 56.

(٣) ابن الاثير ١٠ / ٤٥٤ ، ابن ميسر . اخبار مصر ، ص ٣٢ .

فان عدم مسارعة الفاطميين للدفاع عن طرابلس ، كان من بين العوامل التي ادت الى سقوط المدينة بايدي الصليبيين اضافة الى عدم وصول الامدادات الفعلية من بغداد عاصمة الخلافة العباسية (١).

وهكذا سقطت مدينة طرابلس بايدي الصليبيين بعد ان صمدت في مقاومتهم مدة تزيد على ستة اعوام ، وكانت الظروف قد شاءت ان تكون طرابلس آخر مدينة كبرى في بلاد الشام تسقط بايدي الصليبيين ، وآخر امارة كبرى يؤسسها الصليبيون في هذه الديار ، بعد الرها وانطاكية وبيت المقدس. ولكنها في الوقت ذاته كانت آخر امارة صليبية في بلاد الشام ، استردها المسلمون عندما بدأت دويلات الصليبيين تتهاوى امام المسلمين منذ اواخر القرن الثالث عشر الميلادي ، فامارة الرها التي اقامها الصليبيون على حساب المسلمين سنة ١٠٩٨ م ، عادت الى المسلمين سنة ١١٤٤ م ، وانطاكية التي غزاها الصليبيون سنة ١٠٩٨ م استعادها المسلمون سنة ١٢٦٨ م ، وبيت المقدس التي استولى عليها الصليبيون سنة ١٠٩٩ م استردها المسلمون سنة ١١٨٧ م ، اما طرابلس التي لم تقع بايدي الصليبيين حتى سنة ١١٠٩ م فقد ظلت باقية في حوزتهم حتى استعادها المسلمون سنة ١٢٨٩ م (١).

ولما تم للصليبيين الاستيلاء على طرابلس ، ساروا نحو بانياس ، فاخذوها بالامان سنة ٥٠٢ هـ ثم نزلوا على ثغر جبيل ، فأخذوه بالامان ايضاً ، وواصلوا زحفهم للاستيلاء على مدن الساحل السوري الخاضعة للنفوذ الفاطمي تباعاً ، فنزلوا على ثغر بيروت سنة ٥٠٣ هـ وحاصروها واخذوها عنوة واضطر واليها الفاطمي على الفرار منها مع جماعة من اصحابه (٢).

ثم ان الصليبيين لما استولوا على بيروت ، ورتبوا امورها ، ساروا الى صيدا فحاصروها واخذوها صلحاً على جزية سنوية ، وخرج واليها وجميع الجند وكثير من اهلها الى دمشق ، ثم سار الصليبيون بعد ذلك الى عسقلان سنة ٥٠٤ هـ ، وكانت لاتزال خاضعة للفاطميين وتم الاتفاق بين الجانبين الصليبي والفاطمي على المهادنة ، على مال يحمله والي عسقلان الى الصليبيين شريطة ان يرحلوا عنها (٣).

وكان الصليبيون ، قد استولوا على معظم مدن الشام الداخلية والساحلية سنة ٥٠٤ هـ ، فأخذوا صيدا بالامان ، وصالحهم امير حلب رضوان بن تاج الدولة السلجوقي ، على اثنين وثلاثين (٣٢) الف دينار ، كما صالحهم ابن منقذ صاحب حصن شيزر

---

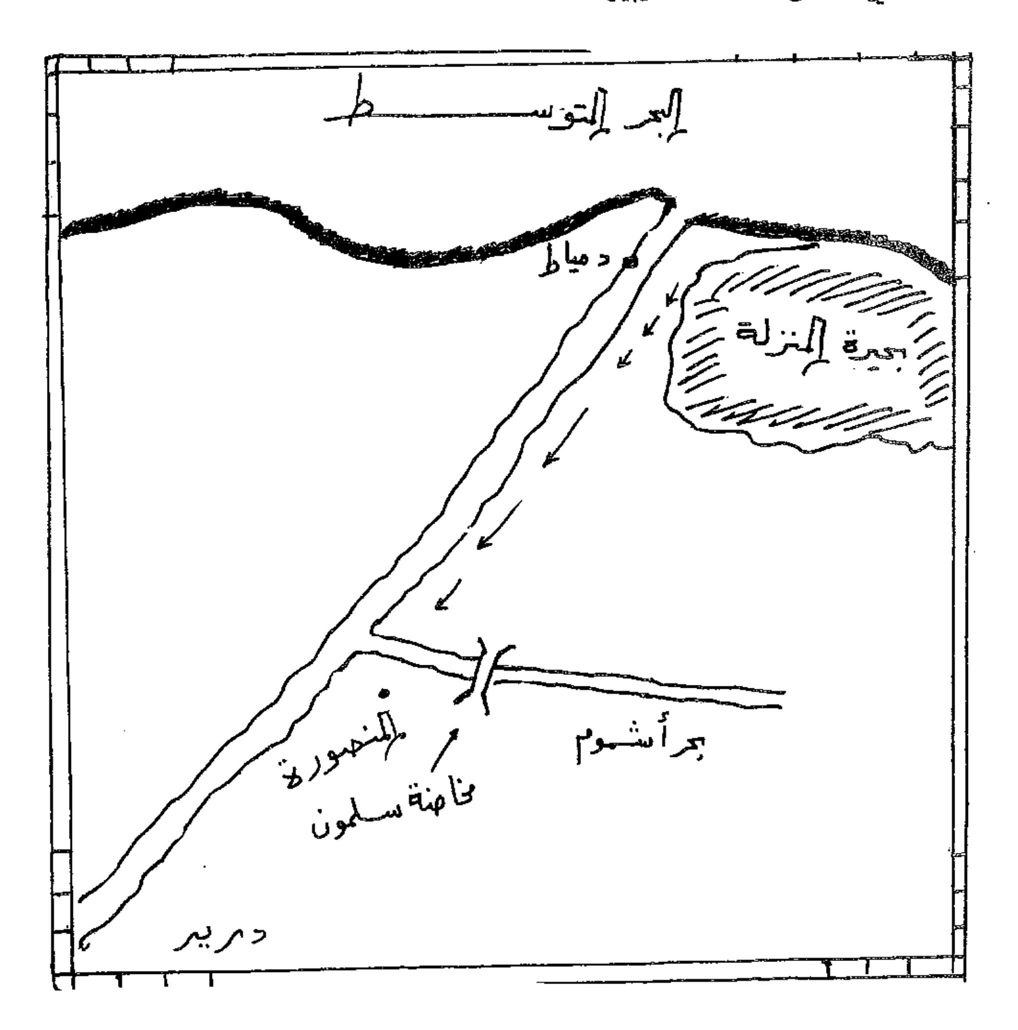
(١) ابن القلانسي ، ص ١٦٣ ، ابو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ٥ / ١٧٩

(١) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ١ / ٣٦١ .

(٢) ابن العبري ، تأريخ مختصر الدول ، ص ٣٤٦ .

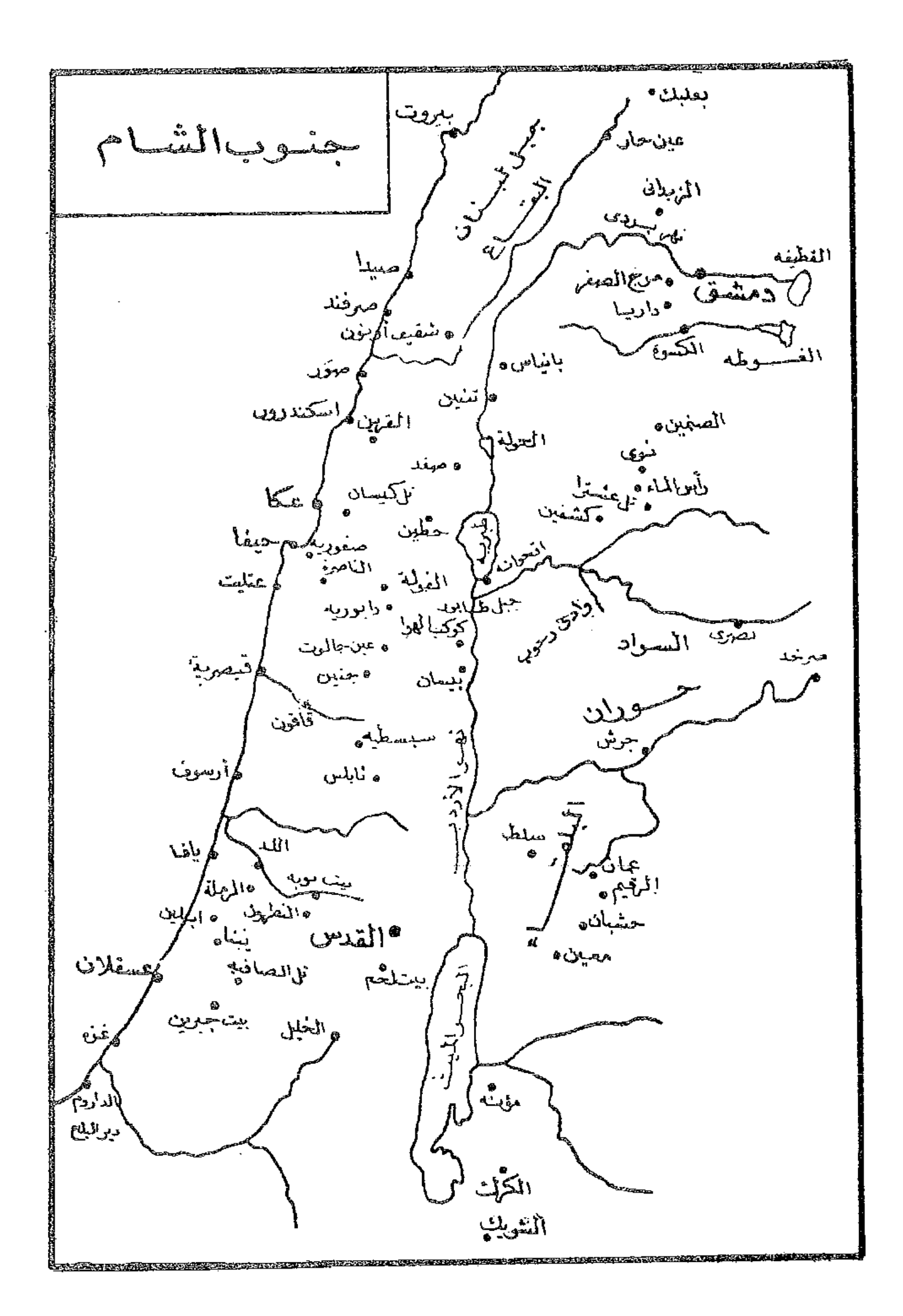
(٣) ابن الاثير ، ٢٠ / ٤٨٠ ــ ٤٨١ .

على اربعة الاف دينار ، كذلك صالحهم صاحب صور على سبعة الاف دينار ، وصالحهم صاحب حماة على الفي دينار ، ثم حاصر الصليبيون صور سنة ٥٠٥ هـ ، وكانت لاتزال في حوزة الفاطميين ، ولم يتمكنوا من الاستيلاء عليها حتى سنة ٥١٨ هـ ، ثم كانت عسقلان آخر مدن الساحل السوري التي ظلت خاضعة للنفوذ الفاطمي ، حتى أخذها الصليبيون سنة ٥٤٨ هـ(١).



---

(١) ابن القلانسي ، ص ٢٢١ . ابن العديم . تأريخ حلب ، ١٥٧ / ١٥٨ .



جنوب الشام
بيروت
بعلبك
عين حار
جبل لبنان
البقاع
الزبداني
نهر بردى
القطيفه
صيدا
صرفند
شقيف أرنون
مرج الصفر
دمشق
داريا
الكسوة
بانياس
تبنين
صور
اسكندرونه
القرين
الحولة
الصنمين
نوى
صفد
رأس الماء
تل عشترا
عكا
تل كيسان
كشفين
حطين
صفورية
حيفا
الناصرة
عثليت
الفولة
جبل طابور
دابوريه
كوكب الهوا
السواد
بصرى
صرخد
عين جالوت
قيسارية
جنين
بيسان
حوران
قاقون
سبسطيه
نهر الأردن
جرش
أرسوف
نابلس
سلط
اللد
يافا
بيت نوبه
عمان
الرقيم
الرملة
النطرون
يبنا
حسبان
القدس
معين
عسقلان
تل الصافية
بيت لحم
البحر الميت
بيت جبرين
الخليل
غزة
الداروم
دير البلح
مؤته
الكرك
الشوبك

خامساً ـ المقومات السياسية والعسكرية والمالية للممالك الصليبية

بعد ان أقام الصليبيون ممالكهم الاربع ، الرها وانطاكية وبيت المقدس وطرابلس استطاعوا الاستيلاء على مناطق واسعة من بلاد الشام والجزيرة الفراتية . وسرعان ما اصبحت هذه الممالك بعد توسعها وتوطدها ، تشكل خطراً كبيراً على البلاد الاسلامية ثم اخذ هذا الخطر يتوسع يوماً بعد آخر نتيجة لمواقف القوى الاسلامية غير الموحدة .

واستغل الصليبيون الظروف التي كانت تواجه العالم الاسلامي بتوسيع نطاق نفوذهم والاستحواذ على مصادر الثروة والرخاء .

وكانت تواجه الصليبيين في باديء الامر ، مشكلة اساسية ، هي تحديد وضع البلاد التي استحوذوا عليها وطريقة تنظيمها وكيفية بناء دولة غربية على ارض شرقية ، تتألف من تلك العناصر المشتتة والمتباينة التي جرفها تيار الدعوة الصليبية من غرب اوربا ، ليلقى بها جميعاً في صعيد واحد(١) ولعل الصليبيين تمكنوا في نهاية الامر من تذليل هذه الصعوبات بفضل المساعدات التي تلقوها من الدولة البيزنطية وبفضل كثرتهم وتفرق وحدة المسلمين من الناحيتين السياسية والعسكرية .

لقد كانت البابوية ترمى الى اقامة حكومات ثيوقراطية في الشرق الاسلامي تجمع بين السلطتين الدينية والزمنية ، ولكن قوة الاحداث والمطامع الدنيوية التجارية للامراء الذين قادوا حشود الصليبيين ، جعلتهم يحققون اطماعهم بما انشأوه من هذه الممالك التي بدأت تتركز فيها السلطة الزمنية(٢) ، كما تحقق للمدن الايطالية التجارية التي بذلت مساعداتها للصليبيين ، ماكانت تبتغيه من حقوق وامتيازات في الاملاك الصليبية في الشرق الاسلامي .

مملكة الرها :

تبين لنا من قبل ان امارة الرها كانت من اولى الامارات التي أسسها بلدوين لي بور في جهات اعالي الجزيرة الفراتية ٤٩٢ هـ / ١٠٩٨ م(١) ، كما أنها من اول الامارات التي سقطت بيد الجيش الاسلامي سنة ٥٣٩ هـ / ١١٤٤ م .

---

١ ـ ده . سعيد عبد الفتاح عاشور ، الحركة الصليبية ، ١ / ٢٤٠ .

٢ ـ ارنست باركر ، الحروب الصليبية ، ص ٦ ـ ٧ .

١ ـ منح السلطان السلجوقي ملكشاه ، الرها الى قائده التركي بوزان (بزان) سنة ٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ م ، ونتيجة =

لقد قامت سياسة بلدوين لي على اساس الربط بين العناصر المختلفة التي صارت تتألف منها الامارة ، وخاصة الصليبيين والارمن ، كما استهدفت سياسته الربط بين العنصرين غير انه كان حريصاً على ان يظل العنصر الارمني خاضعاً للعنصر اللاتيني الغربي لذلك جذب بلدوين عدداً كبيراً من الصليبيين الغربيين واغدق عليهم المنح والاموال . فعاش هؤلاء بعيداً عن الاختلاط بالارمن مما اساء كثيراً الى شعورهم(٢) وكون الصليبيين في الرها طبقة ارستقراطية عسكرية تحكم شعباً من الارمن يشتغل افراده بالتجارة والزراعة وسرعان ما استولى الوافدون الجدد من الصليبيين على الضياع الزراعية التابعة للرها خارج اسوارها واضطر من عليها من الفلاحين الارمن ، الى العمل في ظل قيود النظم الاقطاعية المعروفة في الغرب الاوربي .

ومن الجدير بالذكر ان بلدوين لي بور البولوني اصبح سيد الرها وحاكمها المطلق واستطاع ان يحقق آماله ووصل الى اهدافه . بل انه كان اول امير من زعماء الحملة الصليبية الاولى ، استطاع ان يمكن لنفسه في الشرق ويحقق اطماعه السياسية بتأسيس امارة لنفسه ينفرد بحكمها(٣) وتعتبر الرها امارة حاجزة تحمي انطاكية من المسلمين وهي اكبر منها حيث تمتد على جانبي نهر الفرات من رواندان وعينتاب الى موضع غير معروف بالجزيرة الى الشرق من مدينة الرها . وقد افتقرت الى حدود طبيعية والى التجانس بين عناصر سكانها ودخل في نطاقها مدن اسلامية مثل سروج ، وتولى الجند جباية الضرائب والجزية من القرى المجاورة وهذه المنطقة بأكملها اعتبرت اقليم حدود واشتملت على اراضي خصبة ومدن زاهرة وكفلت الضرائب الحكومة الرها مورداً مالياً وافراً وكان لبلدوين لي بور من الثروة وهو كونت الرها ما يزيد على ثروته بعد ان اصبح ملك بيت المقدس(١).

واخذت الروابط الاقطاعية لهذه الامارة مع مملكة بيت المقدس بالوهن تدريجياً

للنزاع الذي استحكم في تلك الفترة بين امراء السلاجقة حول الممتلكات والاقطاعات . فقد تمكن ثوروس Thoros ابن هيثوم وهو زعيم ارمني من الوصول الى حكم الرها سنة ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م وقد تنازل ثوروس الى بلدوين لي بور البولوني بحكم الرها سنة ٤٩٢ هـ / ١٠٩٨ م لكي لا يكتسحها المسلمون ، وهم يعدون جيشاً كبيراً لانقاذ انطاكية من الخطر الصليبي . وعندما تولى بلدوين حكم الرها ، أحس بضرورة القيام ببعض الاعمال التي تعلي من شأنه في نظر رعاياه الجدد من الارمن وتضفي الى حكمه في الرها قسطاً من الشرعية والاهمية . انظر عاشور . الحركة الصليبية ١ / من ١٧٣ ـ ١٧٩ .

٢ ـ وقد ضرب بلدوين نفسه مثلاً لهذا الترابط بزواجه من الاميرة اردا ARDA وهي إبنة احد زعماء الارمن من . م . ص ١٨٠ ـ ١٨١ .

٣ ـ انظر عاشور . الحركة الصليبية : ١ / ٧٠ ـ ١٧٦

١ ـ رنسيمان . تاريخ الحروب الصليبية . ٢ / ٠٤ .

منذ أواخر حكم بلدوين الثاني ، وقد فضل اميرها جوسلين ان يكون تابعاً مباشراً لانطاكية بدلاً من القدس سنة ٥٣٥ هـ / ١١٤٠ م .

لقد اصبحت امارة الرها اهم مراكز الصليبيين ، وذلك بوصفها قاعدة لاحدى امارتهم الاربع في الشرق الاسلامي ، ولقربها من العراق وقوة تحصيناتها ، كما اصبحت امنع معاقلهم(٢) فقد اصبحت على جانب كبير من الاهمية في حماية ممتلكات الصليبيين في الشام ضد اي هجوم يأتي من الشرق(٣) . ويمثل جوسلين صاحب الرها ، مصدر خطر في انحاء بلاد الشام وديار بكر ، وفي عهد ابنه جوسلين الثاني ، استطاع المسلمون ان يحاصروا هذه الامارة ويسقطوها فأنهارت بذلك دعامة من دعائم المملكة اللاتينية ، واصبح وادي الفرات خالصاً للمسلمين وعلى اية حال فأمارة الرها الصليبية لم تدم طويلاً بسبب تذبذب الارمن وموقفهم غير الواضح من الصليبيين والمسلمين على حد سواء ، وبسبب اهميتها التجارية لوقوعها على الطريق التجاري الكبير الذي يمتد على نهر الفرات مروراً بالرقة وانطاكية ودمشق ، وتسابق القوى السياسية في المنطقة للاستحواذ عليها .

تعتبر انطاكية من المدن المهمة فهي وفيرة الثروة اشتهرت مصانعها بما تنتجه من المنسوجات الحريرية والبسط والزجاج والفخار والصابون ، وهي المركز الرئيسي للتبادل التجاري بين الدولتين الاسلامية والبيزنطية . وكانت القوافل التجارية القادمة من حلب والجزيرة تجتاز ابواب انطاكية في طريقها الى البحر المتوسط . انشأ هذه الامارة بوهمند النرمندي الذي اطلق عليه الصليبيون لقب (أمير انطاكية) اعترافاً منهم بأن الفضل الاول في الاستيلاء على المدينة وانتزاعها من المسلمين انما يرجع اليه(٤) وقد اسسها على الرغم من معارضة رفيقه القائد الصليبي ريموند كونت تولور(١) . وانطاكية مدينة قديمة ، لها تاريخها الحافل واهميتها الكبرى في نظر المسيحيين ويكفي انها كانت ثالث مدن العالم في عصر

---

٢ ـ عماد الدين خليل . عماد الدين زنكي ص ١٤٩ .

٣ ـ عاشور . الحركة الصليبية ١ / ص ١٧٧ ، كانت مدينة الرها من اول البلدان التي قامت بها جالية مسيحية كبيرة في الشرق الادنى . كما ترجمت فيها اجزاء من العهد الجديد الى اللغة السريانية .

Burkit: Early Eastern christianity

(4) Grousset, Histoire des Groiades, Vol. 1. P. 109.

١ ـ وتم ذلك نتيجة لخيانة فيرزو احد قادة ياغي سيان صاحب انطاكية من قبل السلاجقة . وكان فيروز ارمنيا ارمنياً اعتنق الاسلام وارتقى الى وظيفة كبيرة في الحكومة وعلى الرغم من ـ تظاهره بالولاء لسيده فانه كان شديد الحقد والبغضاء له . لأنه فرض عليه اخيراً غرامة لاختزانه القمح . فاتفق فيروز مع بوهيمند على خطة معينة للدخول الى المدينة واحتلالها وبذلك استطاع ان يؤسس امارة له رنسيمان . تاريخ الحروب الصليبية ١ / ص ٣٢٧ ـ ٣٣٤

الامبراطورية الرومانية . فضلاً عن انها المدينة التي اطلق فيها على اتباع المسيح لاول مرة اسم المسيحين ، واسس فيها القديس بطرس اول أسقفية له حتى الفتح الاسلامي للمنطقة في القرن السابع وعندئذٍ فقدت ملتقى الحضارتين اليونانية والعربية(٢). وكان سقوط انطاكية بيد الصليبيين قد اثار موجة من الذعر في البلدان الاسلامية كما كان له دوي هائل في العالم المسيحي لا يفوقه الا أثر سقوط بيت المقدس بأيدي الصليبيين(٣) ولأنها كانت « مفتاح بلاد الشام » على حد قول المؤرخين(٤).

وتميز تاريخ امارة انطاكية بالصراع الحاد مع الاباطرة البيزنطيين فأهم ماتعرضت له من خطر خارجي جاء أساساً من قبل بيزنطة ، فقد اصبحت قليقية واللاذقية خاضعة للامبراطور البيزنطي الكسيوس ، وكان الارثوذكس داخل انطاكية يحرصون على ان يشهدوا عودة الحكم البيزنطي اليها(٥).

اما علاقتها بمملكة بيت المقدس فكانت تدين لهذه الاخيرة بالتبعية ولكن من الناحية النظرية فقط ، نظراً لما كان لمملكة بيت المقدس من تأثيرات سياسية ودينية تتيح لها ان تفرض نفوذها على الممالك الصليبية وتعترف لها بالتبعية ، كما ان لها الحق في ان تكون وصية عند شغور العروش لهذه الممالك ، ومن واجبات ملك بيت المقدس ، التوفيق بين انطاكية والرها كلما وقع الخلاف او القتال بينهما(٦).

اما فيما يتعلق بالتنظيمات الداخلية لامارة انطاكية ، فقد اتخذت النظام البيزنطي بما اتصف به موظفو المكاتب من كفاية وبما اشتهروا به من اساليب بارعة في جباية الضرائب فلكل من انطاكية واللاذيقية وجبله ، دوق خاص له مطلق السلطة . وورث امراء انطاكية النظام البيزنطي ايضاً في تقدير الضرائب وجبايتها ، ولبيت المال عندهم جهازه الاداري ولا يعتمد في تحصيل الخراج على المحاكم المحلية مثلما كان سائداً في بيت المقدس . وقام امراء انطاكية بتوجيه سياستهم كيفما شاءوا دون ان يحفلوا بالمحكمة العليا في بيت المقدس فعقدوا معاهداتهم مع الدول الاجنبية(١) واتاح ذلك للتجار الجنوبيين ان يعقدوا اتفاقيات

---

٢ ـ عاشور ، الحركة الصليبية ١ / ص ١٩٨

٣ ـ ابن العديم ، زبدة الحلب في تاريخ حلب ٢ / ص ١٣٥

٤ ـ

(4) Chalandon, Premiere Grc.sade, P. 181

٥ ـ رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ٢ / ص ٢٣

٦ ـ ارنست باركر ، الحروب الصليبية ص ٥٣

١ ـ رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ٢ / ص ٤٩٣

تجارية مع صليبي انطاكية وقدم كثيراً من هؤلاء الجنوبيين بسفنهم وحرصوا على ان يكونون اول من يظفرون بتجارتهم فمنحهم اميرها عهداً يقضي بأن يكون لهم سوق وكنيسة وثلاثون بيتاً ومنذئذٍ صار الجنوبيون يدافعون عن دعاوي امير انطاكية فأصبح في وسعه ان يرتكن الى تأييدهم(٢).

مملكة طرابلس :

ظهرت مملكة طرابلس على اثر استيلاء الصليبيين على مدينة طرابلس وانتزاعها من الجيش الاسلامي الذي حشدته الدولة الفاطمية للدفاع عنها وأستهدف الصليبيون تكوين امارة صليبية في طرابلس تدين بالتبعية لمملكة بيت المقدس ، مما جعلهم يكرسون كل قواتهم لاسقاط المدينة .

وكانت هذه المدينة تحت حكم فخر الملك ابي علي بن عمار الذي حاول عبثاً الاحتفاظ بها عن طريق التقرب من الصليبيين ، اذ مثل ريموند الصنجيلي الخطر الاكبر على طرابلس منذ ٤٩٣ هـ / ١٠٩٩ م حتى وفاته سنة ٤٩٩ هـ / ١١٠٥ م ، وقد عزم سنة ٩٤٧ هـ / ١١٠٣ م على احتلال طرابلس ، فأقام معسكراً في ارباض المدينة وشرع في تشييد قلعة على تل بمسافة ثلاثة اميال من المدينة ، وفي السنة التالية اكتمل بناء القلعة التي سميت قلعة الصجيل (سان جيل) وقد اضحت طرابلس في حالة حصار ، ولكنها ظلت صامدة لقوة استحكاماتها وسيطر ريموند على جميع الطرق المؤدية اليها ولازال بنو عمار بفضل ثرواتهم الوافرة يسيرون اسطور تجارياً ضخماً ويجلبون الى مدينتهم المون والتجارات من الموانيء المصرية الواقعة الى التجنوب منهم(٣).

ويبدو ان الصليبيين لم يكونوا قادرين على الاستيلاء على مدينة طرابلس لولا المساعدات التي تلقوها من الاساطيل الايطالية الجنوبية كما مر ذكره من قبل وقد استطاع الصليبيون دخول طر ابلس بالغدر والخيانة حيث تسلم بلدوين الاول ملك بيت المقدس المدينة بموجب معاهدة عقدت بينه وبين شرف الدولة والى المدينة الفاطمي وعندما دخلها الصليبيون احرقوا معالم المدينة ومكتبتها التي تعتبر من اروع مكتبات العالم حينذاك وحل الدمار بكل ماتحتويه وصار براتراند بن ريموند اميراً على طرابلس واتخذ لقب كونت وأكد تبعيته الى مملكة بيت المقدس(٤).

---

٢ ـ ن . م . ص ٤٩٩

٣ ـ وقد شهد بنو عمار هجوماً فأشعلوا الحرائق في ارباض طرابلس حتى بلغوا الاسوار ن . م . ص ٩٩ ـ ١٠٠ وجاء ان ريموند نفسه تعرض للاصابة بعد ان هوى به سقف دار محترق

٤ ـ ومن جيوش الصليبيين الذين اجتمعوا خارج اسوار طرابلس . برتراند في سبعمائة وبلدوين كونت الرها وجوسلين . وقد تم ان تعطى طرابلس بعد الاستيلاء عليها الى برتراند . م . ن ٢ / ١١٤

ومن الجدير بالذكر ، ان اهتمام الصليبيين بطرابلس ومحاولاتهم المتكررة للاستيلاء عليها اما جاء نتيجة لكونها من اهم الامارات التي تفصل القوى الصليبية عن مملكة بيت المقدس وسائر قلاعهم وممتلكاتهم في فلسطين وبفضل ثرواتها ورخائها وموقعها التجاري المتميز حيث ربطت بين نشاط الصليبيين في شمال الشام ونشاطهم في فلسطين ، مما اتاح لها ان تلعب دوراً مهماً في تاريخ الحروب الصليبية في المنطقة(١).

مملكة بيت المقدس :

تعد مملكة بيت المقدس من اهم الممالك والامارات الصليبية في الشرق الاسلامي على الاطلاق ، فقد ادعت هذه المملكة لنفسها السيادة على امارات الصليبيين جميعها ورأى ملكها ان من حقه ان يطلب من امراء الصليبيين ارسال العساكر للانحياز اليه في حملاته(٢).

ان المكانة الدينية التي تحتلها بيت المقدس بوصفها مدينة مقدسة للمسلمين والمسيحيين فضلاً عن كونها من اضخم المعاقل والحصون في عالم العصور الوسطى ، اذ اشتهر موقعها بالمتانة والقوة ، هذا ماجعل الصليبيين يعقدون مجلساً بكنيسة القديس بطرس في انطاكية سنة ٤٩٢ هـ / ١٠٩٨ م ، حيث اجمعوا على استئناف الزحف نحو بيت المقدس(٣). وقد تم لهم ذلك حيث سقطت بايديهم القدس كما مر ذكره من قبل .

لقد كان تأسيس مملكة بيت المقدس سنة ٤٩٤ هـ / ١١٠٠ م يمثل في الواقع أكبر تحد موجه للكنيسة في اوربا وللعنصر النورماني في امارة انطاكية ففي الوقت الذي كان الاعتقاد السائد ان انطاكية يجب ان تكون عاصمة المسيحية اللاتينية في الشرق نظراً لاهميتها ، ولكن بدأت مملكة بيت المقدس تحتل مكانة خاصة ، اذ استقطبت الصليبيين بتأثير البابوية ، فاجتذبت الصليبيين القادمين من الغرب واستقر عدد كبير منهم ، وظلت الهجرة مستمرة اليها لتزيد من قوة جيوشها ولتمد من نشاط السكان الاصليين بدماء جديدة . واجتذبت المدن الايطالية مقابل الحصول على امتيازات بلغت من الضخامة أنها اضعفت موارد المملكة التي اسهمت هذه المدن في قيامها(١).

---

١ ـ رنسيمان . تاريخ الحروب الصليبية ، ٢ / ١٠٤
٢ ـ رنسيمان . تاريخ الحروب الصليبية ، ٢ / ٢٨٩ .
٣ ـ عاشور . الحركة الصليبية ، ٢ / ٢١٥ .

(١) ارتحل بلدوين الى بيت المقدس بعد احتلالها مع اهل بيته واتباعه وحرسه لتسلم حكومة المملكة . انظر ، رنسيمان . تاريخ الحروب الصليبية ٢ / ١٣٠ .

ومن البداهة القول ، أن حكومة بيت المقدس الصليبية تطلبت اموالاً طائلة لم يكن الحصول عليها سهلاً ، فأكثرية مرافق البلاد اضحت رهن احتكارات مدن ايطاليا التجارية ، ولم تكن الموارد الاقطاعية بكافية لدعم الجهاز العسكري ، كما أن الثروات التي تحصل عليها الدولة من اسلاب المدن المحتلة لم تكن تشكل مورداً يعتمد عليه ، وكانت في تناقص مستمر .

اما الرسوم المالية على الوافدين من الصليبيين الجدد والقوافل التجارية البرية اكثرها رهن بالظروف فهي غير ثابتة ولا محددة في جميع الاحوال ، ولذلك فان الضائقات الاقتصادية التي احاقت بمملكة بيت المقدس اضطرتها الى التفتيش عن المال انى وجد ، فشاركت الكنائس والاديرة فيما يقدم لها من هبات وراحت تفرض على خزانة رئيس الاساقفة في المدينة اموالاً طائلة ، ثم احتالت في الحصول على الاموال عن طريق مشاريع الزواج بين العوائل الحاكمة ، فقد تزوج الملك بلدوين من الاميرة الارمنية أردا ARDA ثم أدليد ADLED أم الامير روجر الثاني وهما موسرتان فابتلع ثرواتهن(٢).

ومن المفيد ، الاشارة هنا الى عامل جديد فيما يتعلق بالسياسات الشرقية بما جرى من تدخل المدن التجارية الايطالية ، حيث لم يتوافر اول الامر لدى هذه المدن من الثقة مايحملها على الاشتراك في الحملة الصليبية الاولى ، الا بعد أن ادرك ، أن الحرب ستكون لصالح الصليبيين ، فبادرت بيزا والبندقية وجنوه الى ارسال اساطيلها الى الشرق ، بعد أن بذلت وعودها بالمساعدة مقابل اقامة منشآت في كل مدينة اسهمت المدن الايطالية باحتلالها ، لانها كانت تمد الصليبيين بالقوة البحرية التي لولاها لما استطاعوا أن يخضعوا المدن الاسلامية الساحلية خاصة . لقد هيأت سفنهم للصليبيين عن طريق الاتصال بحر بغرب اوربا ، لان هذا الطريق كان اقل خطر من الطريق البري ، غير أن ماطلبته المدن الايطالية من امتيازات وحصلت عليها فعلاً ، دل على أن حكومات الصليبيين في الشرق الاسلامي فقدت جانباً كبيراً من مواردها القوية(١). على أن صليبي بيت المقدس كانوا يبذلون كل جهودهم كما يحولون أكبر قدر من التجارة الى ميناء يافا الصليبي ويشجعون المدن الايطالية بكل ماستطاعوا على أن يمنعوا التجارة بين المدن الساحلية الاسلامية وبين مصر وعلى أن يجعلوا هذه المدن تعتمد في تجارتها على الصليبيين وذلك في اطار سياستهم الرامية لتحقيق عائدات عاجلة في الثروة والرخاء للمملكة الصليبية

---

(٢) د . عبد القادر اليوسف علاقات بين الشرق والغرب ، ٨٠ ـ ٨١ .

(١) رنسيمان . تاريخ الحروب الصليبية ٢ / ٣٤

ولاظهار فلسطين وكأنها اقليم مندمج في وحدة اقتصادية شاملة بما صار لها من علاقات عبر البحر مع اوربا .

وتسببت المقاومة غير الموحدة من قبل القوى الاسلامية في تعريض الجانب الاكبر من فلسطين ، الذي غزاه الصليبيين وبسطوا سيطرتهم عليه الى الخطر الامر الذي جعل الصليبيون في بيت المقدس يتجهون صوب الامارات الصليبية الاخرى مثل انطاكية والرها وطرابلس واستغلال تبعيتها لها بفرض مساعدات عسكرية ومالية عليها .

وعلى العموم فأقليم فلسطين في مجموعة يعتبر من الاراضي الفقيرة شبه الصحراوية ولا سيما حول بيت المقدس . فلم تقم صناعة كبيرة بمدينة من المدن بل ان ملوك بيت المقدس في ذروة قوتهم لم يبلغوا من الثروة ما حازة كونت طرابلس او امير انطاكيا . والمصدر الاعلى للثروة جاء من الرسوم والضرائب التي تأتي من المنافذ البحرية والبرية . فالاراضي الخصبة بشرق نهر الاردن في منطقة مزاب والجولان لم يكن لها منفذ طبيعي سوى الموانئ الواقعة على ساحل فلسطين . كما ان المتاجر القادمة من سورية الى مصر سلكت طرق فلسطين

اما القوافل التي تجلب التوابل من جنوب بلاد العرب فاجتازت في جميع العصور صحراء النقب الى البحر المتوسط ولضمان الابقاء على مصدر ثروتهم الاساسي وهو الرسوم لابد من اغلاق سائر المنافذ . ولذا ينبغي على الصليبيين ان يسيطروا على الطرف الممتد من خليج العقبة جنوباً الى جبل حرمون (الثلج) شمالاً . بل كان لزاماً عليهم ايضاً ان تكون لهم السلطة على الطرف الممتد من جبال لبنان الى نهر الفرات (١).

ومن الجدير بالذكر ان صليبي بيت المقدس اضطروا لعقد اتفاقيات غير متكافئة مع المدن الايطالية التجارية وقدموا لها تنازلات مهينة ليجدوا لهم مصدراً آخر للثروة ففي ٤٩٤ هـ / ١١٠٠ م رسا بيافا اسطول ضخم للبنادقة لعقد اتفاق مع مملكة بيت المقدس ، وكانت شروط البنادقة تقضي بأن تطلق لهم حرية التجارة في سائر المملكة وان يكون لهم بكل مدينة في الامارة كنيسة وسوق وان يكون لهم ثلث كل مدينة يسهمون في احتلالها وان تكون لهم مدينة طرابلس التي سوف يؤدون عنها أتاوه للملك وفي مقابل ذلك يبذلون المساعدة للصليبيين . وتقرر أن تبدأ بالعمل الاول وهو الهجوم على المدن الاسلامية واحتلالها وتم الاتفاق على ان تكون عكا هي الهدف الاساس ثم مهاجمة حيفا بعد ذلك ويمكن القول ان عكا

---

(١) رنسيمان . تاريخ الحروب الصليبية ٢ / ١٥

كان الميناء الوحيد المأمون في فلسطين في جميع فصول السنة . ولذلك نشط الايطاليون والصليبيون للاستيلاء عليه لاغراض تجارية واستراتيجية .

ويذهب الاستاذ رنسيمان / الى ان المال والرجال هما اهم مااحتاجته مملكة بيت المقدس في الداخل . فلن يستطيع الملك اقامة مملكته مالم يتوفر له من الثروة والقوة مايكفي لضبط اتباعه . وفيما يتعلق بالقوة البشرية فلا يستطيع الحصول عليها الا بالترحيب بالهجرة وتشجيع المسيحيين الوطنيين على التعاون معه . اما المال فيستطيع الحصول عليه بتشجيع التجارة مع البلاد المجاورة والافادة من توافر الرغبة في جمع الصدقات من المسيحيين في اوربا . ربما يسهمون به من اموال وما يجرونه من احباس على المنشآت الدينية في البلاد المقدسة(١).

وعلى الرغم من ادعاء ملك بيت المقدس لنفسه السيادة على الامارت الاخرى في الشرق الاسلامي ، غير ان هذه السيادة لم تظهر الا حينما كان الملك قوياً يستطيع ان يفرض وجوده ولم يحقق ملوك بيت المقدس الاوائل الا سيادة شخصية على طرابلس ، كما ان لهم صلة شخصية بكونتية الرها . وكان لامارة انطاكيه وضع خاص ومختلف فلم يقرُّ أميرها لاحد بالسيادة عليه . وقد تسبب وضع الامارات الصليبية وموقفها من مملكة بيت المقدس في كثير من المتاعب المالية والعسكرية الاخيرة . وهنالك مشكلة اخرى واجهتها مملكة بيت المقدس وتتعلق هذه المشكلة بموقف الطوائف الدينية العسكرية التي قامت في مملكة بيت المقدس والامارات الصليبية الاخرى . لقد تفوقت هذه الطوائف على الكنيسة منذ قيامها ونموها المضطرد في كثرة عدد رجالها ووفرة ثروتها حتى غدت اكبر ملاك للاراضي بالشرق الادنى ، وازدادت ضياعها بما ظفرت به من المهبات وبما دأبت عليه باستمرار من شراء الاراضي . وقدم المتطوعون من الغرب لينضموا اليهم ، ويبدو ان هذه الطوائف سدت حاجة سياسية للامارات الصليبية ، حيث يلاحظ باستمرار قصور بعساكرها .

ولكن مساوىء الطوائف الدينية العسكرية الخطيرة هي انها لم يكن للملك عليها سلطان لانهم لم يدينوا بالسيادة الا للبابا وما جاوره من اراضي احتفظوا بها ، على انهم يمثلون ديوان المواريث الحشرية(٢) فلا يؤدون ماهو مقرر عليها

---

(١) رنسيمان . تاريخ الحروب الصليبية ، ٢ / ٢١ - ٢٢ (كانت الاحباس تجري لصالح الكنيسة والملك ولا بد لهذا الاخير ان يكون سيداً) على الكنيسة حتى يضمن استخدامها لمصلحة المملكة .

(٢) المقصود بالمواريث الحشرية (Mortmain) وهو ما يؤول من املاك واموال وامتعة الى بيت المال . اذ ليس لها مالك او حائز

من خدمات ولم يسمحوا للحائزين على اراضي منهم بأن يؤدوا ضريبة العشر للكنيسة ، ولم يحارب من فرسانهم مع جيوش الملك الآ على انهم حلفاء متطوعون ، وحرصت كل طائفة على ان تلتزم بما وضعته من خطة لدبلوماسيتها دون ان تحفل بالسياسة الرسمية لمملكة بيت المقدس . واقامت لنفسها اساطيل بحرية صغيرة في الوقت الذي لم يكن للمملكة قوة بحرية كافية نظراً لقلة الموانىء الصالحة وافتقارها الى الاخشاب اللازمة لصناعة السفن وامتلاك كل من انطاكية وطرابلس اسطولين صغيرين سخرتهما لخدمة اغراضها الدفاعية الخاصة بها .

وهكذا كان لابد لمملكة بيت المقدس من التماس مساعدة دولة بحرية لتقف امام قوة مصر الاسلامية التي كانت تمثل اكبر واقوى دولة بحرية متحدية للوجود الصليبي في المنطقة والمعروف ان الايطاليين وفرنسيي الجنوب كانوا حلفاء للصليبيين في مجال القوة البحرية .

استند الحكم في دولة بيت المقدس على الاسس الاقطاعية والقضائية التي احتواها دستورها Assize of Jerusalem . الذي وضعت خطوطه الاساسية في عهد الملك كودفري . اذ قسمت البلاد الى اربع اقطاعات كبرى وهي يافا والكرك والجليل وصيدا والى اثنتي عشرة اقطاعية صغرى وكونت كل من القدس وعكا وطبرية اقطاعات خاصة بالملك مباشرة ، ويمكن لرؤساء الاقطاع بتوعية الكبير والصغير ان يقطعوا اجزاء من اراضيهم لاتباع جدد حسب تعهدات عسكرية ومالية (١)

وتتألف اجهزة الحكم من المؤسسات التالية :

اولاً : المؤسسة الملكية : وعلى رأسها الملك وهو القائد العام للجيوش .

ثانياً : المؤسسات القضائية : وتتألف من :

(١) **المحكمة العليا :** وتمثل اعلى سلطة قضائية يرأسها الملك . واعضاؤها من كبار الاقطاعين .

(٢) **المحاكم الصغرى :** وهي محاكم المدن . يرأسها نائب الملك يساعده (١٢) محلفاً يختارهم الرئيس من بين اتباعه اللاتين .

(٣) **المحاكم المحلية او الطائفية :** وتنظر في قضايا الناس حسب تقاليدهم الدينية وتتألف من خمسة اعضاء اثنان منهم من اللاتين والبقية من سكان الطائفة الدينية .

---

(١) د . عبد القادر اليوسف ، علاقات بين الشرق والغرب ، ٨٧ .

٤ ـ المحاكم التجارية الممتازة :

وهي خاصة بتجار المدن الايطالية وتفصل في خصوماتهم حسب قوانين حكوماتهم .

٥ . المؤسسة الادارية :

وتظهر فيها تدرج المراتب الادارية .

اما بالنسبة للجيش الصليبي لمملكة بيت المقدس فيعتمد في تكوينه على ما يأتي : ـ

١ . التعهدات الاقطاعية :

ومن شروط التبعية العسكرية هي الخدمة العسكرية والاستعداد للقتال في الجيش المركزي لعدد من الاسابيع او خدمة سنوية وكان امراء المدن يجهزون عدد معين من الفرسان .

٢ . الحرس الملكي الخاص :

وهو يعتمد على الاقطاعات التابعة للتاج مباشرة مقابل رواتب نوعية او نقدية .

٣ . فرق الفرسان الدينية :

أ . فرسان المعبد : Knights of The Temple

وهي فرق فردية ديرية في الاصل اسسها فرنسي يدعى هيوبايان مع سبعة من زملائه في مدينة القدس ، اذ خصص لهم رواقاً في المسجد الاقصى في ساحة معبد سليمان بن داود ، وتحولت الى مؤسسة عسكرية دينية .

ب . فرسان القديس يوحنا (الاسبتارية) :

وهم اصحاب المستشفيات ويشار لهم في كتب المسلمين بالداوية (لاشتغالهم بالتطبيب) وقد شكلوا في بادىء الامر فرقة دينية خيرية ثم تحولت الى مؤسسة عسكرية دينية ولعبت دوراً مهماً في الحروب الصليبية .

جـ . فرسان التيوتون :

وهي فرقة المانية يرجع تأريخها الى سنة ٥٨٥ هـ / ١١٨٩ م اثناء الحصار الصليبي لميناء عكا في الحملة الصليبية الثالثة اسسها بحارة السفن الالمانية التي ساهمت في الحصار ، وقد حولوا سفنهم الى مستشفيات للاعتناء بالمرضى والبرص ، ثم كونوا لهم فرقة عسكرية .

٤ . اساطيل المدن الايطالية :

اعتمدت عليها مملكة بيت المقدس في احتلال السواحل لقاء امتيازات اقتصادية تمنحها لها ، وهم البنادقة والجنويون والبيزيون .

٥ . الوافدون المسلحون :

وكانوا يؤلفون مصدراً عسكرياً مؤقتاً اذ غالباً ما يشترك هؤلاء في مشاريع مملكة بيت المقدس(١).

وهنالك الى جانب اجهزة الحكم ومؤسساتها المدنية والعسكرية يمثل بيت المال Secnete وهو الديوان الذي يؤدي له كل مايستحق للملك من اموال ويصرف منه المرتبات ويحتفظ بسجل لكل العمليات المالية المرتبطة بالحكومة(٢)، ولكن على مايبدو، ان بيت المال لم يكن الا ادارة مفككة التنظيم نقلها الصليبيون عن العرب الذين كانوا قد اخذوها بدورهم عن البيزنطيين .

---

١ ـ د . عبد القادر اليوسف . المصدر نفسه : ٨٩ .

٢ ـ رنسيمان . تأريخ الحروب الصليبية : ٢ / ٤٨٦ .



الباب الثاني

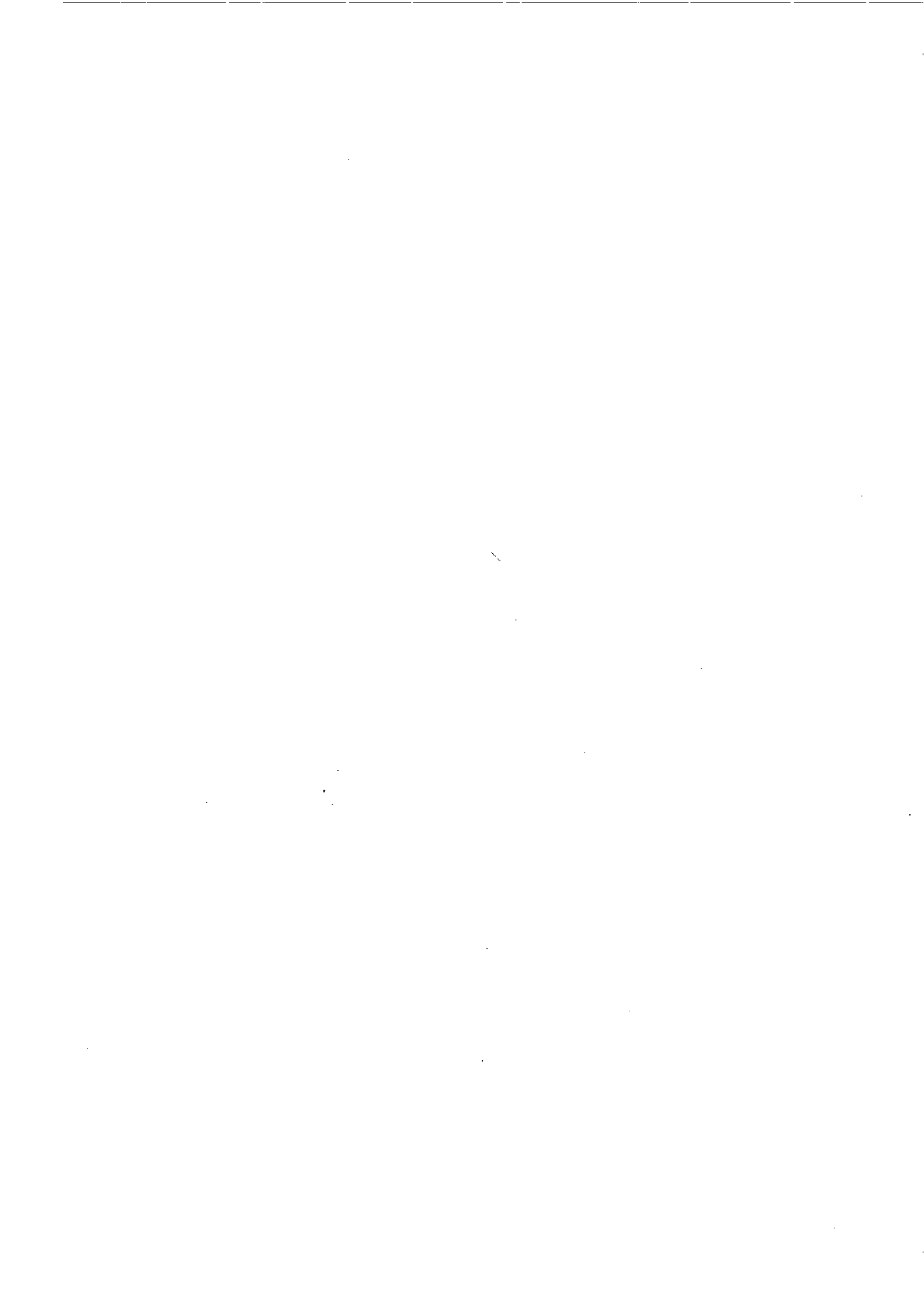
تكوين الجبهة الاسلامية المتحدة

الفصل الاول ـ المحاولات الاسلامية الاولى للتصدي للصليبيين

ـ عماد الدين والقضاء على مملكة الرها
ـ محاولات الاستنزاف .

الفصل الثاني ـ تكوين الجبهة الاسلامية المتحدة .

ـ دخول دمشق تحت حكم نور الدين وبدايات التوحيد السياسي
ـ التحشيد الفكري .
ـ دعوة أمراء المسلمين الى التوحيد والقتال ضد الصليبيين
ـ الاستعدادات العسكرية
ـ الاهتمام بالجيش والمتطوعين .
ـ توفير السلاح .



الباب الثاني

تكوين الجبهة الاسلامية المتحدة

تقديم :

اثبتت الامة العربية ـ عبر تاريخها الطويل ـ والتي وجدت في الاسلام معيناً لا ينضب ، قدرتها على تحدي الغزاة والطامعين وسد الطرق على الحكام الذين يحاولون الانحراف بها الى طريق الخيانة واعتماد اساليب الضغط والارهاب للحيلولة دون توحيد كلمتها .

لقد برهنت هذه الامة على حيويتها المتجددة في الدفاع عن مصالحها وطرد الدخلاء من اوطانها فمنذ ان وطأت اقدام الغزاة الصليبيين ارض المشرق العربي ومحاولات المسلمين تجري لاستبعاد عوامل الفرقة والتشتت وعدم السماح بظهور الانقسامات والانشقاقات بين صفوفهم ، والوقوف صفاً واحداً امام هذا الغزو الذي استهدف كيانهم واوطانهم .

ان التأكيد على وحدة المسلمين في بلاد الشام اصبحت ضرورة تاريخية لمواجهة الصليبيين الذين تفاقم خطرهم واستحوذوا على مناطق من بلاد الشام والجزيرة وتمركزوا في مواقع وراحوا يتوسعون فيها على حساب المسلمين وسخروا حفنة من المتخاذلين وتعاونوا معهم ، ومن امثال هؤلاء مجير الدين ابق بن جمال الدين محمد بن تاج الملوك بورى ومدبر دولته معين الدين انر اللذين حكما من ٥٣٤ ـ ٥٤٩ هـ ، وقد رفضا التحالف مع عماد الدين زنكي ضد الصليبيين ، كما رفضا ان تكون دمشق مركزاً لانطلاق الجيوش الاسلامية لدك مواقع الصليبيين ومطاردتهم في بلاد الشام والجزيرة ، بل تماديا بمراسلة الصليبيين والتعاون معهم ضد عماد الدين زنكي ، وقد اجابهم الصليبيون الى ذلك ، غير ان عماد الدين زنكي راح يهاجم الصليبيين بالقرب من حوران ، حيث كان هؤلاء يبذلون محاولاتهم في احتلال دمشق بالاتفاق مع حكامها . ان الهجوم الذي شنه عماد الدين زنكي على جيش الصليبيين افسد تحالفهم مع حكام دمشق وحال دون دخولهم المدينة (١).

---

(١) ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ١ / ٧٣ ـ ٧٤

ان تفاقم الخطر الصليبي في بلاد الشام والجزيرة اوجد ضرورة للتحالف بين القوى الاسلامية في المنطقة كما ان اهتمام المسلمين بتكوين الجبهة الاسلامية لمجابهة هذا الخطر، الذي كان يهدد العالم الاسلامي في بداية القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي يرجع الى مشاريع عماد الدين زنكي امير الموصل، الداعية الى توحيد المسلمين في قلب بلاد الشام. فقد صادف المسلمون في عماد الدين زنكي رجلاً قادراً على توحيد القوى الاسلامية. فيشير المؤرخون الى ان امير الموصل انهمك في هذه الفترة بوضع خطط بتوحيد الدول والممالك الاسلامية، كي يكون اكثر قدرة على مجابهة الصليبيين، ولاجل ذلك قام بعدة عمليات عسكرية ومناورات سياسية في جهات الشام والجزيرة الفراتية. وقد استهدفت هذه العمليات والمناورات، اخضاع الامارات والدول الاسلامية وضمها لامارته والاتجاه الى بلاد الشام، لتوحيدها وتكوين دولة واحدة ذات حكم مركزي، تقوى على الصمود امام تحديات القوى المناوئة وتكون قادرة على مواجهة الصليبيين واطماعهم.

واستطاع عماد الدين ان يفرض الحصار على دمشق وكاد ان يسقطها لولا استنجاد امرائها بصليبي بيت المقدس واستجابة هؤلاء رغبة منهم في القضاء على الخطر المشترك الذي يتأتى اليهم من وجود عماد الدين زنكي في المنطقة، مما اضطر الاخير الى الانسحاب(٢) في حينها وترقب فرصة اخرى يمكن استغلالها في هذا الصدد.

ان تجميع القوى الاسلامية في هذه الفترة تعترضه بعض الصعوبات فعوامل التجزئة والانقسام، كانت على اشدها، نتيجة لعدم وجود الرأي الموحد فيما يتعلق بالموقف من الصليبيين وكذلك وجود عدد كبير من امارات المدن والامارات الصغيرة التي تبدو ضعيفة ومفككة امام الغزو الصليبي، ولكن عماد الدين زنكي استطاع ان يوجه الظروف التاريخية القائمة لصالح المسلمين فعمل على تجميع القوى الاسلامية وقضى على عوامل التفرقة والانقسام، وسعى الى توحيد المدن والامارات المنفصلة. واستطاع ان يحقق برنامجه ذا الشقين، الاول تشكيل الجبهة الاسلامية من تجميع القوى الاسلامية والثاني ضرب الصليبيين. وهو بذلك اول قائد اسلامي قام بتجميع هذه القوى وفق برنامج معين ليجابه بها تزايد الخطر الصليبي الذي لم توقفه على مايبدو المحاولات التي سبقته وخاصة تلك التي تمت على يد

---

(١) د. خاشع المعاضيدي. الحياة السياسية في بلاد الشام: ١٨٦

(٢) د. عماد الدين خليل. عماد الدين زنكي: ١٤٨.

كل من مودود التونتكين ٥٠٢ ـ ٥١٨ هـ وايلغازي الارتقي ٥١٢ ـ ٥١٨ وآق سنقر البرسقي ٥١٨ ـ ٥٢٠ هـ(١).

ولاجل تكوين الجبهة الاسلامية ، كان عماد الدين زنكي ، يسلك طريق الهجوم العسكري لاخضاع الامراء المتعاونين مع الصليبيين والمترددين او الذين يقفون على الحياد ، وبذلك يقضي على احتمال تشكيل حلف دفاعي مضاد من هؤلاء الامراء وربما يتحول هذا الحلف فيما بعد الى حلف هجومي ضده ، كما حدث بالنسبة للاراتقة(٢)

ان ازالة العقبات التي تقف امام توحيد هذه الامارات والمدن المتفرقة والمبعثرة في جبهة اسلامية موحدة ، كان اهم عمل يشغل عماد الدين زنكي لكي تستطيع هذه الجبهة ان توقف الزحف الصليبي اولاً ومن ثم تبدأ بالهجوم وفق اساليب وخطط منظمة على قواعد الصليبيين في بلاد الشام والجزيرة الفراتية . غير ان هذه الامارات لم تكن تقوى على الوقوف بوجه هذا الخطر الصليبي الزاحف نحو الشرق وهي غير موحدة وستظل تشكل بنفس الوقت خطراً ضد امارة عماد الدين زنكي في الموصل لقربها منها ولاستراتيجية مواقعها .

شعر عماد الدين زنكي ، ان السياسة الانعزالية للامراء تجاه الخطر الصليبي سينجم عنها تشتيت لامكانات المسلمين البشرية والعسكرية والاقتصادية ويؤدي بالتالي الى تثبيت اقدام الغزاة الصليبيين في الشرق العربي . لذلك سعى الامراء والقادة المسلمون امثال مودود التونتكين ونور الدين محمود وصلاح الدين الايوبي الى القضاء على اسباب هذه الفرقة . فأحرزوا من الانتصارات ماأدى الى توحيد مصر والشام واعالي الجزيرة الفراتية ، وبذلك تم حصر الصليبيين على الساحل وتحققت الوحدة الروحية للعالم الاسلامي .

لقد تركز اهتمام المسلمين والصليبيين معاً للاستيلاء على مدينة حلب ، لانها كانت تمثل في الواقع مركزاً للتوازن السياسي . ومن قادة المسلمين الذين كانوا يتطلعون اليها الاتابك آق ـ سنقر البرسقي وعماد الدين زنكي ، حيث عول الاخير على اقامة امارة مستقلة تضم حلب والموصل ، نتيجة لما تتمتع به حلب من اهمية عسكرية بسبب موقعها الاستراتيجي وباعتبارها قلعة يمكن استخدامها ضد الصليبيين ، فضلاً عما اشتهرت به من موارد وثروة مما يزيد في قوة المسلمين المادية . وقد استطاع عماد الدين زنكي ان يضع خطة للاستيلاء على حلب

(١) عماد الدين خليل . المصدر نفسه : ١٦٦

(٢) ن . م . : ١٦٤

والمناطق المجاورة للموصل وتهيأت له الفرصة المناسبة للتدخل وبذلك جعل من الموصل وحلب امارة واحدة تخضع لسلطانه وهي نواة للدولة الاسلاميه الموحدة ، كما قضى فترة من حكمه تمتد من ٥٢٣ ـ ٥٤٠ هـ لاخضاع الاراتقة وصرفهم عن التحالف مع الصليبيين وتكوين جبهة ضد الغزاة ، واتخذ من مدينة نصيبين قاعدة عسكرية في المنطقة تكون منطلقاً للهجوم على مواقع القوى المناوئة ، وحاول اسقاط حكم بني ارتق الذي كان يقف عائقاً آنذاك دون تحقيق هدفه الرئيسي في توحيد بلاد الموصل والجزيرة وشمالي بلاد الشام فاستولى على عدة مدن وحصون لتوسيع نواة الدولة الموحدة وتعلم كيف يحافظ عليها ضد الغزاة والطامعين(١) واعتبر نفسه مسؤولاً عن قتال الصليبيين والجهاد ضدهم واشتبك معهم في قتال مرير طيلة فترة حكمه واصبح بذلك يمثل بطلاً للمسلمين في جهادهم ضد الصليبيين ومن اجل توحيد كلمتهم ، كما انصرف اهتمام عماد الدين زنكي للاستيلاء على دمشق وذلك لانها تشكل اهمية خاصة في تجميع القوى السياسية وتحالفها للقتال ضد الصليبيين غير ان اميرها معين الدين أنر كان قد تحالف مع الصليبيين واستعان بهم مما حال دون تحقيق هدف عماد الدين زنكي في توسيع رقعة الدولة الاسلامية الموحدة مؤقتاً والانصراف الى تثبيت امارته الجديدة وتعزيز امكانياتها الاقتصادية والعسكرية وتوحيد مايمكن توحيده من الامارات والمدن الصغيرة المتناثرة المحيطة بها من جميع الجهات ، حيث يشكل وجودها عائقاً امام اية خطوة يستهدف من ورائها اعلان الجهاد العام ضد الصليبيين(١).

سار نور الدين محمود على سياسة ابيه عماد الدين زنكي في محاولاته الاستيلاء على دمشق لاتخاذها قاعدة لتوسيع دولته وتكوين الجبهة الاسلامية المتحدة بوجه الصليبيين كما سنذكره في الفصل القادم .

---

(١) د . عماد الدين خليل . عماد الدين زنكي ، ٩٨

(١) ن . م ، ١٣٨

الفصل الاول

المحاولات الاسلامية الاولى للتصدي للصليبيين

تعرض العالم الاسلامي في بداية القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي الى الغزو الصليبي الذي استهدف الاستيلاء على الشرق وانشاء مؤسسات سياسية يستطيعون بواسطتها ان يكرسوا احتلالهم العسكري ، واستغلالهم الاقتصادي . فأسسوا فيه اماراتهم اللاتينية الاربع في الشام وفلسطين والجزيرة الفراتية ، وكانت الحملة الصليبية الاولى . تعبيراً عن هذا الغزو الذي بدأ ينتشر في اطراف العالم الاسلامي الشرقي ، غير ان المسلمين ، حاولوا التصدي لهذا الغزو في بداياته الاولى ، ولكن جبهتهم الداخلية كانت لاتقوى على الوقوف بوجه هذا السيل الجارف من الغرب ، واستمر المسلمون بعد تدعيم جبهاتهم الداخلية . يقاومون الغزاة طيلة القرن الخامس وحتى النصف الثاني من القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي ، حتى استطاعوا ان يجتثوا جذور الغرباء الغاصبين من تربة بلادهم ويحرروها ويطردوا الغزاة الدخلاء(١).

والراجح ان اولى محاولات المسلمين للوقوف بوجه هذه الزوبعة هي التي وقعت قبل سنة ٤٩٠ هـ / ١٠٩٦ م بقليل وذلك عندما طرد المسلمون الاتراك بطرس الناسك وهو الراهب الطواف الذي كان يبشر بالحرب الصليبية(٢) من الديار الاسلامية في آسيا الصغرى ويبدو انه كان طيلة هذه الفترة ، يتدفق على الشرق من حين الى آخر سيل مستمر من الصليبيين ومن اتباع بطرس الناسك الذين لم يتول أحد قيادتهم ، ولم يجمعهم نظام ، وكان البابا يأمل ان يصل هؤلاء الصليبيون سالمين الى القسطنطينية وان ينتظروا بها حتى يقدم المندوب البابوي والقادة العسكريون فيدخلونهم في صفوف الجيش المسيحي الكبير الذي سوف يقدر له ان يخوض المعارك مع المسلمين للوصول الى بيت المقدس(١).

---

(١) رنسيمان ، الحروب الصليبية ١ / ١٦٩ ، ١٧٢

(٢) ويسمى ايضاً ، (الصغير اوشتو او كيوكيو او الزاهد) .

(١) رينسمان ، المصدر نفسه ، ١٧٢

غير ان هذه الجموع الغفيرة من الصليبيين الغربيين أخذت تنتظم في نهاية سنة ٤٩٠ هـ / ١٠٩٦ م على شكل حملة ضخمة وراء بطرس الناسك ووالتر المفلس وهي مؤلفة من أناس من جهات عديدة ومن فئات مختلفة وقد اصطحبوا معهم زوجاتهم واطفالهم وكانوا من مختلف المهن فبعضهم من الفلاحين وسكان المدن وصغار النبلاء واغلبهم قطاع طرق مجرمين ولم يجمع بينهم سوى الحماس الديني بالوصول الى الشرق والحصول على الفردوس الذي ينشدونه . ثم راح هؤلاء الصليبيون يزحفون على المناطق الاسلامية في آسيا الصغرى وقاموا بالاغارة عليها وسلبوا ونهبوا القرى القريبة من مدينة ينقية وهي عاصمة السلاجقة في عهد السلطان قلج ارسلان بن سليمان واستاقوا ماصادفوه من الماشية والاغنام وقتلوا السكان ، فخرجت من المدينة سرية من الجيش الاسلامي لقتالهم ووقع بين الطرفين قتال عنيف وتسرب بعض الصليبيين حتى بلغوا قلعة (اكسيريجوردون) فأخضعوها فأرسل المسلمون احد كبار القادة العسكريين على رأس جيش كبير لاسترداد القلعة ، وقد تمكن الجيش الاسلامي ان ينزل الهزيمة بكمين اعده الصليبيون ثم حاصر القلعة واستولى المسلمون على النبع الذي يزود المدينة بالمياه وكان الصليبيون يهلكون عطشاً حتى انهم عمدوا الى امتصاص رطوبة الارض وشقوا عروق خيولهم ومصوا دماءها ، ثم قرر الصليبيون ان يستسلموا وقد استبد بهم الكرب ثماني أيام فتحوا الابواب للمسلمين بعد ان حصل قادتهم على وعد بالابقاء على حياتهم فأسروهم وأرسلوا بعضهم الى انطاكية والبعض الى حلب وآخرين الى خراسان(٢).

ومن المحاولات الاخرى التي قام بها المسلمون ، للوقوف بوجه الزحف الدخيل انه في السنة التالية (لحملة الشعوب) التي خذلها المسلمون اجتمع قادة الصليبيين للتشاور على أثر الهزيمة التي تعرضوا لها في قلعة السيريجوردون ، وقرروا انتظار وصول بطرس الناسك من البيزنطيين غير انه لم يعد ، فراح المسلمون يقتربون بجيوشهم من (كيفيتوت) وهو المعسكر القريب من (اكسيريجوردون) عندئذٍ اجتمع مجلس حرب الصليبيين المكون من (والتر المفلس ورينالدبرايس ووالتر بريتيل وفولك اورليان وهيوثوبنجن ووالترتيك) وقرروا ان لايتخذ اي قرار الا بعد وصول بطرس الناسك ، ولكن الصليبيين انشقوا على انفسهم وقرر جفري بوريل يسانده الرأي العام في الجيش الصليبي الزحف نحو المسلمين فتحرك الصليبيون باكملهم وبعدتهم التي تزيد على العشرين ألف رجل وعلى مسافة ثلاثة اميال وعند قرية (دراكون) نصب المسلمون كميناً لهم ، بينما سار الصليبيون دون ان يلتزموا

---

(٢) رنسيمان ، المصدر نفسه : ١٨٩

النظام واشتدت جلبتهم وضوضاؤهم وسار الفرسان في المقدمة ، فانهال عليهم سيل من السهام ، فأصابت خيولهم فسادت بينهم الفوضى والاضطرابات وسقط الفرسان عن ظهر خيولهم فهاجمهم المسلمون وحاولوا ان يردوا عليهم ، غير انهم لم يستطيعوا وقف مااستبد بالجيش الصليبي من الذعر ، ولم تمض لحظات حتى أخذ كل الجيش في الهرب دون نظام فاقتفى المسلمون أثرهم وقضوا عليهم ولم ينج منهم الا القليل ووقع بعضهم اسرى بيد المسلمين . فتكبد الصليبيون كثيراً من القتلى حيث قتل منهم والتر المفلس ورينالد برايس وفولك اورليان ولم ينج منهم الا جفري بوريل الذي ادى تهوره الى وقوع هذه الكارثة التي حلت بالصليبيين ، كما قتل ايضاً عدد من قادة الصليبيين بعد هربهم من المعركة وهم هيو توبنجن ووالترتيك وكزاد الجوت تسمرن ووالتر بريتيل ووليم بواس وهنري سفارتز ينبرج وفردريك تسمرن وردولف برانديز(١) .

لم يستطع البيزنطيون انجاد حلفائهم الصليبيين . فقد بادر الامبراطور اركسيوس الى اصدار الامر بأن يقلع الى كيفيتوت عدد من السفن الحربية لنقل قوات ضخمة ، غير انها جوبهت بترتيبات عسكرية اسلامية وضعت حد لقيام حرب محتملة بين الطرفين(٢) .

وعند تزايد تدفق الصليبيين نحو بلاد الشام التي استهدفوها ، اعد كربوغا اتابك الموصل ، حملة عسكرية لتخليص انطاكية من قبضتهم وتمثل هذه الحملة احدى المحاولات الاسلامية الاولى للتصدي للخطر الصليبي وتحركت هذه الحملة من اقليم الفرات ثم توقفت عند مرج دابق ، حيث اجتمع مع دقاق بن تتش امير دمشق ومع طغتكين وارسلان شاه صاحب سنجار وسكمان بن ارثق صاحب ماردين وغيرهم من الامراء للتعاون في رد الصليبيين وأرغامهم على التراجع سنة ٤٩١ هـ / ١٠٩٧ م(١) .

اما موقف رضوان صاحب حلب فكان موقفاً معادياً لكربوغا ولاخيه دقاق بن تتش وقد رفض الانضمام الى التحالف لانقاذ انطاكية ، ولكن انضمام الامير العربي جناح الدولة حسين صاحب حمص وهو من قبيلة بني ملاعب قد عوض على مايبدو عن انسحاب صاحب حلب .

---

(١) رنسيمان ، المصدر نفسه ، ١٩١

(٢) ان هدف السياسة البيزنطية هي اخراج المسلمين الاتراك من آسيا الصغرى فحصل التعاون مع الصليبيين ، وكان هناك اتفاق حول الخطة العسكرية . وكان الهدف الاستيلاء على نيقية عاصمة السلاجقة لذلك صدرت الاوامر ـ باقامة المعسكر في بيكانوم والزحف على نيقية انظر رنسيمان . المصدر نفسه ، ٢٤٩ .

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب في تاريخ حلب ٢ / ١٣ . ابن الاثير حوادث سنة ٤٩١ هـ .

وهكذا اجتمع الجيش الاسلامي الكبير في مرج داق ومنها أخذ يزحف عى انطاكية عن طريق نهر العاص وقد التقى بحامية صغيرة من الصليبيين عند جسر الحديد الى الشمال الشرقي من انطاكية فأبادها ـ المسلمون عن آخرها والتحقت بالجيش الاسلامي طلائع من جيش سلاجقة آسيا الصغرى أمام اسوار انطاكية ، حيث ابدوا محاولاتهم في اقتحام انطاكية عن طريق قلعتها التي لاتزال بيد المسلمين وقد ساعدهم في ذلك شمس الدولة ابن ياغي سيان ، ثم بادروا بأحكام الحصار حول المدينة ومنع تسرب المؤن اليها

وبقى الصليبيون محاصرين مدة ثلاثة اسابيع فساءت احوالهم وبدأ قادتهم واعيانهم في الفرار في السفن الراسية في ميناء السويدية حيث أقلعت عائدة وعليها من استطاعت حملة من الفارين . وفي وسط الازمة التي كان يعيشها الصليبيون داخل انطاكية أخذ الكثير من فرسانهم يعبرون عن ندمهم على ترك بلادهم والحضور الى الشرق(٢). وعقد الصليبيون آمالهم على الامبراطور البيزنطي الكسيوس كومنين لكي ينجدهم ، فاستجاب لندائهم وخرج على رأس جيشه قاصداً انطاكية مخترقاً آسيا الصغرى ، ولكنه عدل عن خطته ، مخافة ان يزحف السلاجقة لضرب البيزنطيين وجيوشهم قبل ان يصل هو الى انطاكية . وكان عدول الامبراطور ضربة خطيرة للصليبيين المحصورين داخل انطاكية ، فخارت قوى الصليبيين وانتابهم اليأس فتسللوا من المواقع الامامية ليحتموا بمنازل المدينة ودورها ، فيما كان كربوغا يسدد لهم الضربات المميتة .

وفي ٤٩٢ هـ / ١٠٩٩ م وصل الصليبيون الى مدينة صيدا الاسلامية وهم في طريقهم الى بيت المقدس فقاومهم رجال حامية المدينة المسلمين الذين اشتهروا بالصلابة فقاموا بالهجوم العنيف على الصليبيين مما جعلهم يفرون امامهم ويلجأون الى نهب الزروع والبساتين والحدائق ، فيلاحقهم الجند المسلمون فيهربون الى الجهات القريبة من صور(١).

وفي السنة نفسها وعند اقتراب الصليبيين من مدينة الرملة دمر السكان المسلمون الثائرون بكل تحدي كنيسة القديس جورج الكبيرة الواقعة في اللد والتي لاتبعد عن الرملة الا قليلاً ، وقد لاحظ قادة الصليبيين ومنهم روبرت فلاندر وجاستون بيرن ، ان الطرقات كانت مهجورة والدور خالية من السكان ، وتعرض الصليبيون لكمائن المسلمين فقتل الكثير منهم او وقعوا في الأسر .

---

(٢) د . سعيد عبد الفتاح عاشور الحركة الصليبية : ١ / ٢٠١

(١) رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ١ / ٣٨٩ .

ونتيجة للمقاومة الاسلامية ، فقد اضطر كثير من الصليبيين الى ترك مناطقهم وحاولوا الوصول الى يافا اذ كانوا يأملون في ان يصادفوا سفناً تحملهم الى بلادهم في اوربا ، ففي اوائل سنة ٤٩٣ هـ / ١٠٩٩ م ذاع في المعسكر الصليبي ، ان جيشاً اسلامياً ضخماً سار من مصر لانقاذ بيت المقدس فأدرك امراؤهم وقادتهم ، انه ليس ثمة مايدعو بعدئذٍ الى التمهل والارجاء فالهرب هو الوسيلة للخلاص من قبضة المسلمين ، فهبطت الروح المعنوية لرجالهم(٢).

ومما زاد في اضطراب الصليبيين وقوع ست سفن صليبية في كمين بيد المسلمين كان اثنتان منهما جنويتين بقيادة امبرياكو والاربعة الاخرى يرجح انها من الاسطول الانكليزي ، وكانت هذه السفن تحمل مؤناً واسلحة من بينها حبال ومسامير واقفال (مغاليق) تدخل في صناعة ادوات الحصار وقد وقعت هذه السفن في كمين نصبته لها بعض سرايا الجيش الاسلامي القادمة من عسقلان وذلك بالقرب من الرملة . كما انه في اثناء ذلك ظهر اسطول مصري تجاه الساحل وألقى الحصار على يافا .

لقد عانى الصليبيون كثيراً من المتاعب ، فالحرارة الشديدة(١) وصعوبة الحصول على الماء ففي كل يوم يهلك عطشاً اعداداً كبيرة من الدواب والماشية والاغنام التي قد نهبها الصليبيون ، وقد بات مستحيلاً تجنب غارات وكمائن العساكر الاسلامية سواء كانت من الحاميات النظامية او من الجماعات المتفرقة التي كانت تطوف البلاد .

ويقرر رنسيمان استناداً الى مصادره الغربية ان ماتعرض له الصليبيون من الوان البؤس الذي اقترن بخيبة الامل الناجمة عن فشل الهجوم الذي حاولوا القيام به على بيت المقدس وما تجدد من المنازعات بين الامراء الصليبيين انفسهم ، كل ذلك حمل كثيراً من الصليبيين عن ان يتخلوا عن الحملة الصليبية . بل ان بعضهم كان قد تخلى عن دينه لينقذ نفسه من القتل الذي تعرض له على ايدي الجيش الاسلامي ، ففي ٤٩٤ هـ / ١١٠٠ م انقض دقاق بن تتش صاحب دمشق على مؤخرة جيش الصليبيين الذي كان يعبث فساداً في مناطق شرق الاردن والجولان(٣).

---

(٢) ن . م : ٤٠٠ .

(١) اذ ان رياح (السيروكوه ← Sirocco) ظلت تهب اياماً عديدة فأثارت بذلك اعصاب الصليبيين الذين لم يكونوا قد الفوها من قبل .

(٢) رنسيمان . تاريخ الحروب الصليبية ٢ / ٣٩٨ .

(٣) وكان الصليبيون قد ارسلوا عدداً من رجالهم الى صاحب دمشق ليتهددوه في مغادرة دمشق . فما كان منه الا ان غضب ورد عليهم . اما بالرحيل من البلاد واعتناق الاسلام والا سوف يلقون مصرعهم . ن . م : ٤٣٨ .

ويشير ابن القلانسي الى محاولات التصدي للخطر الصليبي سنة ٤٩٨ هـ / ١١٠٤ م فيما اورده عن مكاتبات فخر الملك بن عمار صاحب طرابلس ورسله بالاستصراخ والاستنجاد على الصليبيين النازلين على طرابلس والبعث على تعجيل اعانته بمن يصل اليه من العساكر لكشف غمته وتفريج كربته . وقد كان الامير سكمان بن ارتق صاحب ماردين والامير جكرش صاحب الموصل قد اتفقا على الجهاد ضد الصليبيين ونصرة المسلمين كما استجاب اليه فخر الملوك رضوان صاحب حلب وحشد جيشاً ضخماً وعزم على قصد طرابلس لابداء المعونة الى فخر الملك ابن عمار . ونشبت المعركة بين الجيش الاسلامي والصليبيين . فهزم الصليبيون هزيمة منكرة ولم يسلم منهم احداً(١).

وفي ٤٩٩ هـ / ١١٠٥ م شرع الصليبيون في اقامة حصن عال للاحتماء به من هجمات المسلمين . فدهمهم الجيش الاسلامي فاوقع بهم وقتلهم بأسرهم وملك الحصن بما فيه من آلاتهم وكراعهم وأثاثهم وعاد الى دمشق برؤوسهم وأسراهم وغنائمهم . وفي سنة ٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م تزايد فساد الصليبيين في اعمال السواد وحوران وجبل عوف . فتألف جيش المسلمين من الشاميين والحلبيين واهل صور ثم أنضم اليهم التركمان وخيموا في منطقة السواد . وقويت نفوسهم وتلاقت طلائع الفريقين . فانهزم الصليبيون الى طبرية امام الجيش الاسلامي ثم منها الى عكا(٣).

اما خلال سنة ٥٠٢ هـ / ٥٠٧ هـ / ١١٠٨ م ـ ١١١٣ م فقد كان الاتابك مودود ابن انشتكين امير الموصل . يحمل لواء تحرير الاراضي المقدسة من الصليبيين حيث كلف من قبل الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية بحمل راية الجهاد في بلاد الشام . وهاجم مودود المراكز الصليبية في جهات الرها وانطاكية بمساعدة حليفيه طغتكين امير حلب وايلغازي بن ارتق امير الجزيرة الفراتية(٤) . وعندما عاد الصليبيون الى تحرشاتهم بالمدن الاسلامية في هذه الفترة . حيث بدأوا في مدينة صور . فقرر واليها عز الملك انشتكين الافضلي ان يسلمها الى الاتابك ظهير الدين حاكم دمشق وبعثوا رسولاً منهم فولاها الامير سيف الدولة مسعود وارسلت اليها فرقة من الجند الاتراك المسلمين وزودت بما يلزمها من الميرة والارزاق مما جعلها تقف امام الصليبيين قوية منيعة(١).

(١) ذيل تاريخ دمشق : ١٤٦ . ١٤٨ .

(٢) ن . م . : ١٤٩ .

(٣) ن . م . : ١٥١ .

(٤) د . عبد القادر اليوسف . علاقات بين الشرق والغرب : ٩٤ .

(١) ابن القلانسي . المصدر نفسه . : ١٨٢

وفي ٥٠٩ هـ / ١١١٥ م توجهت بعض فرق الصليبيين وكتائبهم الى مدينة رفينة ، حيث تم استيلاؤهم عليها وحصنوها « وشرعوا في الفساد والتناهي في العناد » فتصدى لهم الاتابك ظهير الدين صاحب دمشق وعزم على قتالهم وانصرف همه الى الكشف عن احوالهم والبحث عن مقاصدهم في اعمالهم وترقب الفرصة فيهم وتقدم الى قادة عسكره ، ومقدميه بالتأهب والاستعداد للجهاد والنهوض ضدهم ، ولم يلبث ان هاجمهم على حين غرة ودخل الجيش الاسلامي ، المدينة واحتلها فقتلوا كثيراً منهم واسروا البعض الآخر ، وحصل المسلمون على غنائم نقلوها مع الاسرى الى دمشق(٢).

ويمضي المؤرخ ابن القلانسي مستعرضاً لنا محاولات المسلمين ونشاطاتهم في تحدي الصليبيين ومن المفيد ان نقدم بعض النماذج منها اعتباراً من ٥١٠ هـ / ١١١٦ م ، وذلك عندما جمع الصليبيون جيوشهم وحشدوها واتجهوا صوب ناحية البقاع « لاخرابه بالعبث والفساد والاضرار والعناد » فاتحدت جيوش الموصل ودمشق ، وأخذوا السير ليلاً ونهاراً وهاجموا الصليبيين بعنف واوقعوا بهم خسائر فادحة في الرجال والمعدات حتى ان العسكر الاسلامي ارهقهم فلم يتمكنوا من زكوب خيلهم ولا أخذ سلاحهم للفرار والنجاة بأنفسهم(٣).

وعلى ماظهر فان الصليبيين استجمعوا فلولهم مرة اخرى سنة ٥١٢ هـ / ١١١٨ م وتأهبوا لقتال المسلمين ، ثم تحركوا نحو المعاقل والمدن الاسلامية فراح الاتابك ظهير الدين صاحب دمشق يكاتب الامراء واصحاب الاطراف المسلمين ويطلب اليهم الوقوف ضد الخطر الذي بات يهدد الجميع فأجابه الامير نجم الدين غازي بن ارتق صاحب ماردين ، وعقدا تحالفاً بالوقوف ضد الصليبيين « وطردهم عن الافساد في هذه المعاقل والبلاد » ثم انضم التركمان واتفقوا جميعاً على رد الجيوش الصليبية « والنكاية في اضراب الشرك والضلال »(١).

وفي ٥١٣ هـ / ١١١٩ م جمع الصليبيون جيشاً قوامه عشرين ألفاً من الفارس والراجل سوى الاتباع ، واظهروا استعدادهم وتأهبهم لخوض الحرب مع الجيش الاسلامي ، ثم مالبث ان تصدى المسلمون لهم وأحاطوا بهم من « جميع الجهات وسائر الجنبات ضرباً بالسيوف ورشقاً بالسهام » ولم تمض فترة الا وكان النصر الساحق للمسلمين ، حيث هزم الصليبيون اشنع هزيمة ، ووصف المؤرخون هذه

---

(٢) ن . م . المصدر نفسه ، ١٩٢

(٣) ن . م . ، ١٩٧

(١) ن . م . ، ٢٠٠

الموقعة بأنها « فتح من احسن الفتوح والنصر الممنوح لم يتفق مثله للاسلام في سالف الاعوام ولا الآنف من الايام(٢).

اما هجوم الصليبيين على حلب وتطويقها وشروعهم في قتال من بها ، ومضايقتها سنة ٥١٨ هـ / ١١٢٤ م حتى كاد ان يهلك اهلها ، فقد فشل بفضل الجيش الاسلامي الذي جرده الامير سيف الدين سنقر البرسقي صاحب الموصل لانجاد اهل حلب والقضاء على اعتداءات الصليبيين ، حيث اجفل هؤلاء الغزاة ورحلوا منهزمين ودخل المسلمون حلب ورتبوا امورها(٣).

ويبدو ان تحشدات الصليبيين استمرت في غزو بلاد الشام وفلسطين والجزيرة الفراتية حتى سنة ٥١٩ هـ / ١١٢٥ م ، غير ان القوى الاسلامية كانت تكيل لهم الضربات المميتة ، ففي اوائل هذه السنة ، احتشد الصليبيون ليقصدوا ناحية حوران من عمل دمشق للاستيلاء عليها ، فشرع الاتابك ظهير الدين صاحب دمشق في مكاتبة ولاة الاطراف وامراء التركمان ومقدميهم واعيانهم بامداده بالرجال والسلاح ، فانجده التركمان بألف فارس ، وتأهب الجيش الاسلامي والتقى بالصليبيين وردوا على اعقابهم واوقعوا بهم خسائر فادحة ، حيث قتل معظمهم وفر الباقون الى بيت المقدس(١).

واستمرت محاولات المسلمين في التصدي للخطر الصليبي ، ويبدو ان استمرار هذه المحاولات اوجد حافزاً وتيقظاً لدى المسلمين وامرائهم فيما بعد وخاصة في عهد عماد الدين زنكي ونور الدين محمود وصلاح الدين الايوبي ، حيث استطاع هؤلاء ان يحسروا ظل هذا الخطر عن العالم الاسلامي ويدكوا قلاع الصليبيين واماراته ويسهموا في ظهور الأفاقة الاسلامية .

---

(٢) ن . م . : ٢٠١
(٣) ن . م . : ٢١١
(١) ن . م . : ٢١٢

عماد الدين زنكي والقضاء على مملكة الرها الصليبية

شكلت مدينة الرها بعد استيلاء الصليبيين عليها مركزاً مهماً من مراكزهم في المشرق الاسلامي وذلك بوصفها قاعدة لاحدى اماراتهم الاربع. ونتيجة لقربها من العراق وقوة تحصيناتها، فقد سببت للمناطق الاسلامية المجاورة اخطاراً كثيرة ومستمرة، وهي بموقعها تستطيع ان ترد هجمات المسلمين الموجهة ضد امارة انطاكية الصليبية لانها أكبر من الاخيرة مساحة، حيث تشغل مناطق كبيرة من امتداد نهر الفرات وتدخل فيها مدينتي رواندان وعينتياب في بلاد الجزيرة الفراتية الامر الذي جعلها تفتقر الى حدود طبيعية(١).

ويشير المؤرخون الى ان الرها اعظم المدن عند النصارى، اذ كانت عين البلاد الجزرية وحصن المنطقة(٢). وكانت تشكل عائقاً يحول دون قيام عماد الدين زنكي بتوحيد الجبهة الاسلامية في الجزيرة وشمالي الشام، وذلك بسبب انحيازها وتدخلها المستمر لصالح اعدائه من امراء المسلمين في المنطقة وتهديدها الدائم لخطوط المواصلات التي تربط بين الموصل وحلب من جهة وبين بلاد فارس وسلاجقة آسيا الصغرى من جهة أخرى(٣)، الامر الذي جعل عماد الدين زنكي ينشط في القضاء عليها.

بدأ عماد الدين يستغل مركزه القوي في ديار بكر وقام باحتلال عدد من المواقع والحصون الصليبية التابعة لامارة الرها قبل محاولته الاستيلاء على هذه الامارة. ومن تلك الحصون والمواقع القريبة من ماردين، جملين والموزر واقليم شبختان، وكان يهدف على ما يبدو من وراء ذلك الى قطع الاتصال بين قرى ارسلان الارتقي امير حصن كيفا وبين جوسلين أمير الرها، وذلك بسبب تحالفهما ضده وان اقدامه على احتلال هذه المواقع مهد له الطريق لانزال ضربته المباشرة بالرها نفسها وتحقيق حلمه الذي طالما راود خياله عبر سني صراعه الطويل ضد الصليبيين(١).

(*) كانت مدينة الرها من اول البلدان التي قامت بها جالية صليبية كبيرة في الشرق الادنى كما ترجمت فيها اجزاء من العهد الجديد الى اللغة السريانية في القرن الثاني للميلاد. انظر: د. سعيد عبد الفتاح عاشور. الحركة الصليبية ٢ / ١٧٨.

(١) رنسيمان. تاريخ الحروب الصليبية ٢ / ٢٤

(٢) ابن الاثير. الكامل في التاريخ ١١ / ٤٠. الباهر: ٦٦ ــ ٦٧

(٣) عماد الدين خليل. عماد الدين زنكي: ١٤٩

(١) عماد الدين خليل. المصدر نفسه: ١٤٨

ولعل من المفيد ان نستعرض العوامل التي ساعدت عماد الدين زنكي على الاستيلاء على هذه الامارة ، وفي مقدمة هذه العوامل هي ماكانت عليه اوضاع الصليبيين وعلاقاتهم مع بعضهم في بلاد الشام ، حيث اشتد النزاع بينهم وخاصة بين ريموند امير انطاكية وجوسلين الثاني امير الرها ، وانتهى الامر بمقاطعة احدهما للاخر واعتلاء بلدوين الثالث عرش مملكة بيت المقدس وهو ضعيف الشخصية ، وكانت الوصية عليه امه (ميلزاند) التي لم تكن تهتم بمصالح الصليبيين ، بل راحت تحيك المؤمرات ضد الامراء الصليبيين كما انشغلت بالدفاع عن المدينة ضد الهجمات التي كان يشنها الدمشقيون . ويمثل انتهاء التحالف القديم بين الصليبيين والامبراطورية البيزنطية في عهد الامبراطور حنا كومنين سنة ٥٣٧ هـ / ١١٤٢ م أحد العوامل المؤثرة في سقوط امارة الرها بيد المسلمين فما لبث عماد الدين زنكي ان استغلها لصالحه . لقد حل محل هذا التحالف ، عداء شديد ومستحكم وحروب مستمرة بين الطرفين وذلك بسبب الاطماع التي كانت تساور كلا الطرفين . ثم جاءت وفاة الامبراطور حنا كومنين لكي تخلص عماد الدين زنكي من عدو لدود يشكل خطراً دائماً عليه ويتربص به الذوائر (*).

ويضاف الى ذلك ماكانت تمر بها امارة الرها نفسها من ظروف شجعت المسلمين على التحرش والاطاحة بها ، فموقعها كان ملائماً للهجوم العسكري الذي كان يشنه عماد الدين زنكي ، حيث احاط بها المسلمون من كل مكان وفصلها الفرات عن بقية الامارات الصليبية في بلاد الشام . كما تميز اميرها جوسلين الثاني بضعف شخصيته وانسياقه وراء العواطف والاهواء ، ولم يكن يمتلك دراية وخبرة سياسية كافية . وكانت امه ارمنية قرّبت الارمن فمال اليهم جوسلين واعتمد عليهم مما سبب قلقاً بين فرسانه الصليبيين(١).

لقد استغل عماد الدين زنكي هذه الظروف مجتمعةً للهجوم على الرها ، وانتزاعها من الصليبيين ، حيث عزل اميرها جوسلين الثاني عن حلفائه ، وسعى عماد الدين زنكي الى تدبير خدعة تتيح له تحقيق هدفه من اقصر طريق ، وقد انصبَّ اهتمامه على ايجاد وسيلة تدفع غريمه الى مغادرة مقر امارته فاتجه الى آمد واظهر انه يعتزم محاصرتها وأنها هدفه دون غيرها وبث عيونه ، ليطلعوه اولاً بأول على تحركات اميرها الذي ماأن رأى انهماك عماد الدين زنكي بحروبه في ديار

(*) من الجدير بالذكر انه يجب ان لانبالغ كثيراً في وصف سوء حالة الصليبيين قبل تحرير مدينة الرها . كما يفعل الصليبيون لان ذلك يخالف الوقائع التاريخية ويخدم الغرض الصليبي في تبرير فشلهم والاقلال من اهمية نصر عماد الدين زنكي .

(١) ن . م . : ١٤٩ .

بكر وعدم تفرغه للهجوم على المواقع الصليبية حتى غادر مقر امارته على رأس قواته ، بعد أن اتخذ اجراءاً احتياطياً بأن عقد هدنة مع قرا أرسلان صاحب حصن كيفا الذي كان قد التجأ اليه بعد تهديد عماد الدين زنكي لامارته واتجه الى تل باشر للاقامة هناك وما أن سمع عماد الدين زنكي بذلك حتى أسرع بالتوجه الى الرها مستنفراً كل قادر على حمل السلاح من مسلمي المنطقة للجهاد ، وما لبث أن انهالت عليه جموع المتطوعين ، فطوق بهم الرها من جهاتها الاربع .

ويذكر المؤرخ ابن القلانسي ، أن عماد الدين زنكي « افتتح مدينة الرها بالسيف مع ماهي عليه من القوة والحصانة والامتناع ، وعرف أن جوسلين صاحبها قد خرج منها في جل رجاله واعيان حماته وابطاله ، بادر الى النزول في العسكر عليها لمضايقتها واحاط بها من جميع الجهات ، وفرض عليها الحصار ونصب على اسوارها المناجيق ترمي عليها ، فدخلوا في النقب وعندما حاول الصليبيون انجاد اهل الرها فاجتمعوا بناحية انطاكية من جميع اعمالها ومعاقلها وقد استولوا على كثير من الصليبيين قتلاً وأسراً(٢)»

وعلى مايبدو فان عماد الدين حاول أن يتوصل بالطرق السلمية الى فتح الرها دون اضطرار الى رفع السيف ، فراسل الاهالي باذلاً لهم الامان طالباً منهم أن يفتحوا له الابواب قبل أن يجد نفسه مضطراً الى تدمير اسوار بلدهم واخلاء ديارهم، الا انهم أبوا قبول الامان ، وحينئذٍ اشتد عماد الدين زنكي في التضييق على الحصن مستخدماً آلات الحصار الضخمة التي كان قد جلبها معه لتدمير الاسوار قبل ان تتاح الفرصة للصليبيين بتجميع قواتهم وانقاذ هذا الموقع الخطير غير انه لم يستجب احد من الصليبيين لنداءات جوسلين سوى (ميلزاند) الوصية على بيت المقدس ، حيث وصلت نجدتها بعد فوات الاوان . وقام جوسلين بمحاولة للدخول الى المدينة او ارسال نجدة لتعزيز دفاعها ، فحيل بينه وبين ذلك .

وبعد اربعة اسابيع انهارت بعض اجزاء الحصن قرب باب الساعات اثر الضرب المركز الشديد الذي تعرضت له فاجتاحت قوات المسلمين المدينة واستسلمت قلعتها بعد يومين وقام القس اليعقوبي برصوما باجراءات تسليم الرها الى عماد الدين زنكي الذي اصدر اوامره الى جنده بايقاف اعمال القتل والاسر والسلب واعادة مااستولوا عليه من سبي وغنائم واصدر امره بالاسراع في تنظيم امورها وتعميرها ورتب من يدبرها ووعد اهلها باجمال السيرة لاستمالة سكانها الاصليين النصارى الشرقيين ضد الصليبيين الكاثوليك(١).

---

(٢) ذيل تاريخ دمشق ، ٢٧٩ .

(١) عماد الدين خليل ، عماد الدين زنكي ، ١٥١

لقد اظهر عماد الدين زنكي ، الرفق في معاملة اهل مدينة الرها ، فعين قائده على كوجك صاحب اربل اميراً عليها ، وجعل للمسيحيين الوطنيين من الارمن واليعاقبة واليونانيين ، قدراً من الاستقلال الذاتي وكانت الكنائس اللاتينية قد تعرضت للدمار في حين كانت كنائس اولئك المسيحيين لم يمسها السوء ، وجرى تشجيعهم على دعوة اخوانهم في الدين الى النزوح الى المدينة والاقامة بها(٢).

وذهبت محاولات الصليبيين لانجاد مدينة الرها ادراج الرياح فقد صحب جوسلين كل قادته اللامعين وتولى امر الدفاع عنها هيو الثاني رئيس أساقفة اللاتين وسانده كل من يوحنا أسقف الارمن وباسيل أسقف اليعاقبة ، غير ان عدد المدافعين كان قليلاً اذا قورن بحشود المسلمين التي كانت تحاصر المدينة . ولم يلبث جوسلين ان التجأ الى تل باشر فوصفه المؤرخ وليم الصوري بالجبن والكسل ، لانه رفض التوجه لنجدة عاصمته ، واعتقد بأن استحكامات الرها الضخمة سوف تقاوم فترة من الزمن ، وفي وسعه وهو بتل باشر ، ان يقطع طريق الامداد التي يطلبها عماد الدين زنكي من حلب ، كما انه اعتمد على مايبذله له جيرانه من الصليبيين من مساعدة . ففي مملكة بيت المقدس دعت الملكة (ميليسند) الى عقد مجلس فوضها بحشد جيش سيرته بقيادة الكند سطبل فسيس وفيليب سيد نابلس والينانذ بورس امير الجليل اما في انطاكية فلم يشأ ريموند ان يفعل شيئاً ، فضاع هباء كل ماوجهه جوسلين له من نداءات باعتباره سيده الاعلى ، فلم يجسر جوسلين على مهاجمة عماد الدين زنكي بدون مساعدته وظل جوسلين في تل باشر ينتظر قدوم جيش الملكة ميليسند فلم يصل الجيش الا بعد فوات الاوان(١).

واعتبر المسلمون فتح الرها ، فتح الفتوح ، وتبارى الشعراء في تقديم تهانيهم الشعرية ، وقد اذهل سقوطها ، القادة الصليبيين وأيقن ريموند امير انطاكيا ، بأن نهايته اصبحت وشيكة ، لهذا سارع الى القسطنطينية طالباً نجدته ، ثم راحت وفود مملكة بيت المقدس تذيع النبأ في اوربا وتطلب المساعدات العسكرية ضد المسلمين ، فكان ان تكونت الحملة الصليبية الثانية(٢).

لقد اثار سقوط الرها في العالم المسيحي مخاوف المؤسسات الصليبية في اوربا ونبههم الى خطورة الاوضاع في الجزيرة والشام وتحولها الى اتجاه مضاد لمصالحهم

---

(٢) رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ٢ / ٣٨٢ .

(١) رنسيمان ، المصدر نفسه ، ٣٧٩ ــ ٣٨١ .

(٢) د . عبد القادر اليوسف ، علاقات بين الشرق والغرب ، ١٠٩ .

واهدافهم ، لذلك نشطوا في الدعوة الى حملة صليبية جديدة(٣). ولكن سقوط الرها واضطراب امر الصليبيين في المنطقة اثر على كيانهم فلم يستطيعوا القيام بعمل ضد عماد الدين زنكي بسبب تدهور اوضاعهم ، الا بعد وصول الحملة الصليبية الثانية حيث جربوا مجابهة المسلمين .

وفي الواقع ان سقوط الرها اتم المرحلة الاولى في الافاقة الاسلامية وما جناه المسلمون من انتصارات اكدها الانهيار الفاجع الذي تعرضت له الحملة الصليبية الثانية التي كانت تهدف الى اعادة سيادة الصليبيين في الشرق(١). كما زاد سقوط الرها في اضعاف الروح المعنوية عند الصليبيين واثار خوفهم وقلقهم ، وكان صدمة كبيرة للمسيحيين في غرب اوربا ، اذ ادركوا لاول مرة ، ان الامور لم تسر على نحو يخدم مصلحة الصليبيين في الشرق ، فدعى الصليبيين الى حملة صليبية جديدة ، لكنهم لم يتعاونوا سوياً ، فجوسلين حاول ان يتخذ من تل باشر حاضرة له واختلف مع ريموند امير انطاكية واعلن خروجه ورفض سيادته عليه وكره ريموند الوفاق مع جوسلين ، ولكنه قرر ان يلتمس مساعدة البيزنطيين فرحل اليهم ، لكنهم كانوا يحاولون ان يشتبكوا مع الاتراك فلم يجيبوه على طلبه وجعلوه ذليلاً امام باروناته(٢).

ويمكن القول ، ان سقوط مملكة الرها الصليبية قد اثمر كثيراً في تخليص امارة عماد الدين زنكي من مصدر قريب للخطر كان يهدد المنطقة دوماً بشن الغارات « فأصبح اهلها بعد الخوف آمنين »(٣) كما ان هذا النصر مهّد الطريق امام عماد الدين زنكي للاستيلاء على الحصون الصليبية المجاورة وفرض سيطرته التامة على ممتلكات اعدائه في المنطقة ، وقد انعم عليه الخليفة العباسي والسلطان السلجوقي بكثير من الالقاب(٤) وجعل هذا النصر منه اماماً للمسلمين والمدافع عن الدين والمجاهد في سبيله . وقد دارت عنه احاديث شتى بينت مدى التقدير والاعجاب الذين نالهما اثر تحقيقه هذا النصر الحاسم ضد الصليبيين . وبذلك بلغ هذا القائد

---

(٣) كما ان سقوط هذا الموقع المهم دفع ريموند امير انطاكية الى الاعتقاد بعدم قدرته على مجابهة عماد الدين زنكي بمفرده والذهاب الى القسطنطينية لاعلان تبعيته للامبراطور البيزنطي (مانويل) الذي وعده بمساعدته ضد غريمه (عماد الدين خليل ، عماد الدين زنكي : ١٥٤) .

(١) رنسيمان ، المصدر نفسه : ٤٦٧ .

(٢) رنسيمان ، المصدر نفسه : ٣٨٣ .

(٣) ابن الاثير ، الباهر : ٦٩

(٤) مثل الامير المظفر ، ركن الاسلام ، عمدة السلاطين ، زعيم جيوش المسلمين ملك الامراء ، امير المراقبين والشام (ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ٢٨٤

ذروة مجده في العالم الاسلامي بعد ان فتح هذه الحاضرة الصليبية . لقد تردد صدى انباء سقوط الرها في جميع انحاء العالم ، اذ تجدد الامل عند المسلمين بعد ان تحطمت امارة صليبية قامت دخيلة في جوف بلادهم واقتصر الصليبيون على البلاد التي تقع على ساحل البحر المتوسط(٥).

ولابد من القول ان عماد الدين زنكي قد حقق بفتحه الرها واسقاطه لهذه الامارة الصليبية اهم عمل قام به ضد هؤلاء الغزاة حيث كانت له نتائج مهمة في العالمين الاسلامي والمسيحي ، فقد اعطى للمسلمين املاً جديداً « ولم ينتفع المسلمون بمثله وطار في الافاق ذكره وصار حديث المحافل(١) » اذ انه اوضح مدى قدرة المسلمين على مجابهة القوى الصليبية وانتزاع اقوى حصونهم منهم . كما مهد الطريق امام الذين اعقبوا عماد الدين زنكي لاكمال عمله واسقاط بقية الامارات الصليبية واحدة تلو الاخرى وادى الى القضاء على الحواجز التي اقامها الصليبيون في هذه المنطقة التي اعاقت الاتصال بين سلاجقة اسيا الصغرى وسلاجقة العراق وبلاد فارس(٢).

وبعد استتباب احوال الرها ، راح عماد الدين زنكي ، يسعى الى الاستيلاء على مراكز الصليبيين وحصونهم فجرى تطهير الطرق الممتدة من الموصل الى حلب من اي تواجد للصليبيين ، وتم انتزاع الاسفين الذي دقه الصليبيون بين الترك في ايران والترك في الاناضول ، حيث توجهت قوات عماد الدين زنكي من الرها الى سروج تعتبر ثاني حصون الصليبيين الواقعة شرقي نهر الفرات فتم الاستيلاء عليها سنة ٥٤٠ هـ / ١١٤٥ م ، ثم تقدم الى قلعة البيرة الحصينة المطلة على الفرات وحاصرها ، غير انه رفع الحصار عنها لوقوع بعض الاضطرابات في الموصل فخاف صليبيو الحصن ان يحاصروا مرة اخرى فتنازلوا عن حصنهم الى حسام الدين تمرتاش الارتقي صاحب حصن كيفا ، وهكذا فقد صليبيو الرها كافة حصونهم الواقعة شرقي نهر الفرات ولم يتبق منها سوى تل باشر ومرعش ودلوك وسميساط وعينتاب ـ وعزاز . استطاع نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي فيما بعد اكتساحها جميعاً ومحو اولى الامارات الصليبية من الوجود في الشرق الاسلامي(٣).

تجهز عماد الدين زنكي بعد ذلك لحملته على بلاد الشام لاكتساح دمشق لان اميرها معين الدين أنر ، حليف للصليبيين ، وفي اثناء اجتيازه الرها علم ان الارمن

---

(٥) رنسيمان ، المصدر نفسه ، ٣٨٢

(١) ابن الاثير ، المصدر نفسه ، ٦٩

(٢) عماد الدين خليل ، عماد الدين زنكي ، ١٥٣

(٣) ن . م ، ١٥٦

يحاولون التخلص من حكمه واعادة جوسلين الصليبي اليها غير ان الامير علي كوجك المتولي عليها ، احبط المؤامرة وأجلى الارمن من المدينة . ثم قاد عماد الدين زنكي حملته الى قلعة جعبر علي ، الطريق من الفرات الى دمشق والتي رفض اميرها الاعتراف بالجهود التي كان يبذلها عماد الدين زنكي في سبيل تكوين الجبهة الاسلامية المتحدة بوجه الصليبيين .

وفي أثناء الحصار الذي فرضه عماد الدين زنكي على القلعة المارة الذكر أغتيل ، فتلقى جميع أعدائه النبأ بالغبطة،اما مملكته قد تقسمت بين أبنائه ومضى ريموند امير انطاكية في غاراته حتى بلغ أسوار حلب ، بينما اعد جوسلين خطة لاستعادة احتلال الرها فأتصل عملاؤه بالارمن بداخل المدينة واتحدوا مع اليعاقبة وظفروا بتأييدهم ، ثم جرد جوسلين جيشاً قاده بنفسه وانحاز اليه بلدوين أمير مرعش وكيسوم وكان جوسلين يأمل ان يهاجم الرها بغتة ، غير ان المسلمين تلقوا الانذار عن هذه الخطة ، وبفضل مساعدة بعض النصارى الوطنيين استطاع جوسلين ان يشق طريقه الى داخل المدينة غير أن الحامية تأهبت لمواجهته وبذلك لم تستطع عساكر جـ ـلين أن تقوم بعمل حاسم .

ومما أفشل مخططات الصليبيين اوامر عماد الدين زنكي باستدعاء جيشه وطلب منه مساعدة الامراء المسلمين مما اوقع جوسلين بين قوات عماد الدين وبين حامية المدينة ، فأدرك جوسلين انه لا سبيل للنجاة الا بالجلاء المباشر من المدينة فتسلل اثناء الليل برجاله وصحبه اعداد كبيرة من النصارى الوطنيين واتخذ طريقه صوب الفرات ، فلم يلبث نور الدين محمود ان اقتفى اثرهم ولحقت جيوشه بهم ونشبت المعركة في اليوم التالي ، وامر جوسلين جيشه القيام بهجوم مضاد ، غير ان المسلمين ردوا هذا الهجوم ولم يلبث عساكر الصليبيين ان تفرقت وولت الادبار فزعة ، ولقى بلدوين امير مرعش مصرعه واصابت جوسلين جراح مثخنة فهرب مع رجاله الى سميساط ولحق به باسيل اسقف اليعاقبة ووقع يوحنا اسقف الارمن اسيراً فحمله الجيش الاسلامي مع الاسرى الى حلب . واقتص المسلمون من خيانة بعض النصارى الوطنيين ، بعد ان تخلى عنهم الصليبيون فأخرجوا من المدينة وابعد الاخرون الى المنفى (١).

ولعل من المفيد ان نذكر ان امارة الرها الصليبية ، لم تعش الا فترة قصيرة كانت حافلة بالكثير من الاحداث ، ويرجع ذلك على اقرب الاحتمال الى ان وقوع هذه الامارة الى الشرق من نهر الفرات جعلها على اتصال وثيق بالارمن من جهة

(١) رنسيمان . تاريخ الحروب الصليبية ، ٢ / ٣٨٥ .

وشديدة القرب من الطريق التجاري الكبير الذي يمتد على الفرات الى مدينة الرقة ومنها يتفرع الى طريقين احدهما يسير الى انطاكية والاخر يتجه الى دمشق من جهة أخرى(٢) فالارمن كونوا الاغلبية من سكانها وكانوا يحاولون ابعاد الصليبيين عن المدينة ، غير انه بوصول الصليبيين الى الشرق بدأت تظهر اطماعهم في تأسيس امارات خاصة لهم فاتجه (تانكرد) وهو من امراء الحملة الصليبية الاولى نحو اقامة امارة لنفسه في مدينة الرها وفرض سلطته على الارمن هناك . كما ان وقوع الرها على الطريق التجاري الكبير جعلها مطمحاً للقوى السياسية في المنطقة لما لها من اهمية اقتصادية واستراتيجية .

أما ما تبقى من موقف عماد الدين من الصليبيين فسنذكره في موضوع دعوة امراء المسلمين الى التوجه والقتال ضد الصليبيين في الفصل القادم .

محاولات الاستنزاف

دأب المسلمون على اضعاف الصليبيين والحيلولة دون استيلائهم على المواقع والمدن التي كانوا يستهدفونها . وكانت الاستعدادات العسكرية الاسلامية والاستمرار على مطاردة الصليبيين وتشتيتهم او قطع دابرهم من المناطق التي امكنهم الاستحواذ عليها ، يشكل على المدى البعيد ــ منذ ان وطأت اقدام هؤلاء الغزاة أرض الشرق الاسلامية وحتى اخراجهم نهائياً من الشرق سنة ٦٩١ هـ / ١٢٩١ م ــ محاولات جدية لاستنزافهم وجعلهم لا يقوون على مجابهات لاحقة تقوم بها القوى الاسلامية .

ونقرأ في المصادر مايفيدنا على الاستنتاج ، بأن مداومة المسلمين على شن الغارات والهجمات السريعة على الصليبيين وقتالهم بصورة مستمرة او متقطعة في بلاد الشام والجزيرة ، انما كان بدافع ارغام الصليبيين على التراجع واستبدال الصورة التي كانوا يرسمونها في اذهانهم عن الشرق الطيع والحد من مطامحهم العريضة في الاستيلاء على خيراته وأماكنه المقدسة واجبارهم على التخلي عن حماقتهم واندفاعهم اللامحدود وجعلهم في دوامة من المتاعب السياسية والاقتصادية والعسكرية ، وفي هذه الحالة عندما يشعرون بواقعهم المر وبتورطهم سوف تنفرط جبهاتهم وتتشتت قواهم ، فيسهل على المسلمين طردهم .

لقد حاول المسلمون اجهاد عدوهم الصليبي منذ سنة ٤٩٢ هـ / ١٠٩٨ م عندما راحوا ينشطون في استرداد مدينة انطاكية من ايدي الصليبيين فزحفوا بجيوشهم

---

(٢) أرنست باركر ، الحروب الصليبية : ٤٦ .

حتى وصلوا الى نهر الاورنت عند الباب الحديدي ، ثم عسكروا امام اسوار المدينة في نفس المواضع التي سبق ان احتلها الصليبيون ، وقرر المسلمون ان من دواعي الاقتصاد في النفقات ان يضيقوا الخناق على الصليبيين ويشتدوا في حصارهم ثم يقوموا بمهاجمتهم حين يضعفهم الجوع ، واحكموا تطويق المدينة ، وبذل الصليبيون محاولات في منع المسلمين ، فقاموا بهجوم ، غير انهم لم يلبثوا ان ارتدوا واحتموا بالاسوار . استبد بالصليبيين اليأس والقنوط ، بعد ان فشلت جهودهم ، واخذ الطعام ينفذ عندهم « وهوت روحهم المعنوية الى احط درك »(١).

وقد مضى المسلمون في قتال الصليبيين ، فاقتحموا قلاعهم في (شبختان) الواقعة شرقي الرها ، ثم واصلوا السير نحو الرها نفسها ، ورد الصليبيون الهجوم الذي بدأه المسلمون ، فاستنجد اميرها بأمير انطاكية بوهمند وكان الاخير كذلك يواجه تحديات المسلمين .

ويقدم لنا ابن القلانسي في كتابه ، ذيل تاريخ دمشق وهو من المعاصرين اخباراً عن مواجهات الجيوش الاسلامية للصليبيين في الشرق ، وهي تمثل في الواقع محاولات المسلمين في استنزاف قوة عدوهم ، ففي ٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م سار المسلمون بعساكرهم الى منطقة طبرية ، ثم تفرقت الى كتيبتين ، نفذت احداهما الى فلسطين والاخرى الى مدينة طبرية فألتقت بالصليبيين ، واحاطت بهم وتمكنت منهم حيث قتلت اكثرهم واسرت الباقي وحملوا الى دمشق (٢).وبعد سنتين من هذا التاريخ ، تصدى المسلمون لمحاولات الصليبيين في الاستيلاء على عرقة فأرغموهم على التخلي عنها(٣) . ثم نهض المسلمون بعساكرهم لطرد الصليبيين عن مدينة (رفينة) وحامياتها وخيموا بأزائها في حمص فلم يتمكن الصليبيون من منازلتها ومضايقتها(٤).

وفي ٥١٩ هـ / ١١٢٥ م ، اغارت فرقة اسلامية من عساكر التركمان على « اطراف الصليبيين ونالت منهم واستظهرت عليهم وخاف الصليبيون وعلموا انه لاطاقة لهم بهذا وايقنوا بالهلكة ورحلوا بأسرهم من منازلهم الذي كانوا فيه عائدين الى اعمالهم غاية من الخوف والوجل ونهاية من الذل والوهل » . وحمل عليهم المسلمون وهو مولون لايلوون على تابع ولا يقفون على مقصر لاحق ، وقد شملهم الرعب وضايقوهم

---

(١) رنسيمان . تاريخ الحروب الصليبية ١ / ٣٣٦

(٢) ابن القلانس . ذيل تاريخ دمشق ، ١٦١

(٣) ن . م . ، ١٦٢

(٤) ن . م . ، ١٦٥

مضايقة الجأتهم الى رمي نفوسهم عليهم اما لهم واما عليهم وعادوا الى المعسكر الاسلامي فكسروهم(١)» .

وفي هذه السنة يبدو ان كتيبة صليبية تعرضت لاطراف دمشق فلما وصل العسكر الاسلامي « وبنوا الامر بينهم على مباغتتهم في غد للايقاع بهم فصادفوهم قد رحلوا عائدين الى عملهم خوفاً مما عزم عليه المسلمون من قصدهم وتتبعهم(٢)» .

وتوالت هجمات المسلمين على الصليبيين المتوغلين نحو دمشق بهدف الاستيلاء عليها ، وقد اكثروا الحديث في قصدها وبثوا رسلهم الى الاعمال في جمع الرجال والاحتشاد فاجتمعوا من الرها وانطاكية وطرابلس والساحل والتحق بهم الاسطول الذي تمتلكه امارة بيت المقدس ، فنزلوا على بانياس وخيموا عليها ، ويُقدر عدوهم بستين الف فارس وراجل ، فتأهب لهم تاج الملوك بوري بن الاتابك ظهير الدين صاحب دمشق ، واستطاع من توفير السلاح واستنجد بالتركمان ، فبادروا الى اجابة ندائه ووصل اليهم من طوائفهم المختلفة الاجناس كل ذي بسالة وشدة مراس راغبين في اداء فريضة الجهاد ومسارعين الى غزو الصليبيين واطلق مايحتاجون لقوتهم .

رحل الصليبييون عن بانياس لعدم تمكنهم من السيطرة عليها وكثرة المدافعين عنها واتجهوا نحو دمشق ونزلوا على جسر خشب والميدان المعروف المجاور له فوصل التركمان وانضم اليهم مرة بن ربيعة في العرب الواصلين معه وتفرقوا كراديس في عدة جهات ووقفوا بازائهم وانضاف اليهم سيف الدولة سوار صاحب حماة في عسكر ، وتألفت جبهة المسلمين وهي على غاية من الكثرة والمنعة فهجموا عليهم ولم يزل عسكر الاسلام يكر عليهم ويفتك بهم الى ان فشلوا وانخذلوا وولوا منهزمين وحمل الاتراك والعرب حملة هائلة واحدقوا بهم ضرباً بالسيوف وطعناً بالرماح ورشقاً بالسهام ، وأيقنت النفوس بأن الكفرة لا يكاد يجتمع لهم بعد هذه الكائنة شمل بعد فناء ابطالهم واجتياح رجالهم وذهاب أثقالهم(١).

وبعد هذا النصر تقدم العسكر الاسلامي الى ناحية الشمال بمساعدة التركمان وأغار على طرابلس وأعمالها ، وهي من معاقل الصليبيين « فظفروا بخلق كثير منهم قتلا وأسرا ، والتقى العسكر الاسلامي بالصليبيين فكسروهم وأظفرهم الله بحشودهم المفلولة وجموعهم المخذولة ، وقتل من الصليبيين حماتهم وأبطالهم ، وأنهزم الباقون وهم نفر قليل الى الحصن المعروف ببعرين » فالتجأوا اليه وتحصنوا به ، ثم

---

(١) ن . م . : ٢١٣ .

(٢) ابن القلانسي ، المصدر نفسه ، ٢٢٤ ـ ٢٢٦ .

(١) ن . م : ٢١٣ .

لم يلبث المسلمون أن حاصروا هذا الحصن أياماً عديدة ، فاستنجد الصليبيون بأعوانهم وحلفائهم . وقد اجتمع اليهم خلق كثير ، غير ان المسلمين قتلوا أكثرهم واوقعوا بهم(٢) » .

قرر المسلمون سنة ٥٢٤ هـ / ١١٢٩ م تكرار الهجوم على المواقع الصليبية مستهدفين أشدها قرباً وخطراً عليهم فهاجموا حصن الاثارب القريب من حلب ، وكان هذا الحصن قد سبب الكثير من الاضرار بفلاحي المنطقة من المسلمين بسبب غارات الصليبيين عليهم من ذلك الحصن ، وقد جمع الصليبيون فيه خيرة فرسانهم ، وراح المسلمون يفرضون الحصار حوله ، بعد أن حشد الصليبيون قوتهم فيه ، وجرت بين الطرفين معركة دامية انتهت بانتصار المسلمين وقتل وأسر عدد كبير من الصليبيين وفتحوا الحصن عنوة ، ثم تقدموا نحو حارم وضربوا حولها الحصار(٣) .

ونتيجة لمعاودة المسلمين قتال الغزاة بهمة وعزيمة لا هوادة فيها اتجهت الاحداث في بلاد الشام اتجاهاً لصالح المسلمين مما جعل الصليبيين يدركون أن عليهم مجابهة قوة جديدة لم تكن في حسابهم ويحولون خططهم العسكرية من الهجوم الى الدفاع(١) .

ويمكن القول ، ان المسلمين لم يتركوا الصليبيين في مواقعهم وحصونهم ينعمون بالاستقرار فهاجمهم سنة ٥٢٩ هـ / ١١٣٤ م في خمسة من مواقعهم وهي : الاثارب ، زردنا ، تل أغدى ، معمرة النعمان وكفر طاب وانتصروا عليهم(٢) . ثم توجه الجيش الاسلامي الى حمص بعد أن قطع نهر الفرات سنة ٥٣١ هـ / ١١٣٦ م نزل على حصن بعرين لينتزعه من أيدي الصليبيين ، فلما عرفوا ذلك تجمعوا ونزلوا قريباً لحمايته ، غير أن المسلمين أوقعوا بهم وهزم الصليبيون وبقى من في داخل الحصن محاصرين حتى أكلوا خيولهم(٣) » .

اضطر الصليبيون الى الانسحاب من دمشق نتيجة هجمات المسلمين ، واتجهوا صوب صور وعكا والثغور الساحلية « فاقتضت الحال نهوض المسلمين اليهم ولم يزالوا يواصلون الغارات على مواقعهم وأطرافها وضايقوهم وأضعفوهم حتى لم يكن لهم حيلة ولا قوة فاستسلموا(٤) .

---

(٢) ابن القلانس ، المصدر نفسه : ٢٤٠

(٣) ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ١٠ / ٢٥٢ ، الباهر : ٣٩ ـ ٤٢

(١) عماد الدين خليل ، عماد الدين زنكي : ١٤٠

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب في تاريخ حلب ٢ / ٢٥٩ .

(٣) ابن القلانسي ، المصدر نفسه ، ٢٥٨ .

(٤) ابن القلانس ، ذيل التاريخ دمشق : ٣٠٣

وبفعل الضربات التي كان يسددها المسلمون للصليبيين ونتيجة لسقوط امارة الرها الصليبية . اتجه الصليبيون نحو الايطاليين لينجدوهم فأخذت المدن الايطالية التجارية ترسل من حين أسطولاً ليسهم في الاستيلاء على ميناء من الموانىء . ان ذلك لم يكن ليحدث الا بفضل ما وصلت اليه قوة الصليبيين من الضعف والوهن وبما أبدته جحافل المسلمين من مقاومة واستنزاف لموارد الغزاة وأسلحتهم ومؤونتهم ومكامن قوتهم سواء بالنسبة لهم أو لحلفائهم(٥).

والجدير بالذكر انه لم يكن من الصعب على عماد الدين زنكي بعد اسقاطه لامارة الرها ، ان يستولي على بقية المعاقل والمواقع الصليبية شرقي الفرات وذلك نتيجة لما اصاب الصليبيين من انهيار في قواتهم ومعنوياتهم فاستولى على سروج سنة ٥٤٠ هـ / ١١٤٥ م بحيث لم يتبق لجوسلين الثاني امير الرها المهزوم في تلك الجهة غير البيرة وهو حصن مطل على نهر الفرات(١). كما تم له محاصرة البيرة نفسها . مما اضطر الصليبيين الى تسليمها الى حسام الدين تمرتاش بن ايلغازي بن ارتق امير ماردين(٢).

ولعل من المفيد ، القول بأن الصليبيين في بلاد الشام أخذوا يلجأون الى الاراتقة في شمال الجزيرة للتحالف معهم نتيجة الاخطار المتأتية اليهم من عماد الدين زنكي والحد من هجماته المتكررة عليهم والتي أضعفتهم وجعلتهم لا يقوون على مجابهته .

أما في عهد نور الدين محمود ، فقد استمرت محاولات استنزاف القوى الصليبية ـ كما سنفصله بعد قليل ـ حيث أثبتت الاحداث أن سياسته استهدفت محاربة الصليبيين وخاصة في انطاكية وفي الوقت نفسه استمالة القوى الاسلامية المتعددة في شمال العراق وفي الشام واكتساب ودها وصداقتها . وهكذا اختص نور الدين محمود امارة انطاكية بهجماته المتكررة حتى سلبها معظم املاكها تقريباً شرقي نهر العاصي ، كما حاول استمالة حكام دمشق الى جانبه وكسب ودهم فعقد معهم اتفاقية صلح سنة ٥٤٢ هـ / ١١٤٧ م .

لقد ركز نور الدين محمود معظم نشاطه في ميدان الشام ، وبذلك عالج بحكمة ودراية الاخطار التي كان يسببها الصليبيون على هذه المنطقة كما سنذكره في الفصل القادم ـ وقد ساعدت الاحداث على اظهار كفايته في نظر المسلمين وخطره على الصليبيين منطلقاً من امارته حلب على مواقعهم ومراكزهم في بلاد الشام ابان الحملة الصليبية الثانية التي كانت تستهدف دمشق والقضاء على الزنكيين واستعادة الرها .

---

(٥) رنسيمان . تاريخ الحروب الصليبية ٢ / ٤٠٠

(١) ابن واصل مفرج الكروب ١ / ٩٤ .

(٢) ابن الاثير . التاريخ الباهر : ٨٠ ـ ٨١

الفصل الثاني

« دخول دمشق تحت حكم نور الدين وبدايات التوحيد السياسي »

كانت مدينة حلب حاضرة مملكة نور الدين محمود زنكي الذي استهل حكم امارته في العمل من اجل توحيد مايمكنه توحيده من المدن الاسلامية الواقعة في بلاد الجزيرة والشام تحت امرته كي يتسنى له التصدي للصليبيين ، وقد نجح فعلاً خلال عدة سنوات من الجهاد السياسي ان ينتصر على مناوئيه من الامراء والحكام المسلمين الاقليميين الذين فضلوا مصالحهم الشخصية على مصالح امتهم . فقد استرد حكم بلاد الجزيرة وبذلك اصبحت جيوش الموصل وسنجار وحلب واحدة ، ولم يبق امام نور الدين سوى مدينة دمشق التي كانت بيد اخر حكام ال بوري(١).

وقد ادرك نور الدين انه ليس بوسعه ان ينفذ خطته القاضية بمحاربة الصليبيين والاستمرار على جهادهم ، الا بعد انضمام مدينة دمشق اليه . خاصة وان اخر حكام ال بوري كانوا ضعفاء قد فسحوا المجال للصليبيين ان يعيثوا في بلاد الشام فساداً . والاكثر من ذلك ان الامير مجير الدين ابق تعاهد مع الصليبيين مدة سنتين منحهم خلالها نفوذاً كبيراً فيما حول دمشق من البلاد بعد ان اتفق الطرفان على ان يكونا يداً واحدة ضد ماسواهما(٢).

وهكذا اتيحت الفرصة امام نور الدين كي يستغل ذلك الضعف والتواطيء الذي حصل في اتابكية دمشق ويعمل على اسقاطها لتكون مدينة تابعة لحكمه وبذلك تكتمل الوحدة السياسية لاغلب مدن الشام والجزيرة وتحت نفوذه . خاصة وان دمشق تمتاز بموقع جيد ، فهي تصل بين العراق والشام من ناحية ، كما انها تقع على الطريق التجاري الممتد من الفرات الى النيل(٣). وهي من ناحية اخرى بما تملك من قوة ومقدرة في العدة والعدد اذا دخلت تحت نفوذ نور الدين ، فانها ستمده من دون شك بعدد كبير من المقاتلين وستكون عندئذ نقطة انطلاق ونقطة

---

١ ــ للاطلاع على نشاة اتابكية دمشق تحت نفوذ ال بوري انظر : دريد عبد القادر ، موقف اتابكية دمشق من الغزو لبلاد الشام / بحث منشور في مجلة اداب الرافدين (جامعة الموصل : ١٩٨٠) العدد : ١٠ ، ١١٥ ــ ١١٨

٢ ــ ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق : ٣٠٤ ، ابو شامة ، الروضتين : ١ / ٦٩ .

٣ ــ ارنست باركر ، الخروب الصليبية : ٥٠ .

تموين مستمر للعساكر الاسلامية التي سوف تتبنى الجهاد ضد الصليبيين

ولم يشأ نور الدين ، بسياسته الحكيمة ، ان يستخدم الاسلوب العسكري المباشر في اسقاط مدينة دمشق وكان يفضل دائماً اساليب السياسة والموادعة علَّهُ يصل الى نتيجة من دون ان يسفك دماء المسلمين ، فكان احياناً يراسل مجير الدين ويواصله بالهدايا ، واحياناً اخرى يخبره انه تلقى عروضاً من بعض امراء دمشق طالبين مساعدتهم ضده ، ولكنه رفض ذلك حفاظاً على صداقتهما(١). وقد ادت هذه السياسة الى فقدان مجير الدين للعديد من امرائه وانصاره بعد ان اخذ ينكل بهم مما اضعف قواه واثار عليه الخاصة والعامة(٢).

وقد جاءت الظروف المناسبة لنور الدين عندما هاجم الصليبيون حوران والاراضي المجاورة لعسقلان ، مما دفع بنور الدين ان يتقدم بعساكره لملاقاتهم بعد ان كتب الى امراء دمشق يطلب العون بأن يمدوه بألف فارس ، غير ان المعاهدة السابقة بين الصليبيين وامراء دمشق منعتهم من مساعدة نور الدين(٣) ولذلك اتخذ نور الدين طريقه نحو دمشق مجتازاً البقاع بعد ان اعتبر نفسه مسؤولاً عن مصالح المسلمين وكتب الى مجير الدين يخبره اسباب توجهه نحو دمشق كي لا يستعين بالصليبيين عليه فتقع بايديهم قبله ، فقد حذره من الاستعانة بهم وذكره بمقت الله عليه من الخيانة واصرَّ على ان تمده دمشق بالعون ، ومما جاء في ذلك الكتاب مايلي :

« انني ما قصدت بنزول هذا المنزل طلباً لمحاربتكم ولا منازلتكم ، وانما دعاني الى هذا الامر كثرة شكاية المسلمين من اهل حوران والعربان ، بان الفلاحين اخذت اموالهم وسبيت نساؤهم واطفالهم بين الفرنج ، وعدم الناصر لهم ، ولا يسعني مع ما اعطاني الله وله الحمد ، من الاقتدار ، على نصرة المسلمين وجهاد المشركين وكثرة المال والرجال ، أن اقعد عنهم ولا انتصر لهم ، مع معرفتي بعجزكم عن حفظ اعمالكم والتقصير الذي دعاكم الى الاستصراخ بالفرنج على محاربتي وبذل اموال الضعفاء ، وهذا لا يرضي الله ولا احداً من المسلمين »(١)

غير ان مجير الدين اجاب نور الدين بقساوة مما دفعه الى قتال دمشق ومضايقتها وانتهى الامر بان اعتراف مجير الدين بنور الدين ومنحه شبه سيادة على

---

١ ــ انظر : مفرج الكروب . الحروب الصليبية : ٥٠ .

٢ ــ عاشور . الحركة الصليبية : ٢ / ٦٦٣ .

٣ ــ انظر ذيل تاريخ دمشق : ٣٠٨ ، الروضتين : ١ / ٦٩ .

١ ــ السابق : ٣٠٩ ، والروضتين : ١ / ٧٠ .

دمشق بعد الخليفة والسلطان ، وبذلك انسحب نور الدين من دمشق خاصة وان انباء تواترت لديه بان الصليبيين عازمون على استرداد الرها(٢).

ولما كان هدف نور الدين الرئيس تكوين جبهة اسلامية موحدة ، لذلك لم يكتف بما حصل عليه من اعتراف سياسي بدمشق حيث تقدم ، بعد مضي ثلاث سنوات ، اليها بعساكره قاصداً اجبارها على الدخول في طاعته خاصة وان الصليبيين قد طمعوا بدمشق كثيراً نظراً للتسهيلات التي حصلوا عليها حتى انهم فرضوا على اهلها ضريبة كان رسولهم يأتي الى دمشق في كل سنة يجبيها منهم(٣) وقد تمكن نور الدين في هذه المرة من احكام حصار مدينة دمشق ومنع وصول القوافل اليها ، الامر الذي ادى الى ارتفاع الاسعار وشحة الاقوات وبالتالي نقمة اهالي دمشق على حكامهم . ولما اطمأن نور الدين الى انه لن يجد مقاومة في الداخل وان خطته القاضية بعزل الحاكم البوري عن الامراء والشعب قد نجحت ، راسل احداث البلد واستمالهم اليه ثم زحف على المدينة وتمكن في ٢٥ نيسان ١١٥٤ م / ٥٤٩ هـ من دخولها عن طريق الباب الشرقي وبعد مضي عدة ساعات فتحت القلعة ابوابها حيث استسلم مجير الدين(١). وبذلك انضمت مدينة دمشق بكاملها لولاية نور الدين واصبح معظم ما بالشام بيده .

ويعتبر سقوط دمشق بيد نور الدين من الاحداث المهمة في تاريخ هذه الفترة . فقد ادى ذلك الى تقوية الجبهة الاسلامية وضعف الصليبيين الذين ـ كما يقول ابن الاثير ـ ايقنوا بالهلاك والبوار(٢). وبات نور الدين على اثرها قادراً على توجيه ضرباته لاعدائه نحو الشمال والجنوب ، فقد تحطم الحاجز الذي كان يفصل بين بيت المقدس وحلب(٣). كذلك فان وحدة الشام بيد نور الدين دفعته الى التطلع الى مصر ، فكان يتحين الفرص الملائمة لجعلها تنضم الى وحدته وبذلك يتحقق الهدف الأكبر وهو وحدة مصر بالشام وبلاد الجزيرة وعندها سيكون الصليبيون تحت قبضة يده . وقد تحققت امنيته هذه بعد وفاته على يد صلاح الدين كما سيجيء ذكره في الفصل القادم .

ومما ساعد نور الدين محمود على الاستيلاء على دمشق ، ان الدمشقيين ضاقوا

---

٢ ـ انظر نفس المصدر السابق ، العريني ، الشرق الاوسط والحروب ـ الصليبية ، ١/ ٥٨٩ .

٣ ـ ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، ١١ / ١٣٠ .

١ ـ انظر بخصوص سقوط مدينة دمشق بيد نور الدين . ذيل تاريخ دمشق ، ٣٢٨ ، الروضتين ، ١/ ٩٦ ـ ٩٧ . الكامل في التاريخ ، ١١ / ١٣١ ، الحركة الصليبية ، ٢ / ٦٦٤ .

٢ ـ الباهر في تاريخ الدولة الاتابيكية ، ١٠٧ ـ ١٠٨ .

٣ ـ انظر الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، ١/ ٥٩٩ ـ ٦٠٠

ذرعاً بوقاحة الصليبيين وبخيانة حكام دمشق وتحالفهم مع الصليبيين ، وقد ضرب نور الدين الحصار الاقتصادي حولها . فشحت فيها الاقوات ، ثم زحف بجيش كثيف عليها واقام لها معسكراً امام اسوارها . ثم قام بعملياته العسكرية التي ادت في نهاية الامر الى دخول المدينة ، فاستقبله اهلها بكل مظاهر الفرح والسرور .

ويبدو ان دخول نور الدين محمود دمشق كان رداً عملياً على استيلاء الصليبيين على عسقلان ، اذ لم يتوقف زحفه بل راح يوسع املاكه حتى امتدت من الرها الى شرقي الاردن وشملت الطرف الشرقي لامارات الصليبيين ، ولم يبق في سورية سوى بضعة امارات صغيرة مثل شيزر حافظت على استقلالها(٤) . كما انه اخضع مدينة الموصل بعد وفاة اخيه قطب الدين مودود ، وقد ادى خضوعها لدولته الى توحيد القوى الاسلامية في بلاد الشام والجزيرة والموصل واصبح الوقوف في وجه الصليبيين امراً ميسوراً(١) . لقد كان لنور الدين محمود ميزة توحيد هذه الممتلكات تحت زعامة حاكم واحد ، واخذ نجمه في الصعود ولكنه كان حذراً مما يجره عليه نشاطه في تكوين الجبهة الاسلامية للوقوف ضد الصليبيين .

وعندما وطد نور الدين محمود مركزه في شمال بلاد الشام والجزيرة والموصل التفت الى الجنوب حيث نقض بلدوين ملك بيت المقدس الهدنة التي كان قد عقدها معه فاستولى على بانياس ، فخرج نور الدين محمود لمنازلتها وانتزاعها من الصليبيين ولم تلبث المدينة السفلى ان سقطت بيد المسلمين اما قلعتها فقد قاومته فاحرق نور الدين محمود المدينة ثم انسحب ، وبينما كان الصليبيون يهبطون مع نهر الاردن عائدين الى الجنوب انقض عليهم نور الدين محمود في شمال بحر الجليل واحرز انتصاراً باهراً . كما ان نصرة الدين شقيق نور الدين دحر جماعة من الاستبارية قرب بانياس وانزل قائده شيركوه الهزيمة بجماعة من المغيرين اللاتين بالبقيعة وبقوة من الصليبيين كانت في طريقها لنجدة بلدوين .

ويبدو ان نور الدين محمود حقق باستيلائه على دمشق سنة ٥٤٩ هـ اهم الاهداف الاساسية لسياسته في بلاد الشام وخلا له الجو لينصرف الى مواصلة تحقيق الهدف الثاني من سياسته التي كانت ترمي الى توحيد المسلمين والتصدي للصليبيين في تلك البلاد ، حيث توضحت له خطة ذلك الجهاد بعدما قامت به مملكة بيت المقدس وملكها بلدوين الثالث من دور واضح في منعه من الاستيلاء على دمشق(٢)

---

٤ ــ رنسيمان . تاريخ الحروب الصليبية ، ٢ / ٥٥١ .

١ ــ د . خاشع المعاضيدي . الحياة السياسية ، ١٩٦ .

٢ ــ ن . م ، ٢٠٠ ، ارنست باركر ، الحروب الصليبية ، ١٥٨ .

لقد حتمت هذه السياسة على نور الدين محمود مواصلة هجومه على مواقع الصليبيين وحصونهم فاستولى على تل باشر وحاصر حارم وفرض عليها شروطه ثم اوقع بالصليبيين الذين كانوا يحاصرون حلب ، مما اضطرهم لعقد اتفاق معه وتقررت الهدنة بموجبه لمدة سنة واحدة ، لكنها انتقضت من قبل الصليبيين .

على ان اهم مظهر للتحالف الاسلامي ذلك هو اسناد نور الدين محمود من قبل المسلمين في نزاعه ضد الصليبيين حول حصن بانياس فقد قدمت عليه الرسل من شمال الشام والعراق بالاستعداد والمعاونة له ضد الصليبيين وتكون الجيش الاسلامي الذي اوقع بهم واسر جماعة كبيرة منهم قادهم الى دمشق(١) . واجتمع نور الدين محمود مع اسد الدين شيرگوه وعدد من مقدمي الاتراك سنة ٥٥٢ هـ / ١١٥٧ م ، واتفقا على مهاجمة بانياس فحاصروها بالمنجنيقات وتمكنوا منها(٢) .

ونقرأ عن مواصلة نور الدين محمود تجميع وتحشيد الجيوش سنة ٥٥٧ هـ / للعمل على التصدي للصليبيين في بلاد الشام ، حيث تحركت عساكره من حلب قاصدة قلعة حارم وهي حصن منيع للصليبيين ، غير ان هؤلاء راسلوه على الصلح فخرج بقواته في العالم التالي ليهدد حصن الاكراد ليضطرهم على التحالف معه والانحياز اليه ضد اعدائه(٣) .

ويبدو ان النزاع بين نور الدين محمود والصليبيين للاستحواذ على بلاد الشام قد تحول بعد ذلك الى تنافس بينهما للاستيلاء على مصر ، نظراً لما اصاب الدولة الفاطمية من الضعف والانحلال ، غير ان انصراف نور الدين محمود الى الاهتمام بمصر ، لم يؤدِّ الى توقف جهاده ضد الصليبيين في بلاد الشام ، فقد جمع العساكر وارسل الى اخيه قطب الدين مودود صاحب الموصل والى فخر الدين قرا ارسلان بن داود بن سقمان بن ارتق صاحب حصن كيفا والديار الجزرية ونجم الدين البارسلان بن تمرتاش بن ايلغازي بن ارتق صاحب ماردين وغيرهم من اصحاب الاطراف يحثهم على التحالف معه . وقد تكون نتيجة هذا التحالف جيش كان على رأس قيادته نور الدين محمود حيث ضرب الحصار حول حصن حارم وارتاح ، وما لبث الصليبيون ان اشتبكوا مع المسلمين فدارت بين الطرفين رحى معركة عنيفة هزم فيها الصليبيون وقتل منهم كثيرون كما اسر صاحب انطاكية وصاحب طرابلس(٤) .

---

١ ـ ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ؛ ٣٣٨ ـ ٣٣٩ .

٢ ـ ن . م ؛ ٣٣٩ ـ ٣٤٠ .

٣ ـ ابن الاثير ، الباهر ؛ ١١٦ ـ ١١٨ .

٤ ـ د . خاشع ، الحياة السياسية ؛ ٢٠٤ .

وعلى اثر الهزيمة التي حلت بالصليبيين ، فقد راح نور الدين يعبيء قواته ويبث سراياه في اعمال انطاكية مستغلاً ظروف التحالف مع امراء المسلمين في المنطقة ، وقد تمكن اخيراً من تحرير بانياس بعد ان كان قد كسب غنائم كثيرة(٢). وسوف نتطرق فيما بعد الى موقف نور الدين من الصليبيين مفصلاً .

وما ان استجمع نور الدين قواه بفضل وحدته السابقة وتكاثف القوى الاسلامية لحمص ودمشق والموصل حتى وجه اهتمامه ضد امارة انطاكية فاغار عليها وعلى الاقاليم المحيطة بالضفة الشرقية لنهر العاصي ثم حاصر قلعة انب الواقعة قرب معرة النعمان واشتبك مع صليبي انطاكية بقيادة اميرها ريموند دي بواتيه ، واستطاع نور الدين محمود ابادة جيش الصليبيين وقتل ريموند امير انطاكية نفسه ورينو صاحب كيسوم ومرعش ، ويصور لنا ابن واصل مدى غبطة المسلمين بمقتل ريموند الذي كان عاتياً من عتاة الفرنج وعظيماً من عظمائهم(٣).

وراح نور الدين محمود يوغل في امارة انطاكية يدمر وينتقم من الصليبيين حتى وصل الى السويدية ، ميناء انطاكية بل انه هدد انطاكية نفسها فاستولى على سكانها الهلع فمرضوا عليه كل مايملكون من اموال ومتاع ليترك مدينتهم وعندئذٍ استبقى نور الدين فرقة من جيشه امام انطاكية لتبقى على حصارهاوأنصرف هو الى افامية(٤) . واستولى عليها ثم بدأ بحصار حارم ، وبذلك نجح في الاستيلاء على جميع ممتلكات انطاكية شرقي نهر العاصي .

وقد اسرع جوسلين الثاني امير الرها المخلوع ليفوز بشيء من حطام امارة انطاكية عقب مقتل اميرها فزحف على مرعش غير انه انسحب منها لتدخل اليها قوات السلطان مسعود سلطان سلاجقة اسيا الصغرى . ثم لم يلبث قرا ارسلان ــ الارتقي صاحب خرتبرت وحصن كيفا ان هاجم الاجزاء الشمالية من امارة الرها ووقع جوسلين الثاني اسيراً بيدهم وسلموه الى نور الدين محمود الذي سجنه في حلب ، وقد اعتبر اسره من اعظم الفتوح وترك ماتبقى من حكام امارة الرهادون مدافع فقام مسعود سلطان سلاجقة الروم بالاغارة على كيسوم والاستيلاء على بهنسي ورعبان ثم اتجه الى حصار تل باشر كما استطاع نور الدين محمود ان يستولي على قلعة عزاز التي كانت تابعة لامارة انطاكية .

ان الاعمال السابقة ساهمت بدون شك على اضعاف الصليبيين وفت عضدهم ، حتى ان بلدوين الثالث ملك بيت المقدس اسرع الى الشمال لتدارك الموقف هناك

---

٢ ــ انظر ، ابن العديم ، زبدة الحلب : ٢ / ٣٢١ ، المعاضيدي ، الحياة السياسية : ٢٠٤ ــ ٢٠٥ .

٣ ــ مفرج الكروب : ١ / ١٢١

٤ ــ ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق : ٣٠٥ .

بعد ان وصلت احوال الامارتين الصليبيتين ـ الرها وانطاكية الى تلك الدرجة من التدهور بعد اسر امير الاولى ومقتل امير الثانية(١). غير انه لم يستطيع ان يفعل شيئاً حيث تقدم الامبراطور البيزنطي مانويل كومنين بعرض الى بياتريس Beatrice زوجة جوسلين الثاني والوصية على امارة الرها ـ لشراء كل ماتبقى من حطام تلك الامارة وهي (تل باشر وسمياط وقلعة الروم والبيرة ودلوك وعينتاب والراوندان) فتمت الصفقة واستولى البيزنطيون على تلك المدن ، ولكن لم يلبث ان تم تقسيم الغنيمة قبل ان يمضي عام واحد على شراء الامبراطور البيزنطي لتلك الصفقة الخاسرة بين نور الدين محمود صاحب حلب ومسعود سلطان سلاجقة الروم وتمرتاش الارتقي صاحب ماردين الذين تحالفوا لمقاومة الصليبيين وحلفائهم . ان هذا الاجراء ادى بطبيعة الحال الى انتهاء الدور السياسي لامارة الرها الصليبية ، مما يعتبر بداية النهاية بالنسبة للبناء الصليبي في بلاد الشام(٢).

ويمكن القول ، ان محاولات نور الدين محمود التي كانت تستهدف الاستيلاء على دمشق وانتزاعها من الاتابك مجير الدين ابق منذ سنة ٥٤٦ هـ / ١١٥١ هـ ، هي استمرار لنشاطه العسكري في استنزاف قوى الصليبيين وحسرها ومن ثم الانقضاض عليها نهائياً . وقد اتيحت الفرصة لنور الدين محمود ان يبسط سيطرته على دمشق حيث دخلها سنة ٥٤٩ هـ / ١١٥٤ م(١). ولم تلبث بعد ذلك ان نشبت حرب طويلة بين نور الدين محمود والصليبيين استهدفت الوجود الصليبي في بلاد الشام .

اما الاجراءات التي اتخذها نور الدين محمود فيما يتعلق بارسال حملة عسكرية الى مصر ومحاولة ضمها وتكوين الجبهة الاسلامية المتحدة ، فانها كانت تتمة لمحاولات استنزاف العدو الصليبي والهائم في جبهة قتالية اخرى لتشتيت قوته وامكانياته المادية والمعنوية ، فعلى الرغم من تردد نور الدين باديء الامر في تنفيذ هذا المشروع خوفاً من ان يتورط فيه وهو لا يزال امام اعدائه من الصليبيين في بلاد الشام ، ولكنه ارسل حملته سنة ٥٦٠ هـ / ١١٦٤ م ، بقيادة اسد الدين شيكروه احد قادته المعتمدين ، وصحب شيركوه ابن اخيه صلاح الدين بن نجم الدين ايوب .

ومن الناحية الاخرى ان نور الدين محمود كان لا يمكن ان تفوته فرصة تغيب قادة الصليبيين في الميدان المصري « وخلوا الشام من الفرنج » دون ان يهاجم الصليبيين ، وكان ان اختار مهاجمة امارة انطاكية موجهاً عساكره نحو حصن حارم

---

١ ـ سعيد عبد الفتاح عاشور . الحركة الصليبية : ٢ / ٦٢٦ .

٢ ـ ن . م : ٦٢٧ .

١ ـ ابن الاثير . الكامل في التاريخ : ١١ / ٨٠ .

وقد اشترك معه في هذا الهجوم فخر الدين قرا ارسلان الارتقي صاحب ماردين في ديار بكر ونجم الدين البي صاحب ماردين وقطب الدين مودود اتابك الموصل(٢) . واشتبك مع الصليبيين في موقعة حاسمة هزم فيها الجيش الصليبي هزيمة منكرة حيث قتل منهم بضعة الاف واسر جميع امراء الصليبيين الذين اشتركوا في المعركة وفي مقدمتهم بوهمند الثالث امير انطاكية وريموند الثالث امير طرابلس وجوسلين الثالث دي كورتناي وهو الثامن لوزجنان فضلاً عن حاكم قلقيلية البيزنطي واستولى نور الدين محمود عقب انتصاره على قلعة حارم فاصبح الطريق مفتوحاً امامه الى انطاكية ، لكنه اثر الاتجاه نحو بانياس التابعة لمملكة بيت المقدس فاستولى عليها وجعلها قاعدة عسكرية له(٣)

اما الصليبيون الذين هاجموا مصر بقيادة افلريك الاول ملك بيت المقدس فقد عادوا ليجدوا الموقف جد خطير بالنسبة للصليبيين وذلك بعد ان استولى نور الدين محمود على حارم من امارة انطاكية وبانياس من مملكة بيت المقدس وكلا الموقفين له أهميته الاستراتيجية ، بالاضافة الى أسر أميري انطاكية وطرابلس وزملائهما . ولكن لم يستطيع الصليبيون استرداد مافقدوه بسبب الانحطاط في موقفهم وقوتهم العسكرية وتشتتها .

وقد أمضى نوز الدين محمود سنتي ٥٦١ هـ و ٥٦٢ هـ في القيام بهجمات مفاجئة على الحصون الصليبية الواقعة على منحدرات جبال لبنان بينما أغار شيركوه على أقليم ماوراء نهر الاردن ، فدمر قلعة اقامها الصليبيون في كهف بجنوب عمان(١) . وكان لهذه الهجمات والغارات أثر في انحسار القواتت الصليبية وتقهقرها عن المواقع الاسلامية .

---

٢ ـ ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ١٢٣ .

٣ ـ ن . م . ، ١٣١ ، د . خاشع المعاضيدي ، الحياة السياسية ، ٢٠٤

١ ـ رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ٢ / ٦٠٠ ـ ٦٠١ .

التحشيد الفكري

الاهتمام بالحركة الفكرية :

اقترنت انتصارات المسلمين السياسية والعسكرية بدحر القوى الصليبية والتصدي لها في مصر والشام والجزيرة القرانية ، بالحوافز الدينية حيث لم يكن ليتسنى للمسلمين ان يصدوا تيار الحملات الصليبية ابتداءاً من الحملة الاولى حتى نهاية الحملة الثالثة ، لولا روحية المسلمين وتصميمهم المبني على وحدة الهدف والاسس الاخلاقية . ان الايمان بالمثل ومباديء العقيدة ، يتوافق كلياً والشعار الذي رفعه المسلمون « الجهاد في سبيل الله » ومنذ ان غزا الصليبيون الشرق الاسلامي بدأنا نسمع صيحات المسلمين وامرائهم المتمثلة « بالتعاهد والتعاقد على المجاهدة في اعداء الله الافرنج »(١) و « الاعتضاد على الجهاد وتقوية النفوس على حماية هذه البلاد » (٢) والتوجه نحو « جهاد الكفرة الاضداد » (٣) وفي ٥٠٩ هـ / ١١١٥ م تقدم الاتابك ظهير الدين صاحب دمشق الى قواده ومقدميه ووجوه عسكره « بالتأهب والاستعداد لقصد بعض الجهات لاحراز الفضيلة الجهاد والنهوض »(٤)، وبعد ثلاث سنين ارسل ظهير الدين نفسه الى الامراء المسلمين وطوائف التركمان « لاداء فريضة الجهاد وبذل المكنة والاجتهاد في مجاهدة الكفرة الاضداد »(٥)، ومن البداهة القول ان هذا الشعار اسهم ليس فقط في توحيد وتعبئة المسلمين ورص صفوفهم للصمود بوجه التحالف الصليبي بل لقد اوجد القدرة الى حد كبير على مواجهتهم وطردهم من المواقع التي انتشر فيها اي ان المسلمين تحولوا من موقع الدفاع الى موقع الهجوم .

ان العملية العسكرية الهجومية التي خطط لها عماد الدين زنكي ونفذها الجيش الاسلامي لاسترداد مدينة الرها من الصليبيين بعد ان استنفر كل قادر على حمل السلاح من مسلمي المنطقة للجهاد في سبيل الله وفي سبيل اعلاء كلمة الله . واعتبار صلاح الدين الايوبي ، مجاهدة الصليبيين واجباً جماعياً ، بارسال كتبه الى جميع الاقطار يستدعي الناس للجهاد ويحثهم عليه وكتبه للخليفة العباسي الناصر لدين الله ، يوضح فيها نشاط الصليبيين في محاربة المسلمين وكيف يجب ان تساهم

---

١ ــ تعاهد وتعاقد سكمان بن ارتق صاحب ماردين وجكرش صاحب الموصل سنة ٤٩٧ هـ على المجاهدة في اعداء الله الافرنج . ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ١٤٣ .

٢ ــ كاتب امراء المسلمين سنة ٥٠٣ هـ الاتابك ظهير الدين ، فاقتضت الضرورة وصائب الري ان ينهض في العسكر نحوهم للاعتضاد على الجهاد وتقوية النفوس على حماية هذه البلاد من اهل الشرك والالحاد . ن . م ، ١٧٥

٣ ــ ن . م ، ١٤٨ .

٤ ــ ن . م ، ١٩٢ .

٥ ــ ن . م ، ٢٠٠ .

الخلافة بقدسيتها وتاثيرها الروحي على المسلمين للوقوف ضد الصليبيين ومقاتلتهم ، وتقدم الجيش نحو بيت المقدس لتخليصها من المحتلين الصليبيين ، ان كل ذلك في الواقع يمثل هذا التحول في الموقف الاسلامي ، وكذلك يمثل التأثير الذي تركه اجتماع المسلمين حول شعار الجهاد .

ان الاهتمام بالحركة الفكرية في هذه الفترة ، لا ينبغي ان يقتصر على التأثيرات التي يتركها الفقهاء والعلماء والشعراء والمعاهد الدينية مثل الجوامع ومحاريب الصلاة والرباطات الصوفية ، في مجمل الحياة العامة ، بل يستدعي اعادة التسلح الخلقي المتمثل في الروادع الاخلاقية والنفسية التي تنبثق من المثل التي بها الاسلام . وكان قادة المسلمين وامرائهم وعلى رأسهم عماد الدين زنكي ونور الدين محمود وصلاح الدين الايوبي يحاولون ماامكنهم كسب تأييد شامل من جميع القوى الاسلامية لحركة التسلح الخلقي هذه وخاصة في فترة الحروب الصليبية وهي فترة حاسمة اجتاح فيها الصليبيون الشرق الاسلامي باسم الدعوات التي يغمرونها بالحماس الديني للاستيلاء على الاماكن المقدسة في فلسطين .

وتزودنا المصادر المعاصرة ، بتفسير حقيقي للنجاح الذي احرزته الجيوش الاسلامية على القوى الصليبية ليس بفضل كونها قوة مسلحة ومنظمة فحسب ولكن بفضل ايمانها الراسخ بعدالة حربها مع الصليبيين الغزاة وكذلك بفضل المفاهيم التي تعلمتها من القادة المسلمين وترسخت بمرور الزمن وفي مقدمة هؤلاء القادة عماد الدين ونور الدين المار ذكرهما وصلاح الدين الايوبي الذي سنذكره في الفصل القادم . والذي لم يكن واحدهم محارباً عنيداً او حاكماً قوياً فقط ولكن بفضل دفاعه المعنوي عن الاسلام ضد اعدائه وضد من ينتمون اليه بالظاهر الى جانب شجاعته وعزمه وكرمه وتواضعه ونكرانه للذات ، انهم الهموا جميع العناصر والقوى التي تهدف الى وحدة المسلمين في وجه الغزاة

ولعل من المفيد والسابق لاوانه الاشارة الى التأثيرات المهمة التي تركتها كتابات ورسائل كتاب ومستشاري صلاح الدين الايوبي لانها تلقي الضوء على الاهمية البالغة التي تنطوي عليها حركة التحشيد الفكري لمعارك المسلمين المقبلة ضد حشود الصليبيين وتجمعاتهم ، وفي مقدمة هؤلاء الكتاب ، القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي الفلسطيني وعماد الدين الاصفهاني وبهاء الدين بن شداد وقد تبوأ الاول المنزلة العليا من موضع ثقة صلاح الدين الايوبي ، ويمكن ملاحظة ذلك من خلال الرسائل والمكاتبات المخلصة والودية التي وجهها القاضي الفاضل الى صلاح الدين الايوبي ولاسيما اثناء الغزوة الصليبية الثانية ، لكي يشد ازره في الملمات

ويدفع المسلمين للجهاد ، كما ارسل كثيراً من الرسائل الديوانية العامة بالاصالة عن صلاح الدين الايوبي الى الخلفاء العباسيين والامراء واصحاب الشأن ، وكانت المتانة التي يعبر بها القاضي الفاضل عن بعض الافكار والموضوعات في تلك الرسائل التي يجب اعتبارها بانها تعكس شيئاً في الاقل من اهداف صلاح الدين الايوبي ومثله الحقيقية(١) لانه على وجه العموم نفس الاحداث والمثل التي اتبعها عماد الدين ونور الدين من قبل ، وتقدم نماذج مما يساهم به المفكرون والفقهاء والعلماء والشعراء في التعبئة الفكرية واغناء عمليات التحشيد بمضمون فكري للحملات العسكرية التي جردها المسلمون على مواقع الصليبيين .

دعوة امراء المسلمين الى التوحيد والقتال ضد الصليبيين

اتخذت محاولات المسلمين للوقوف ضد الصليبيين والاستعداد لقتالهم منذ ان وطأت اقدام هؤلاء الغزاة ارض الشرق الاسلامي ، شكلاً جماعياً في بعض الاحيان ، حيث كانت تشترك فيها بعض القوى الاسلامية في المنطقة او ان يقوم بها طرف واحد في احيان اخرى ، غير ان النشاط الاسلامي المنظم والموحد في الدعوة الى قتال الصليبيين وتصعيده ، بدأ في اوائل القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي وكان يتمثل في حركة واسعة تدعو الى توحيد كلمة المسلمين ورص صفوفهم ، وذلك منذ ان اصبح هؤلاء الغزاة قوة تهدد الوجود الاسلامي في الشرق وتسعى الى تحطيم كيانهم . واصبح مفهوماً لدى المسلمين ، ان الاستكانة لهؤلاء الغزاة يشكل تهاوناً وخيانة بحق هذا الوجود وتواطئاً مع الاعداء الذين كانوا يستهدفون الاستحواذ على اوطانهم وممتلكاتهم ، وبهذا المعنى فان اي تفاهم واتفاق مع الصليبيين على المدى البعيد لايخدم المسلمين ، بل يساعد على تكريس احتلالهم للمدن والامارات الاسلامية وبذلك تتوضح يوماً بعد يوم الافكار التي تدعو لمقاومتهم ، وتتدعم المواقف الصحيحة للقوى الاسلامية المبنية على المجابهة والقوة ، ويصبح القتال الوسيلة الوحيدة التي لا بد ان يأخذ بها المسلمون للوقوف ضد هذا الخطر الذي اصبح حقيقة في واقع الشرق الاسلامي .

ومنذ ظهور الصليبيين في آسيا الصغرى ، تبدأ تحديات الامراء المسلمين لهم ويمكن استيعاب مدى هذا التحدي ، فيما اقدم عليه غازي انوشتكين امير سيواس في الزحف بجيشه حتى بلغ اسوار ملطية التي كان قد احتلها الصليبيون ، فاظهر لحمايتها رؤوس قتلاهم ثم اخذ يستدرجهم ويضع لهم الكمائن في بلاده(١) كما امر

---

١ ـ جب ، المصدر نفسه ، ١٨٣ .

١ ـ رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ١ / ٤٥٤ .

الاتابك كربوغا صاحب الموصل على استسلام الصليبيين الذين حاصرهم الجيش الاسلامي داخل مدينة انطاكية دون قيد او شرط ورفض ان يعطيهم الامان ليخرجوا من المدينة وقال لهم « لاتخرجون الا بالسف(٢) »

وكان الصليبيون قد بلغوا درجة من اليأس جعلتهم يفكرون بالاستسلام(١).

لقد دلت النتائج التي تمخضت عنها معركة حرّان سنة ٤٩٤ هـ / ١١٠١ م بانتصار المسلمين على الجيوش الصليبية المتحالفة، على تحطيم اسطورة ان الصليبيين لا يقهرون، وعلى تقرير مصير الرها وان حلب سوف لن تقع بايدي الصليبيين وان الاسفين الذي حرص الصليبيون على الابقاء عليه بين القوى الاسلامية الاربعة في اسيا الصغرى (السلاجقة) وفي العراق (الخلافة العباسية) وفي الشام (الاتابكة) وفي مصر (الفاطميون) وهذه القوى وقفت سواء مجتمعة او منفردة ضد الصليبيين وتوسعهم وتواجدهم. فالفاطميون، كانوا يحاولون ان ينتقموا من الصليبيين لمعركة عسقلان سنة ٤٩٤ هـ / ١١٠١ م فاعدوا حملة بقيادة سعد الدولة الطواشي وبلغت عسقلان ومضت حتى وصلت الرملة، وكانت تأمل بالوصول الى بيت المقدس. وعزز المصريون قواتهم للاستعداد للمسير حتى بلغ الجيش احد عشر فارس و (٢١) الف رجل، وعندما هاجم الصليبيون المسلمين، حصدهم الجيش الاسلامي، ولقى كثير من قادتهم مصرعهم مثل بيرفون وجيلد مار وقد طاردهم المسلمون الى يافا وكبدوهم خسائر فادحة(٢).

ويبدو ان ماشتهرت به مصر من موارد ضخمة، هيأ للفاطميين ان يجهزوا جيشاً كبيراً، استطاعوا به استئناف القتال سنة ٤٩٥ / ١١٠٢ م، ضد الصليبيين فقد احتشدوا في عسقلان بجيش قوامه عشرون الفاً من الجند العرب والسودانيين، بقيادة شرف المعالي ابن الوزير الافضل، ثم تحرك الى الرملة وتأهب الصليبيون لملاقاته، فلما بلغوا السهل، توضح امامهم ضخامة الجيش الاسلامي، فادركوا ماوقعوا فيه من الخطأ، غير ان الرجوع صار متعذراً، اذ توجه فرسان المسلمين الخفاف لقطع طريق ارتدادهم، فلم يسعهم الا مباشرة الحرب وقد اطبق عليهم المسلمون، فانهارت صفوف جيش الصليبيين، ولم ينج منهم الا القليل، ولقى كثير من فرسانهم امثال جيرار افيسنر، وستابلون، اما قائد الجيش الصليبي الملك بلدوين فاتخذ طريقه الى حصن الرملة الصغير مع اتباعه، حيث حاصرهم الجيش الاسلامي ولم ينقذهم من الهجوم سوى حلول الظلام. ومع ان بلدوين الاول لم يكن شديد

---

٢ ـ ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ١٣٦، ابن العبري. تاريخ مختصر الاول، ٣٦. ثم انظر. سعيد عبد الفتاح عاشور. الحركة الصليبية، ـ ٢٠٣.

١ ـ Chalandon, Premiere Groisade, P. 220.

٢ ـ رنسيمان. تاريخ الحروب الصليبية، ٢ / ١٢٢.

الادراك لاهمية الشرف والكرامة فانه راى ان يحافظ على نفسه ويترك رجاله طعمه لسيوف المسلمين . فتسلل مع سائسه وثلاثة من اتباعه واجتازوا بخيولهم خطوط الجيش الاسلامي ونجوا بانفسهم(١).

على ان اسوأ ماتعرض له الصليبيون على يد القوات المصرية كان سنة ٤٩٥ هـ / ١١٠٢ م ، حيث هاجم الجيش الاسلامي اسوار الرملة وكدسوا اكواماً من الخشب حول البرج الذي لجأ اليه الفرسان الصليبيون ليشعلوا فيها النيران ، وكان لاسبيل لهروبهم ، فمن لم يلق مصرعه منهم لم يسلم من الاسر . وقد وقع قائدهم كنراد في الاسر وحمل الى مصر مع مائة من رفاقه كما لقى في المعركة مصرعه كل من ستيفن كونت بلوا .

لقد احدق الجيش الاسلامي باسوار المدينة وظهر الاسطول المصري عند الافق الجنوبي وظنوا بانها نجدة جاءتهم من الغرب(٢) . ولكن اتضح فيما بعد بان القوات المصرية البحرية كانت تجوب السواحل لمطاردة الفارين من الصليبيين . لقد فرض المسلمون الحصار البحري مما اضطر بلدوين ان يطلب الى جوديك وهو مغامر انكليزي ان يحمله على سفينة ليخترق الحصار البحري الذي فرضه المسلمون على مدينة يافا مما اضطر اخيراً ان يكتب الى امراء الصليبيين بانجاده ضد المسلمين(٢)

وتصدت القوات المصرية لقتال الصليبيين مرة اخرى سنة ٤٩٩ هـ / ١١٠٥ م فتظاهروا في عسقلان بجيش كثيف مؤلف من خمسة الاف من الفرسان العرب والراجله من السوادنين ، ويبدو ان المصريين ، افادوا من حروبهم السابقة مع الصليبيين فراحوا يعبئون كل القوى في المنطقة وطلبوا التعاون مع امراء دمشق فكانت مساعيهم بالغة القيمة . وتحرك الجيش المصري الى فلسطين بعد ان اجتاز اقليم شرق الاردن واخترق النقب ، وعندما نشبت المعركة اظهر المسلمون شجاعة في القتال ، وكانت خسائر الصليبيين باهضة ، ثم قام بضعة الاف من الفرسان المسلمين بهجوم مفاجيء على معسكر للمبشرين والصليبيين بين يافا وارسوف وقتلوا النازلين به ثم توجهوا الى الرملة واوقعوا حاكم الرملة الصليبي روجروزدي في كمين نصبوه له وقتلوا عدداً من الصليبيين وقصدوا بيت المقدس فهاجموا قلعة صغيرة وقتلوا المدافعين عنها من الصليبيين وحملوا قائدهم جفري قسطلان للاسر(١).

---

١ ــ رنسيمان ، تاريخ الخروب الصليبية ، ٢ / ١٢٥ ــ ١٢٧ .

٢ ــ لقد تحقق اسوأ ماكانوا يخشونه ، حينما لوح جندي لهم من المصريين امام انظارهم ماكانوا يعتقدونه انه رأس الملك بلدوين ، ولم يكن في الواقع الا رأس جير بود وينتنك الذي كان شديد الشبه بالملك . انظر ، رنسيمان ، المصدر نفسه ، ١٢٧ .

ــ ن . م ، ١٢٧ .

١ ــ رنسيمان ، تاريخ الخروب الصليبية ، ٢ / ١٤٤ .

واستمرت هذه الغارات الانتقامية التي كان يقوم بها المصريون في بلاد الشام ، رداً على ماقام به الصليبيون من غارات على الاراضي والمدن الاسلامية فقد بادر المصريون الى تعزيز قواتهم على اثر استيلاء الصليبيين على صيدا والاتجاه لضم عسقلان الى سيطرتهم مستغلين خيانة حاكمها وتواطئه معهم ، حيث سعى الى عقد هدنة مقابل مبلغ من المال ثم انه لم يكتف بذلك بل توجه الى بيت المقدس ليضع نفسه ومدينته تحت حماية ملكها ، ثم عاد وفي صحبته ثلثمائة من الجند الصليبيين انزلهم في قلعة عسقلان . على ان هذه الخيانة ازعجت العساقلة فقاموا بانقلاب سنة ٥٠٥ هـ / ١١١١ م لقي فيه حاكم عسقلان الخائن مصرعه وانتقم من الصليبيون بمساعدة الجيش الاسلامي الذي دخل المدينة ، وبقيت عسقلان بعيدة عن النفوذ والتدخل الصليبي(٢) . وراحت القوات الاسلامية تنطلق من عسقلان بعد تحريرها . وقد قامت هذه القوات بغارتين موفقتين على المواقع الصليبية احداهما سنة ٥٠٧ هـ / ١١٣ م حيث بلغت اسوار بيت المقدس وكبدت الصليبيين خسائر في الرجال والسلاح والثانية سنة ٥٠٩ هـ / ١١١٥ م ، باغتت يافا واوقعت بعدد كبير من الجند الصليبيين(٣) . كما تحرك الجيش المصري سنة ٥١٧ هـ / ١١٢٣ م من عسقلان قاصداً يافا فبادر الصليبيون لملاقاته ،ولكنهم كانوا يخشون القوة البحرية الفاطمية فلا زال الاسطول المصري يتمتع ببعض النفوذ على المياه الفلسطينية . ويبدو ان وزير الفاطميين الافضل وطغتكين صاحب دمشق كانا يتقاسمان السلطة في مدينة صور فقد ارسلا اليها نجدة مشتركة وظل الوفاق سائداً في الحكومة الثنائية بهذه المدينة لمدة عشر سنوات ، ويرجع ذلك الى حد كبير الى حرص كل من القوتين الاسلاميتين على ابقاء العلاقات الودية بينهما ، حيث كانت الحاجة ماسة الى ذلك نظراً لتهديدات الصليبيين المستمرة(١) .

السلاجقة والصليبيون :

اما موقف السلاجقة في اسيا الصغرى ، فكان واضحاً في المضي قدماً لقتال الصليبيين والتصدي لعدوانهم على ديار المسلمين ففي سنة ٥٠٠ هـ / ١١٠٥ م ، تتابعت المكاتبات الى السلطان السلجوقي محمد بن ملك شاه ، من الاتابك ظهير الدين وفخر الملك بن عمار صاحب طرابلس يحثانه على الوقوف ضد الصليبيين ويعرضان عليه عظائم ماارتكبه الجنود الصليبيون من الفساد وتملك المعاقل والحصون ببلاد

---

٢ ــ ن . م ، ٧١ ــ ٧٣ .

٣ ــ رنسيمان ، المصدر نفسه ، ١٦١ .

١ ــ ن . م ، ٢٦٤ .

الشام والفتك بالمسلمين ومضايقة ثغر طرابلس والاستغاثة اليه والاستصراخ والحض على تدارك الناس بالمعونة فانتدب السلطان احد كبار امرائه وهو جاولي سقاوة واميراً اخر من مقدمي عسكره وزودهما بجيش كثيف من الاتراك .

اما الخليفة العباسي فقد كوتب بالامر وجهز جيشاً للالتحاق بجيش السلاجقة . كما اطلع الامير صدقة بن مزيد صاحب الحملة وجكرش صاحب الموصل على جلية الامر فبعثوا جيشاً للجهاد ، وتألف الجيش الاسلامي وتأهب لقتال الصليبيين واول عمل قام به ، هو الهجوم على قلعة السن ، حيث تم تحريرها والسيطرة عليها(٢).

وعلى مايبدو فالتحالف بين المسلمين استمر وانه بعد مضي ثلاث سنوات اتفق المسلمون فيما بينهم على الصليبيين واتجهت جيوشهم الى شرق الفرات ونزلت ارض حران ، لتحاول خداع الصليبيين وجرهم الى منطقة مكشوفة ليسهل قتالهم ويصل اليهم عسكر دمشق ، غير أن الصليبيين فطنوا لخطة المسلمين « فخافوا واستشعروا الهلاك والخذلان واجفلوا ناكصين على الاعقاب الى شاطىء الفرات » . وتعقب المسلمون أثرهم وأدركوهم وقد عبر الفرات بعض مقدميهم . فاستطاع المسلمون ان يقتلوا منهم « مقتلة عظيمة » وأسروا آخرين وغرق الكثير منهم واستحصل الجيش الاسلامي على معداتهم وآلاتهم(١) .

ومن الجهة الاخرى ، وجهت القوى الاسلامية في بلاد الجزيرة الفراتية ضربة مهلكة للصليبيين ، وذلك على أثر تحالف كل من سكمان بن أرتق صاحب ماردين وجكرمش صاحب الموصل ، لمواجهة الخطر المشترك الذي يهددهما وينبغي عليهما ان يتحدا سوية لتوجيه حملة عسكرية لمنازلةالصليبية سنة ٤٩٨ هـ / ١١٠٤ م . وكان جيش ماردين مؤلف من فرسان التركمان وكذلك ، جيش الموصل الذي يضم عدداً كبيراً من الترك السلاجقة والاكراد والعرب . وعسكر الجيش الاسلامي في مدينة رأس العين على مقربة من الرها .

اما جيش الصليبيين ، فقد اتحد وظهر تحالف بين عساكر الامارات الثلاث انطاكية وبيت المقدس والرها ، حيث ارسل بلدوين الثاني الى جوسلين وبوهيمند يستنجد بهما ويقترح عليهما بمحاولة الهجوم على مران وقد بلغ جيش الصليبيين ، نحواً من ثلاثة آلاف فارس وثلاثة آلاف من المشاة (الراجله) احتشدوا امام حران .

اما الجيش الاسلامي فقد زحف نحو الرها وانقض عليها . ودارت المعركة على شاطىء نهر البليخ بالقرب من ساحة معركة Carrhae القديمة ، واتخذ المسلمون

---

٢ ـ ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق : ١٥٦

(١) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق : ١٧٠ .

خططهم المرسومة لهم ، فهاجموا ميسرة جيش الصليبيين ثم استداروا ، ولجأوا الى الفرار ، فظن الصليبيون انه تيسر لهم في سهولة ويسر الفوز بالنصر ، فأسرعوا لمطاردة الجيش الاسلامي فانقطع اتصال جيش الصليبيين مع رفاقهم في الميمنة فاجتازوا النهر فوقعوا على الفور في كمين كان قد نصبه لهم الجيش الاسلامي ، فاجهز المسلمون على عدد كبير منهم ومن تبقى منهم عادوا وولوا الادبار ، وهرب جيش انطاكية ، اما جيش الرها فلم يفلت من الاسر والقتل الا عدد ضئيل(١) ووقع بنيدكت رئيس أساقفة الرها الذي كان يحمل الصليب في مقدمة جيش الصليبيين أسيراً وهرب بلدوين الثاني وجوسلين على ظهر حصان واحد ، غير انهما هويا الى قاع النهر ، فجرى حملها أسيرين الى قيادة الجيش الاسلامي .

بعد هذه النكبة التي حلت بهم على يد المسلمين وقواتهم عزموا الاستيلاء على حلب لاتخاذها معسكراً ومنطلقاً لهم يوجهون منها جيوشهم وقواتهم نحو المواقع الاسلامية ، فنشط المسلمون للحيلولة دون وقوع حلب بأيدي الصليبيين . وكان ايلغازي بن أرتق صاحب ماردين وطغتكين صاحب دمشق من اقوى الامراء المحليين وأشدهم صلابة في مقارعة الصليبيين ، فراح الاول يحشد العساكر من التركمان ويتجهز لاستقبال مايقدم عليه من الكتائب المؤلفة من الكرد النازلين بالشمال ومن القبائل العربية الضاربة ببادية الشام .

اما طغتكين ـ حاكم دمشق ـ فقد تهيأ لدورة في التعبئة العسكرية والاسهام في المعركة القادمة مع العدو الصليبي ووعد بنو منقذ امراء شيزر ، بأن يجبروا قوات امارة انطاكية على الانسحاب بالقوة من مواقعها القريبة ومهاجمة الاطراف الجنوبية لهذه المملكة ليتيسر للجيش الاسلامي اختراق المنطقة والوصول الى أهدافه بسهولة ويسر .

اما جيش الاراتقة فقد زحف بقيادة ايلغازي والتحق بجيش بني منقذ اضحاب شيزر ، ثم تحرك الجيش القادم من دمشق وتولى ايلغازي القيادة العامة للجيش الاسلامي ، فأصدر اوامره بالاغارة على مملكة الرها واعمالها ، وبينما كان الجيش يتقدم في قتال الصليبيين راح المسلمون يتعقبون اخبار الصليبيين ويستجمعونها ، فيرسلون الجواسيس على هيئة تجار ورحالة ، يزودونهم بما كان عليه جيش الصليبيين من نواحي الضعف والقوة ، وفي غمرة الهجوم الكاسح الذي شنَّهُ الجيش الاسلامي ، استطاع ان يطوق قلعة الاثارب التي كانت بحوزة الصليبيين ، ويصف

(١) بلغ الخوف والجزع من البطريارك برنارد ، وبطريارك انطاكية ، انه في اثناء فراره ، قطع ذيل حصانه حتى لا يمسك به المسلمون وذلك على الرغم من انه لم يشهد وقتذاك احداً من عساكر المسلمين .
انظر : رنسيمان. تاريخ الحروب الصليبية : ٢ / ٧١ ـ ٧٣ .

احد المؤرخين حالة الصليبيين فيقول ، بأنه لامجال للنجاة لهم من ثنايا جحافل فرسان المسلمين ورماتهم ، وأول من تملكهم الخوف والذعر هم مشاة الصليبيين ، الذين جرى تجنيدهم محلياً من النصارى الوطنيين والارمن ، غير انهم عوقوا الخيل عن السير ، وفر قادة الصليبيين وسقط قائدهم امير انطاكية روجر سالرنو وهو يقاتل عند قاعدة صليبه الضخم المتليء بالجواهر ومن حوله هلك فرسانه فلم ينج منهم الا عدد قليل . لقد اشتهرت المعركة عند الصليبيين باسم ساحة الدم Ager Sarguinis، وقد وقعت سنة ٥١٣ هـ / ١١١٩ م ويقدر المؤرخ فولشر خسائر الصليبيين بتسعة آلاف قتيل (١).

وظل المسلمون في حلب يتلهفون لسماع اخبار المعركة الفاصلة ثم مالبثت طلائع الجند المظفرين تقترب من حلب . اما ايلغازي فقد تقدم بجيشه نحو (سرمدا) حيث استسلم احد قادة الصليبيين المسمى (مازوار) مع رجاله واستولى على مدينة ارتاح . وكتب ايلغازي الى ملوك وامراء العالم الاسلامي يخطرهم بما حازه من انتصار ، فبعث اليه الخليفة العباسي بالخلع والتشريف ولقبه نجم الدين (٢).

تكررت محاولات حكام المسلمين في بلاد الشام والجزيرة بعقد التحالف فيما بينهم للوقوف بوجه الصليبيين وقتالهم ففي نفس السنة التي وقعت فيها معركة ساحة الدم ، قرر كل من طغتكين حاكم دمشق وايلغازي بن ارتق حاكم ماردين عقد التحالف بينهما لتحرير شرقي نهر الاورنت ، وهي مناطق تقع فيها بعض حصون الصليبيين وبدأوا بحصن الاثارب ثم زردنا حيث استسلمت حامياتها مقابل الابقاء على حياة رجالها ، وكان ايلغازي يراوده الامل في مباغتة الصليبيين وهم نيام قرب قرية هاب ، واستعد الصليبيون ودعا رئيس أساقفة قيسارية العساكر للاجتماع ، ثم أمسك بالصليب المقدس ليباركهم وبذلك أضحى جيش الصليبيين مستعداً للقتال . وعندما نشبت المعركة ، أجبر طغتكين بونز كونت طرابلس على الارتداد واوقع المسلمون بعض الصليبيين في كمين ومنهم روبرت الابرص احد قادتهم فحملوه أسيراً .

وعندما انتهت هذه المعركة ، انسحب المسلمون قاصدين حلب ومعهم عدد كبير من الاسرى ، واعلنوا للعالم الاسلامي ، ان النصر كان حليفهم ، وانهم سوف يمضون

---

(1) Fulcher of Chortres, Gesta Francorum Lcherusalem Pere grinantium, Vol. III, P. 621–623.

(٢) رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ٢ / ٢٣٧ ـ ٢٣٨ .

في مقاتلة الصليبيين حتى النهاية ، وعاد ايلغازي للقتال مرة أخرى ، حتى ان بلدوين أمير بيت المقدس لم يكن يصدق ماترامى اليه من انباء ذلك الاستعداد .

لقد تلقى ايلغازي وعداً من طغتكين امير دمشق بالتحالف والاستمرار في مقاتلة الغزاة واتجه الجيش الاسلامي سنة ٥١٦ هـ / ١١٢٢ م لمحاصرة زردنا التي اعاد الصليبيون الاستيلاء عليها وبناء استحكاماتها ، وان بلدوين لم يشأ ان يقع في الفخ الذي درج المحاربون المسلمون على ان ينصبوه لاعدائهم بما يتبعونه من خطة التظاهر بالهروب ثم الانقضاض على العدو وتطويقه .

وقد التقى الجيش الاسلامي وهو في طريقه الى مدينة سروج بجوسلين امير الرها ووااليران صاحب البيرة وهما راكبين في جماعة من الفرسان الصليبيين ، فطوقهم المسلمون واوقعوهم في الاسر جميعا ، وعرض عليهم المسلمون ، اطلاق سراحهم مقابل التنازل عن الرها . فرفضوا فحملوا الى قلعة خرتبرت . وكان وقوع جوسلين امير الرها في الاسر ضربة اصابت كرامة الصليبيين(١) وأجبرت بلدوين ملك بيت المقدس على ان يضيف اعباء جديدة الى متاعبه بأن تولى ادارة امارة الرها .

استطاع المسلمون بعد ذلك ان يوقعوا بلدوين نفسه في الاسر على أثر موقعة عسكرية لقى فيها معظم جيش الصليبيين مصرعهم ، وتقرر ارسال بلدوين في حراسة مشددة ليلحق بجوسلين في اسره بقلعة خرتبرت . ان اسر بلدوين شكل اهمية كبيرة بالنسبة للمسلمين ، لأنه كان دعامة كيان الصليبيين بأسرهم وقد شجع ذلك المسلمين في توجيه ضربتهم للصليبيين فهاجموا أملاكهم الواقعة الى الجنوب من حلب فاستولوا على البارة(١).

« عماد الدين والصليبيون »

اما عماد الدين زنكي صاحب الموصل فكان من أشد امراء المسلمين صلابة في قتال الصليبيين في هذه الفترة والوقوف ضدهم في بلاد الشام والجزيرة الفراتية ، حيث اشتبك مع هؤلاء الغزاة ، وخاض عدة معارك حاسمة انتهت بوضع حد للتوسع الصليبي في الشرق عموماً ، كما استطاع ان يزيل امارة الرها الصليبية من الوجود بالقوة العسكرية ، مما اتاح للقوى الاسلامية في المنطقة

---

(١) رنسيمان ، المصدر نفسه : ٢٥٦ .

(١) وعندما حاول بلدوين الهرب من سجنه ، تحرك الجيش الاسلامي مرة أخرى ، وحاصر قلعة خرتبرت ، وقتل جميع الذين تمردوا داخل القلعة ونقل بلدوين وابن اخته جوسلين ووااليران الى قلعة حران . انظر : رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية : ٢ / ٢٥٩ .

فرصة مقاتلة الصليبيين واسقاط حصونهم ومدنهم الواحدة تلو الاخرى ومحاولة اجلائهم عن ديار المسلمين .

ويبدأ نشاط هذا القائد الاسلامي ضد الصليبيين عندما كان يعمل تحت امرة الولادة في جيش الموصل طيلة الفترة بين ٥٠٥ هـ / . ٥١٤ هـ عندما اشترك معهم في معظم حروبهم ، وكانت اولى تلك المعارك التي خاضها الاجانب الى جانب هؤلاء الولاة . المعركة التي قادها مودود بن التونتكين والى الموصل بعد تلقيه أمراً من السلطان السلجوقي عام ٥٠٥ هـ بمهاجمة الصليبيين في بلاد الشام ، وقد استهدف الهجوم في حينها مدينة الرها ، غير ان الجيش الاسلامي قادها الى مواقع أخرى على امل العودة اليها ثانية ، وهاجم قلعة تل باشر حتى وصل الى معرة النعمان ففرض عليها الحصار هناك ، انضم اليه بعض الامراء المحليين في المنطقة ومنهم طغتكين صاحب دمشق(١).

ويبرز ابن الاثير ، النشاط المتميز الذي كان يتحلى به عماد الدين زنكي في قتال الصليبيين ، لقد اظهر خلال المعارك التي استمرت بين المسلمين والصليبيين بتحالف مودود بن التونتكين وطغتكين شجاعة فائقة « لم يسمع بمثلها »(٢) ولما اغتيل مودود بن التونتكين على ايدي الفرقة الاسماعيلية ، جهز السلطان السلجوقي محمد ، الامير الاتابكي آق ـ سنقر البرسقي بجيش وأمره بقتال الصليبيين واصدر أمره الى قوات الموصل بمرافقته في حملته ، فكان ابنه عماد الدين زنكي من أبرز المنضمين اليه .

ويبدو ان المسلمين كانوا يستهدفون اسقاط الرها وكانوا يبذلون المحاولات المتكررة لاجل ذلك ، الا ان القدرة الدفاعية لهذه الامارة ارغمت آق ـ سنقر البرسقي على التخلي عن فكرة الاستيلاء عليها فاتجه الى سميساط ، وقام بالهجوم هناك على عدد من المواقع الصليبية وعمل على تخريبها ومقاتلة المدافعين عنها ، ثم نقل عائداً الى بغداد(٣).

لقد ظهر عماد الدين زنكي قائداً يمتلك قدرات عسكرية يمكن الاستفادة منها في نظر السلطان السلجوقي محمد لمكافحة الخطر الجاثم على حدود العراق الغربية فولاه الموصل والجزيرة على أثر وفاة واليها مودود بن التونتكين سنه ٥٢١ هـ /

---

(١) عماد الدين خليل ، عماد الدين زنكي ، ١٣٦ .
(٢) الباهر ، ١٨ ـ ١٩ .
(٣) عماد الدين خليل ، عماد الدين زنكي ، ١٣٧ .

١١٢٧ م وجاءت هذه التولية نصراً مهماً للمسلمين في صراعهم ضد اعدائهم الصليبيين (٤).

اشتبك عماد الدين زنكي مع الصليبيين في عدة معارك وذلك قبل اسقاطه لامارة الرها الصليبية، واول هجوم شنه ضدهم على حصن الاثارب الذي كان يشكل خطراً عليه لقربه من حلب، وبسبب ما كان يلحقه من اضرار بفلاحي المنطقة من المسلمين، وقد جمع الصليبيون فيه خيرة فرسانهم، وفرض الحصار عليه، فحشد صليبيو الشام قواتهم وشكلوا جيشاً ضخماً اتجهوا به لقتال عماد الدين زنكي، وجرت بين الطرفين معركة بعيدة عن الاثارب، انتهت بانتصار المسلمين وقتل واسر عدد كبير من الصليبيين ثم اتجه الجيش الاسلامي نحو الحصن وفتحه بالقوة وقتل واسر معظم افراد حاميته ثم أمر بتخريبه وتقدم نحو حارم الواقعة على طريق انطاكية وضرب عليها الحصار فاستجاب أهلها لمهادنته: لقد حول الصليبيون خططهم العسكرية من الهجوم الى الدفاع نتيجة لمعركة الاثارب التي جعلتهم يدركون، ان عليهم مجابهة قوة جديدة لم تكن في حسابهم (١).

واستأنف عماد الدين زنكي، مهاجمة عدد من المواقع الصليبية المحيطة بحلب سنة ٥٢٩ هـ / ١١٣٤ م وأتيحت له الفرصة ثانية لتحقيق انتصارات جديدة في بلاد الشام، وقد تمكن من الاستيلاء على خمسة من هذه الحصون وهي: الاثارب، زردنا، تل أغدي، معرة النعمان وكفر طاب. ونتيجة لما أحرزه عماد الدين زنكي من انتصارات كاسحة على الصليبيين فقد تنبه هؤلاء الى تزايد خطره عليهم والى ضرورة توجيه ضربة حاسمة له فبعد عامين تقدموا اليه بجيش كبير لمباغتته وهو يحاصر حمص فاستدرجهم الى منطقة بعيدة عن حمص، وأظهر انه يحاول مهاجمة حصن بعرين الصليبي القريب، فتقدم اليه الصليبيون ووقعت بين الطرفين معركة شديدة، أحرز المسلمون فيها النصر وقتلوا وأسروا عدداً كبيراً من جند الصليبيين وأمرائهم وقادتهم وكان ريموند من بينهم (٢).

وتقدم الجيش الاسلامي نحو حصن بعرين وفرض عليه حصاراً شديداً ثم راح الصليبيون يطلبون النجدة من البيزنطيين والاوربيين، غير ان الحملة التي اشترك فيها البيزنطيون والصليبيون لانقاذ الحصن، أخفقت ونشط الحلفاء للاستيلاء على عدد من المواقع الاسلامية في الجهات الشمالية من الشام، وبدأوا بمهاجمة حصن

---

(٤) ابن الاثير، الباهر، ٣٩، ٣٨، عماد الدين خليل، المصدر نفسه ١٣٧.

(١) عماد الدين خليل، المصدر نفسه، ١٤١.

(٢) ابو شامة، الروضتين، ١/ ق ١/ ٨٧، عماد الدين خليل، المصدر نفسه، ١٤٢.

بزاعه القريب من حلب ، وتمكنوا من الاستيلاء عليه فأمد اهل حلب بقوة من الفرسان للدفاع عن المدينة التي اثبتت قدرتها الدفاعية ضد المهاجمين ، كما ان الحلبيين أخذوا يقومون بهجمات سريعة على معسكرات الاعداء ادخلت الرعب وعدم الاستقرار في نفوس الصليبيين فآثروا الانسحاب .

واستنجد سلطان بن علي الكناني صاحب شيزر بعماد الدين زنكي ، فاتجه هذا الاخير على رأس جيشه شمالاً وعسكر بالقرب من حماه ، وكان يحاول ان يخرج الصليبيين الى المناطق المكشوفة بدعواته اليهم للقتال مما حملهم على الظن بأنهم لا يقوون على مجابهته لان وراء هذه الدعوات المتكررة جيش كبير وقوي ، وبذلك عمل عماد الدين زنكي على تحطيم الروح المعنوية للصليبيين(١) على ان عماد الدين زنكي لم يأل جهداً ، في طلب النجدات العسكرية من شتى انحاء العالم الاسلامي فأرسل الى بغداد والي سلاجقة آسيا الصغرى والى الاراتقة والى دمشق ، فاستجابت هذه القوى الى انجاده بالمعدات والرجال مما جعل الصليبيين والبيزنطيين ينسحبون وينهون حصارهم لشيزر ، وفي اثناء انسحاب قواتهم ، انقض الجيش الاسلامي عليها وقتل وأسر عدداً كبيراً منها واستولى على الآتهم وأسلحتهم ، واستطاع صلاح الدين الياغسياني ، حاجب عماد الدين زنكي ان يستولي على كفر طاب ، وذلك خلال الايام التي اعقبت انسحاب المتحالفين ، كما وجه عماد الدين زنكي ، قواته الى حصن عرقه فحاصره وفتحه بالقوة وأسر من فيه من الصليبيين ثم أمر بتخريبه ، واتجه الى حصن بزاعه فاجتاحه وقتل معظم من فيه من قوات الصليبيين والبيزنطيين ، وحاصر الاثارب وتمكن من احتلالها وعاد الى الموصل(٢) .

وقد استمر تحالف القوى الاسلامية بعد وفاة عماد الدين زنكي ٥٤١ هـ / ١١٤٦ م ، ونشطت في قتال الصليبيين الذين كانوا يحاولون ان يجنوا الثمار من غياب هذا القائد الاسلامي ، فقاد ملك بيت المقدس بلدوين الثالث جيش التحالف الصليبي وعبر نهر الاردن وزحف في أقليم الجولان ووصل الى درعا بينما عسكر الجيش الاسلامي الذي كان مؤلفاً من قوات معين الدين أنر صاحب دمشق وقوات نور الدين محمود صاحب حلب ، في صرخد التي تقع بعيداً في جهة الشرق ، ثم زحف على بصرى واحتلها ، فلم يسع الصليبيون الا الارتداد وذلك نظراً لما لاقوه من المشقة والعناء والتعب والارهاق ، وضايق المسلمون جيوش الصليبيين في مؤخرتهم وقتلوا من صادفهم من جندهم الذين ضلوا الطريق والظاهر ان الجيش

---

(١) عماد الدين خليل ، المصدر نفسه ، ١٤٥ .

(٢) ن . م . ، ١٤٧ ــ ١٤٨ .

الصليبي تعرض للتدمير الشامل ، وعبرت بقاياه نهر الاردن عائدة الى فلسطين ، وكانت هذه الحملة على ما يبدو ، باهظة التكاليف للصليبيين وحلفائهم ، ولم يكن لها هدف من جانبهم ودلت على حماقتهم في أمورهم السياسية وخططهم العسكرية(١).

وعاود الصليبيون الكرة في الهجوم على المواقع الاسلامية سنة ٥٤١ هـ / ١١٤٦ م فجمعوا فلول جيوشهم من مناطق الشام والجزيرة وقصدوا مدينة الرها التي سقطت بيد الجيش الاسلامي لاستعادتها ، وبالتواطوء مع مسيحي المدينة استطاع الصليبيون ان يحتلوها ويحكموا قبضتهم عليها ، ويقتلوا عدداً من المسلمين هناك ، فتصدى لهم نور الدين محمود صاحب حلب وحالفه جيش من التركمان المسلمين ، فضلاً عن سيف الدولة سوار صاحب الرها واجتمع اليهم فرسان المسلمين ومشاتهم زهاء عشرة آلاف فارس واتجهت عساكر المسلمين وهاجموا الرها ودخلوها بالقوة وقتلوا المحاربين من الصليبيين وحلفائهم من الارمن والمسيحيين واستخلصوا أسرى المسلمين وهرب قادة الصليبيين وعلى رأسهم جوسلين أمير باشر(٢).

نور الدين والصليبيون :

ولعل من المفيد القول ، أنه يترتب على الصليبيين ، فيما اذا تهيأ لهم ان يبقوا في الشرق ، التركيز بكل جهودهم وطاقاتهم لمقاومة نور الدين محمود الذي ظهر كأكبر قوة يقاوم الصليبيين ، فقد اتجه بجيشه صوب الشمال ليواصل ما أقدم عليه من انتزاع كل بلاد انطاكية الواقعة شرقي نهر الاورنت ، فلم تنته سنة ٥٤٢ هـ / ١١٤٧ م حتى أضحت في يديه مناطق ارتاح وكرلاتا والبلاط ويسرقوت(١). لذلك قذف الصليبيون بأضخم جيش الى ساحة المعركة سنة ٥٤٣ هـ / ١١٤٨ م ولمحاصرة دمشق ابان الحملة الصليبية الثانية ، ولم يكن معين الدين أنر حاكم دمشق يتوقع ان تكون حملة الصليبيين هذه مستهدفة دمشق في حينها ، فلما اكتشف الحقيقة بادر الى اصدار الاوامر الى ولاة الاقاليم ان يبعثوا اليه المقاتلين وطلب نجدة من نور الدين محمود الذي كان قد استهدفه الصليبيون ايضاً . وتوقفت كتائب الصليبيين

---

(١) رنسيمان . تاريخ الحروب الصليبية : ٢ / ٣٩٢ .

(٢) ابن القلانسي . ذيل تاريخ دمشق : ٢٨٨ . ابو شامة . الروضتين ١ / ق ١ / ١٢٥ .

(١) اشتهر نور الدين برجاحة العقل والعدالة والاحسان والتقوى الصادقة واشتهر وزراؤه وقادته بالكفاية والاخلاص ، وقد صار بنجوة من الخطر من قبل سائر الامراء المسلمين بفضل علاقاته الاسرية وتحالفه مع معين الدين أنر صاحب دمشق . وأضحى من الكفاية والاستعداد ما جعل له قيادة المسلمين في الرد على هجوم الصليبيين (ابو شامة . الروضتين : ١ / ق ١ / ١٣٠ ــ ١٣٣ . رنسيمان . المصدر نفسه : ٣٩٢ .) .

اول الامر بالموضع المعروف باسم « منازل العساكر » الذي يقع على نحو اربعة أميال الى الجنوب من دمشق التي لاحت لهم اسوارها وأبراجها البيضاء من ثنايا الاشجار الكثيفة بالبساتين . غير انهم عجلوا بالمسير الى قرية المزة لتوافر الماء فيها . وحاول الجيش الاسلامي منع تقدمهم ولكنه اضطر الى الارتداد . وأحرز الصليبيين نصراً مؤقتاً وتقدم الصليبيون لاحتلال المدينة وراح المقاتلون المسلمون يشنون حرب العصابات . فلم يلبث ان تحول المد في اليوم التالي وأخذت الامدادات تتدفق على الجيش الاسلامي . فقام بهجوم مضاد رد به الصليبيون عن الاسوار وانسحب هؤلاء الى السهل الواقع خارج السور الشرقي .

جدد الجيش الاسلامي هجماته على معسكراتهم واتخذ الصليبيون خطة الدفاع وبذلوا جهودهم للتخلص من المأزق الذي وضعهم فيه المسلمون بالتسلل والمسير نحو الجليل ولكن فرسان المسلمين راحوا يضغطون على جناحي الجيش الصليبي ويمطرون جموعه بوابل من السهام . فتناثرت أشلاء الرجال والخيل على امتداد الطريق . وأفسدت رائحتها السهل لشهور عديدة . ثم ما لبث ان ارتدت عساكر الصليبيين الى قواعدها بعد تكبدها خسائر جسيمة (١) .

ان كل ما حققته هذه الحملة . انها فقدت عدداً كبيراً من رجالها وقدراً أكبر من عتادها وتعرضت لهوان شديد . ويذهب الاستاذ رنسيمان الى القول بأن ما حدث من ارغام جيش في هذه الضخامة على التخلي عن تحقيق هدفه . «ولم ينقض على القتال سوى اربعة أيام» يعتبر ضربة قاصمة لكرامة الصليبيين وبذا تبددت اسطورة فرسان الغرب الذين لا يقهرون التي نمت وترعرعت اثناء مغامرة الحرب الصليبية الاولى . بينما انتعشت آمال العالم الاسلامي (٢) .

واستمر تعاون نور الدين محمود صاحب حلب ومعين الدين أنر صاحب دمشق في تعقب الصليبيين واجتثاث شأفتهم والايقاع بجيوشهم الضخمة التي عبأوها عقب اندحارهم أمام دمشق سنة ٥٤٤ هـ / ١١٤٩ م . وبدأ الجيش الاسلامي بتخريب قلعة العريمة التي كان يسيطر عليها الصليبيون وجعلوها . منطلقاً لهم حتى تساوت بالارض وأخذوا كثيراً من الاسرى وكان برتراند الصغير أحد قادة الصليبيين وأخته من الاسرى الذين حملوا الى حلب حيث أمضيا في الاسر اثني عشرة سنة (٣) .

---

(١) ابو شامة . الروضتين : ١ / ق ١ / ١٣٢ ــ ١٣٨ . رنسيمان . المصدر نفسه : ٤٥٣ .

(٢) رنسيمان . المصدر نفسه : ٤٥٧ .

(٣) ابن القلانسي . ذيل تاريخ دمشق : ٣٠٩ ــ ٣١٢ . أبو شامة . الروضتين : ١ / ق ١ / ١٤٩ ــ ١٥١ . رنسيمان . تاريخ الحروب الصليبية : ٢ / ٤٦٢ .

وهكذا كانت خاتمة ملائمة للحرب الصليبية الثانية التي وقع فيها آخر أمير صليبي في ايدي المسلمين ، فما من حملة في العصور الوسطى تضارع تلك الحملة حيث انعقدت عليها آمال كبيرة ووضع خطتها البابا ودعا اليها القديس برنارد بما اشتهر به من فصاحة ، وقادها اعظم ملكين بغرب اوربا ، وكانت تبشر بمجد العالم المسيحي وخلاصه غير انها ما بلغت نهايتها المشينة الذليلة بارتدادها المضني عن دمشق ، كان كل ما أنجزته أنها بذرت ـ الشكوك بين الصليبيين القادمين حديثاً من الغرب ، وبين الصليبيين النازلين بالشرق وانها اوقعت بين امراء الصليبيين الغربيين ، فعزلت كل واحد عن الآخر وجعلت العلاقات بين المسيحيين في الغرب والبيزنطيين من المرارة ما كاد يؤدي الى القطيعة بينهم ـ كما انها حملت المسلمين على الوحدة والتعاون ، وأنزلت ضرراً بما اشتهر به الصليبيون في القتال .

ان قادة الحملة الصليبية الثانية يعتبرون مسؤولين عن فشلها لما وقع بينهم من خصام بجهلهم وحماقتهم(١) ومن الجهة الاخرى ، فما برح المسلمون يتصدون للصليبيين ويوقعون بهم ، ففي ٥٤٦ هـ / ١١٥١ م ظهر نور الدين محمود امام دمشق للدفاع عنها ضد هجمات الصليبيين الذين انسحبوا فتعقبهم الجيش الاسلامي الى بعلبك(٢)، وفي السنة نفسها ، عسكر الصليبيون حول منطقة رأس الماء ثم التجأوا الى حوران للاعتصام بها .

قاد نور الدين محمود الجيش الاسلامي ونزل بمنطقة (عين الجسر) في سهل البقاع ليقترب من دمشق ، حيث يضايقها الصليبيون ، غير أنهم تقهقروا الى بصرى لمنازلتها ومضايقتها ، فلم يتهيأ لهم ذلك بسبب موقف سكان المدينة وصمودهم بوجه الغزاة ، فعادوا خاسرين وانكفأ عسكر الصليبيين الى اعماله ، ولكن ورود الاسطول المصري الى ثغور الساحل جدد القتال مرة أخرى ضد الصليبيين ، فقد كان هذا الاسطول على غاية من القوة وكثرة العدد والعدة ، وكانت مراكبه سبعون مركباً حربية مشحنة بالرجال .

هاجم الاسطول المصري يافا بعد اندحار الصليبيين ، وهي احدى ثغور الصليبيين ، فقتلوا منهم وأسروا عدداً آخر وأحرقوا ما ظفروا به واستولوا على عدة وافرة من مراكب الصليبيين والبيزنطيين ، ثم اتجه الاسطول نحو ثغر عكا وفعلوا فيه مثل ذلك ثم قصدوا ثغر صيدا وبيروت وطرابلس وقاتلوا الصليبيين وأوقعوا بهم

---

(١) رنسيمان ، المصدر نفسه ، ٤٦٣ .
(٢) ن . م : ٥٤٢ .

خسائر فادحة ، ووعد نور الدين محمود بزيارة الاسطول الذي قدم له خدمة كبيرة « واعانته على تدويخ الافرنجية »(١).

بعد سنتين من اندحار الصليبيين المار ذكره قرر بلدوين ، ملك بيت المقدس ، مهاجمة عسقلان وظهر جيشه أمام اسوارها وهو مزود بأدوات وآلات الحصار وتعتبر عسقلان من أمنع الحصون بامتدادها من البحر في هيئة نصف دائرة كبيرة وتشتهر بتفوق عمارة استحكاماتها ، فضلاً عن حرص المسلمين على توفير الذخائر والمؤن فيها .

ظل الجيش الصليبي يحاصر المدينة عدة شهور لم يستطع اثناءها ان يلحق شيئاً من الضرر بأسوارها . وعاد الاسطول المصري الى عسقلان لمجابهة التهديدات الصليبية وليعزز قوتها ، وكان الاسطول مؤلفاً من سبعين سفينة مشحونة بالرجال والسلاح والمؤن على مختلف انواعها ، ولم يجرؤ الصليبيون على مهاجمة السفن المصرية ، حيث لم يكن اسطول الصليبيين يزيد على أكثر من عشرين سفينة ، وهي كل ما استطاع الصليبيون ان يحشدوها ، ونجحت سفن المسلمين ان تنفذ الى الميناء وارتفعت الروح المعنوية لدى المسلمين ثم اقلعت السفن بعد ان أفرغت حمولتها واستمر الحصار مفروضاً ، غير ان نفراً من رجال الحامية الاسلامية تسلل الى خارج الاسوار ، حيث معسكر الصليبيون واشعل النيران في البرج المصنوع من الخشب الذي يقذف الاحجار والاسياخ الملتهبة وهو اقوى ما عند الصليبيين من ادوات الحصار ، الا ان النيران هبت وقذفت بالبرج المشتعل بالنيران الى اسوار المدينة ، فحدثت ثغرة في السور ، تمكن عدد من فرسان الصليبيين التسرب منها الى داخل المدينة ، وقام المسلمون بتطويقهم وقتلهم وبادروا الى اصلاح الثغرة . ونتيجة لاستمرار الصليبيين في حصار المدينة ، فقد استطاع هؤلاء ان يحتلوها ، ومع ان الاستيلاء على هذه المدينة لم يكن مهماً للصليبيين من وجهة النظر العسكرية حيث لم يكن تنطلق منه إلاّ غارات اسلامية ضئيلة على المناطق الصليبية ، فان سقوط عسقلان بايدي الصليبيين ، جعلها مركزاً لاثارة المسلمين في مصر وبلاد الشام والجزيرة الفراتية(٢).

ويبدوا ان الصليبيين كانوا يتهيبون من دخول نور الدين محمود دمشق خوفاً ان يجعلها منطلقاً قوياً له ضد مواقعهم ، فضلاً عن الاهمية الاستراتيجية والاقتصادية التي تتمتع بها هذه المدينة ، لذلك بدأوا يقومون بهجماتهم على المدن والمناطق

---

(١) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ٣١٤ .

(٢) رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ٢ / ٥٤٥ .

الاسلامية بهدف عرقلة مشاريع نور الدين محمود وبهدف اثارة الاضطرابات . مما اضطر نور الدين محمود الى التعجيل بالاستيلاء على دمشق . فأرسل حاكمها مجير الدين أبق يستنجد بالصليبيين . غير انهم لم يستطيعوا انجاده . فلجأ الى بغداد(١)

بدأ نور الدين محمود بشن الغارات على الصليبيين متخذاً دمشق معقلاً له . وعلى أثر الحلف الصليبي الذي تكون سنة ٥٥٣ هـ / ١١٥٨ م توجهت الجيوش الصليبية الى اطراف دمشق وقامت بزحف مفاجيء على دمشق ذاتها ثم فرض الحصار على قلعة دارياً بضواحي دمشق فلم يلبث نور الدين محمود ان قام بهجوم مركز على الصليبيين ، وبينما كان قائده شيركوه يغير على اراضي صيدا ، هاجم قلعة الحبيس جلدك التي شيدها الصليبيون لتكون معقلاً لهم على ضفاف نهر اليرموك الى الجنوب الشرقي من بحر الجليل . وتعرضت حاميات الصليبيين لضغوط الجيش الاسلامي مما دفعها الى التسليم(٢).

والمعروف ان الحروب التي قادها نور الدين محمود بوجه الصليبيين ليس سببها قيامهم باحتلال ديار المسلمين وهجومهم المصحوب بالسلب والنهب والقتل بل سببها ايضاً خيانتهم وعدم مراعاتهم للعهود والمواثيق ، في حين امتازت سياسة المسلمين دائماً ـ طوال نضالهم ضد الصليبيين ـ بالحرص على الوفاء بالعهد والتمسك بمبادىء الشرف والاخلاق(٣) .

ويشير ابن القلانسي الى غدر الصليبيين ونقضهم للهدنة التي عقدوها مع نور الدين محمود فهجموا على نواحي بانياس ونهبوا الضياع والمواشي وكانت عدتهم سبعمائة فارس من الاسبتارية والسرجندية والداوية سوى المشاة منهم وقتلوا عدداً من المسلمين وأسروا عدداً آخر وتحقق للصليبيين ما أرادوا من اسلاب(٤).

لم يكد نور الدين محمود يسمع بما حدث حتى خرج لمحاصرة بانياس بعد ان أمر قائده أسد الدين شيركوه بأن يتقدمه على رأس قوة استطلاعية صغيرة ليوهم الصليبيين بأن الجيش الاسلامي الهاجم محدود الامكانيات لا يتعدى تلك القوة الصغيرة . ثم كان ان انقض المسلمون على الصليبيين « فتحكمت من رؤوسهم ورقابهم مرهفات السيوف بقوارع الحمام والحتوف وتمكنت من اجسادهم مشرعات

---

(١) رنسيمان ، المصدر نفسه ، ٥٥٠ .

(٢) رنسيمان ، المصدر نفسه ، ٥٦٦ .

(٣) Grousset, Histoire des Croisales, I!, p. 368.

(٤) ذيل تاريخ دمشق ، ٣٣٧ ـ ٣٣٩ .

الرماح وصوارم السهام(١) » . وقد لاذ بلدوين الثالث بالفرار الى صفد . واشتد الحصار على بانياس حتى سقطت بيد المسلمين(٢) .

وعلى أثر الهزيمة التي مني بها الصليبيون حول بانياس قرروا الانتقام من المسلمين فتحالفوا فيما بينهم ، وقد ضم التحالف كل من الملك بلدوين الثالث (بيت المقدس) ورينالد شاتيون (انطاكية) وريموند الثالث (طرابلس) وأعدوا لمهاجمة نور الدين محمود الذي أصر على ان يشرف على المعركة بنفسه ، بالرغم من مرضه الشديد . وقد حرص الصليبيون ان يحشدوا جميع القوى المسيحية الوطنية المجاورة في المعركة ضد المسلمين فاستدعى ثوروس أمير قيليقية الأرمني ، فحضر على رأس جيش كبير الى انطاكية للمشاركة في الهجوم الصليبي المرتقب . كما دعى الامير تيري الالزاسي كونت فلاندرز الذي كان قد وصل الى بلاد الشام يفتش عن ضياع وأسلاب ، واتجه الجيش الصليبي المتحالف نحو أفامية ثم حاصر حارم واستولى عليها وراح والصليبيون ينطلقون من هذا الموقع الحصين شرقي نهر العاصي لمواصلة اعتداءاتهم على القرى والضياع المجاورة « وتزايد طمعهم في شن الغارات في الاعمال الشامية واطلاق الايدي في العبث والفساد في معاقلها وضياعها »(٣) .

استأنف الصليبيون غاراتهم على اقليم دمشق مستغلين « تفرق العساكر الاسلامية والخلف الواقع بينهم » والمرض الذي دهم نور الدين محمود(٤) ، غير ان تماثله للشفاء من مرضه انقذ موقف المسلمين ، حيث امر قائده شيركوه بالاغارة على منطقة صيدا ، فقتل كثيراً من الصليبيين وأسر عدداً آخر وغنم الجيش الاسلامي معداتهم وأسلحتهم ، واصطحب نور الدين محمود شيركوه في مهاجمة اقليم الجليل جنوبي بانياس ، فتفرق حلف الصليبيين ولم يستطع ان يحقق أهدافه التي رسمت له(١) .

على ان زيارة الامبراطور البيزنطي مانويل كومنين الى الشرق الاسلامي سنة ٥٥٤ هـ / ١١٥٩ م كانت مخيبة لامال الصليبيين ، اذ انها اسهمت في اذلالهم الى حد كبير وبدأ الامبراطور في موكبه الحافل بالاتزان والوقار والهيبة ومن حوله كبار امراء الصليبيين وكأنهم اتباعاً أذلاء . في حين كانوا يتوقعون ان ينصرهم ضد المسلمين وقد استشاطوا غضباً حينما استقبل الامبراطور سفارة من نور الدين محمود

---

(١) ن . م : ٣٣٩ .

(٢) ن . م : ٣٤٠ .

(٣) ابن القلانسي . ذيل تاريخ دمشق : ٣٥٠ .

(٤) ن . م : ٣٥١ .

(١) د . سعيد عبد الفتاح عاشور . الحركة الصليبية : ٢ / ٦٥٠ ـ ٦٥١ .

موكلة بالتفاوض معه لعقد هدنة بين الطرفين تتجاهل الوجود الصليبي . وعلى أثر عودة الامبراطور الى بلاده . أغار رينالد شاتيون امير انطاكية على سهل الفرات فنهب قطعان الماشية والابل والافراس ، فوقع في كمين نصبه له مجد الدين ابن الداية فأرسل الى حلب مع رجاله وسجن هناك ، وهكذا باءت بالفشل فكرة التحالف بين الامبراطورية البيزنطية وللصليبيين في بلاد الشام للعمل ضد نور الدين محمود ـ ولم يبق للصليبيين الا ان يعتمدوا على أنفسهم وعلى المساعدات من غرب اوربا للاحتفاظ بوضعهم في بلاد الشام أمام التهديد المستمر من جانب نور الدين محمود .

ونتيجة للخذلان الذي اصيب به الصليبيون على يد حلفائهم البيزنطيين فقد تجهزوا للاستيلاء على حصن حارم وانتزاعه من ايدي نواب نور الدين محمود بعد ان فشلوا في الاستيلاء على حصن شيزر وراحوا يضايقون الحامية المقيمة به حتى تمكنوا من الاستيلاء عليه عنوة ، ثم أخذوا يشنون الغارات على مناطق الشام مما حمل نور الدين محمود على الخروج بعساكره من حلب الى دمشق ثم انضم اليه اسد الدين شيركوه وتقدموا بجيوشهم نحو مواقع الصليبيين واشتبكوا مع قوات الملك بلدوين الثالث في عدة معارك كان النصر فيها للمسلمين(٢).

لذلك استغل الصليبيون الاضطرابات التي سادت حلب سنة ٥٥٤ هـ./ ١١٥٩ م بسبب المرض الذي اصاب نور الدين محمود للمرة الثانية وقيام اخيه نصرة الدين باستيلائه على المدينة ، واغارته على عين تاب القريبة منها ، فتحركت جيوشهم مستهدفة احتلال حلب ، غير ان نور الدين محمود ما لبث بعد شفائه من مرضه ، ان جرد العساكر قيادة مجد الدين بن الداية وامره بحرب الصليبين وكف عاديتهم ، فما كان من الجيش الاسلامي الا ان اوقع بهم الهزيمة(١).

ويبدو ان النزاع بين نور الدين محمود والصليبيين على بلاد الشام تحول بعد ذلك الى تنافس بينهما للاستيلاء على مصر ، نظراً لما اصاب الدولة الفاطمية من الانحلال والضعف وعدم استقرار الحكم . وقد اصبح الوزراء فيها اصحاب السلطة الفعلية وانقسموا على انفسهم فمال بعضهم الى طلب المساعدة من نور الدين محمود . بينما طلب البعض الاخر النجدة من الصليبيين(٢).

وعلى الرغم من ان نور الدين محمود اتجه نحو مصر لئلا تقع فريسة سهلة بيد الصليبيين . فان جهاده ضد هؤلاء الغزاة لم يتوقف في بلاد الشام فقد جمع عساكره

(٢) د . خاشع المعاضيدي . الحياة السياسية ، ٢٠٣ .

(١) ن . م ، ٢٠٤ .

(٢) ن . م . ، ٢٠٤ .

وارسل الى اخيه قطب الدين مودود صاحب الموصل وفخر الدين قرا ارسلان بن داود بن سقمان بن أرتق صاحب حصن كيفا والديار الجزرية ونجم الدين الب ارسلان بن تمرتاش بن ايلغازي بن أرتق صاحب ماردين وغيرهم من اصحاب الاطراف يدعوهم لمساندته فأجابوه الى طلبه . وقد هاجم الجيش الاسلامي مدينة ارتاح وضرب الحصار حولها ثم محاصرة مدينة حارم التي تعتبر معقلها الرئيسي . ولما تقدم الصليبيون بجيوشهم انسحب المسلمون من مدينة حارم واشتبكوا معهم بالقرب من ارتفاح ووقع صدام مروع حيث قام المسلمون بتطبيق خطة عسكرية هي التظاهر بالانسحاب والفرار فيندفع الجيش وراؤهم ، ثم لم يلبث ان يقع في كمين ينصبه المسلمون لهم مما اتاح للجيش الاسلامي ان يطبق على فلول الصليبيين ، ولم ينج من القتل الا من وقع في الاسر . وكان من الذين وقعوا في الاسر بوهمند امير انطاكية وريموند كونت طرابلس وقسطنطين كولومان القائد البيزنطي الذي انجد الصليبيين ، وهيلوزيجنان ، حيث جرى ربطهم سويا في الحبال وحملهم الى حلب(١) .

وتقدم نور الدين محمود نحو حارم فاستولى عليها ، وانتشر الجيش الاسلامي في مناطق انطاكية ثم سار نحو بانياس وحاصرها وتمكن من فتحها وواصل هجومه على مواقع الصليبيين ، وتصدت له فرق من جند الصليبيين بالقرب من بانياس فأوقع بهم وأبادهم ، واستمر بتقدمه حتى وصل الى مناطق حمص وبيروت وقد اصبح الطريق امامه مفتوحاً الى انطاكية لولا حرصه على عدم استثارة عداء الامبراطور البيزنطي الذي كانت انطاكية تحت حمايته ، واحتراماً من نور الدين محمود للاتفاق الذي عقده مع الامبراطور(٢) .

ويمكن القول ان نور الدين محمود بدأ يفكر بجدية بمصر وراح يستنهض همم القوى الاسلامية ويستحثها على بذل جهودها المشتركة للحيلولة دون استيلاء الصليبيين عليها فيتخذونها منطلقاً لهم ضد البلاد الاسلامية ويقسمون بذلك العالم الاسلامي الى قسمين ، وخاصة بعد محاولة الصليبيين عقد اتفاق مع الفاطميين تضمن لهم امتيازاتهم وتجعل منهم حماة مصر والخلافة الفاطمية ضد نور الدين محمود والقوى الاسلامية الاخرى . وعندما استعد الفاطميون والصليبيون لمهاجمة قائد نور الدين محمود (اسد الدين شيركون) وجدوا انه لا بد لهم من عبور النيل الى الضفة الغربية ، فأخذوا يعبرون الى جزيرة الروضة ، فأدرك شيركوه حراجه موقفة فاتجه الى الصعيد حيث لحق به املريك الاول ملك بيت المقدس وقائد الحملة الصليبية

---

(١) رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية : ٢ / ٥٩٦ .

(٢) د . سعيد عبد الفتاح عاشور ، الحركة الصليبية : ٢ / ٦٦٥ .

وقرب الاشمونين في المينيا ودارت رحى معركة البابين وهزم فيها الصليبيون على الرغم من ان العسكر الاسلامي لا يتجاوز الالفي فارس ، في حين كان الجيش الصليبي ومعهم الفاطميون اضعاف هذا العدد .

وعلى اثر الهزيمة التي حلت بالصليبيين فقد كانوا يأملون في لقاء الجيش الاسلامي مرة اخرى لعلهم يوقعون به الهزيمة . فعسكروا قرب الفسطاط على الضفة الشرقية للنيل(٣) . ولكن على ما يبدو ان القوات الاسلامية بقيادة اسد الدين شيركوه لم يكن لها القدرة من القدرة ما يكفيها على الايقاع بالصليبيين وطردهم نهائياً من مصر . لذلك اتخذ نور الدين محمود خطوة لانقاذ جيشه بوضع الصليبيين في موقف حرج يلزمهم بالانسحاب من مصر ، حيث اشترك مع اخيه قطب الدين مودود صاحب الموصل في القيام بغارة عنيفة على امارة طرابلس ، حيث استغل نور الدين محمود الاوضاع المتردية في هذه الامارة ـ التي كان أميرها ريموند الثالث لا يزال اسيراً ـ فأغار على الجهات المحيطة بحصن الاكراد . ثم اتجه لحصار عرقة الى الشمال الشرقي من طرابلس . واستولى على قلعتي العريمة وصافيثا . وبعد عودة نور الدين محمود الى حمص اغار بجيشه مرة اخرى على مملكة بيت المقدس من جهة الشمال الشرقي . فدمر قلعة هونين وهي من مراكز الصليبيين ثم اتجه لمهاجمة بيروت التي اتخذها الصليبيون قاعدة لجيوشهم(١) .

ومن الواضح ان المشكلة الاساسية التي كان يشكو منها الصليبيون في بلاد الشام هي قلة الموارد البشرية بعد ان قتل وأسر كثيراً من الصليبيين وتناقضت اعداد الوافدين الجدد من الغرب . ولذلك يبدو ان املريك ملك بيت المقدس لا يمكنه تحقيق اطماعه في مصر الا بعد ان يطمئن على مصير الصليبيين في بلاد الشام ومصر وهذا يستدعي منه ايجاد مصدر للموارد البشرية فلم يجد في ذلك الوقت سوى منظمات الفرسان ، ولكن حتى اولئك كانوا يجدون صعوبة في التمتع بحكم القلاع والمدن التي منحها اياهم الصليبيون وذلك بفعل الضربات المتلاحقة التي كان يوجهها لهم نور الدين محمود وخاصة في انطرطوس ومعظم الاجزاء الشمالية من امارة طرابلس وحصن الاكراد وصفد وغزة وقلعة كوكب والمناطق حول بفراس .

وقد اضطر الصليبيون لمغادرة مصر سنة ٥٦٣ هـ / ١١٦٧ م . ولكنهم لم يتخلوا عن فكرة الاستيلاء على مصر ، ويذكر بن تغري بردي ، ان الصليبيين اطلعوا على عورات مصر وطمعوا فيها(٢) ، ولذلك لم يعد في وسعهم ان يتخلوا عن فكرة

---

(٣) د . سعيد عبد الفتاح عاشور . المصدر نفسه : ٦٦٩ .

(١) د . سعيد عبد الفتاح عاشور . المصدر نفسه ٦٧٠ ـ ٦٧١ .

(٢) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ٥ / ٤٥٠ .

الاستيلاء على تلك البلاد طمعاً في ثروتها وحماية لكيانهم في بلاد الشام ، وسوف نتطرق الى تحقيق حلمهم ، فوجدوا في الامبراطورية البيزنطية حليف لهم غير ان اباطرة بيزنطه كانوا على علم تام بما يجري في هذه الجبهة ، ففرضوا شروطهم بتقسيم مصر(١).

ولكن هذه الاتفاقية لم تنفذ بسبب انفراد الصليبيين للاستحواذ على مصر ، ثم ان سياسة الفاطميين تغيرت تجاه الصليبيين واصبح موقفهم يتسم بالعداء للصليبيين واتصلوا بنور الدين محمود طالبين مساعدته للتخلص من الحماية الصليبية كما سنذكره في الفصل القادم ..

تعددت اراء الصليبيين حول انهزائم التي الحقت بهم على يد نور الدين محمود سواء في بلاد الشام او في مصر وانحوا باللائمة على بعضهم البعض ، غير انهم استنجدوا بالغرب للدعوة الى حرب صليبية جديدة . اذ تقرر انفاذ سفارة بالغة التأثير في الاقناع الى فردريك الاول امبراطور المانيا ولويس السابع ملك فرنسا وهنري الثاني ملك انكلترا والملكة مرجريت الوصية على عرش صقلية وكونتات فلاندر وبلوا وتروي ، ولكن كل هذه السفارات كانت عديمة الجدوى ، حيث عاد السفراء الى فلسطين اسفين ، بعد ان امضوا سنتين في توسلات غير مثمرة(٢). اما السفارة التي ارسلت الى البيزنطيين فقد صادفت من النجاح حظاً اوفر قسراً ، اذ كان الامبراطور مانويل كسومنين شديد الادراك لما حدث من انقلاب خطير في توازن القوى في الشرق الاسلامي فعرض على املريك تعاون الاسطول البيزنطي في حملة عسكرية ينبغي الاعداد لها ، وقبل الملك عن طيب خاطر ما عرضه الامبراطور ، اذ لم يفقد الامل بعد في استرداد مصر ، كما ان نور الدين محمود كان فيما يبدو شديد الانغماس في معالجة بعض المشكلات التي تواجهه(٣).

الا ان نور الدين جدد نشاطه واستمر في تصديه للصليبيين خلال الفترة من سنة ٥٥١ هـ / ١١٥٦ م حتى سنة ٥٦٨ هـ / ١١٧٢ م حيث لم يكف هذا القائد الاسلامي عن جهاده ضد الصليبيين في بلاد الشام ومصر والجزيرة وقد زودنا المــؤرخ ابــن الاثير بمعلومات مفيدة في هذا الصدد ، ابتداء من الهجوم الذي شنه على قلعة حارم وهي امنع حصون الصليبيين ، وقد طوقها الجيش الاسلامي واطلق نور الدين محمود تهديداته للصليبيين بالاستسلام « فراسلوا نور الدين في الصلح(١) » وفي السنة نفسها

---

(١) د . سعيد عبد الفتاح عاشور ، المصدر نفسه : ٦٧٢

(٢) رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية : ٢ / ٦٢٠

(٣) ن م : ٦٢١

(١) ابن الاثير ، الباهر : ١٠٩ .

هاجم نور الدين محمود حصن شيزر وكان لآل منقذ الكنانيين ، وقد بلغه انهم يراسلون الصليبيين في السر ويستعدونهم على المسلمين ، فبادر اليها وملكها(٢).

وفي ٥٥٧ هـ / ١١٦١ م حشد نور الدين محمود عساكره في حلب وسار فيها الى قلعة حارم وضرب الحصار حولها واشتد في قتالها ، وكان الصليبيون قد حشدوا فيها اشد فرسانهم ومشاتهم شكيمة وعلى الرغم من انهم راسلوا نور الدين محمود وطلبوا عقد هدنة معه ، ولكنه اصر على محاصرتها حتى تستسلم(٣) وفي السنة التالية جمع نور الدين محمود عساكره جميعها ودخل المناطق التي يستحوذ عليها الصليبيون ، فنزل بالبقيعة تحت حصن الاكراد وهو يعتزم منازلة طرابلس ، وقد استطاع الصليبيون دحر المسلمين فقتلوا عدداً كبيراً منهم ، وكاد نور الدين محمود نفسه ان يقع في قبضة الصليبيين ولكنه نجا بفضل شجاعة مرافقيه ثم سار الى مدينة حمص واقام بها فترة ثم ضرب خيامه على بحيرة قدس وهي لاتبعد كثيراً عن ارض المعركة ولما نصحه بعض اصحابه بالابتعاد عن ـ الصليبيين الذين ربما قاموا بهجوم مباغت عليه وبخهم وأسكتهم وقال « اذا كان معي الف فارس لا أبالي بهم قلوا ام كثروا ، والله لأستظل بجدار حتى آخذ بثأر الاسلام وثأري(٤)» وجاءته من حلب ودمشق تعزيزات في الاموال والدواب والاسلحة والخيام وسائر ما يحتاج اليه الجند ليتأهب الى لقاء الصليبيين الذين قرروا بدورهم مهاجمة حمص لقربها منهم ، ولكنهم تخاذلوا عندما بلغهم ان نور الدين محمود بما يمتلك من القوة بما لا يمكن مجابهتها ، وعرض عليه الصليبيون عقد صلح معه فرفض فتركوا الحصن وعادوا الى مواقعهم(٥).

وسارت جيوش نور الدين محمود سنة ٥٥٩ هـ / ١١٦٣ م نحو قلعة حارم الصليبية وهي مؤلفة من جيش الموصل وحصن كيفا الارتقي وماردين الارتقي وغيرهم من اصحاب الاطراف بعد ان استنجد بهم وكاتب زهاد هذه البلدان والمنقطعين عن الدنيا يذكر لهم ما لقى المسلمون على يد الصليبيين ومانالهم من القتل والاسر والنهب ويستمد منهم الدعاء ويطلب منهم ان يحثوا المسلمين على محاربة هؤلاء الغزاة(١).

---

(٢) ن . م : ١١١ ـ ١١٢ .
(٣) ابن الاثير . الباهر : ١١٦ .
(٤) ن . م : ١١٧ .
(٥) ن . م : ١١٧ ـ ١١٨ .
(١) ابن الاثير . الباهر : ١٢٢ ـ ١٢٣ .

وظهر الجيش الاسلامي المتحالف على اتم عدة وسلاح وقوة ، فيما حشد الصليبيون قواتهم وعبأوها ، حتى ان بعض فرقهم امتنعت عن الالتحاق بالحملة المصرية ـ وذكر ابن الاثير ما يشير الى ان الصليبيين استجمعوا قوتهم « فجاؤا في حدهم وحديدهم وعدهم وعديدهم وقضهم وقضنيفهم وملوكهم وفرسانهم واساقفتهم ورهبانهم ، قد حشدوا حتى ارباب الصوامع(٢) » وكان في مقدمتهم امير انطاكية وامير طرابلس وعند بدأ المعركة بين الطرفين لاذت بعض فرق المسلمين بالفرار طبقاً للخطة العسكرية المرسومة ، حيث تبعهم الصليبيون فأبعدوهم عن المشاة ثم يطبق عليهم المسلمون ويكسروهم كسرة عظيمة(٣). » .

وفي سنة ٥٦٠ هـ / ١١٦٤ م هاجم نور الدين محمود قلعة بانياس التي كان يتحصن بها الصليبيون ، وذلك بعد عودته من حصار قلعة حارم ، فحاصرها وضيق عليها . وقد اضعف سقوط قلعة بانياس ، الصليبيين كثيراً ، حيث قتل عدد كبير منهم واسر اخرين(٤). وباغت نور الدين محمود الصليبيين في السنة التالية بالهجوم على حصن المينطرة القريب من طرابلس والقى الحصار حوله ثم استطاع ان يدخله وقتل فرسان الصليبيين والمدافعين عن الحصن ، وبذل الصليبيون محاولاتهم لرد المسلمين عن الحصن ولكن جهودهم باءت بالفشل فتفرقوا(٥).

كذلك استولى نور الدين محمود سنة ٥٦٤ هـ / ١١٦٨ م على قلعة جعبر حيث انتزعها من صاحبها شهاب الدين مالك بن علي بن مالك العقيلي الذي لم يستجب لنداء نور الدين محمود في توحيد الكلمة على الصليبيين ومحاربتهم وكانت هذه القلعة من امنع الحصون ومطلة على الفرات لذلك اتخذها نور الدين محمود مقراً لحمايات عسكرية تنطلق ضد مواقع الصليبيين وتجمعاتهم(١).

وبعد سنة من تملكه قلعة جعبر سير جيشاً لمهاجمة الصليبيين في حصن الكرك وهو قلعة حصينة تقع بين ايلة وبحر القلزم والبيت المقدس ، ويبدو ان السبب الذي دفع نور الدين محمود الى الهجوم على هذا الحصن هو ما كان يسببه للمسلمين والقوافل التجارية والمسافرين من التخريب والاعتداء والنهب . فكان بمثابة مركز للسلب وللقرصنة البرية ، وقد اعد نور الدين محمود حملته مجتازاً بها المناطق التي يشرف عليها هذا الحصن حتى وصل عشترا وتريث لكي يقوم الصليبيون بأية

---

(٢) ن . م . : ١٢٤ .
(٣) ن . م . : ١٢٥ .
(٤) ن . م . : ١٣٠ ـ ١٣١ .
(٥) ن . م . : ١٣١ .
(١) ن . م . : ١٣٦ ـ ١٣٧ .

حركة في قواتهم فيباغتهم ، غير انهم لم يبرحوا مكانهم خوفاً منه(٢) فاستولت قوات نور الدين محمود على مناطق واسعة كان يسيطر عليها الصليبيون . وفي السنة نفسها استجاب شهاب الدين محمود بن الياس بن ارتق صاحب قلعة البيرة لدعوة نور الدين محمود الى قتال الصليبين . ولما وصل بجيشه الى قرية ــ اللبوة ــ وهي من اعمال بعلبك ، التقى مع سرية من الجند الصليبيين كانوا يعتزمون الاغارة على المواقع الاسلامية ، واقتتل الطرفان واشتد القتال بينهما ، وكانت النتيجة انهزام الصليبيين « وعمهم القتل والاسر » وجلب شهاب الدين الارتقي الاسرى الى دمشق فاستقبله نور الدين محمود في موكب عسكري مهيب « وازداد سروره(٣) ».

اما في سنة ٥٦٥ هـ / ١١٦٩ م فقد وجه نور الدين محمود جيوشه لمقاتلة صليبي انطاكية وطرابلس وذلك لاقدامهم على نهب مركبين مملوءين من الامتعة والتجار . خرجا من مصر الى بلاد الشام ودرروا بالمسلمين ، في الوقت الذي كان نور الدين محمود قد عقد معهم هدنة عدم اعتداء ، فراسلهم في اعادة ما أخذوه فغالطوه ، فجمعت العساكر من الشام والموصل والجزيرة وبث سراياه في مناطق الصليبيين لاستقصاء اخبارهم ثم اتجه لمحاصرة حصن عرقة فدمره وارسل طائفة من العسكر الى حصني صافيثا وعريمة فأخذهما بالقوة ودمرهما ، وقد وصلت عساكره بالقرب من طرابلس وهي تدمر مواقع الصليبيين ، وكذلك فعلوا بالنسبة الى مناطق انطاكية ، فلم يكن من الصليبيين الا ان استجابوا لنور الدين محمود « وبذلوا اعادة ما اخذوه من المركبين » وطلبوا منه تجديد الهدنة فأجابهم الى ذلك(١).

واستمر نور الدين محمود ، يقارع الصليبيين ويتصدى لهم تجنباً للاصطدام بالامراء المسلمين الا حين تقتضي الضرورة ، اما للاستعانة بهم على قتال الصليبيين او مخافة ان يحتل الصليبيون ديارهم « كما فعل بدمشق ومصر وغيرهما(٢) » . ففي سنة ٥٦٧ هـ / ١١٧١ م مثلاً قصدت عساكر نور الدين محمود الولايات التي استحوذ عليها الامير عز الدين قلج ارسلان بن مسعود السلجوقي بعد انتزاعها من ذي النون بن دانشمند امير ملطية وسيواس وطرده ، حيث التجأ الاخير الى نور الدين محمود مستنجداً به . وكان عز الدين قلج ارسلان يرفض دعوة نور الدين محمود الى التوحيد لمقاومة الصليبيين وصدهم في بلاد الشام واطماعهم في مصر واسيا الصغرى . وتقدمت جيوش صاحب دمشق تحتل الحصون والمواقع بعد ان راسل عز

(٢) ابن الاثير ، الباهر : ١٤٤ .

(٣) ن . م : ١٤٥ ــ ١٤٦ .

(١) ابن الاثير ، الباهر : ١٥٤ ــ ١٥٥ .

(٢) ن . م : ١٦٠ .

الدين قلج ارسلان وشفع اليه في اعادة ما غلب عليه من بلاد ذي النون دانشمند فلم يجبه الى ذلك . وبدأت عساكر الشام فأحتلت حصني بهسنا ومرعش وما بينهما من الحصون الصغيرة ثم سارت فرق من الجيش الى سيواس فأحتلتها . فلم يلبث عز الدين قلج ارسلان ان راسل نور الدين محمود يستعطفه ويسأله الصلح والصفح عنه . فتوقف الجيش عن التقدم واجابه الى الصلح(٣).

ويبدو ان عز الدين قلج ارسلان طلب من الصليبيين تهديد نور الدين محمود . فما لبثوا ان نزلوا على حمص . ولذلك فان الشروط التي اشترطها نور الدين محمود على عز الدين قلج ارسلان لوقف الزحف على بلاده احدها هو ان ينجده بعساكره لمقاتلة الصليبيين . واما يجاهد نفسه فأنه قد ملك طرفاً كبيراً من بلاد الاسلام . والثاني اذا طلب نور الدين محمود عسكره لمجاهدة الروم . فبذل الوسع في جهادهم(١) . فانهم رأس الحظر على بلاد الشام الاسلامية من اسيا الصغرى بسبب تحالفهم مع الصليبيين .

الاستعدادات العسكرية

تبدأ مسألة استعدادات المسلمين العسكرية . لمواجهة الصليبيين في محاولات آق سنقر البرسقي امير الموصل بتحشيد وتعبئة الجيش الاسلامية في شمال بلاد الشام بايعاز من الخلافة العباسية والسلطان السلجوقي وبالتحديد منذ سنة ٥١٩ هـ / ١١٢٥ م . حيث استطاع صاحب الموصل ان يتصل بامراء دمشق وحمص وشيزر ويطلعهم على خططه العسكرية في الهجوم على مواقع الصليبيين . وقد حالفه الامراء وايدوه في مسعاه واستعدوا لمواجهة الدخلاء . وسلم بعض هؤلاء الامراء للبرسقي الرهائن من الجند الصليبيين الذي كانوا قد وقعوا في اسرهم . ورحل الجيش المؤلف من القوات الاسلامية المتحالفة . فهاجم حصن كفر طاب الذي كان بحوزة الصليبيين فما كان من الصليبيين الا ان تنبهوا للخطر . فاتحدت جيوشهم من ممالكهم الثلاث . انطاكية . طرابلس . والرها . وتنادوا لانقاذ زردنا التي كان المسلمون قد حاصروها ايضاً . وفي منطقة عزاز . دارت معركة بين الجيش الاسلامي والصليبيين . كانت

---

(٣) ن م

(٤) سبط ابن الجوزي . مراة الزمان ، ٨ / ٢٩٤

(١) ابن الاثير . المصدر نفسه ٦٠ ــ ٦١

تعد من اشد المعارك عنفاً وسفكاً للدماء في تاريخ الحروب الصليبية(١). وقد تفوق فيها المسلمون قوةً وعدداً مما اجبر الصليبيين على التراجع .

واستمرت الاستعدادت العسكرية للمسلمين . فنقرأ عن استعداد بوري ابن ظهير الدين الاتابكي حاكم دمشق بالجيوش النظامية والمرتزقة وتزويدهم بالسلاح ، وتقدمه بجيشه حتى صار قبالة جيش الصليبيين . وبعد بضعة ايام انقض فرسان المسلمين على الصليبيين ، فقتلوا معظمهم ولاذ الباقي بالفرار .

وفي هذه الفترة ، كان الفاطميون في مصر من القوى الاسلامية المهمة التي كانت تقف ضد الصليبيين في الشرق . وفي وسعها ان تحشد في ساحة القتال جيوشاً ضخمة . وكان في وسعها ان تستأجر من تشاء من الجنود المرتزقة(٢) يضاف الى ذلك ، ان مصر دون غيرها من الدول الاسلامية حازت على بحرية بالغة الاهمية .

ويبدو أن استيلاء الصليبيين على بيت المقدس وما احرزوه من انتصارات في عسقلان على الجيش المصري ، أضر بمكانة الفاطمين ، مما جعل بوسعهم ان يعوضوا خسارتهم في الجيش . ولذلك ظل الاسطول المصري على اتصال وثيق بالمدن الاسلامية الواقعة على الساحل وعلى استعداد دائم لشن هجمات انتقامية ضد الصليبيين . وفي ٥١٦ هـ / ١١٢٢ م . ارسل الخليفة الفاطمي الامر بالله ، اسطولاً بحرياً ليزيد من قوة مدينة صور الاسلامية وقوة دفاعها ويجعلها على أهبة الاستعداد لرد أي هجوم يقوم به الصليبيون ، وقد وجه قائد الاسطول دعوة الى الأمير مسعود والى مدينة صور ليتفقد السفن(١). وعندما وصل الصليبيون الى مدينة صور كان طغتكين والأمير مسعود على أتم الاستعداد لمواجهتهم ، حيث زودهم الفاطميون ، اضافة الى جيشهم ، بسبعمائة من الجند ومقادير وافرة من المؤن . وحاصر الصليبيون المدينة عدة أشهر ، واستبسل المسلمون في الدفاع عنها ، فلم تنفع محاولات الصليبيين في التسلل الى داخلها وحاول الجيش المصري ، أن يصرف الصليبيين عن صور وذلك بمهاجمة بيت المقدس حتى أرباض المدينة المقدسة . وكان طغتكين ينتظر ورود اسطول مصري آخر للقيام بهجوم مشترك على معسكر الصليبيين ، ويبدو أن هذا الاسطول كان معداً لانجاد القوة البرية الاسلامية وليتحقق الاتصال معها ، حيث كان الصليبيون يخشون اتصال القوتين البرية والبحرية(٢)

---

(١) رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية : ٢٧٦

(٢) انظر ، المرجع السابق : ـ ٢٩ .

أما في عهد عماد الدين زنكي ، فقد اتخذت الاستعدادات العسكرية طابعاً يقوم على تفهم دقيق يستند الى تقدير مدى قوة الاعداء وحشد القوى البشرية والمادية لمجابهتها ومعرفة سلوك الطرق والثغرات الذعر والهلع في عساكرهم ، بتجنيد عملاء للمخابرات والمرشدين والادلاء ، وبث اليأس في قلوبهم . ففي ٥٢٤ هـ / ١١٢٩ م أشار ابن القلانسي الى أن عماد الدين زنكي كان يبذل محاولاته ليكون على استعداد دائم سياسياً وعسكرياً لمواجهة الخطر الصليبي ، فيذكر أنه وصل بعساكره الى حلب عازماً على الجهاد وأرسل الى بوري بن ظهير الدين صاحب دمشق ، يطلب منه المعونة وأن يكون في حالة تأهب على محاربة الصليبيين ، وقد جرد الأخير عسكراً في خمسمائة فارس وكتب الى ولده بهاء الدين سونج بحما يأمره بالاستعداد ـ والالتحاق بالجيش الاسلامي . وقد تكون جيش مشترك مقدمة الأمير شمس الامراء واشترك فيه عدد من الامراء والمقدمين والتقى الجميع بعماد الدين زنكي ، فأحسن لقاءهم وبالغ في الاكرام لهم وزحف نحو حمص(١).

وبهذه السياسة استطاع عماد الدين زنكي أن يوفر القيادة الحاذقة والمحاربين الشجعان ، للقيام بشن مايطلق عليه اليوم حروب المقاومة والعصابات ، وأن يجعل من حلب مركزاً لهم نظراً لاهمية موقعها بالنسبة للحصون الصليبية والاسلامية على السواء فهي تتوسط امارتي انطاكية والرها ـ الصليبيتين ، وتسيطر على خطوط المواصلات بينهما ، كما انها تعد خير قاعدة عسكرية لتوجيه الهجمات السريعة ضد مواقع وتحركات الصليبيين وقوافل امدادهم وتموينهم(٢). ان اجراءات عماد الدين زنكي هذه ، جعلته وخلفاؤه في المنطقة في حالة استعداد لرد أي اعتداء من الصليبيين على الامارات والمدن الاسلامية .

ويمكن القول ان عماد الدين زنكي أصبح بطلاً للمسلمين في منازلة الصليبيين حيث لم يشأ أن يقاتلهم أو أن يلتقي بعساكرهم ، الا بعد أن يتم استعداده . ويبدو أن من الأهمية البالغة في هذا الاستعداد ، توطيد مركزه في بلاد الشام . فلم تنته سنة ٥٢٥ هـ / ١١٣٠ م حتى امتد نفوذه المطلق حتى جنوب حمص وبادر أميرا شيزر وحمص الى الاعتراف بسيادته . وكان استعداد عماد الدين زنكي يقتضي منه البقاء باستمرار في بلاد الشام واستنفاذ قواه في قتال اعدائه . ولكي يبقى على استعداده وتأهبه هذا في فترات غيابه عن الشام ، فقد ادرك ، أهمية الاستفادة من تطبيق قاعدة « الغارات الهجومية » أي الهجوم والانسحاب السريع فادخلها في جيشه .

وتدلنا المعلومات التي جاءت عن ابن القلانسي سنة ٥٤٠ هـ / ١١٤٥ م على مدى الحذر والاهتمام الى التأهب والاستعداد الذي كان عليه عماد الدين زنكي لمراقبة تحركات الصليبيين « تناحرت الانباء من ناحية الأمير ـ عماد الدين الاتابك بصرف الاهتمام الى التأهب والاستعداد والجمع والاحتشاد لقصد الغزو والجهاد وشاعت عنه الانباء ، بأنه ربما قصد الاعمال الدمشقية والنزول عليها ، ولم تزل اخباره بذلك متصلة وما هو عليه بالاستكثار من عمل المناجيق وآلة الحرب وما يحتاج اليه لتذليل كل صعب ... ثم اعيدت المناجيق الى ناحية حمص من بعلبك وقيل أن الخبر وافاه من جهة الرها بان جماعة من الأرمن عملوا عليها وأرادوا الايقاع بمن فيها من مستحفظيها »(١).

كما أثبتت الاحداث ان السياسة التي انتهجها نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي في الاستعداد لمحاربة الصليبيين وخاصةً في امارة انطاكية حيث اختصها بهجماته سنة ٥٤٢ هـ ـ ٥٤٣ هـ / ١١٤٧ ـ ١١٤٨ م وسلبها معظم املاكها تقريباً في شرقي نهر العاصي ، كانت سياسته تعني الاستمرار فيما كان عليه عماد الدين زنكي من تأهب دائم ضد الوجود الصليبي

وقد استمر نور الدين على سياسة أبيه من التيقظ والتأهب لمقاومة الحشود الصليبية والبيزنطية التي كانت تستهدف مدينة حلب وذلك بعد زيارة الامبراطور مانميل كومنين الى انطاكية لغرض تأكيد سيادته على انطاكية من جهة ولاظهار قوته أمام المسلمين من جهة اخرى وقد ذكر ابن القلانسي ان « الاخبار تناحرت من ناحية القسطنطينية ببروز ملك الروم منها في العدد الكثير والجم الغفير لقصد الايمال والمعاقل الاسلامية ووصوله الى مروج الديباج وتخييمه فيها وبث سراياه للاغارة على الاعمال الانطاكية وما والاها . ولما عرف الملك العادل نور الدين هذا شرع في مكاتبة ولاة الاعمال والمعاقل باعلامهم ماحدث من الرزم ويحثهم على استعمال التيقظ والتأهب للجهاد فيهم والاستعداد للنكاية بمن يظفر منهم »(١).

كما يظهر استعداد نور الدين محمود العسكري في قمع تعديات ريجنالد شاتيون أمير انطاكية الصليبي الذي دفعه طمعه في السلب والنهب الى الاغارة على مناطق المراعي في الجزيرة سنة ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م ، غير أنه وقع عند عودته وهو يحمل اسلابه من الاغنام والمواشي والخيول والغلات في أسر مجد الدين أبو بكر بن الداية نائب نور الدين محمود في حلب ، حيث بقي شاتيون حبيساً لمدة ستة عشر سنة(٢).

ثم أن المعاهدات والاتفاقيات التي كان يعقدها نور الدين محمود مع الصليبيين والتي كانت تؤدي الى هدنة مؤقتة بين الطرفين . انما كان يستهدف منها الانصراف للتعبئة العسكرية والاستعداد لخوض المعارك معهم في المستقبل لغرض طردهم عن ديار المسلمين . ففي ٥٤٥ هـ / ١١٥٠ م طلب البطريك الذي تولى أمر الدفاع عن مدينة انطاكية أثر مقتل أميرها ريموند من نور الدين محمود هدنة قصيرة الأمد ، بعد أن وعده بأنه سوف يسلم نفسه و انطاكية اذا لم يصل الى نجدته بلدوين ملك بيت المقدس ، ولقي هذا الطلب استجابة من نور الدين محمود نظراً لعدم استعداده التام لمحاولة فرض الحصار على انطاكية في ظروفه الحالية . بينما كان بوسعه في تلك الاثناء أن يستولي على أفامية آخر معقل لانطاكية بوادي نهر الاورنت ، على أن قدوم بلدوين بجيش صغير حمل نور الدين محمود على أن يقبل امتداد اجل الهدنة ، لكيما يستعد لانزال ضربته النهائية بصليبي انطاكية وبيت المقدس معاً(٣).

وفي ٥٥١ هـ / ١١٥٦ م جدد نور الدين محمود الهدنة المعقودة مع مملكة بين المقدس الصليبية لمدة سنتين اخريين ، حتى أنه دفع بموجبها الى الصليبيين ثمانية آلاف ديناراً استمراراً لما كان يؤديه مجير الدين أبق ، وذكر ابن القلانسي بهذا الصدد قائلاً « وفي شوال تقررت الموادعة والمهادنة بينه وبين ملك الافرنج ، وان المقاطعة المحمولة اليهم من دمشق ثمانية الاف دينار صورية وكتبت المواصفة بذلك بعد تأكيدها بالامان بالمواثيق المشددة »(٤) وقد تأكد ان هذه الهدنة خدمت نور الدين محمود ، حيث هيأت له من القوة مايكفيه لردع الصليبيين حين نقضوا نصوص الهدنة سنة ٥٥٢ هـ / ١١٥٧ م باقدامهم على نهب قطعان الاغنام والخيول والمواشي التي كانت تنتجع من المراعي القريبة من بانياس(١).

أما الهدنة التي أقرها نور الدين محمود مع الامبراطور البيزنطي مانويل كومنين سنة ٥٥٤ هـ / ١١٥٩ م والتي كانت تقضي بتأجيل حملته على بلاد الشام لمساعدة حلفائه من الصليبيين ، فانها ازالت العراقيل امام نور الدين محمود لبناء عساكره وتكثيرها ، كما انها اغاضت القوى الصليبية واعتبرتها خيانة سافرة أقدم عليها الامبراطور(٢) ويذهب الاستاذ رنسيمان الى أن هذه الهدنة كانت من الاخطاء السيكلوجية ، اذ أن الصليبيين لم يكونوا مستعدين لقبوله قائداً لهم الا لفترة

---

(٣) رنسيمان . تاريخ الحروب الصليبية : ٢ / ٥٢٩ .

(٤) ذيل تاريخ دمشق : ٣٣٦ .

(١) رنسيمان . المصدر نفسه : ٥٥٢

(٢) ن . م : ٥٧٣

قصيرة . غير أنه دلّ على بصيرة نافذة وعلى أنه اكثر اهتماماً بمصير امبراطوريته لا بمصيرهم(٣).

كما أن المعاهدات التي سعى اليها نور الدين محمود مع الامراء المسلمين ساعدته هي الاخرى على تعبئة قواته وتنظيمها وجعلها على أهبة الاستعداد . ولكي يتم استيلاؤه على دمشق لاتخاذها منطلقاً للهجوم على المواقع الصليبية حاول استمالة حكامها الى جانبه وكسب ودهم ، وبدأت سفاراته تتردد بين حلب ودمشق حتى انتهى الأمر باتفاقية صلح بين نور الدين محمود ومعين الدين انر حاكم دمشق ، عقدت في دمشق سنة ٥٤٢ هـ / ١١٤٧ م . وقد أثمرت سياسة نور الدين محمود فسرعان ماتفككت عرى التحالف بين معين الدين انر والصليبيين حول مسألة حوران التي راح الصليبيون يحاولون الاستحواذ عليها وانتزاعها من معين الدين انر .

وعندما اخذ نور الدين محمود يوجه جهوده ضد امارة انطاكية الصليبية طلب المعونة من معين الدين انر فامده بقوة من فرسانه(٤) ، وذلك بموجب المعاهدة المعقودة بين الطرفين وكان لهذه المعونة اثرها الواضح في دحر الجيش الصليبي ، مما يقدم صورة واضحة عن السياسة التي وضعها نور الدين محمود بالاستعداد لمواجهة الصليبيين .

وتبدو استعدادات نور الدين محمود العسكرية واضحة عندما تحالف مع سلاجقة الروم ومع الاراتقة ، حيث تم استيلاء نور الدين محمود على الراوندان وتل باشر وهي من المواقع الصليبية التابعة لامارة الرها ، واتخذها مراكز لشن الهجوم على تحركات الصليبيين في المنطقة(١).

أما في ٥٤٦ هـ / ١١٥١ م فقد انصرف نور الدين محمود الى عقد تحالف مع مجير الدين ابن صاحب دمشق « وترددت المراسلات الى أن استقرت الحال على قبول الشروط المقترحة ووقعت الايمان من الجهتين على ذلك والرضا به »(٢). وقد ورد في الرسالة التي بعث بها نور الدين محمود الى مجير الدين ابق مايشير الى الاقتدار لديه على نصرة المسلمين وجهاد المشركين وكثرة المال والرجال(٣) « كما استماله وواصله بالهدايا وأظهر له المودة حتى وثق اليه »(٤). ان هذا التكتيك الذي عمد

---

(٣) ن . د . ٥٧٤

(٤) ابن القلانسي . ذيل تاريخ دمشق : ٣٠٤ .

(١) د . سعيد عبد الفتاح عاشور . الحركة الصليبية : ٢ / ٦٢٧ .

(٢) ابن القلانسي . المصدر نفسه : ٣١٦ . رنسيمان . تأريخ الحروب الصليبية : ٢ / ٥٤٢ .

(٣) Stevenson, The Grusaders, In the East, P. 166

(٤) ابن الأثير . التأريخ الباهر : ١٠٧ .

اليه نور الدين محمود هيأ له الفرصة المناسبة للدخول الى دمشق حيث اتخذها معقلا له وخطوة على طريق وحدة الدول الاسلامية .

ان احتفاظ نور الدين محمود بجيش على أهبة الاستعداد في المنطقة جعل الصليبيين يكفون عن هجماتهم واعتداءاتهم على المدن والامارات الاسلامية ويبدو أن هذه الجيوش كانت معززة بالسلاح والمؤن . ففي ٥٤٣ هـ / ١١٤٨ م كانت القوات النظامية لجيش نور الدين محمود تقدر بـ (٦٠٠٠) فارس سوى الاتباع والسواد(٥) .

ولعل من المفيد الاشارة الى تقدير حجم عساكر نور الدين محمود اثناء حملة شيركوه الثالثة على مصر ، حيث اعطاه هبة بقيمة (٢٠٠,٠٠٠) دينار عدا الاسلحة والثياب والدواب وسمح له بانتقاء الفي فارس من عسكره النظامي ، فأستأجر شيركوه بالمبلغ ستة الاف فارس من فرسان التركمان . فأصبح العدد (٨٠٠٠) فارس أضيف اليها عساكر شيركوه العاملون في خدمته والبالغ عددهم (٥٠٠) فارس مملوك وكردي ، وربما انضم الى هؤلاء عدد غير محدود من الاجناد الاضافيين(١) وقد استخدم نور الدين محمود فرسان التركمان الاضافيين في جيشه ويحتمل أنهم كانوا من قبيلة « الياروقي » بالاضافة الى الاكراد والعرب ، كما أنشأ شيركوه قائد نور الدين محمود فرقة الاسدية وهي من فرسان الاكراد . وبذلك يمكن تقدير العدد الاجمالي لهذه القوات التي استخدمت لفتح مصر ومن ثم الاحتفاظ بجزء كبير منها في الأقل لغرض التصدي للصليبيين في بلاد الشام (١٤٥٠٠) فارس ورجل يضاف اليها (١٠٠٠) من الجند الاضافيين على أقل تقدير .

وحرص نور الدين محمود أن يكون جنده في حالة استعداد وتأهب للحرب فكان يحفظ لهم أملاكهم واعطياتهم وارزاقهم « فكان ذلك سبباً عظيماً من الاسباب الموجبة للصبر في المشاهد والحروب » ويثبت اسماء الجند « كل أمير في ديوانه ، وسلاحهم خوفاً من حرص بعض الامراء وشحة أن يحمله على أن يقتصر على بعض ماهو مقرر عليه من العدد » وكان يقول « نحن كل وقت في النفير »(٢) « فاذا لم يكن اجناد كافة الامراء كاملي العدد والعدد دخل الوهن على الاسلام »(٣)

كما يدخل في نطاق استعداداته العسكرية بناء أسوار المدن وتحصينها فأقام أسواراً لمدن الشام جميعها وقلاعها ، ومنها حلب وحماه وحمص ودمشق وبارين وشيزر ومنبج ، وغيرها من القلاع والحصون وحصنها وأحكم بناءها وصرف عليها من

---

(٥) ابو شامة، كتاب الروضتين : ١ ق ١ / ٢٠ .

(١) جب ، صلاح الدين الأيوبي ، ١٥٤ ـ ١٥٥ .

(٢) ابو شامة ، كتاب الروضتين : ١ / ٢٠ .

(٣) ابن الأثير ، التأريخ الباهر ، ١٦٩ ، ابو شامة كتاب ، الروضتين : ١ / ق ١ / ٢٠ .

« مالا تسمح به النفوس »(٤) كما بنى الابراج على الطرق بين المسلمين والصليبيين وجعل فيها من يحفظها « فاذا رأوا من العدو أحداً أرسلوا الطيور الهوادي فأخذ الناس حذرهم واحتاطوا لانفسهم فلم يبلغ العدو منهم غرضاً . وكان هذا من الطف الفكر واكثره نفعاً »(٥).

وقد ظهرت كفاية نور الدين محمود ومقدرته وخطره على الصليبيين . عندما أبطل القطائع التي كان يقدمها حكام المسلمين للصليبيين تجنباً وخوفاً . والغى مراسيمها ومنعها وكذلك عندما استولى على حمص سنة ٥٤٤ هـ / ١١٤٩ م . وهذا ماجعله في حالة استعداد لمجابهة الصليبيين ورد عدوانهم على بلاد المسلمين . كما أتاح له تهديدهم في منطقة الشام والجزيرة . وكان يدرك بان الوقوف ضدهم يتطلب منه حشد القوى وتعبئتها والتهيؤ واستغلال الفرص والاضطرابات التي كانت تسود امارة انطاكية أو غيرها من المواقع الصليبية .

ولعل من المفيد أن نذكر هنا . ان استيلاء نور الدين محمود على دمشق كان نقطة تحول خطيرة في تأريخ الحروب الصليبية . نظراً لما ترتب على هذه الخطوة من وحدة بلاد الشام الاسلامية تحت زعامته . فمن الرها شمالاً حتى حوران جنوباً امتدت دولة اسلامية واحدة مركزها دمشق على نهر بردى . كما حقق نوعاً من التوازن بين المسلمين والصليبيين في بلاد الشام(١) . وأعطى لهذا القائد الاسلامي زمام المبادرة والاستعداد لحشد القوى ومنازلة الصليبيين والحيلولة دون توسيع نفوذهم ومنع جيوشهم من التسلل الى المناطق الاسلامية الاخرى .

الاهتمام بالجيش :

كان تنظيم الجيوش الاسلامية(٢) في الشرق الادنى خلال القرن السادس الهجري . يقوم على أساس القاعدة العسكرية بتأليف نواة قواتها من سلك المحاربين والحراس الذين يتلقون الرواتب (الجامكيات)(٣) وكانت غالبية هذا السلك من العبيد الذين تم توفيرهم عن طريق الشراء أو الجباية كجزية أو ممن يتوارثهم الأمير

---

(٤) ابن الأثير . المصدر نفسه : ١٧٠ . ابو شامة . المصدر نفسه : ٢٠ .

(٥) ن . م : ٧٤ .

(١) د . سعيد عبد الفتاح عاشور . الحركة الصليبية ٢ / ٦٤٦ .

(٢) كان الجيش الاسلامي قبل بداية القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي . هو مجموع المقاتلة الذين يدرجون في سجلات القبائل العربية . ويتلقون العطاء من بيت المال ويطلب منهم ان يكونوا على اهبة الاستعداد للحملات العسكرية .

(٣) يطلق على الرواتب التي كانت تعطى للجند . وهي المبالغ النقدية القلقشندي صبح الاعشى ٣ / ٤٥٧ . انظر ايضاً . محمد مصطفى زيادة . حاشية كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي ١ / ٥٢ . حاشية رقم (٢)

الحاكم . لقد شكل هؤلاء الحراس جيشاً دائماً . وكانت تكاليفه عبئاً على الثروات وواردات الدولة في المقام الاول وغالبيتهم من أتراك اسيا الوسطى من اوربا الشرقية وجورجيا (بلاد الكرج) وكانوا جميعاً من الفرسان الراكبين والماهرين في اطلاق القوس من على صهوات الخيل . وقد سمي هذا الجيش الدائم من الحراس الراكبين بـ « العسكر) .

وقد تميزت كل رتبة من الرتب في العسكر . فقائد الفوج يلقب « بالامير » وكبير الضباط او القائد الاعلى كان يدعى بـ « الحاجب » وخصص لكل امير من الامراء المحليين في الدولة الاسلامية . مبالغ ضخمة لصيانة قواته الخاصة . وانيطت به مهمة الدفاع عن المنطقة التي يحكمها وانماء وتطوير جيشه ولذلك فان حجم العساكر كان يتناسب مع قوة هذا الامير وموارده .

لاتتحدث المصادر الاولية عن حجم عساكر المسلمين عموماً في فترة الحروب الصليبية وخاصة خلال الغزوة الصليبية الاولى . ولكن على مايبدو . ان قوات امراء دمشق . وهما رضوان ودقاق لايمكن ان تتجاوز بضعة الاف لكل واحد منهما . وكذلك بالنسبة الى امراء شيزر حيث احتفظوا بجيش قوامه حوالي اربعة او خمسة الاف مقاتل . غير ان الاتابكة في بلاد الجزيرة وخاصة في الموصل وحران والاراتقة في نصيبين وحصن كيفا وماردين . كانوا يملكون جيوشاً . دائماً اقوى بكثير من جيوش بلاد الشام . ومما لاريب فيه ان الدور البارز الذي لعبه هؤلاء في التاريخ اللاحق للحروب الصليبية كان مرده الى هذه الحقيقة بمقدار كبير(١).

وتتعزز الجيوش الاسلامية بمجموعات من المرتزقة الى جانب النواة التي تتشكل من قوات دائمة . واغلب هؤلاء المرتزقة . افواج من الديلم . وهم سكان المناطق الجبلية الواقعة الى الجنوب الغربي من بحر قزوين . كما خدم الارمن في عسكر دمشق ومصر . كذلك نسمع في دمشق عن احرار انخرطوا في سلك العسكر . وتلقوا على غرار الجنود النظاميين . ديواناً او معاشاً معيناً من رئيس يتعهد الايراد . كما جرى تعزيز عساكر الامراء برجال قبائل التركمان . ويرد ذكرهم على العموم . كعسكر . فالجيش السلجوقي الدائم في عهد ملكشاه بلغ تعداده (٤٠٠,٠٠٠) رجل وهذا الرقم . يضم الحرس الكبير الذي يبلغ حوالي (٤٦,٠٠٠) رجل . بالاضافة الى التركمان من الخاضعين لامرته وكذلك قدم رجال القبائل الاكراد قواتاً اضافية من الفرسان . وانخرطت علاوة على ذلك اعداد كبيرة من الاكراد في العساكر النظامية .

---

(١) جب . صلاح الدين الايوبي : ٦٣ .

وترد في اخبار الحروب الصليبية وفيما يتعلق بالقتال الناشب بين امراء دمشق والصليبيين ، ان العساكر كانت تشن القتال مع عدد معين من الاتباع الملحقين ولكن كان يجري في مناسبات اكثر اهمية استدعاء خط ثان من القوات . وقد اطلق على هذه القوات اسم « الجند » وجمعها « اجناد »(١) وهي نفس التسمية التي اطلقت في السابق على المقاتلة العرب الذين كانوا يمثلون الجيش في العصر الاسلامي الاول .

واستمر هذا النظام قائماً في بلاد الشام والجزيرة حتى وقت متأخر بفضل استمرار التنظيمات القبلية العربية وبسبب الصراع المتواصل مع الامبراطورية البيزنطية . غير انه من الخطأ على الارجح ، اعتبار اجناد القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي مطابق لاجناد المسلمين الاوائل . وهناك قوات اقليمية احتلت مكانها في جيوش بلاد الشام على نسق الاجناد . مقابل العساكر . وتتألف هذه القوات من مختلف القبائل العربية المحلية ، فضلًا عن الوافدين عليهم من المناطق الاخرى والى عدد معين من الاكراد . ان اجناد دمشق والمدن السورية الاخرى كانت مؤلفة من هذه العناصر ، لان نظام العسكر ، ادى ايضاً الى تشكيل قوة من رجال الاحتياط الاقليمي سميت كذلك بالاجناد والتي تألفت من الجند الذين لم يستنفروا بشكل دائم . وكانت هذه القوات الاحتياطية الاقليمية قائمة في اجناد بلاد الشام في بداية الحروب الصليبية .

وعلى العموم فالجيوش الاسلامية في هذه الفترة كانت تتألف من الاجناد الراكبين والعساكر والراجلة (المشاة) . والاجناد يحاربون بالرمح والسيف شأنهم شأن العساكر الذين كانوا من رماة السهام ايضاً . اما المشاة فهم عناصر مختلفة فمنهم القوات المجندة من المدن ومن رجال الارياف المكرهين على الخدمة ، والمتطوعون الساعون وراء المكافئات المادية والروحية للمشاركة في الحرب المقدسة (الجهاد) والتابعون الملحقون من كافة الاجناس والعناصر .

ويبدو ان الاهمية العسكرية للمشاة كانت ضئيلة عموماً ، فقد انحصر دورهم بوظائف فرعية مثل اقامة المنشآت والدفاعات العسكرية وعمليات تبييت الكمائن

---

(١) ولها معان ثلاث تستخدم بصيغة الجمع من جندي ومنهم الفرسان في القوات النظامية وتستعمل في صيغة اسم الجمع للدلالة على القوات العسكرية كلها في منطقة ما وكذلك هي القواب التي كانت تقاتل بالرمح والسيف .

ابن القلانس ، ذيل تاريخ دمشق ، ٣٦ – ٣٧ .

اثناء الحصار وحماية المعسكرات والمرابطة كحاميات في القلاع والحصون والمواقع العسكرية المؤقتة(١).

اما تموين الجيش بالميرة اثناء الحملات العسكرية . فكانت تقوم بها قافلة كبيرة خاصة للتموين محمولة على ظهور الجمال والبغال . وهناك نوع من تنظيم تزويد الجيش بالطعام والعلف كان موجوداً خلال هذه الفترة ويقضي بان تجمع كميات من الطعام والعلف في الاراضي القريبة من المناطق التي تجرى فيها العمليات العسكرية الفعلية وذلك احياناً قبل بدء المعركة او الاعتماد على جمع العلف دون تمييز من المناطق التي تجتازها الجيش وهو في طريقه نحو العدو . وفي فصل الشتاء يتعذر على الجيش الاسلامي حصوله على المؤن الكافية ويكون ذلك أحد الاسباب التي جعلت من النادر القيام بحملات خلال هذا الفصل . وحتى في الاوقات الاخرى من السنة . كانت الحملات تنحصر عادة بالهجمات السريعة التي لاتستغرق اكثر من شهرين او ثلاثة أشهر في كل مرة .

ومن الجدير بالاشارة الى ان الجيش الاسلامي عموماً اثبت كفاءة ومقدرة عاليتين في مقاتلة الصليبيين في مصر وبلاد الشام والجزيرة ، مم يدل على مدى الاهتمام به وبتعزيزه وجعله جديراً في مقارعة جيوش الغزاة الاقوياء .

ويوضح لنا النشاط العسكري الذي تميز به جيش عماد الدين زنكي في وقوفه ضد الخطر الصليبي ، المقدرة العسكرية والخطط السياسية البارعة . حيث استطاع بفضل ذلك من تأمين امارته وجعلها تستند الى قوة منظمة يمكن تسخيرها لتكوين جبهة اسلامية متحدة ولطرد الغزاة .

اما في عهد صلاح الدين الايوبي ـ الذي سنذكره في الباب القادم فأن الجيش الاسلامي ، كان مؤلفاً من افواج عديدة من الفرسان البيض وحوالي ٣٠٠٠٠ من المشاة السوادنيين . وقد بدأ هذا القائد الاسلامي ببناء جيشه الخاص فاستبعد السوادنيين واوجد قوات نظامية تكفي في صد الهجوم الصليبي على دمياط سنة ٥٦٥ هـ / ١١٦٩ م وفي الاغارة على غزة والاستيلاء اللاحق على ايلة(١). في السنة التالية .

ومن المفيد ان نورد بعض الارقام عن العساكر التي وضعت تحت قيادة صلاح الدين الايوبي وتوظيفها لمطاردة الصليبيين في بلاد الشام حتى ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م

---

(١) يأتي ذكر هؤلاء مقروناً بعمليات الحصار سواء كمدافعين او مهاجمين ويجري تصنيفهم . كصناع او تقنيين . وهناك ثلاث طوائف منهم : الحجارون وهم الذين اشغلوا المنجينقات والعرادات . والنقابيون الذين الذين ينقبون الحفر تحت الاسوار « زارعي الغام » والخراسانية الذين قاتلوا في الدبابات . ويرد كذلك ذكر « الجاندرية » الذين كانوا يقومون بعمليات الحصار (جب . صلاح الدين الايوبي : ١٧٥ ـ ١٧٦)

(١) جب . صلاح الدين الايوبي : ١٢٠ .

قاد هذا الاخير بنفسه كتيبة حرسه الخاص متجها بها صوب الجنوب للقيام بحملة بالاشتراك مع العسكر المصري . وذلك بعد ان ترك ابنه الافضل لكي يعمل على تجميع الاجناد الشماليين عند رأس الماء . وعلى أساس الارقام الواردة في مصادر صلاح الدين الايوبي (٢) تكون هذه القوات التي سار صلاح الدين الايوبي على رأسها قد بلغت (١٠٠٠) فارس يضاف اليهم (٤٠٠٠) من الاجناد الذين يؤلفون نصف الجيش المصري النظامي (حيث استبقى النصف الاخر في مصر) كما احتشدت جيوش الجزيرة وعساكر الشرقيين (عسكر الموصل وديار بكر وحلب ودمشق) وقد صارت هذه الجيوش مجتمعة بـ (٧٠٠٠) فارس . لذلك تكون القوة كلها قد بلغت (١٢٠٠٠) رجل من الفرسان . استعرضها صلاح الدين الايوبي عند عشتار قبل خروجه في الزحف الذي انتهى به الى حطين ولتوضيح ذلك بصورة اكثر دقة ، يمكن توزيع هذه القوات على النحو التالي : (١٠٠٠) من الحرس و (٤٠٠٠) من العسكر المصري و (١٠٠٠) من عسكر دمشق و (١٠٠٠) من عسكر حلب وشمال بلاد الشام و (١٠٠٠) جندي للحراسة و (٥٠٠٠) من الجزيرة والموصل وديار بكر .

لقد حرص صلاح الدين الايوبي ان تكون جيوشه مشتملة بالاضافة الى العساكر النظامية من رماة النبال الراكبين والراجلين . وتابع ممارسة استخدام عناصر التركمان كما كان يفعل نور الدين محمود صاحب دمشق ، وذلك قبل الهجوم النهائي على الحصن الواقع عند « مخاضة الاحزان » سنة ٥٧٥ هـ / ١١٧٩ م « فانه سير الى التركمان وقبائلها والى البلاد لجمع رجالها بضعة الاف من الموفودين ، تفرقوا في جموعهم وحشودهم ويطلق لهم فوائد وفودهم » ثم امر بتوزيع كميات كبيرة من الدقيق على التركمان وتزويدهم في سخاء بكل مايحتاجونه من الضروريات .

ومعروف ان التركمان من قبيلة الياروقي لعبوا دوراً بارزاً في الجيوش الاسلامية ، لانهم التحقوا في وقت كانت هذه الجيوش في امس الحاجة اليهم للوقوف ضد الخطر الصليبي المتعاظم . وكانت هجماتهم على خطوط تموين القوات الصليبية خلف القدس قد اسهمت الى حد كبير في انسحاب الصليبيين وتراجعهم .

كما كانت هناك بالطبع ، اعداد كبيرة من الاكراد الذين انخرطوا كاعضاء في سلك العساكر النظامية . وتسلموا الرواتب مثل المماليك الاتراك . ويصح لنا التأكيد ، بان الاكراد ، يمكن العثور عليهم في جميع الجيوش الاسلامية ابتداءاً من قوات نور الدين محمود وغيره من الامراء الزنكيين والارتقيين .

---

(٢) ابن الاثير ، الكامل في التاريخ : ١١ / ٢٠٦ . ابن شداد النوادر السلطانية : ٧٥ . أبو شامة ، الروضتين : ٢ / ٧٥ ــ ٧٦ . ابن واصل ، مفرج الكروب : ٢ / ١٨٧ .

ويوجد بجانب هؤلاء عدد وفير من الجنود الاكراد المغامرين والمرتزقة وخاصة اولئك الذين كانوا في خدمة الامراء الايوبيين ، سواء في بلاد الشام او مصر ، اضافة الى رجال القبائل الاكراد في جيش نور الدين الارتقي صاحب حصن كيفا . ويبدو ان بعض المجندين في جيش صلاح الدين الايوبي يقومون بدور عملاء التجنيد من اجل عملياته العسكرية المرتقبة في بلاد الشام .

ويلعب الخيالة العرب دوراً بارزاً في القوات النظامية لجيش صلاح الدين الايوبي . وفي مقدمتهم بني منقذ اصحاب شيزر . كما يرد ذكر القبائل العربية في الشام ومصر في هذه القوات . فقد انخرط منهم (١٣٠٠) رجل من بني جذام في صفوف الجيش

وكان الفضل يذكر لعرب الشام في انهم زودوا الامراء المسلمين بقوات اضافية للاغارة على الصليبيين ، وقد استخدموها بشكل فعال في عدة مناسبات وابرزها العمليات العسكرية التي اجراها سنة ٥٧٤ هـ / ١١٧٩ م وفي اثناء الحروب النهائية الحاسمة ضد الصليبيين ايام الحرب الصليبية الثالثة بقيادة (ريكاردوس) الملقب بقلب الاسد على طريق القدس وقد اسهمت القبائل العربية هذه بتقديمها الخيالة والعساكر الكثيرة المستمرة للاغارة على الصليبيين[١].

واخيراً يمكن القول ، ان صلاح الدين الايوبي ، امكنه حل مشكلة الابقاء على جيش في ميدان المعارك بصورة متواصلة لمدة ثلاث سنوات ، ضد عدو نشيط ومغامر ، حيث لم يسبق لامير من امراء المسلمين تصديه لهذه المشكلة ، وذلك بفضل وعيه التام والمدرك لاهمية القوة المنظمة المتمثلة بجيش يمكن الاحتفاظ به على اهبة الاستعداد . وهذا الوعي يقترن بشكل دقيق باعتبار صلاح الدين الايوبي قائد عسكري ومخطط كما ستراه في الصفحات التالية .

المتطوعون « المطوعية »

وهم الجند الاضافيون في الجيش الاسلامي ، وخاصة في عهد صلاح الدين الايوبي والذين توافدوا من كل مكان للمشاركة في الجهاد . وعلى الرغم من قلة المعلومات الواردة عنهم والروايات التاريخية . فقد وردت بعض الاشارات المفيدة في هذا الصدد . حيث يسجل بعض المؤرخين حضورهم في المعارك التي جرت عند « مخاضة الاحزان سنة ٥٧٥ هـ / ١١٧٩ م اثناء الهجوم على قلعة كان الصليبيون يتحصنون فيها . ويقول بأن « بعض الغزاة المطوعية في الجهاد » كانوا

---

(١) المقريزي . السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ١ قسم ١ / ٦٧ .

(٢) انظر : ابن شداد . النوادر السلطانية ، ٢٠٣ ـ ٢١٤ ـ ٢١٥ .

هم الذين قاموا باشعال النار في العشب اليابس يوم معركة حطين(١). حيث عجلت بهزيمة الصليبيين المنكرة امام الجيوش الاسلامية ويسرت دخولها بيت المقدس واسقاطها للمملكة الصليبية .

ويبدو ان كثيراً من قبائل العرب والتركمان والاكراد كانوا يلتحقون بالجيش الاسلامي حباً في الجهاد او طمعاً في الغنيمة يمكن ان يكونوا بمثابة المتطوعين لمقاتلة الصليبيين . ومن بين العشائر الكردية التي ساهمت مع جيش المسلمين بقيادة صلاح الدين الايوبي واشتركت معه في حروبه ضد الصليبيين . القبائل الهنكارية والمهرانية والسهرانية والسودانية والحميدية والزرزارية . كما تشير المصادر الى ان هناك عدد وفير من الاكراد المغامرين والمرتزقة وعلى الاخص لدى الايوبيين – يهبون لنتطوع في الجيش حالماً تكون الظروف والاحوال مواتية لهم ثم لا يلبثون ان يعودوا الى قواعدهم .

ويشكل المتطوعون في الجيش الأسلامي احياناً خلال هذه الفترة . قوات احتياطية اقليمية . ولذلك يمكن الافتراض بأن بعض اجناد دمشق والمدن السورية الاخرى هم من المتطوعين المؤجلين على سبيل الاحتياط . لأن نظام العسكر هنا يؤدي بدوره الى تشكيل قوة من رجال الاحتياط الاقليمي دعيت بالاجناد ايضاً . ونقرأ مايشير وجود هذه القوة في جيش مصر خلال الحروب ـ الصليبية . ومن المحتمل جداً ان القبائل الرحل من العرب يحسبون من بين هذه القوات .

ومن جهة اخرى لا يمكن الجزم بأن المتطوعين الساعين وراء المكآفات الزمنية والروحية للمشاركة في الحرب المقدسة « الجهاد » هم من المشاة (الراكبين) بل احياناً نجد بينهم من رماة النبال الراكبين ومن حملة الرماح .

ويمثل بنو منقذ اصحاب شيزر وقبائل بني طيء . العرب المتطوعون الى جانب صلاح الدين الايوبي(٢). وترد اشارة الى فضل بدو الشام في تزويد صلاح الدين الايوبي بقوات اضافية للاغارة على الصليبيين . ومن المرجح جداً ان تكون هذه القوات هم من المتطوعة . الذين استخدمهم صلاح الدين الايوبي في العمليات العسكرية الموجهة ضد الغزاة . كما كان يسيرها الى بلد صيدا وبيروت لكي يقوموا بحصد غلات العدو وما كان يبرح مكانه في (بانياس) حتى يعودوا بجمالهم واحمالهم موثقة باثقالها(٣).

ويذكر ابن واصل سنة ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م « واقعة الغزاةو المطوعة حينما بدأ

(١) ابو شامة . الروضتين : ٢ / ١١

(٢) دريد سياسة صلاح الدين الايوبي : ٤٥٧

(٣) حب صلاح الدين الايوبي : ٨٧٣ .

صلاح الدين الايوبي ينتظر عودة الصليبيين لينتقم منهم ويأخذ بثأر من قتل المسلمين. ولما ركب هذا الاخير بجيشه «تبعه خلق عظيم من الرجالة والغزاة المطوعية والسوقة. وحرص على ردهم فلم يفعلوا»(٣) اي انه كان لهم الاختيار في الاشتراك في الحملة العسكرية. ونفهم مما ورد في بعض النصوص. ان الجيش السلجوقي كان يضم اعداداً من الاتراك والاكراد وقد اعوزتهم صفة الاستقرار التي كانت تتمتع بها القوات النظامية وانضباطيتها. ولا بد ان يكون هؤلاء يشكلون قواتاً اضافية واحتياطية له وانهم من المتطوعين على اقرب الاحتمال. لأنهم غالباً ما برهنوا عن كونهم حلفاء غير متقيدين في رسم العساكر النظامية.

توفير السلاح

وفي نطاق الاهتمام بالجيش وجعله على اهبة الاستعداد لمواجهة الصليبيين وضرب تجماتهم ومعاقلهم واستكمالاً للاستعدادات العسكرية. يجري تسليح الجيش النظامي واعداده وتزويده بالاعتدة المطلوبة. وعندما كانت الاوامر تصدر للعسكر بأن يستعدوا لحملة ما، تتم توزيع المعدات اللازمة على القوات ثم تعاد الاسلحة الى مخزنها لدى عودتهم. وان المخزون الاضافي من الاسلحة والدروع جري حمله في قوافل التموين، كما يقوم المشاة بتزويد انفسهم باسلحتهم مثل الاقواس والسيوف والخناجر او على الاقل بتلك السنابك التي تقسيها النار وتستعمل كجرائد او رماح(١).

ويحدثنا ابن القلانسي، انه في ٥٢٣ هـ / ١١٢٨ م عندما تحالف صليبيو طرابلس وانطاكية والساحل للاغارة على دمشق، تأهب الاتابك بوري ابن ظهير الدين صاحب دمشق لصدهم «وصرف همته الى الاستكثار من العدد والسلاح وآلة الحرب وما يحتاج اليه من الآلات لتذليل كل صعب. وكاتب امراء المسلمين على المال والغلال والسلاح(٢).

وفي ٥٤٠ هـ / ١١٤٥ م انصرف عماد الدين زنكي الى التأهب والاستعداد بقصد الجهاد. وما هو عليه بالاستكثار من عمل المناجيق وآلة الحرب وما يحتاج لتذليل كل صعب ممتنع واعيدت المناجيق الى ناحية حمص من بعلبك(٣).

---

(٣) رمدوران صلاح الدين الايوبي خاف عليهم ان يقعوا ضحية سهلة بيد الصليبيين ولكنهم هجموا وعبروا الجسر واوقعوا بالصليبيين في قتال شديد سسحو فيه استبسالا
(مفرج الكروب: ٢ / ٢٨٥.).

(١) جب. صلاح الدين الايوبي: ٦٦.

(٢) ذيل تاريخ دمشق: ٢٢٥.

(٣) ن. م: ٢٨٢.

كان الجيش النظامي ، قبل مواجهة العدو يقسم الى كتائب « اطلاب » عديدة تسمى « طلبخانات »(٤) يتراوح عدد افراد كل طلبخانة منها بين ٧٠ ـ ٢٠٠ رجل يقودها امير .

كما يجري توزيع الدروع(١) والاسلحة المخزونة في « زردخانة »(٢) على الجند ويزودون بعطاء ينفقونه في امور الحملة ، وكميات من المؤن والعلف (العليق) . اما المؤن الاضافية فيتم ابتياعها من التجار الذين كانوا يمارسون البيع والشراء عند قاعدة العمليات الحربية او الذين لحقوا بالحملة .

ويبدو ان الدروع ، لاتلبس الا متى كان هناك احتمال فوري لنشوب القتال ولذلك لايتمكن الفرسان من التحرك بعيداً عن اثقالهم خلال الحملة الفعلية والتي تضم دروعهم وميرتهم . غير انه احياناً ، كان الجيش يقوم بحملات قصيرة « جريدة » اي بدون اثقال(٣) . مما يجعل هذه القوات خفيفة وخاصة في معسكرات الشتاء .

وانتقلت خلال الحروب الصليبية ، بعض الخصائص المتنوعة من سلاح الصليبيين الى الجيش الاسلامي مثل اللفائف الواقية للسواعد والخوذات المتحركة وحماية الخيول مما تتعرض له اثناء المعركة . وربط قصبتين للرمح واطالة السيوف لكي تضع المقاتلين المسلمين في وضع موآت اثناء مقاتلة الصليبيين كما تبنى المسلمون الرمح الافرنجي الثقيل .

احتفظ المعنيون بالترتيبات العسكرية والتعبوية بمعظم الدروع والاسلحة حين لم تكن قيد الاستعمال في مستودع الحاكم (دار الصناعة) القائم داخل قلعته وتحت امرة واحد من ضباط عسكره الموثوق بهم الى اقصى درجة .

وعلى العموم فالاسلحة التي استعملها المسلمون في حروبهم مع الصليبيين يأتي

---

(٤) الطلبخانة . كتيبة من الجند تشترك فعلا بالحرب (انظر : ٩٣ هامش رقم ١) .

(١) تتالف الدروع التي يلبسها الفرسان المسلمون في العادة من سترة زردية تتدلى منها ـ تنورة ـ وخودة مستديرة . لها قناع . لكنها بدون جزء امامي متحرك لتغطية الوجه . كما تمنطقوا معها ترسا دائري خفيفا . اما رجال الخيالة ذوو الاسلحة الخفيفة . فقد ارتدوا جركينات جلدية (والجركينة هي السترة الطويلة الضيقة والتي ليس لها اكمام) او سترات مضربة ومحشوة (الكزاغند) بدلا من السترات الزردية .

انظر : جب صلاح الدين الايوبي ، ٦٥ ـ ٦٦ .

(٢) الزردخانة . اي خزانة الزرد او خزانة السلاح . وتعني احيانا نوعا من السجون يسجن فيه كبير الامراء او علية القوم .

ابن واصل . مفرج الكروب : ٢ ـ ٣٥٧ حاشية رقم ٤ و ٣ / ١٢٥ حاشية رقم ٢

(٣) غالبا ماتكون الاسلحة والدروع الثقيلة للفرسان

ضمنها الدبوس وهي آلة مصنوعة من الحديد ذات اضلاع ، ثم الرماح والسيوف والقوس والسهم والنشاب والدبابة (١) والكبش والقلعة المتحركة وهذه الآلات الثلاث الاخيرة استخدمت لنقل الجند والمعدات الحربية الى الاسوار ليعملوا على تحطيمها او احداث ثغرة فيها ، كما تحمي الجند من السهام والنيران التي يطلقها العدو . كما استعمل المقاتلون المسلمون النار العادية والاغريقية ورميها بآلة الجرخ (٢) . الجفاتي (٣) والنفاطات (٤) وتستروا بالباشورة (٥) ويشير ابن الاثير الى توفر السلاح لدى الجيش الاسلامي وهو يحارب الغزاة الصليبيين ويردهم عن دياره واورد قائلاً :

بجيش جاش بالفرسان حتى ظننا البر بحراً من سلاح (٦)

فقد استخدمت هذه الاسلحة ، فضلاً عن المنجنيقات التي استعملت كسلاح رئيس في حروب الاسوار وعمليات الحصار يضاف اليه ويوازره الكبش .

« حملة صلاح الدين على مصر والقضاء على الدولة الفاطمية »

حدثت في مصر ، في منتصف القرن السادس الهجري / الحادي عشر الميلادي ، من الظروف الصعبة مادفعت بنور الدين محمود زنكي الى ارسال قواته ثلاث مرات الى مصر لانقاذ الموقف ، خوفاً على البلاد من السقوط بيد الصليبيين ، ورغبة منه في تكوين جبهة واحدة متحدة بين مصر والشام وبلاد الجزيرة ، تستثمر طاقاتها ضد الغزاة الصليبيين الذين احتلوا بعضاً من مدن الشام .

---

(١) شبه برج ضخم متحرك ومرتفع يسحب على ست او ثماني عجلات ويتكون احياناً من طبقات اربع من خشب او حديد او رصاص وتتسع لعشرة رجال بداخلها حيث يستقر هؤلاء الجند لمهاجمة الحصون او تسلق الاسوار ولهم سلالم مستعرضة تنتهي الى شرفات تقابل شرفات الحصون ليتسلق المقاتلون اليها بواسطتها وابسط صورة للدبابة هي ان تكون من خشب مكسو بجلد قد نقع في الخل لصيانتها من الاحتراق

الاصفهاني . الفتح القسي في الفتح القدسي : ١٠٥ حاشية رقم ٤ .

(٢) وهي آلة حربية كانت ترمي السهام والنفط المشتعل والحجارة (ن . م : حاشية ٧)

(٣) السياج الساتر . او نوع من المتراس او الحاجز المعيق لتقدم العدو او الستر الذي يستتر وراءه الجنود الرماة اثناء القتال (ن . م : حاشية ١) .

(٤) جمع نفاطة . وهي اداة من النحاس يرمي فيها النفط (القاموس المحيط للفيروز ابادي) .

(٥) هي الحائط الظاهري من الحصن الذي يختفي وراءه الجند عند القتال

(الاصفهاني . المصدر نفسه : ١٠٦ حاشية ١ .)

(٦) التاريخ الباهر . ٦٠٠ .

فقد حدثت في مصر ست ازمات اقتصادية بحدود الثلاث والعشرين سنة التي سبقت سقوط الدولة الفاطمية وكانت تلك الازمات قاسية جداً ادى بعضها الى حدوث اوبئة ومجاعات كانت تفتك بالسكان ، كان بعضها متعلق بسوء النظام الاقتصادي وتلاعب الوزراء باموال الدولة ـ كما سوف يتضح فيما بعد ـ او بسبب عوامل طبيعية ذات صلة بنقصان مياه النيل او زيادته . وهذا كله يؤدي الى قلة الانتاج وظهور المجاعات والاوبئة التي كان يرافقها كثرة الاموات(١).

اضف الى ذلك المشكلات الداخلية ، والصراع بين الوزراء ، وضعف الخليفة الفاطمي . وقد دفع كل ذلك بالوزراء الى التلاعب بمقدرات الدولة ، والى التنافس فيما بينهم من اجل الوصول الى السلطة ، ولو ادى ذلك الى الاستعانة بالغزاة الصليبيين ، كما فعل الوزير ضرغام ، او الاستعانة بالزنكيين ، كما فعل الوزير شاور(٢) ، الذي راسل نور الدين وطلب منه معونة عسكرية ليتمكن بها من التصدي لخصمه الوزير ضرغام وللصليبيين الذين تقدموا نحو مصر ، غير انه سرعان مانكث بوعوده التي قطعها لنور الدين وتعاون مع الصليبيين سنة ٥٦٢ هـ / ١١٦٦ م الذين قدموا الى مصر وتصرفوا في البلاد(٣) ، حتى اضطر الخليفة الفاطمي (العاضد) الى الاستنجاد بنور الدين للحد من نفوذ الوزير شاور الذي « ظلم وسفك الدماء .... واعطى الفرنج الاموال واقطعهم الاقطاعات »(٤).

وهكذا ارسل نور الدين قائده اسد الدين شيركوه ، رافقه ابن اخيه صلاح الدين ، الى مصر على رأس الفي فارس لينقذ الموقف ، فالتقى مع القوات الصليبية والفاطمية ، التي كانت قد تعاضدت فيما بينها ، عند منطقة البابين ، وكانت النتيجة انتصار شيركوه وقد قدم صلاح الدين في هذه المعركة خدمة جليلة حيث كان يقود قلب الجيش ، وقد نجا اموري الصليبي من بين يديه باعجوبة من المعركة(١). وقد صرح المؤرخ ابو شامة تعظيماً لذلك الانتصار بقوله : « وكان هذا من اعجب ما يؤرخ ان الفي فارس تهزم عساكر مصر وفرنج الساحل »(٢).

---

(١) انظر : ابن القلانسي . ذيل تاريخ دمشق (بيروت : ١٩٠٨) ص ٢٧٦ ، ٣١٦ . المقريزي . الخطط : ١ / ٩٧ . امين سامي باشا . تقويم النيل (القاهرة : ٩٣٨) : ١ / ٢٨ .

(٢) انظر : عمارة اليمني . كتاب النكت العصرية في اخبار الوزارة المصرية (شالون : ١٨٩٧) ص ٦٧ ـ ٦٨ و ٧٣ ـ ٧٧ . تاريخ ابن الفرات (بصرة : ١٩٦٧) ، م ٤ : ١ / ٥٣ . علي بيومي . قيام الدولة الايوبية في مصر (القاهرة) : ١٩٥٢) ص ٥٣ ـ ٥٤ . دريد عبد القادر نوري . سياسة صلاح الدين (بغداد : ١٩٧٦) ص ٧٣ ـ ٧٤

(٣) ابن كثير . البداية والنهاية : ١٢ / ٢٥٢ .

(٤) سبط ابن الجوزي . مرآة الزمان . ق ١ : ٨ / ٢٦٨ .

(١) ابن الاثير . الكامل في التاريخ : ١١ / ١٤٦ ـ ١٤٧ .

(٢) الروضتين في اخبار الدولتين النورية والصلاحية : ١ / ١٤٣ .

وقد فرح اهالي الاسكندرية بهذا الانتصار واجبروا والي المدينة على تسليم الاسكندرية سلماً بيد شيركوه ، الذي سلم ولايتها لصلاح الدين ، وقد تمكن الاخير بفضل تعاون جمهور تلك المدينة معه من التصدي بحزم للهجوم الصليبي الفاطمي المعاكس الذي استهدف ، بعد تجميع قواه ، اعادة سيطرته على المدينة والقضاء على صلاح الدين ، غير انهم لم يفلحوا رغم شدة الحصار وقساوته الذي دام تسعين يوماً وقيل خمسة وسبعين يوماً(٣).

وبعد فشل الحصار السابق جنح لطلب الصلح كل من شاور والصليبيين ، فوافق عليه صلاح الدين نظراً لقلة الارزاق والمؤن ، وملاحظته شيئاً من الضعف على اهالي الاسكندرية نتيجة الحصار الشديد المضروب عليهم ، وقضى الاتفاق ان ينسحب الصليبيون من كل مصر ، وينسحب صلاح الدين بقواته الى الشام(٤) . غير ان الصليبيين لم ينسحبوا الا بعد ان اتفقوا سراً مع شاور بأن يكون لهم بالقاهرة شحنة او تكون ابوابها بيد فرسانهم ، ويكون لهم وارد مصر كل سنة مائة الف دينار(٥). والاتفاق الاخير فيه مخاطر كبيرة على مستقبل مصر وامنها الداخلي ، كان الخليفة الفاطمي على علم به ، ويقال انه وافق على المعاهدة مصافحة بالايدي ، ويبدو انه وقع تحت تأثير الوزير شاور ، ولم يكفر عن عمله هذا الا بما قام به سنة ٥٦٤ هـ / ١١٦٨ م ، عندما وضحت لديه نتائج المعاهدة السلبية على مستقبل مصر ، حيث استنجد بنور الدين ليخلصه من تسلط الصليبيين على المصريين وظلم شاور ، وموافقته صلاح الدين في القبض على شاور والامر بقتله ، بعد مجيء فرقة الانقاذ من الشام بقيادة شيركوه وابن اخيه صلاح الدين سنة ٦٥٤ هـ / ١١٦٨ م(١).

على اية حال فالصليبيون ، بفضل خيانة الوزير الفاطمي شاور ، تمكنوا بالديار المصرية « وتحكموا في اموالها ومساكنها افواجاً افواجاً ، ولم يبق شيء من ان يستحوذوا عليها ويخرجوا منها اهلها من المسلمين »(٢) . حتى انهم – كما يقول ابن الاثير – « حكموا على المسلمين حكماً جائراً ... وارسلوا الى ملك الفرنج

---

(٣) ابو شامة . الروضتين ، ١ / ١٤٣ . محمد مصطفى زيادة . حملة لويس التاسع على مصر . ص ١٧ . محمد كامل حسين . في ادب مصر الفاطمية . ص ١٢٧ .

Stevenson The Cruseclors, in the East, P. 191.

(٤) الروضتين ، ١ / ١٤٣ . سبط ابن الجوزي . مرآة الزمان . ق ١ ، ٨ / ٢٨٦ – ٢٩٦ .

(٥) الروضتين ، ١ / ١٤٤ . البداية والنهاية ، ١٢ / ٢٥٢ – ٢٥٣ .

(١) انظر تفصيل المعاهدة مع الصليبيين ونتائجها ، دريد عبد القادر نوري . سياسة صلاح الدين . ص ٧٩ – ٨١ .

(٢) ابن كثير . البداية والنهاية ، ١٢ / ٢٥٥ .

بالشام .... يستدعونه ليملكها ، واعلموه خلوها من ممانع »(٣). كل ذلك دفعهم ليس الى التحكم بالمسلمين وابتزاز اموالهم فحسب ، بل الى القيام باعمال تخريبية واجرامية كالذي فعلوه في بلبيس من قتلهم كل من وجدوه من المسلمين ، واقتحامهم البيوت والاجهاز على من يحتمي فيها ، مع سلب كل ماتقع عليه ايديهم العدوانية(٤). ولم يتمكن شاور من دفع اذاهم الا بعد ان تكفل ببذل مال لهم قدره مليون دينار مصري(٥).

ولذلك فلا عجب ان تأتي الامدادات من بلاد الشام بسرعة الى مصر بعد مكاتبة الخليفة الفاطمي لنور الدين ، وقد وصلت في منتصف ربيع الاول سنة ٥٦٤ هـ / ١١٦٨ م ، وتمكنت من السيطرة على الموقف خاصة بعد قتل الوزير الخائن شاور ، وموافقة الخليفة الفاطمي على ان يكون وزيره الجديد شيركوه ، قائد نور الدين ، اعترافاً منه بالفضل الذي قدمه في دفع الخطر عن مصر ، غير ان شيركوه لم يمكث في الوزارة سوى شهرين وخمسة ايام فقد توفي في ٢٢ / جمادي الاخرة سنة ٥٦٤ هـ / ٢٣ آذار سنة ١١٦٩ م وانتخب من بعده صلاح الدين وكان يومئذ في الثانية والثلاثين من عمره(٦).

وكان هذا نقطة البداية لصلاح الدين الذي « كان ملزماً بمبادئه في ارجاع مصر الى الولاء العباسي ، لكن الضرورة دعت الى تمهيد السبيل امام ذلك التغير »(١).

« اهم اعمال صلاح الدين في مصر بعد توليه منصب الوزارة »

لقد كان صلاح الدين يعد نفسه للقيام بانقلاب شامل وعاجل داخل مصر في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية . ولذلك كان ولابد من تثبيت انصاره والاستعانة بهم في تمشية الامور ، كما كان يستدعي من الشام بعضاً من اقاربه للتعويض عن الضباط المشكوك في ولائهم للحكم الجديد(٢).

بعد ان تفقد القوات العسكرية ، وعكف على التخلص من الامراء الموالين للحكم الفاطمي والارمن والسودان لأنه اعتقد بأن بقاءهم في القوات العسكرية يشكل

---

(٣) الكامل في التاريخ : ١١ / ٣٣٦ .

(٤) المؤرخ الصليبي المعاصر للاحداث (وليم الصوري) نقلاعن بيومي . قيام الدولة الايوبية . ص ١٣١ .

(٥) ابو شامة . الروضتين : ١ / ١٥٤ . ابن خلكان . الوفيات : ٦ / ١٤٨ .

(٦) ابن الاثير . الباهر في تاريخ الدولة الاتابكية . ص ١٤٠ . اما عن اسباب اختيار صلاح لمنصب الوزارة الجديد فانظر : دريد عبد القادر . سياسة صلاح الدين . ص ٨٩ ـ ٩١ .

(١) هاملتون جب . صلاح الدين . ص ١٢٠ .

(٢) (2) Lane Pool. A History of Egypt, P. 192

خطراً على سياسته الهادفة الى اقامة الدولة الجديدة(٣). وبذلك سيطر صلاح الدين على اهم جزء من القطاع العسكري ، ومن ثم توجه الى القطاع المدني ، الى عامة الشعب المصري ، حيث وجد في حل مشاكلهم الاقتصادية خير وسيلة لكسبهم فابطل المكوس والمظلم التي كانت الدولة الفاطمية تجبي منها سنوياً مائتي الف دينار(٤).

وقد حدث في مصر في هذه الفترة من الحوادث مادفع بصلاح لاحكام سيطرته على مصر بشكل محكم ، ذلك ان رجال القصر الفاطمي دبروا مؤامرة ، بالتعاون مع الجند السودان ، تقضي بمراسلة الصليبيين والاتفاق معهم على ان يهجموا على مصر ، وعندما يخرج صلاح الدين اليهم يكون الفاطميون في مصر قد ثاروا في الداخل واعادوا الحكم اليهم ، وكان كاتب الرسالة يهودياً من الرهط قد ارسل بالرسالة الى الصليبيين بناءً على اوامر وصلت اليه من جوهر بن عبدالله ، مؤتمن الخلافة الفاطمية . وقد اكتشفت المؤامرة واعدم المتآمرون(٥).

ولما علم الصليبيون في الشام ماجرى في مصر من احداث تقدموا لاحتلال مدينة دمياط والتوجه منها الى القاهرة ، بعد ان اخذوا موافقة الدولة البيزنطية ، وتلقوا منها مساعدات حربية كبيرة(١). غير ان صلاح الدين نجح في التصدي للصليبيين بعد ان ساعده نور الدين في الشام بارسال الامدادات اليه ، ومهاجمة بعض حصون الصليبيين في الشام(٢) . وبذلك سيطر صلاح الدين على الموقف ولم يتمكن الفاطميون من تحريك ساكن .

وقد دفعت هذه الاحداث صلاح الدين الى ان يتخذ خطوات جديدة في سياسته الداخلية في مصر . فقد عمد الى عزل قضاة مصر من الفاطميين وقطع ارزاقهم ، واستناب بدلاً عنهم قضاة شافعية ، بعد ان عين العالم الشافعي صدر الدين بن عبد الملك بن درباس قاضياً للقضاة الشافعية ووزيراً للديار المصرية(٣) كما اثار قضية التشكيك بنسب الفاطميين وانهم من نسل المجوس(٤) ولم يبق امامه الا اسقاط الخلافة الفاطمية التي مهد لها بكل شيء .

---

(٣) (3) Elisseff, Nur Ad-Din, II, P. 724

(٤) ابو شامة . الروضتين : ١/ ١٧٤ .

(٥) انظر : المصدر السابق : ١/ ١٧٨ . المقريزي . السلوك : ٢/ ٤ . البنداري . سنا البرق الشامي : ١/ ٨٢ ــ ٨٣ . ابن كثير . البداية والنهاية : ١٢/ ٢٥٨ .

(١) البنداري . سنا البرق : ١/ ٨٧ ــ ٨٨ . ابن واصل . مفرج الكروب : ١/ ١٧٩ ــ ١٨٢ .

(٢) انظر : النجوم الزاهرة : ٥/ ٧ .

(٣) ابن الاثير . الكامل : ١١/ ٣٦٦ .

(٤) انظر : الروضتين : ١/ ٢٠٢ .

كانت سياسة صلاح الدين في تنفيذ مخططه السابق ، حكيمة بدرجة كبيرة ، لأنه خطط للقضاء على اعدائه من دون تقديم اية ضحايا ، ومن غير اثارة الفاطميين عليه . فقد وضع على كل امير فاطمي جماعة من امراء الشام واجنادهم الذين تجهزوا في الليل ، واحاط كل واحد منهم ببيت امير من امراء الفاطميين المشكوك في امرهم . فلما اصبح الصباح وخرجوا على عادتهم ، قبض عليهم . ولما علم الخليفة الفاطمي ماجرت عليه الحال اوضح له صلاح الدين بأنهم امراء عاصون وانه انما قصد تعويضه بأحسن منهم(٥). ولما وجد ان الامور تسير كما يجب قطع الخطبة بمصر للعاضد الفاطمي واقامها للخليفة العباسي المستضيء في محرم سنة ٥٦٧ هـ / ايلول سنة ١١٧١ م بناء على اوامر قد جاءته من نور الدين ، وبذلك اعيدت الوحدة بين مصر والشام والعراق مذهبياً واقليمياً واصبحت الخلافة العباسية هي الوحيدة ، بعد ان كانت الخطبة في مصر قد قطعت لحوالي مائتين وثمانين سنة(٦).

« النتائج القريبة لسقوط الخلافة الفاطمية على الصليبيين »

من الواضح ان نجاح نور الدين في ضم مصر الى منطقة الشام اوقع القوات الصليبية الغازية في ارتباك خطير لانهم احسوا . بعد ان فقدوا حلفائهم الفاطميين في مصر ، بأنهم وقعوا في شقي الرحى وان القوات الاسلامية قد احاطت بهم من الشمال الشرقي والجنوب الغربي . يقول ابن شداد « لما علم الافرنج ماجرى من المسلمين وعساكرهم ، وما تم للسلطان اي صلاح الدين من استقامة الامر في الديار المصرية ، علموا بأنه يملك بلادهم ويخرب ديارهم »(١) خاصة وان هذه الوحدة بين مصر والشام سوف تعرض القوات البحرية للصليبيين الى العديد من المخاطر . لأن السيادة البحرية لحوض البحر الابيض المتوسط سوف تنتقل الى يد المسلمين بعد ان يمثلكوا موانيء الدلتا العليا لمصر مثل الاسكندرية ودمياط ، يقابلها بعض الموانيء الاخرى المهمة على الساحل الشامي(٢).

وهذا الشعور بالقلق على القوات الصليبية في منطقة الشام دفع بعموري الاول ملك بيت المقدس الى طلب النجدة من الغرب الاوربي لانقاذ الموقف في الشرق ، والى الموافقة على تجديد اتفاقية التعاون بينه وبين الامبراطور البيزنطي مانويل

---

(٥) ابن الفرات . التاريخ . م٤ ، ١١ / ١٣٠ .

(٦) انظر ابن شداد . النوادر السلطانية ، ص ٤٥ . اليافعي . مرآة الجنان ، ٣ / ٣٧٩ . محمد صالح القزاز . الحياة السياسية في العصر العباسي الاخير . ، ص ٢٥٠ .

(١) النوادر السلطانية . ص ٤١ . وانظر : ابن واصل . مفرج الكروب ، ١ / ١٧٩ .

(٢) انظر : Grousset, des Croisdern, 11, P. 539

كومنين . غير ان التحرك الصليبي هذا لم يضعف من عزيمة القوات الاسلامية . بقيادة نور الدين وصلاح الدين . من القيام بحملات استنزاف مؤقت لقوات الصليبيين . فلم تمض الا ايام قليلة حتى توجه صلاح الدين لمنازلة حصن الشوبك الصليبي . الواقع جنوب البحر الميت . وضيق عليه الحصار . في حين هاجم نور الدين في الجهة المقابلة حصن الكرك . ثم اتفق الطرفان على تنظيم حملات مستمرة للايقاع بالقوات الصليبية المتواجدة بين مصر والشام(٣).

ومن الجدير بالذكر ان كلًا من نور الدين وصلاح الدين لم يلتقيا بشكل مباشر في حربهما للصليبيين . وقد وجد بعض المؤرخين في هذه الحقيقة التاريخية مجالًا لتعليل وجود وحشة مفتعلة بين نور الدين وصلاح الدين . بعد ان اتهموا الثاني بأنه كان يخطط لعدم اللقاء مع نور الدين خوفاً منه ان يسلبه سلطانه على مصر(١) . في حين ان صلاح الدين انسحب مرتين من قتاله للصليبيين في المنطقة الواقعة بين مصر والشام عند حصون الكرك والشوبك . لاسباب حقيقية كان الاول سنة ٥٦٧ هـ / ١١٧١ م متعلق بسوء الاحوال الداخلية في مصر لوصول اخبار تقول ان انصار الخلافة الفاطمية عازمون على القيام بتحركات مضادة مستغلين غياب صلاح الدين عن البلد . فعاد مسرعاً الى مصر(٢) . اما الانسحاب الثاني سنة ٥٦٨ هـ / ١١٧٢ م فكان بسبب مرض والده الخطير . فقد وصلت اليه اخبار تقول ان والده يحتضر فعاد مسرعاً الى مصر . تاركاً امر الصليبيين لنور الدين بعد ان وضع ثقته في نصره عليهم « فوجد اباه قد قضى نحبه »(٣) وهذا يدل على صدقه .

وعلى مايبدو فان نور الدين كان يلح على صلاح الدين . بعد اسقاط الخلافة الفاطمية على التوجه الى الشام لمقاتلة الصليبيين . وطردهم من بلاد الشام ولم يكن يعلم اغوار مصر واحوالها كصلاح الدين . الذي كان يتساهل قليلًا في التقدم الى الشام كي لاتضيع مصر من يده بثورة مضادة . ولذلك فقد كان يرى ان واجبه الاول هو الحفاظ على مصر ثم في بناء جيش جديد قوي وكفوء يتمكن به من الحفاظ على مصر ثم بعد ذلك يمكن التفرغ لجانب الصليبيين في الشام .

---

(٣) انظر : الكامل : ١١ / ٣٧٢ ـ ٣٧٣ . ابن شداد . النوادر السلطانية . ص ٣٦ . ابو شامة . الروضتين : ١ / ٣٠٦ . البنداري . سنا البرق الشامي : ١ / ١١٨ .

(١) انظر : الكامل : ١١ / ٣٧٢ ـ ٣٧٣ . ابن خلدون . التاريخ : ٥ / ٥٥٨ ـ ٥٥٩ . العريني . الشرق الاوسط والحروب الصليبية : ١ / ٧٣٤ ـ ٧٣٥ . عاشور : الحركة الصليبية : ٢ / ٧٢٥ ـ ٧٢٩ .

(٢) يعطي العماد الاصفهاني سبباً آخر لهذا الانسحاب فيقول ان صلاح الدين انسحب من حصاره للكرك لأنه « لقي في تلك السفرة شدة وعدم خيلًا وظهرا وعدة واب الى القاهرة » انظر : البنداري . سنا البرق الشامي . ١ / ١١٨ .

(٣) ابن الاثير . الكامل : ١١ / ٣٩٣ .

ومهما يكن من امر العلاقة بين نور الدين وصلاح الدين ، فان وفاة الاول يوم الاربعاء ١١ شوال سنة ٥٦٩ هـ / ١٥ مايو سنة ١١٧٤ م دفعت بصلاح الدين الى الامام ليكون سلطان المسلمين في مصر والشام واعالي العراق حتى الموصل ، بعد ان قضى اثنتي عشرة سنة في سبيل تحقيق تلك الوحدة التي كان من نتائجها الانتصار على الصليبيين وتحرير القدس وساحل بلاد الشام من ايديهم كما سيجيء ذكره في الفصل القادم .

الباب الثالث

حروب التحرير

الفصل الاول ـ دولة صلاح الدين .
الفصل الثاني ـ جهود الايوبيين في دحر الغزاة الصليبيين بعد صلاح الدين
الفصل الثالث ـ سياسة المماليك تجاه الغزو الصليبي لبلاد الشام .
الفصل الرابع ـ نتائج الحروب الصليبية .



الباب الثالث / الفصل الاول

« دولة صلاح الدين »

اولاً ـ سيرة صلاح الدين الاولى وتوليه الحكم بعد وفاة نور الدين .
ثانياً ـ موقف صلاح الدين من الغزو الصليبي لبلاد الشام .
ثالثاً ـ معركة حطين .
رابعاً ـ تحرير القدس وشمال الشام ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م .
خامساً ـ الحملة الصليبية الثالثة وسقوط عكا سنة ٥٨٧ هـ / ١١٩١ م ،
سادساً ـ معركة ارسوف سنة ٥٨٧ هـ / ١١٩١ م .
سابعاً ـ العلاقة بين ريتشارد وصلاح الدين .
ثامناً ـ محاولة الصليبيين استعادة القدس وفشلهم .
تاسعاً ـ الهدنة بين ريتشارد وصلاح الدين .

الباب الثالث

حروب التحرير

الفصل الأول

« أمارة صلاح الدين »

سيرة صلاح الدين الأولى : ـ

هو سيف بن نجم الدين بن أيوب الملقب بصلاح الدين(١) ولد في تكريت سنة ٥٣٢ هـ / ١١٣٨ م في ليلة مغادرة نجم الدين قلعة تكريت فاراً من سلاجقة بغداد الى الموصل حيث يوجد الزنكيين(٢) وقد حمل معه أبنه يوسف الى الموصل حيث قضى فيها عام طفولته الاولى وبعدها أنتقل الى بعلبك حيث أصبح والده حاكماً فيها . وقد قضى صلاح الدين في بعلبك سبع سنوات ثم أنتقل بعد ذلك الى دمشق حيث قضى فترة شبابه هناك في بلاط نور الدين وكان يشهد عن كثب الاعمال التخريبية التي كان يقوم بها الصليبيون في أطراف الشام عند مجئ الحملة الصلبية الثانية(٣) . ومن المحتمل أن صلاح الدين كان يشارك ويخطط مع والده وعمه في الدفاع عن قلاع الشام القريبة من دمشق ضد الصليبين ولما أثبت مقدرة عينه نور الدين سنة ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م متولياً لرئاسة شرطة دمشق نائباً لواليها تبعاً لذلك

---

١ ـ هناك عدة آراء في أصل الاسرة الايوبية ، وأرجح الاراء أنها تنتمي الى قبيلة الاكراد الزوادية التي دخلت كنف العمل في بغداد بحدود سنة ٤١٨ هـ / ـ ١١٠٤ م ثم أنتقلت بعدها الى تكريت أنظر . نوري . سياسة صلاح الدين / ٦٤ ـ ٦٧ .

٢ ـ كان نجم الدين (والد صلاح الدين) حاكماً لقلعة تكريت قبيل سنة ٥٢٥ هـ / ـ ١١٣٠ م ألا أن اموره أضطربت بعد سنتين لأنه ساند زنكي أتابك الموصل ، الذي ظاهر السلطان السلجوقي ضد الخليفة العباسي المسترشد وقدم له بعض المساعدات التي أعتبرت بنظر السلاجقة عصياناً للسلطة في بغداد . علماً بأن أخاه أسد الدين [illegible] نفس الوقت [illegible] السلاجقة بتكريت . ولذلك ترك [illegible] الدين وأخوه شيركوه تكريت موليين شطر الموصل حيث [illegible] (أنظر : الكامل ١١ / ٣٤١ ب الروضتين : ١ / ٢١٠ ، السلوك لمعرفة دول الملوك : ١ / ٤٢ .

٣ ـ أنظر : نوري . سياسة صلاح الدين . ص ٦٧ ب بايومي . قيام الدولة الايوبية ص ٨١ ـ ٨٢ .

وكانت مهمة النائب فيها قيادة العساكر والمحافظة على النظام والسهر على جباية الخراج(٤) ثم بعد ذلك كان نور الدين يعتمد على صلاح الدين كثيراً ويرسله لقيادة العساكر برفقة عمه أسد الدين شيركوه الى مصر للتصدي للصليبين حتى تمكن أخيراً من أسقاط الخلافة الفاطمية ـ كما تبين ذلك من قبل ـ ومن ثم تقدم من مصر الى الشام لاعادة الوحدة بينها وبين الشام وبلاد الجزيرة التي تحطمت أثر وفاة نور الدين وأضطراب أمور البلاد ، كما سيجى بيانه .

أسباب تقدم صلاح الدين من مصر الى الشام وتوليه الحكم بعد وفاة نور الدين :

حدثت في منطقة الشام والجزيرة عدة نزاعات بين الامراء الزنكيين في سبيل الوصول الى السلطة ، وقد وصف العماد الاصفهاني ، المعاصر للاحداث ، تلك النزاعات بقوله ، « كانوا لضعف وثوق بعضهم ببعض يتبعون ما أبرموه أمس في يومهم بنقض ، . . . وكم عقدوا ما حلوه ، وأحلوا ما عقدوه(١) » . لذلك تقدم صلاح الدين الى منطقة الشام والجزيرة وحاول ضمها الى سلطانه طالما أن تلك المناطق سوف تبقى مفككة الاوصال ، وبالتالي سيبقى الصلبيون في منطقة الشام فسادا . وقد أوضح صلاح الدين سياسته هذه في الكتاب الذي أرسله للخليفة العباسي المستضيء بأمر الله والذي جاء فيه أن سبب ضم بلاد الشام والجزيرة لحكمه أنما هو « ليعده طريقاً الى بلاد الاستنفار الى بلاد الكفار . . . ولا نختار الا أن تغزو جيوش المسلمين متحاشدة على عدوها لا متحاسدة بعتوبها ، . . . وأنما أمور الحرب لا تتحمل في التدبير الا الوحدة ، فاذا صح الدبير لم يتحمل في اللقاء ألا العدة(٢))

وقد ذكر القلنشذي نص كتاب بعث به صلاح الدين الى الخلافة العباسية ببغداد بحوالي عشر صفحات يمكن من خلاله أن نتلمس الاسباب الحقيقية التي دفعت بصلاح الدين الى المسير الى بلاد الشام لكثـرة المكاتبات التي وصلت اليه من جهود المسلمين في العديد من مدن الشام لانقاذ الموقف ، ومحاربة الصليبين والسيطرة على الاسباب التي تخدم الهدف الأكبر وهو (تحرير القدس) ، وكذلك لمحاربة بعض العقائد المعتلة التي انتشرت في بلاد الشام كالحشيشة (الحركة الاسماعلية الجديدة) ومن جملة ما جاء في ذلك الكتاب « أننا نظرنا للاسلام ولبلاد الاسلام في العاقبة وعرفنا أن البيت المقدس أن لم تتيسر الاسباب لفتحه ، وأمر الكفر أن لم

٤ ـ أبو شامة ، الروضيتين ، ١ / ١٠٠ ب Elisseff, Nur Ad-Din, III, P. 788

يجرد العزم في قلعة وألا ثبتت عروقه وكانت همم القادرين بالعقود آثمة وأنا لا نتمكن بمصر منه مع بعد المسافة ، وأنقطاع العمارة وكلال الدواب . واذا ما جاورناه كانت المصلحة بادية . والمنطقة جامعة . واليد قادرة والبلاد قريبة والغزوة ممكنة والميرة متسعة والخيل مستريحة والعساكر كثيرة(١) . . . »

وهكذا أوضح أن الهدف الاول من مسيرة الى الشام هو تحرير القدس الذي لا بد له من القرب من الصليبيين في الشام كي تكون البلاد قريبة مع توفر وقرب التمرين ، اضافة الى أن الوحدة بين الشام ومصر ستمد صلاح الدين بالعساكر الكثيرة . وعندما ستكون اليد قصيرة مع مقاتلة الصليبين الذين كانوا يتلسون أمدادات كثيرة من الغرب الصليبي ، في حين لا يمكن صلاح الدين مقاتلة أعدائه لوحده ، وفي جو محموم مشحون بالحقد والتفرقة . ولذلك فمسألة كون صلاح الدين تقدم الى الشام ليزيد من أملاكه وثروته ولأنه يحب السيطرة على سلطان وأملاك نور الدين باطل لا أساس له . لأن صلاح الدين كان مؤصدة (الوحدة من أجل التحرير) وكان يطالب بالمقاتلين فقط عندما يضم المدن الاسلامية تحت لوائه(٢) وكانت قولته المشهورة التي يرددها : (نحن نريد من المدن شوكتها لا زهرتها(٣) » .

وهكذا في أوائل سنة ٥٧٠ هـ / النصف الثاني من سنة ١١٧٤ م ـ تقدم صلاح الدين الى الشام لتحقيق الوحدة بكل الوسائل ولو كلفه ذلك حرب الامراء المعارضين ، بعد أن رفع شعار « الجهاد في سبيل الله » ليمكنه من الدخول في الشام بسلام ، لأنه من دون أعلانه لذلك الشعار وأعلامه الاطراف المعنية بأنه أنما يقصد توحيد الكلمة لحرب الصليبين وتحرير القدس كان لا يستطيع مطلقاً دخول الشام ألا على أسنة الحراب . وأن دخلها فأنه كان لا يستطيع المكوث فيها لانه سيلقى - من دون شك ـ مقاومة شديدة . غير أن صلاح الدين عرف كيف يتصرف وخرج من القاهرة بحوالي سبعمائة فارس بعد أن ألح عليه أهالي دمشق بالمسير اليهم ليملكوه دمشق خوفاً من الصليبين(٤) . وفي هذا ما يدل على أن صلاح الدين أصبح في هذه

١ ـ سنا البرق الشامي : ١ / ١٥٩ ـ ١٦٠

٢ ـ أبو شامة . الروضتين : ٢ / ٤٨ .

١ ـ صبح الاعشى في صناعة الانشا : ١٣ / ٨٥ .

٢ ـ من أمثال ذلك عندما فتح صلاح الدين حلب أشترط على عماد الدين زنكي فقط « أرسال العساكر في الخدمة للغزاة . . . والمظاهرة والحضور في مواقف الغزو » الروضيتين : ٢ / ٤٣ . وكذلك كان حاله عندما عقد الصلح مع حكام سنجار والموصل وديار بكر .

٣ ـ من اراد الاستزادة في هذا الموضوع فاليراجع . نوري . سياسة صلاح الدين ص ١٣٥ ـ ١٣٩ .

٤ ـ أنظر / بيومي . قيام الدولة الايوبية ص ٢١٦ ـ ٢١٧ .

الفترة محط أمال المسلمين حيث وجدوا فيه البطل المنتظر الذي سيخلصهم من العدوان الصليبي ويحرر القدس .

وهذه الصورة الجميلة لدور الجماهير تكررت أكثر من مرة مع صلاح الدين فقد كان بعض الامراء لا يرغب بالتنازل لصلاح الدين خوفاً على أطماعه الشخصية بينما كان الجمهور يلح عليهم بالانضمام الى صلاح الدين . حيث الوحدة . وكثير ما كانوا يراسلونه خفية ويطلبون منه القدوم اليهم ويتعاونون معه ضد أمرائهم لفتح المدينة وجعلها تحت سيطرته كما حدث في مدينة حلب وسنجار والعديد من القلاع والحصون الاسلامية المنتشرة على أرض الشام(١) .

والحقيقة أن الاسباب التي دفعت صلاح الدين لرفع شعار (الجهاد في سبيل الله) كانت لانه لم يكن بين جيل صلاح الدين من كان مؤهلاً لقيادة الامة غيره . وقد أعتبر صلاح الدين مجاهدة الصليبين واجباً جماعياً . ولما وجد أن الامراء المسلمين مشغولين عنه ومهتمين بمصالحهم الشخصية . ورغبة بعضهم في الزعامة كان عليه أن يحقق الهدف ولو بالقوة . ولذلك أعتبر تقدمه نحو الشام انما هو لخدمة الجهاد في سبيل الله(٢). ومع ذلك فلم يكن يقسو عليهم وكان يستخدم الطرق النفسية في حربه لهم لانه كان يعتبر دم المسلمين واحد . وكان لا يريد أن يثير غضب المسلمين ضده وتراق الدماء بينهم(٣). وكانت عنده من الاساليب السياسية التكتيكية مادفع بالعديد من المدن الاسلامية الى الدخول في طاعته من دون اللجؤ الى الحرب يمكن أجمالها بما يلي : ـ

أولاً ـ كان يصدر قرارات الامان لكل من يستلم بدون قتال على شرط أن تكون العساكر واحدة عند النصرة من العدو الخارجي كما حدث ذلك لحصن كيفا مثلاً(٤).

ثانياً ـ كان صلاح الدين يلقى بواسطة السهام رقاع يكتب عليها عبارات الترغيب والترهيب الى داخل الحصون المتنعة لدفع أهلها الى طلب الاستسلام بعدما يحدث في صفوفهم اضطراباً نفسياً . كما حدث عند فتح حصن آحد .

---

١ ـ أنظر بخصوص مكاتبات أهل الراي والجمهور صلاح الدين ومساعدته في الانضمام الى الوحدة . الاصفهاني . فريدة القصر . القسم الاول : ١ / ٣٢٩ ـ ٣٣٠ . ابن شاهنشاه . مضمار الحقائق وسر الخلائق ص ١١١ ب القلقشندي . صبح الاعشى : ١٣ / ٨٥ . نوري . ـ سياسة صلاح الدين ص ١٦٤ ـ ١٦٥ و ١٤٤

٢ ـ Emmanuel Sivan, L'Islam et La, Croinade (Paris, 1963) P. 96.

٣ ـ Op. sit, P.98.

٤ ـ راجع : الكامل : ١١ / ٤٩٦ . الروضتين : ٢ / ٤٢

أنظر : الكامل : ١١ / ٤٩٤ . البداية والنهاية : ١٢ / ٣١٣

ثالثاً ـ كان صلاح الدين يظهر للمدينة القوية الحصينة ، بأنه انما جاء يتدير بقربها ، وأنه عازم على الاستقرار بجوارها ، بعد أن يحاصرها دون أن يعمد الى الهجوم المباشر عليها ، مما يدفع بمن داخل الحصن أو المدينة الى طلب الامان أو السعي من أجل الوصول الى الصلح لدفع قوات صلاح الدين الضخمة من قرب البلد ، لانها أن أستمرت بحصار البلد سوف تلحق أضراراً كبيرة به ، وهذا هو الذي حدث فعلاً عند حصار الموصل في المرة الثالثة سنة ٥٨١ هـ(١).

رابعاً ـ وفي بعض الاحيان كان صلاح الدين يقدم تنازلات ويمنح الاموال الوفيرة لامراء بعض الحصون في سبيل فتح حصونهم دفعاً للقتال ، كما حدث ذلك عند محاصرته حصن حارم وميا فارقين .

خامساً ـ وأحياناً أخرى كان صلاح الدين يلجأ الى الاساليب السياسية فيعمد الى التحالف مع بعض الامراء من الامراء الاخرين ليضعف من قوى الخصم ويدفعه الى طلب الاستسلام . وقد جرب صلاح الدين هذا الاسلوب بتحالفه مع عماد الدين أمير سنجار أخيه عز الدين مسعود أمير الموصل(٢).

وبالاساليب السابقة ، وبأستخدام الحرب أحياناً أخرى تمكن صلاح الدين من فتح مدينة دمشق وحلب وحمص وحماة وبعلبك وسنجار والموصل وأربيل وما جاوروهم من القلاع والحصون الاسلامية المجاورة ، وقد تمكن أخيراً ، وبعد مضي حوالي أثنتي عشرة سنة ٥٧٠ ـ ٥٨٢ هـ / ١١٧٤ ـ ١١٨٦ م . أن يتم الوحدة ويعد العدة ليبدأ بمرحلة التحرير . ولا بد من الاشارة الى أهم الاتفاقيات التي عقدها صلاح الدين مع الامراء الزنكيين في الموصل وحلب والتي كانت الاساس التي بنيت عليها وحدة الشام والجزيرة بمصر .

وفي ١٥ ذي الحجة سنة ٥٧١ / ٢٥ يونية سنة ١١٧٥ م وبعد أن حاصر صلاح الدين حلب جرى بين الطرفين أخذ وعطاء وتبادل سفراء انتهى بالتوصل الى عقد صلح عام ظهر في دراسة ظروفه أن الحلبيين وصلاح الدين رغبا في عقده لا لضعف فيهما ، وأنما لدفع الخطر الخارجي الذي كان يهدد كلا الطرفين وخدمة لمصلحة المسلمين عامة . ولذلك قدم كل طرف تنازلات عن طيب خاطر حباً في الوصول الى السلام ولتوحيد الكلمة من أجل مقاومة الصليبين(١). وهكذا تم عقد صلح عام بين الطرفين بعد أن نقض سيف الدين غاذى ـ أمير الموصل ـ المعاهدة المبرمة بين

١ ـ راجع : الكامل : ١١ / ٤٩٦ . ب الروضتين : ٢ / ٤٢ .
أنظر : الكامل : ١١ / ٤٩٤ . البداية والنهاية : ١٢ / ٣١٣ .
٢ ـ أنظر : مفرج الكروب : ٢ / ١٤٢ ب سياسة صلاح الدين ص ٢٥٥ ـ ٢٥٦ .
١ ـ أنظر : الروضتين : ١ / ٢٥٩ بالسلوك : ١ / ٦٣ ب الكامل ١١ / ٤٣١ .

صلاح الدين والحلبيين ويمكن توضيح صيغة المعاهدتين استخلاصاً من النصوص التأريخية بما يلي :

أولاً ـ في سنة ٥٧٠ هـ الحلبيون والايوبيون طرف واحد ضد الصلبين .

ثانياً ـ لا يحق لطرف التحالف والتعاقد مع طرف ثالث ألا بموافقة الطرف الثاني

ثالثاً ـ نقض الحلبيون العهد بتحالفهم مع سيف الدين غاذي . أمير الموصل ضد صلاح الدين .

رابعاً ـ جدد العهد سنة ٥٧٢ هـ مرة ثانية وأنضم اليه الموصليون واصبح بالشكل التالي :ـ

أ ـ الجميع يد واحدة ضد الغزاة الصليبين .

ب ـ لا يجوز لأحد نقض العهد .

جـ ـ اذا نقض أحد الاطراف العهد . أو خالفه فالباقون يداً واحدة عليه حتى يرجع الى الوفاق(٢) .

غير أن وفاة الملك الصالح ـ ابن نور الدين محمود الدين كان أمير حلب ـ وسيطرة أتابك الموصل عز الدين مسعود على حلب أوجدت شقاقاً جديداً بين صلاح الدين والنوريين خاصةً بعد أن تسلم عز الدين مسعود قيادة النوريين في الموصل وبلاد الجزيرة أثر وفاة أخيه سيف الدين غاذي في ٣ صفر سنة ٥٧٦ هـ(٣)

ورغبته في تكوين سروج الرها والرقة ومران والخابور ونصيبين في يده . بينما رفض صلاح الدين ان يمنحه أياً من تلك البلاد وأعتبرها تابعة له. وأنه كان قد ابقاها بيد سيف الدين غاذي بالشفاعة بعد أن أشترط عليه أن يمده بالعساكر(١). وبعبارة اخرى كان صلاح الدين قد أعتبر سيف الدين والياً تابعاً له وأنه قد فوضه أستقلالاً ذاتياً . وأنه لما توفي سيف الدين كان على تلك البلاد أن تعود اليه .

وهكذا نقضت المعاهدة السابقة التي كانت معقودة بين الايوبين والنوريين ، حكام الموصل وحلب . ولذلك تقدم صلاح الدين اليهم بقوته لاجبارهم على الدخول في الوحدة من جديد . ففي ٢٦ محرم سنة ٥٧٦ هـ نزل على حلب وحاصرها حصاراً شديداً . وقد بدء في دراسة بعض المصادر أنه كان في حلب حركة شعبية تسانده . والدليل على ذلك أن شعراء كانوا يراسلونه ويحرضونه على فتح المدينة منهم أبو الفضل الحلبي وابن سعدان(٢) . ثم أن عماد الدين زنكي الثاني لما حوصر من قبل

---

٢ ـ أنظر نص الاتفاقية المعقودة بين الجانبين : الروضتين : ١ / ٢٦١ ـ سنا البرق الشامي : ١ / ٢٢٣ ـ ٢١٨ وقد نقلت من مؤلفنا : سياسة صلاح الدين : ١٩٦ ـ ١٩٧ .

٣ ـ مفرج الكروب : ٢ / ٩٢ النوادر السلطانية : ٥٤ .

١ ـ الروضتين : ٢ / ١٧ .

٢ ـ السابق : ٢ / ٤٤ .

صلاح الدين أخذ بعض رهائن الحلبيين عنده وأصعد أولادهم وأقاربهم الى القلعة خوفاً من تسليمهم البلد الى صلاح الدين(٣). لذلك فان عسكر صلاح الدين لم يكن يقاتل الحلبيين وأنما كان يقاتل العسكر الزنكي الموجود في حلب والذي كان تابعاً لعماد الدين زنكي.

ولما طال حصار البلد وكثرت المصروفات اليومية المنفقة على العساكر أضطر عماد الدين الى طلب الصلح من صلاح الدين على أن يتنازل عن حلب مقابل تسلمه سنجار والخابور ونصيبين وسروج شريطة أن يبادر عماد الدين الى خدمة صلاح الدين متى دعاه(٤). وهكذا تمكن صلاح الدين من ضم حلب الى ملكه وكان ذلك في ٢٧ صفر سنة ٥٧٩ هـ. ولم يبق أمامه ألا الموصل حيث تقدم اليها وحاصرها. وكان هذا هو الحصار الثالث الذي تقدم فيه صلاح الدين الى الموصل غير أنه في هذه المرة كان عازماً على فتحها بكل الوسائل. وقد أيقن من بها صدق صلاح الدين في سعيه فبعثوا له الرسل يطلبون الشفاعة منه فوافق وبذلك تم الصلح بين الموصليين والايوبيين ويمكن استنتاج بنود المعاهدة التي وقعت بين الطرفين من نص الكتاب الذي أرسله صلاح الدين لاخيه سيف الاسلام باليمن وهو: -

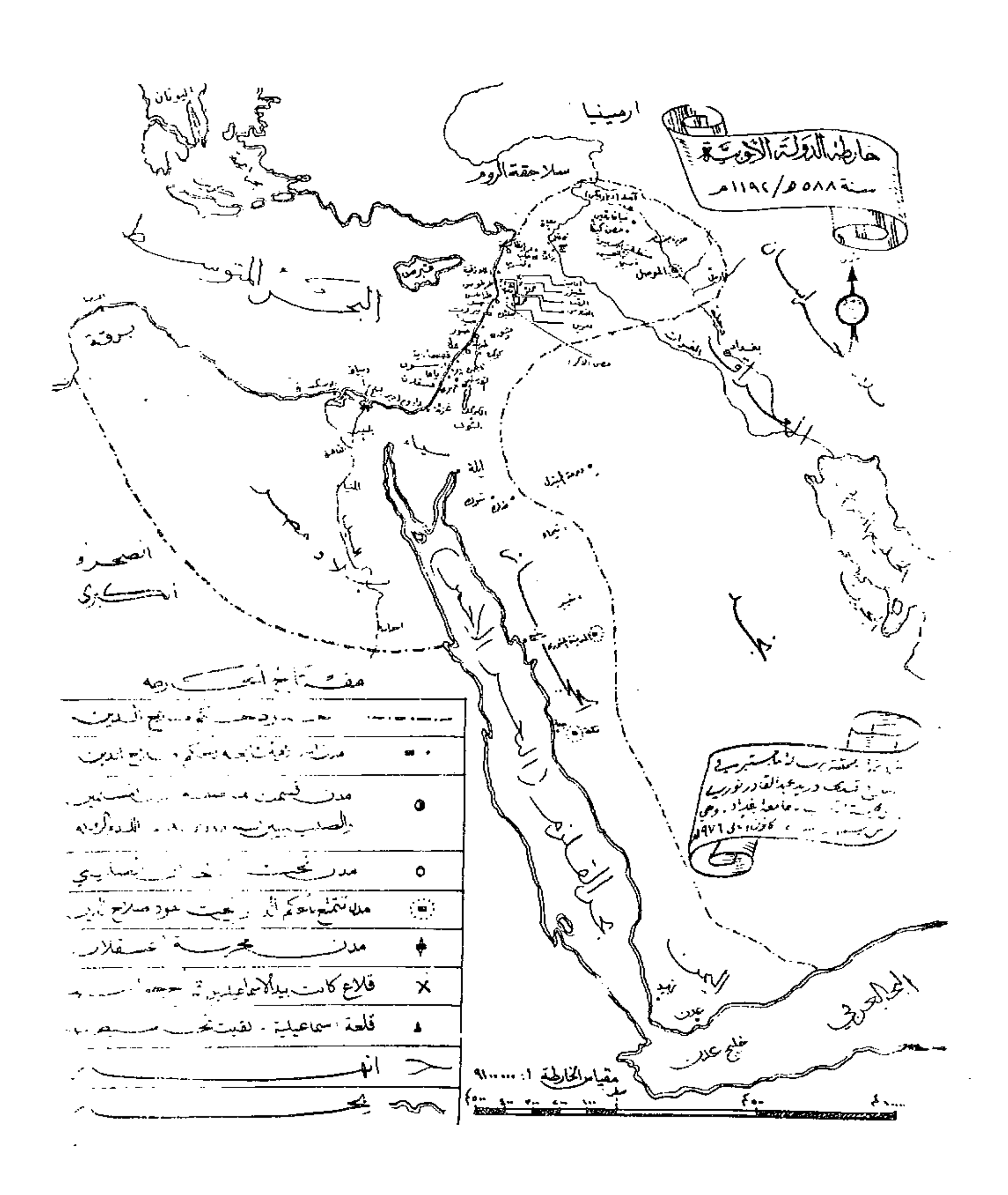
أولاً - تعطى شهرزور وأعمالها وولاية القرابلي وجميع ما وراء الزاب من المدن لصلاح الدين.
ثانياً - تمنح الموصل وأعمالها لعز الدين مسعود، على أن يكون تابعاً لصلاح الدين، أي منحه استقلالاً ذاتياً.
ثالثاً - تكون الخطبة في حميع المناطق بأسم صلاح الدين وكذلك سك النقود.
رابعاً - يساند عز الدين مسعود صلاح الدين بكل عساكره متى استدعاه.
خامساً - الجميع يد واحدة ضد الصليبين.
سادساً - يتعهد الطرفان بالحفاظ على المعاهدة السابقة. ووقعت بنودها بالقبول في ٩ ذي الحجة سنة ٥٨١ هـ الموافق ٣ / ٣ / ١١٨٦ م(١).

هكذا أذن تمت الوحدة بين مصر والشام والجزيرة، وثبت مركز صلاح الدين

---

٣ - ابن العديم. زبدة الحلب ٣ / ٦٤.
٤ - ابن واصل. مفرج الكروب: ٢ / ١٤٢. ابن العديم. زبدة الحلب: ٣ / ٦٦.

١ - أنظر نص كتاب صلاح الدين المذكور أعلاه: الروضتين: ٢ / ٦٤ الكامل: ١١ / ٥١٧ ب النوادر السلطانية: ٧٠ السلوك ١ / ٩٠.



خارطة الدولة الأيوبية
سنة ٥٨٨هـ/١١٩٢م
ارمينيا
سلاجقة الروم
اليونان
البحر المتوسط
قبرص
الموصل
بغداد
برقة
الصحراء الكبرى
سيناء
تيماء
خيبر
اليمن
زبيد
عدن
خليج عدن
البحر العربي
قلاع كانت بيد الاسماعيلية
انهار
مقياس الخارطة ١: ٩١٠٠٠٠٠

كقائد اسلامي عام لكل القوى التي كانت تعيش على تلك الارض الواسعة ، بعد أن وافق الامراء المناوئين له موقفاً حازماً لا تراجع فيه من أجل اجبارهم على الدخول في الوحدة تحت سلطانه طوعاً أو اكراهاً . وقد كسب بفضل وحدته تلك جمهور المسلمين ومحبتهم فأصبح بالنسبة لهم البطل المنتظر الذي سيتحقق على يديه النصر الأكيد على الغزاة الصليبيين .

« موقف صلاح الدين من الغزو الصليبي لبلاد الشام »

تميزت سياسة صلاح الدين تجاه الصليبين في فترة بناء الوحدة (منذ وفاة نور الدين سنة ٥٦٩ هـ / ١١٧٣ م وبين سنة ٥٨٢ هـ / ١١٨٦) بطابع اللين والموادعة والمهادنة ، وتعليل ذلك ميسور ، لان صلاح الدين كان يهدف الى القضاء على الصليبين قضاء تاماً ، وهذا لا يتيسر قبل اقامة دولة قوية وموحدة ومن هنا فقد هادن الصليبين مؤقتاً لتصفية الحساب مع الامراء المسلمين الذين يقاومون انشاء دولة موحدة ، كما مر بيانه .

ومع ذلك فقد حدثت في هذه الفترة عدة أصطدامات عسكرية بينه وبين الصليبين ، تمثلت بهجوم الصليبين على الاسكندرية ، ونجاح صلاح الدين في الدفاع عنها وأفشال مخططاتهم الى كانت تهدف السيطرة على السواحل المصرية(١) ثم معركة الرملة سنة ٥٧٣ هـ / ١١٧٧ م التي اندحر فيها صلاح الدين قرب عسقلان(٢) . ثم أعقب ذلك انتصار صلاح الدين المتكرر على العديد من القطاعات الصليبية وتخريبه لحصن بيت الاحزان سنة ٥٧٤ هـ / ١١٧٨(٣) م ، ثم هجماته المتكررة على حصن الكرك(٤) ، وأجباره أمير طرابلس الصليبي (القوص) الى تقديم تنازلات لصلاح الدين أنتهت بموافقة القومص بالوقوف الى جانب صلاح الدين ضد مملكة بيت المقدس الصليبي(٥) .

وهكذا يتبين بأن صلاح الدين أقتصر في الفترة سابقة الذكر على غارات خاطفة ومركزة على بعض معاقل الصليبين ، والموافقة على عقد مهادنات قصيرة لغرض

(١) راجع بخصوص فشل الهجوم الصليبي على الاسكندرية : النوادر السلطانية ص ٤٨ ـ ٤٩ ب الروضتين : ١/ ٢٣٥ الكامل : ١١ / ٥١٨

(٢) أنظر النوادر السلطانية : ٥٣ ب مفرج الكروب : ٢ / ٥٩ . عاشور الحركة الصليبية : ٢ / ٧٥٧

(٣) الكامل ١١ / ٤٥٦ ـ ٤٥٨ . سنا البرق الشامي : ١/ ٣٣٥ ـ ٣٣٨ .

(٤) الروضتين : ٢ / ١١ . مفرج الكروب: ٢ / ٨٠ .

(٥) الروضتين ٢ / ٧٦ .

التفرغ الكامل لبناء الوحدة وتعبئة القوى ، وبعد أن حقق هدفه السابق تقدم بكل قواته لطرد الغزاة الصليبين من أرض الشام . وقبل التطرف الى شرح الخطوات التي اتبعها صلاح في حربه للصليبيين وتحرير القدس لا بد من الاشارة الى مسألتين هامتين أولاهما : أن صلاح الدين ما كان له أن يحقق أهدافه في الوحدة والتحرير لولا نجاح سياسته تجاه القوى الاسلامية في الشام والجزيرة ، ولو لم يتمكن من اتمام الوحدة لظلت أمنيته الهادفة الى تحرير القدس مجرد أمنية جميلة . وثانيهما : ان صلاح الدين لم يتمكن من تطبيق سياسته والوصول الى أهدافه لولا أن خدمته بعض الظروف المواتية التي تمثلت بوفاة نور الدين ، وأضطراب أحوال الصليبين الداخلية .

غير أن التضخيم في الموارد التي حصل عليها صلاح الدين من المدن الاسلامية ، بعد أتمامه للوحدة ، أمر مخالف للوقائع التأريخية ، وهو يخدم وجهة النظر الصليبية من ناحيتين :

أولاهما : أنه يبرر خسارة الصليبيين أمام صلاح الدين . وثانيهما : أنه يقلل من أهمية انتصارات صلاح الدين على اعدائه . وقد ذكرت بعض المصادر الغربية والغربية وصفاً لايخلو من مبالغة واضحة في تعداد الطاقات البشرية والاقتصادية التي أصبحت تحت أمرة صلاح الدين عند سنة ٥٨٢ هـ / ١١٨٦ م . يقول غرايبة : « ان انتصارات صلاح الدين كانت ضخمة ، ولكنها لاتبدو بهذه العظمة اذا ماقيست بموارد امبراطوريته البشرية والاقتصادية[١] » . ولو لم يتجاهل غرايبة ذكر الموارد والطاقات الضخمة التي كانت بيد الصليبيين ، والتي تفوق موارد دولة صلاح الدين . نظراً لان أوربا كانت تمد الصليبيين في الشرق بطاقات ضخمة بشرية واقتصادية ، تمثلت بالعدد الوفير من الجنود والفرسان والمعدات الحربية الضخمة التي كانت تنقل بواسطة السفن الكبيرة المحملة بها . وكانت تضم على رأسها خيرة قادة أوربا آنذاك ، فقد جاء الى الشرق ليحارب صلاح الدين ملك المانيا وفرنسا وبريطانيا وأمراء ايطالية والبندقية وكل طاقات الكنائس الاوربية ورجالها حتى أن ريتشارد بحث عمن يشتري منه لندن لينفق اموالها في الحرب ضد صلاح الدين[٢]

١ ـ غرايبه . العرب والترك ، ص ٢٤٥ . ومن بين المراجع الاخرى التي بالغت بطاقات صلاح الدين بعد اتمامه للوحدة : عاشور . الحركة الصليبية ، ٢ / ٧٦٥ ـ ٧٦٩ . كلاى . فتح القسطنطينية . ص ٧٤ ـ ٧٥ . فيشر . ـ تاريخ اوربا في العصور الوسطى ، ١ / ١٩٠ سياسة صلاح الدين ص ٢٨٢ ـ ٢٨٣ ، العريني . الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، ١ / ٨١٦ ـ ٨١٧

في الوقت الذي كان فيه صلاح الدين يحارب بعساكر الشام وبلاد الجزيرة وجزء من عساكر مصر فقط ، لان الحجاز لم تشترك في الحرب ضد الصليبيين ، كذلك فان بغداد لم تقدم أية مساعدات عسكرية لصلاح الدين ـ سوى بعض الاحمولة من النفط الخام ، لانها كانت منشغلة بمشاكلها الداخلية(١)

معركة حطين :ـ

حدث في مملكة بيت المقدس بعض الاضطرابات الداخلية بسبب ولاية العرش ، أستغله رينال شايتون (المسمى في المصادر العربية بالبرنس أرناط الذي كان حاكماً على أقليم ماوراء الاردن وأمير لحصن الكرك . فعمد الى نقض الهدنة التي كانت بين مملكة بيت المقدس وصلاح الدين ، والتي بمقتضاها تمتع التجار من كلا الجانبين بالحرية التامة في الذهاب والاياب من مصر والى بلاد الشام . ولا شك أن هذه المعاهدة كانت قد عادت بالفوائد الجمة على أرناط لانه كان يفرض على القوافل القادمة من بلاد المسلمين ضرائب ومكوس ، غير أن أرناط هذا ـ كما يقول المؤرخ الفرنسي غروسية ـ كان لصاً لايستطيع الحياة بدون السلب والنهب(٢) لذلك انقض على قافلة كانت تسير مطمئنة الى مكة واستولى على ماتحمله من سلع ، ولم يكتف بذلك ، بل تعمد غزو البحر الاحمر ومهاجمة المدينة المنورة وكاد ينجح في مسعاه لولا أن تتبعه بعض جيوش دمشق ، بقيادة فررخشاه ابن أخي صلاح الدين ، واجبرته الى العودة الى حصن الكرك(٣).

وقد وصف العماد الاصفهاني ، كاتب صلاح الدين ، الاعمال التي قام بها أرناط بقوله « أظهر أنه على الهدنة وجنح للسلم وأخذ الامان لبلده وأهله وقومه ، وبقى الأمن له شاملاً والقفل من مصر في طريق بلده متواصلاً ، وهو يمكن الجائي والذاهب ، حتى لاحت له فرصة في الغدر فقطع الطريق وأخاف السبيل ووقع في قافلة ثقيلة معها نعم جليلة فأخذها بأسرها وكان معها جماعة من الاجناد فأوقعهم في الشرك وحملهم الى الكرك وأخذ خيلهم والعدة ، فأرسلنا اليه ورحمنا فعاله وقبحنا احتياله وأغتياله فأبى ألا الاصرار والاضرار فنذر السلطان (أي صلاح الدين) دمه(٤)» .

---

١ ـ لمعرفة المزيد عن مدى مشاركة الخلافة العباسية لصلاح الدين في حربه للصليبيين انظر : سياسة صلاح الدين ، ص ٣٨٩ ـ ٣٩٦ .

٢ ـ أنظر : عاشور ، الحركة الصليبية : ٢ / ٧٩٧ .

٣ ـ رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية : ٢ / ٦٩٧ .

٤ ـ الروضتين : ٢ / ٧٥ وأنظر كذلك : النوادر السلطانية ، ص ٧٤ ـ ٧٥ ، تأريخ ابن الوردي : ٢ / ١٣٧ .

وارسل يشكوه الى الملك بلدوين يطلب التعويض والتحقيق في نقض الهدنة . فلم يصله شيء(١) . وجاءت الظروف مواتية عندما ساءت الاحوال الجوية وارغمت بعضاً من السفن الصليبية محملة بالف وخمسمائة صليبي الى الجنوح الى الساحل المصري . دون ان تعلم بأنتهاك الهدنة فأمر صلاح الدين بالقبض عليهم وتجديد طلبه بمفاتحة ملك بيت المقدس تعويضاً عن الخسائر التي لحقت بالمسلمين ويطلق صلاح الدين اسراهم غير ان الصليبيين اغفلوا(٢) الموضوع . وهم على مايبدو اتفقوا على حرب صلاح الدين . وبذلك اصبحت الحرب امراً لامفر منه . ولم يبق امام صلاح الدين . بعد ان تذرع بالصبر والحلم . الا القصاص والاخذ بالثأر .

وهكذا اندفع صلاح الدين للقيام بحركة تحشيد كاملة لقواته بعد ان اعلن حركة الجهاد في سبيل الله واعلم الاطراف المعينة بقراره الحازم في حرب الصليبيين حرباً شاملة لاتنتهي الا بطردهم من بلاد الشام . وكان عندما قد اتم بناء الوحدة وجاءته الذريعة في حرب الصليبيين . تلك الذريعة التي لاتجعله المسؤول لوحده في الحرب التي لايعلم نتائجها والتي ربما تكون عواقبها وخيمة . وكان كل شيء معداً له عند نهاية سنة ٥٨٢ هـ / ١١٨٦ م حيث جاءته العساكر من كل فج الى ضواحي دمشق .

وبعد ان اكتملت استعداداته غادر مسرعاً دمشق الى الجنوب في ١ محرم سنة ٥٨٣ هـ / ١٣ ــ ١٨٧٥ م بعد ان ترك ولده الاكبر الافضل عند دمشق ليستقطب العساكر « ويستدني اليه الامراء الواصلين ويجمع الاعارب والاعجام(٣) والاتراك في حين وصل هو قريباً من بصري ليمنع اعتداء ارناط على قوافل الحجاج القادمين من مكة والتي قيل ان اخته كانت فيها(٤) . وقد نجح في مسعاه ثم عمد الى القيام بالعديد من الهجمات العسكرية على حصن الكرك والشوبك ليسهل الاتصال بين الشام ومصر وليقطع المواصلات بين الصليبيين(٥).

ومن بصرى خرج صلاح الدين الى عشترا وهناك استعرض عسكره فكان اثني عشر الف مقاتل رتبهم اطلابا(١) . ثم خرج بهم الى الاردن يوم الجمعة ١٧ ربيع

١ ــ يقول ابن واصل ان ارناط هذا لم يكتف بالغدر بالمسلمين . وانما تهجم على معتقداتهم ورد على رسل صلاح الدين التي جاءته تطلب اطلاق سراح الاسرى بقوله (قولوا لمحمد يخلصكم) مفرج الكروب ٢ / ١٩٤ .

٢ ــ انظر رنسيمان . تاريخ الحروب الصليبية : ٢ / ٦٩٧ .

٣ ــ العماد الاصفهاني في البرق الشامي . انظر الروضتين : ٢ / ٧٦ .

٤ ــ مفرج الكروب : ٢ / ١٨٦ ــ ١٨٧ .

٥ ــ السلوك لمعرفة دول الملوك : ١ / ٩٣ . رنسيمان . تاريخ الحروب الصليبية : ٢ / ٧١٤ .

١ ــ الاطلاب : جمع طلب وهي كلمة كردية معناها الامير الذي يقود مائتي فارس في ميدان القتال وتطلق على قائد المائة او السبعين ثم عدل مدلوله واصبح يطلق على الكتيبة . انظر / السلوك (تحقيق مصطفى زيادة) : ١ / ٢٤٨ هامش رقم (٢) .

الاخر سنة ٥٨٣ هـ ونزل في الاقحوانة واقام بها خمسة ايام يعين مواقع القتال، ويشرح للامراء والقادة مواقعهم. في حين كان عسكره قد وصل بحيرة طبرية واحاط بها(٢). وقد تولى صلاح الدين بنفسه قيادة قلب الجيش وابن اخيه تقي الدين الميمنة، بينما تولى مظفر الدين كوكبري الميسرة(٣).

وقد راعى صلاح الدين ان يختبر قوة الصليبيين فارسل عدد من قواته بالقرب من صعفروية، التي كانت مركز تجمع الصليبيين، وهناك دارت معركة قاسية سقط فيها معظم قوات الداوية والاسبتارية* وكان من بينهم الاسبتارية نفسه وعدد كبير من فرسانه في حين وقع في الاسر قوة صليبية اخرى كانت قد جاءت للنجدة، وبذلك عاد المسلمون «سالمين غانمين»(٤) وكان هذا النصر بداية طيبة للانتصارات اللاحقة التي سوف ينجزها المسلمون على اعدائهم، منحوا بفضله الثقة بالنفس. ويقال ان صلاح قصد بالهجوم السابق وبمحاصرة طبرية اجبار الصليبيين على السير اليه، حتى يصلوا متعبين. وبذلك تبدو مهارته العسكرية وتخطيطه المحكم للحرب وقد نجح في ذلك نجاحاً طيباً(٥).

ولما وردت الانباء بأن صلاح الدين اجتاز نهر الاردن، علموا بأنه قاصدهم، لذلك اجتمعوا واصطلحوا ودخل القومي معهم بعد ان كانت بينه وبين صلاح الدين عهد امان. وقد اصدروا، برئاسة الملك جاي* وباروناته في عكا قراراً بالتعبئة العامة، وهي دعوة عاجلة لكل الرجال القادرين على حمل السلاح بضرورة التهيء لقتال المسلمين. وقد اشترك في هذه الدعوة كل الصليبيين من بلاد الشام بضمهم فرسان الداوية والاسبتارية، وبعض قوات البطريرك هوقل الذين قدموا بالصليب

---

٢ – ابن شداد. النوادر السلطانية: ص ٧٥ – ٧٦. ابن واصل. مفرج الكروب: ٢ / ١٨٧ – ١٨٨

٣ – رنسيمان. تاريخ الحروب الصليبية: ٢ / ٧٣٥.

٤ – مفرج الكروب: ٢ / ١٨٧. الحركة الصليبية: ٢ / ٨٠٣

* – الداوية: منظمة عسكرية دينية اطلقت على فرسان العبد تأسست سنة ٥٢٤ هـ / ١١١٩ م وكان هدفها حماية طريق الحجاج النصارى بين يافا والقدس ثم تحولت الى فرقة عسكرية نذرت نفسها لقتال المسلمين. اما الاسبتارية: فهي فرقه دينية اخرى تأسست سنة ٤٩٣ هـ / ١٠٩٩ بعد استيلاء الصليبيين على القدس. وكان هدفها الاول طبي لخدمة المرضى وعلاجهم. ثم تحولت بعد ذلك الى فرقة عسكرية. انظر.

٥ – انظر: عاشور. الحركة الصليبية: ٢ / ٨٠٤.

١ – القومص: هو الكونت ريموند الثالث امير طرابلس الصليبية ويلقب ببعض المصادر العربية (بالصنجلي) وهو تحريف عربي للقبة الفرنسي. انظر ابن واصل. مفرج الكروب. ٢ / ٢٩. هامش رقم (٢).

* – الملك جاي. هو الملك جاي لوزجنان ملك بيت المقدس. وقد اطلق عليه المصادر العربية (الملك جفري) وقد تولى الملك بعد بلدوين الخامس سنة ١١٨٦ م.

المقدس الى اسقف عكا ليحمله في بداية العساكر تبركاً به واعتقاد منهم بأنه سوف ينقذهم في اوقات الازمات(٢). وكانت قوات الصليبيين تزيد على خمسين الفاً. وقيل عشرين الفاً(٣). وبذلك يتبين ان الصليبيين كانوا يخططون للقيام بحرب شاملة وقوية وان دعوة البطريرك والصليب المقدس معناه ان الملك والبلاد قرروا خوض حرب حاسمة ضد المسلمين في بلاد الشام لا مجرد القيام بغزوة عابرة.

اما صلاح الدين فقد استغل فترة تجمع القوات الصليبية وعدم مسيرها اليه بالقيام بهجوم سريع على طبرية بقصد اجبار الصليبيين على الخروج من صفورية مركز تجمعهم. ولم يمض وقت قليل حتى تمكن من الاستيلاء على البلد ماعدا قلعتها في ٢١ / ربيع الآخر سنة ٥٨٣ هـ / ٢ ـ تموز ـ ١١٨٧ م(٤) في حين بقى الصليبيون يخططون للهجوم على صلاح الدين وكانوا وقت ذاك بصدد احدى خطتين: احدهما هجومية تقدم بها البرنس ارناط. والاخرى دفاعية تقدم بها ريموند الذي نصح الملك والنبلاء بعدم مغادرة صفورية لحصانتها الجغرافية وتوفر الماء فيها(٥). عن طريق تجنب الاشتباك بقوات صلاح الدين في معركة حاسمة، على امل ان صلاح الدين سوف ينسحب من طبرية لحرارة الجو وبعده عن الماء(١)

الا ان ارناط تمكن من التأثير على الملك جاي ودفعه الى اصدار اوامره بالتقدم نحو صلاح الدين من دون استشارة بقية النبلاء، وبذلك سار الجيش الصليبي الى مصيره البائس، وتحقق لصلاح الدين النجاح الاول لسياسته الحكيمة التي قضت باخراج الصليبيين من صفورية عن طريق الهجوم على طبرية. لان صفورية كانت مشتهرة بغزارة مياهها. وقد خرج صلاح الدين بتحرك الصليبيين هذا واعلن لعسكره قوله: «جاءنا ماتريد ونحن اولو بأس شديد واذا صحت كسرتهم فطبرية وجميع الساحل مادونه مانع ولا عن فتحه وازع(٢)». ثم اخذ يخطط مواضع القتال لاجناده ويأمر بملأ الجعاب وكنائنها بالنبال. حتى انه فرق النشاب اربعمائة حمل، كما عين سبعين موضعاً ملأها بالنشاب، ليقصدها من عسكره من خلت جعابه(٣) منها.

---

٢ ـ Rosebault, Saladin Prinle of Chirolry, P. 185.

٣ ـ نوري، سياسة صلاح الدين، ص ٢٨٨.

٤ ـ انظر النوادر السلطانية: ٧٦. الكامل في التاريخ: ١١ / ٥٣٣ ـ ٥٣٤.

٥ ـ Stepenson, The Crusadersin The Eest. P.P. 244-245.

١ ـ العريني. الشرق الاوسط والحروب الصليبية: ٢ / ٨٢٩

٢ ـ العماد الاصفهاني في البرق الشامي: انظر: الروضتين: ٢ / ٧٦.

٣ ـ نفس المصدر والمكان السابق.

وما ان وصل العسكر الصليبي الى جبل طبرية عند منطقة تعرف باللوبيا في صباح يوم الجمعة ٢٤ ـ ربيع آخر سنة ٥٨٣ هـ / ٣ تموز سنة ١١٨٧ م حتى اسرع صلاح الدين بالتقدم نحوهم والاصطدام بهم قبل ان ينتقلوا الى موضع آخر يتحصنون فيه . لان المنطقة التي وصل اليها الصليبيون كانت ارضاً مكشوفة خالية من كل شيء . وكان صلاح الدين قد ردم من هذه المنطقة صهاريج المياه ومنع الصليبيين من الوصول الى المياه القريبة من طبرية . لذلك وجد الصليبيين من العطش كثيراً وقرروا المبيت فوق الهضبة بعيداً عن خطر المسلمين وقد استغل صلاح الدين ظلام الليل فعمد الى محاصرة اعدائه ولم تكد شمس اليوم التالي تشرق (٤ تموز / ٢٥ ربيع الاخر) حتى وجد الصليبيين انفسهم محاصرين بعيداً عن المياه

لذلك نزلوا مسرعين الى قرون حطين وهناك دارات معركةً رهيبةً انتصر فيها المسلمون انتصاراً عظيماً بعد ان كبدوا الصليبيين خسائر فادحة في الارواح والمعدات وكانوا قد احرقوا تحت اقدامهم تحت الاعشاب المحيطة بجبل حطين « فاجتمع عليهم العطش وحر الزمان وحر النار والدخان وحر القتال(١) » . وهكذا انتهت المعركة بقتل مئات من الجنود الصليبيين مع اسر مقدميهم وكان منهم الملك جاي لوزجنان الذي فقد كل رجاله ولم يبق حوله الا مائة وخمسون فارساً وقعوا جميعاً في الاسر(٢) . وقد اسر المسلمون البرنس ارناط واخا الملك وابن الهنفري وابن اميرة طبرية ومقدم الداوية والاسبتارية وامير حصن جبيل . ولم ينج الا القومصي امير طرابلس الذي هرب من ساحة المعركة قبل نهايتها الى مدينة صور وكان من كثرة القتلى والاسرى ماان التبس الامر على المشاهدين « فمد شاهد القتلى قال ماهناك اسيراً ومن عاين الاسرى قال ماهناك قتيل » . وبعد ان عاين صلاح الدين الاسرى قتل بيده البرنس ارناط لانه كان قد نذر دمه لاعتداءاته المتكررة على قوافل المسلمين وهجومه على المدينة المنورة وتهجمه على النبي محمد (ص) . بينما اكرم الملك جاي لوزجنان وعومل بالاحسان . لان صلاح الدين اجلسه الى جانبه واسقاه ماء مثلجاً مع عدد من بارونات المملكة الصليبية . ووفقاً لذلك فقد منحوا الامان(٢) .

---

١ ـ ابن الاثير . الكامل : ١١ / ٥٣٦ . وللاطلاع على تفاصيل معركة حطين التي اعتبرت حدا حاسما في العلاقات الاسلامية الصليبية انظر : الفتح المقدس : ١٢ ـ ١٤ ب النوادر السلطانية : ٧٦ ـ ٧٩ . مفرج الكروب : ٢ / ١٨٩ ـ ١٩٤ . الروضتين : ٢ / ٧٦ ـ ٧٩ . زبدة الحلب : ٢ / ٩٣ ـ ٩٥ . المختصر في اخبار البشير : ٥ / ٩٥ ـ ٩٧ ب البداية والنهاية : ١٢ / ٣٣٠ ـ ٣٣٢ . سياسة صلاح الدين : ١٩١ ـ ١٩٣ ب الشرق الاوسط والحروب الصليبية : ٢ / ٨٣٦ ـ ٨٤٠ - Lane Pool. A History of Egypt. P.P. 207-208.

٢ ـ انظر : النوادر السلطانية : ٧٧ / ٧٨ ب الروضتين : ٢ / ٧٧ ـ ٧٨

*ـ الروضتين : ٢ / ٧٩ .

وهذه الخسارة التي اصابت الصليبيين لم تكن نتيجة ضعف او فساد فيهم . لان العسكر الصليبي كان يفوق في العدد والعدة العسكر الاسلامي وكان المقاتل الصليبي محمياً بواسطة سلاح ثقيل هو وحصونه . وكان الفارس منهم يحمل من الاقنعة مايجعل السهم والرمح لا يؤثر فيه . وكان الخطر الوحيد الذي يتهدده هوسقوطه من على ظهر الفرس(٣) . ولذلك فأن انتصار صلاح الدين هذا كان بسبب قيادته المحنكة(٤) . وخطته العسكرية الجيدة التي اتبعها في المعركة ومشاركته الفعلية فيها . فقد احسن اختيار ارض المعركة وزمن وقوعها الذي كان في شهر تموز . اشد اشهر السنة حرارة واقله ماء . علماً بأن صلاح الدين كان قد امر بردم بعض صهاريج المياه القريبة من مواقع الصليبيين وبذلك اصبح الحر والعطش من بين الاسلحة التي استخدمها صلاح الدين ضد عدوه . ولا يخفى ماكان من بساطة المقاتلين المسلمين وتوحيدهم واستماتتهم في القتال الذي اعتبره ركناً مهماً من اركان عقيدتهم الا وهو الجهاد في سبيل الله مما اثر في انتصارهم في معركة حطين هذه .

اما نتائج معركة حطين . فلم تكن محصورة بأسر الملك الصليبي وباروناته ووقوع العسكر الصليبي في القتل والاسر فحسب بل كانت كما يقول ابن واصل :« مفتاح الفتوح الاسلامية(١) » . في بلاد الشام . لان صلاح الدين اتجه بعدها الى سائر مراكز الصليبيين . واخذ يسقطها الواحدة تلو الاخرى . ففي يوم الاحد ٢٦ ربيع الآخر سنة ٥٨٣ هـ / ٥ تموز سنة ١١٨٧ م نزل على طبرية وتمكن من دخول قلعتها بعد ان طلبت زوجته ريموند الامان . حيث امنها صلاح الدين ووفى بوعده فخرجت من البلد بمالها ورجالها الى طرابلس(٢) . وفي ٢٨ ربيع الاخر : ٨ تموز تقدم نحو عكا وما ان وصلها حتى خرج اليه اهلها يتضرعون ويطلبون الامان . فأمنهم صلاح الدين وخيرهم بين الاقامة والرحيل . فأختاروا الرحيل . وكان لسياسة صلاح الدين السمحة التي اتبعها مع اهالي البلد المفتوح اثرها في تسهيل مهمة فتح المدن التي كانت تحت السيطرة الصليبية . فلم يمض وقت طويل حتى تمكن صلاح الدين من فتح الناصرة وقيسارية وحيفا وصفورية والشقيف ونابلس وتبينى وصيدا وعسقلان(٣) . ثم توجه بعدها الى تحرير القدس .

٣ _ (3) Rosebault, Saladin, P, 185.

٤ _ لامب . شعلة الاسلام . ص ١١١ هامش رقم (٣) .

١ _ مفرج الكروب : ٢ / ٨٨ .

٢ _ النوادر السلطانية : ٧٩ . مفرج الكروب : ٢ / ١٩٥ .

٣ _ للاستزادة من معرفة كيفية تمكن صلاح الدين من تحرير القلاع والمدن المذكورة اعلاه من ايدي الصليبيين انظر : الروضتين : ٢ / ٨٧ _ ٨٨ . مفرج الكروب : ٢ / ٢٠٢ _ ٢٠٦ . الكامل في التاريخ : ١١ / ٥٤٢ . والحركة الصليبية : ٢ / ٨١٢ _ ٨٨٤ .

Stevenson, Op. Cit., P. 249

« تحرير القدس ٢٧ رجب سنة ٥٨٣ هـ / ١٢ ـ ١٠ ـ ١١٨٧ م »

ان ماحل بالصليبيين في معركة حطين من هزيمة ساحقة وما أعقبه من فتح سريع لكثير من الامارات الصليبية المنتشرة في بلاد الشام ، لم يكن الا تمهيداً للانهيار التام لمملكة بيت المقدس ، التي كان مقرها القدس والتي كان الهدف الرئيسي لصلاح الدين خاصة والمسلمين عامة . انظر لما كانت تتمتع به القدس من فضائل دينية كبيرة وشريفة في الاسلام ، ولذا فان تحريرها ، بحكم العقيدة الاسلامية . فرض واجب عين على المسلمين يجب تحقيقه . ولذلك مأن رسم صلاح الدين خطوط تقدمه من جبيل الى اوائل حدود مصر عدا القدس وصور ، حتى تقدم بالمسير اليها في ١٥ رجب سنة ٥٨٣ هـ / ٢٢ ـ ٩ ـ ١١٨٧ م ووصل بقواته الى ظاهر بيت المقدس وبقي خمسة ايام يطوف حول سور المدينة لينظر من اين يهاجمه ثم وقع اختياره اخيراً على جهة الشمال فانتقل اليها في العشرين من رجب وبقي طول الليل يعبأ قواته ويخطط للمعركة . وفي صبيحة اليوم التالي حدث قتال شديد . وكانت العساكر الاسلامية تندفع الى المدينة بقوة وببسالة من دون الخوف من الموت لانهم كانوا يرون في القتال « ديناً وحتماً واجباً فكان لايحتاج فيه الى باعث سلطاني . بل كانوا يُمنعون ولا يمتنعون . ويزجرون ولا ينزجرون(١) »

وقد انتهت المناوشات القريبة من القدس بوصول العسكر الايوبي سور المدينة وتمكنه من احداث ثقب فيه . ورغم كثرة الصلسيين الموجودين في القدس . والذي قدر عددهم بستين الف رجل مابين فارس وراجل(٢) ، فأن ذلك الثقب قدأحدث قلقاً شديداً في نفوسهم فطلبوا الامان على اثره ، غير ان صلاح الدين رفض طلبهم ولاول مرة ـ وقال : « لأفعل بكم الا كما فعلتم بأهله حين ملكتموه من المسلمين سنة احدى وتسعين واربعمائة من القتل والسبي وجزاء السيئة بمثلها(٣) » . غير ان صلاح الدين الذي غيَّر موقفه بعد ان عقد مجلساً استشارياً مع اصحابه وقادة عسكره ووافق على منح الامان للصليبيين بعد ان وضع على كل رجل صليبي عشرة دنانير وعلى المرأة خمسة وعلى الطفل دينارين يدفعهما الصليبي في مدة اقصاها اربعين يوماً فمن اداها نجا ومن لم يؤدها صار مملوكا(٤) . علماً بأن صلاح الدين عفا من هذه الضريبة كل فقراء الصليبيين الذين تجاوزوا الثمانية الاف شخص عدا الاعداد الكبيرة التي خرجت من القدس بطرق غير مشروعة .

١ ـ الكامل : ١١ / ٥٤٧ . مفرج الكروب : ٢ / ١٢ .

٢ ـ الكامل : ١١ / ٥٤٩ . الفتح القيسي ٥٢ . النوادر السلطانية : ٨١

٣ ـ الكامل : ١١ / ٥٤٩ . مفرج الكروب : ٢ / ٢١٤ .

٤ ـ لم تكف الاموال التي جمعها الصليبيون فتقرر اعفاء سبعة الاف من فقرائهم ثم التمس البطريرك اعفاء خمسمائة اخرين فوافق صلاح الدين كذلك استوهب العادل من اخيه صلاح الفاً من فقراء الصليبيين فوهبه اياها فأطلق سراحهم . انظر الكامل : ١١ / ٣٦٣ .

وهكذا فتح صلاح الدين القدس في يوم الجمعة ٢٧ رجب سنة ٥٨٣ هـ / ١٢ ـ ١٠ ـ ١١٨٧ م ولم يكن عظيماً كعظمته في ذلك اليوم . فقد امر بأنتشار عساكره في المدينة المقدسة ليمنع اي اعتداء قد يقع على نصارى القدس او الصليبيين المستسلمين « وقد توجه اليه الاف من النساء وبنات الفرسان الذين اسروا او قتلوا في تلك المعارك وخدمهم يسألنه الرحمة . فأمر بأطلاق سراح ازواجهن واخواتهن ومنح بعضهن هبات مالية مناسبة(١) » . وكان من بين الذين عفا عنهم صلاح الدين . زوجة البرنس ارناط وابنه الملك اموري كما سمح صلاح الدين للبطريرك الكبير ان يخرج من القدس بسلام ومعه كل اموال البيع والكنائس . وكانت تلك الاموال عظيمة لدرجة انها جلبت انظار المسلمين . فتدخلوا لدى صلاح الدين وطلبوا السيطرة عليها وانفاقها في مصالح المسلمين . غير ان صلاح الدين رفض طلبهم وقال « لاأغدر بهم » ولم يأخذ منه سوى عشرة دنانير(٢) . وبذلك منحت الرحمة للمدينة المقدسة ولم تتعرض دار من دورها للنهب ولم يحل بأحد من الصليبيين مكروه . بينما خاض الصليبيون قبل هذا التاريخ بثمانية وثمانين سنة بدماء ضحاياهم من المسلمين(٣) ونتيجة لهذه المعاملة الحسنة فقد طلب نصارى الشرق الذين كانوا داخل القدس للسماح لهم بالمكوث فيه فوافق صلاح الدين . وقد اعترف المؤرخون الغربيون بسماحة وعطف صلاح الدين هذا وقالوا بأنه « ظهر على مستوى من الكرم والاخلاق والشهامة لايفوق المستويات العادية التي عرفها فرسان الغرب فحسب . بل يفوق المثل العليا التي لم يصل اليها اولئك الفرسان في يوم من الايام(٤) .

وقد مكث صلاح الدين في القدس ثمانية وعشرين يوماً . كان خلالها قد اعاد للمدينة وجهها العربي الاسلامي . حيث عمد الى ازالة التغيرات التي احدثت بعد احتلال المدينة من قبل الصليبيين سنة ٤٩٢ هـ . من ذلك كشف الجدار الساتر لمحراب المسجد الاقصى الذي كان الصليبيون قد بنوه في وجه المحراب . كما اعاد نصب المنبر في المسجد الاقصى لاقامة خطبة الجمعة . وأمر بفرش صحن الجامع بالبسط النفيسة بدلاً من الحصر . كما أضاء المسجد الاقصى بالقناديل . كذلك عين

---

(1) Lane Pool, Saladin, P. 235.

Grouut, Histore des Groisaeles 2, P. 8.5.

٢ ـ مفرج الكروب : ٢ / ٢١٦ ـ ٢١٧ . الشرق الاوسط والحروب الصليبية : ١ / ٨٥٥ . سياسة صلاح الدين . ص ٣٠٩ .

٣ ـ (3) Lane Pool, Saladin , P.235.

٤ ـ انظر : الحركة الصليبية : ٢ / ٨٣١ .

صلاح الدين للمسجد الاقصى اماماً وخطيباً . واوقف له داراً وأرضاً وبستاناً . وقد أمر صلاح الدين ايضاً بفتح المساجد والمدارس في القدس لتدريب الفقة على المذهب الشافعي(١).

وبعد ان أتم صلاح الدين أعماله في القدس خرج منها في ٢٥ شعبان سنة ٥٨٣ هـ / ٣ ـ ١٠ ـ ١١٨٧ م لاتمام مهمة تحرير الشام من الغزاة الصليبيين . فوصل الى عكا بصحبة أخيه العادل في أول رمضان . ثم غادرها الى صور فنزل عليها في التاسع من رمضان وحاصرها حصاراً شديداً بعد ان وزع امرأة العسكريين على جهات مختلفة من السور ليجعل بينهم التنافس من اجل الاسراع في اقتحام البلد . كما قسم العسكر الى ثلاثة اقسام . وقسم القتال بحيث يكون لكل قسم منه وقت معلوم لقتال الاعداء كي يستمر القتال وبجهد الاعداء(٢). غير ان صلاح الدين لم يتمكن من فتحها لاسباب عسكرية ومناخية . فقد حل فصل الشتاء وكثرت الامطار . فأمر صلاح الدين العساكر بالتفرق الى اهليهم للاستراحة على ان يعودوا في أقرب فرصة بعد انقضاء فصل الشتاء لمواصلة عملية الجهاد اما في البحر فان الصليبيين تمكنوا في بعض السفن الاسلامية المحيطة بصور عن طريق البحر وأسقطوا بعضها في كمين . مما دفع صلاح الدين الى اصدار اوامره بمسير باقي الاسطول بالذهاب الى بيروت في حين سار هو الى عكا حتى دخلها سنة ٥٨٤ هـ(١).

ولم يكد فصل الشتاء ينقضي حتى خرج صلاح الدين من عكا ـ بعد ان استمتعت قواته لاكمال الفتوح ولم يعد الى مقر عمله في القدس ودمشق الا بعد مضي ستة اشهر حرر خلالها اللازيقية وجبلة وانطرسوس وصهيون وبكاس وبرزية ودربساك وكذلك صفر وكوكب وعدد كبيراً من الحصون والقلاع الصليبية المجاورة(٢).

ومن الاسباب التي مكنت صلاح الدين من ان يتم تحريره للمدن والحصون السابقة بتلك السرعة ـ بالاضافة الى الامور العسكرية ـ ان صلاح الدين شارك عسكره العمليات الحربية واظهر لهم العزم في القتال والتزهد وعدم الخلود الى الراحة . لان الدعة والترف هو سبيل الملوك المحبين لزخرف الحياة الدنيا . بينما التزهد في الدنيا يدفع الى مواصلة الجهاد . وبذلك افهم قواته

---

١ ـ انظر . الروضتين : ٢ / ١٠٨ ـ ١٠٩ . ١١٢ ـ ١١٤ . مفرج الكروب : ٢ / ٢١٧ و ٢٢٠ . سياسة صلاح الدين . ص ٣١١ . الشرق الاوسط والحروب الصليبية : ١ / ٩٥٨ .

٢ ـ الكامل : ١١ / ٥٥٣ ـ ٥٥٤ . سعداوي . التاريخ الحربي ـ المصري : ١٩٥ ـ ١٩٦ .

١ ـ انظر : النوادر السلطانية ص ٨٤ . كلاي . فتح القسطنطية ص ٧٥ ـ ٧٦ .

٢ ـ انظر : الروضتين ٢ / ١٢٥ ـ ١٣٧ . الكامل : ١٢ / ٧ ـ ٢٣ مفرج الكروب : ٢ / ٢٥٢ ـ ٢٧٤ . السلوك ١ . ٩٩ ـ ١٠٠ Champdor. Saladin, P.P. 193-199.

العسكرية ان الهدف من بقائهم في الشام هو اكمال عملية التحرير وانه لاشيء يعلو على ذلك الهدف . ولذلك عاد صلاح الدين من تحرير حصن كوكب مر بمدينة دمشق فوجد متولي الديوان فيها (الصفي بن القابض) قد هيأ له دار جميلة مطلة على الشرفين فيها العديد من وسائل الراحة . فلما رآها صلاح الدين اعرض عنها وقال : « مايصنع بالدار من يتوقع الموت ؟(٣) » .

« الحملة الصليبية الثالثة وسقوط عكا »

ان انتصار صلاح الدين في حطين وماعقبه من نجاح في تحرير بيت المقدس ومعظم ساحل بلاد الشام من ايدي الصليبيين ، احدث رد فعل عنيف في اوربا دفع بمعظم ملوكها الى تناس احقادهم والاتفاق على حرب المسلمين في الشام واعادة بيت المقدس الى حظيرتهم . وكان اول من استجاب لتلك الدعوة وليم الثاني ملك صقلية النورماني الذي عقد صلحاً مع البيزنطينين وارسل الى بقية ملوك اوربا يدعوهم فيه للقيام بحملة صليبية جديدة . بعد ان ارسل في صيف سنة ١١٨٨ م / ٥٨٤ هـ اسطول يحمل عدة مئات من فرسانه لمساندة الصليبيين في صور ، او تعبيراً منه لملوك اوربا عن عزمه الصادق في مقاومة المسلمين(١).

وقد تلقت البابوية ايضاً انباء انتصارات صلاح الدين وماحل بالصليبيين من خسائر عن طريق رئيس أساقفه صور فبادر على الفور جريجوري الثامن الى ارسال كتيبة الى سائر انحاء اوربا يدعوهم الى حمل السلاح والى اتخاذ الصليب بعد ان وعدهم بغفران الذنوب ، وقد واصل اعماله البابا كلمنت الثالث الذي اتصل بملكي فرنسا وانجلترا وطلب ارسال حملة سريعة لانقاذ الموقف . بعد ان استجاب لندائه من قبل الامبراطور فردريك بربروسا ملك المانيا(٢).

استجاب ملكا فرنسا وانجلترا لنداء البابا ونسياكل شيء واتفقا على وجوب الذهاب الى الشرق واقتسام مايحصل لديهم من غنائم وعلى فرض ضريبة عشرية على كل من لم يشترك من رعاياهم في الحرب ضد المسلمين واطلق عليها « عشور صلاح الدين(٣) » .

٣ ـ راجع بخصوص مواصلة صلاح الدين لعملية التحرير واسباب نجاحه سياسة صلاح الدين ص ٣١٦ ـ ٣١٨

١ ـ انظر : السلوك : ١ / ١٠١ . الشرق الاوسط والحروب الصليبية ١ / ٨٨٣ .

٢ ـ عاشور الحركة الصليبية : ٢ / ٨٤٤ .

٣ ـ نوري . سياسة صلاح الدين ص ٣٢٠ .

وهكذا نجح البابا وانصاره من رجال الدين في اثارة الباعث النفساني والديني لدى العالم الاوربي ، حيث استخدموا الاساليب الدعائية التي تقوم على اثارة العواطف الدينية في استقطاب قواهم . فقد لبس الرهبان والقسوس وخلف كثيراً من مشهوريهم وفرسانهم السواد بقيادة بطريرك القدس الذي اكرمه صلاح الدين واخرجه من القدس ـ واخذ وا يطوفون في العديد من المدن الاوربية مما اشعلوا روح العداء ضد المسلمين ودفعوا بالكثيرين رجالاً ونساء ان يتطوعوا في الحرب او ان يقدموا ماعندهم من اموال عوضاً عن انفسهم . حتى ان اربع شواني امتلأت بالاموال من مدينة رومية الكبرى لوحدها(٤).

وقد كان امبراطور ألمانيا أسرع للعمل من غيره فقد تحرك في جمادي الأولى سنة ٥٨٥ هـ / أيار سنة ١١٨٩ م بما يقرب من مائة ألف محارب عن طريق البر ماراً بمدينة القسطنطينية عبر هنغاريا . غير أن هذه الحملة واجهت عداء كبيراً من قبل الامبراطور البيزنطي أسحق الذي أنتقم لنفسه من بربروسا الذي كان قد تحالف مع النورمان ضده . مما دفعه بالمقابل أن يعقد صلحاً مع صلاح الدين الذي كان يخبره بموجبه بكل تحركات الحملة الالمانية التي كانت نتيجتها الفشل بسبب موت قائد الحملة وما تعرض له من هجمات شديدة كان يشنها السلاجقة الاتراك وأهالي حلب والدولة البيزنطية(١).

لقد كان الهدف الأول من مجيء الحملة الالمانية والنجدات الصليبية القادمة هو مساندة القوة الصليبية التي خرجت من صور لاحتلال عكا والتوجه بعدها للقدس بقيادة الملك جاي لوزجنان . أسير صلاح الدين بعد معركة حطين وقد أطلق سراحه بعد أن وقع على نفسه عهداً بان لا يحارب المسلمين ـ الذي نكث العهد وجمع تحت لوائه ٢٠,٠٠٠ صليبي أخرجهم من صور ومن الامدادات التي وصلت اليه عن طريق البحر وتوجه بهم الى عكا وكان صلاح الدين عندها مخيماً على الشقيف أرنون فآتاه الخبر فلم يصدقه لانه لم يتوقع الخيانة من الملك جاي الذي عومل بالاحسان . ولما تيقن صدق الخبر أسرع الى أستدعاء العساكر فأتته من الموصل والجزيرة ومصر وسنجار وحلب أنه دليل على أن شعور المسلمين كان حياً وواحداً(٢).

---

٤ ـ انظر : الكامل : ١٢ / ٢٣ . عاشور . اوربا العصور الوسطى : ١ / ٤٦٦ / ٤٦٧ .

١ ـ لمعرفة المزيد من الحملة الالمانية وأسباب فشلها أنظر : مفرج الكروب : ٢ / ٣١٧ ـ ٣٢٥ و ٣٢٩ . الروضتين : ٢ / ١٥٠ و ١٥٤ ـ ١٥٥ ؛ البداية والنهاية : ١٢ / ٣٣٦ ؛ الحركة الصليبية : ٢ / ٨٤٥ الشرق الأوسط والحروب الصليبية : ١ / ٨٨٦ . سياسة صلاح الدين : ٣٢٥ .

٢ ـ انظر النوادر السلطانية : ١٠٣ . مفرج الكروب : ٢ / ٢٩١ ـ الحركة الصليبية : ٢ / ٨٥٥ .

على كل حال فصلاح الدين لم يتمكن من التصدي للصليبيين الخارجين من صور ويمنع وصولهم الى عكا وذلك لمخالفة بعض امرائه لخطته العسكرية وبذلك وصل الصليبيون الى عكا وحاصروها حصاراً شديداً في البحر الى البحر من الجانب الآخر . وبذلك فوت أولئك القادة فرصة طيبة على صلاح الدين كان بأمكانه أن يسحق تلك القوة الصليبية قبل أن تصل الى عكا ويستفحل أمرها(١). وذلك لان الصليبيين عندما حاصروا عكا عن طريق البحر سيطروا على خطوط الأمدادات البحرية وقد ذكر الشاعر الصليبي أمبروز – وهو معاصر للاحداث بأن أسطولاً كبيراً وصل الى عكا من شمالي فرنسا بعد أن باع قائده كل أراضية وممتلكاته وجلب معه أربعة عشر ألف فارس ، كما وصل الدانمارك وبيزا وبذلك بلغ عدد الصليبيين المجتمعين حول عكا أكثر من ثلاثين ألف جندي(٢).

كذلك وصلت في هذه الفترة عن طريق البحر سفينة صليبية فيها ثلاثمائة أمراة صليبية « متزينة قد أجتمعن وأنتدبن للجزائر ... وتأهبن لاسعاد الاشقياء وتلهين على السفاح والفساد من كل زينة .. فأجرة نجلاء كحلاء فوصلن وقد سبلن أنفسهن .. وذكرن أنهن قصدن بخروجهن تسبيل فروجهن .. وتفردن بما ضربنة من الخيم والقباب(٣) » .

وهذا النص دليل على أن الصليبيين أستخدموا الجنس أيضاً كسلاح في حربهم للمسلمين لاشغالهم عن متابعة مهمة الجهاد لانهن نقبن خيمهن في مناطق قريبة من العسكر الايوبي * .

ولم تنقطع الامدادات الصليبية من الغرب الاوربي للصليبين المحاصرين لعكا ، في الوقت الذي لم يستطيع فيه العسكر الاسلامي ايصال أية امدادات للمسلمين الذين بعكا وذلك لشدة الحصار المضروب عليهم يقول شامبرور ان عدد الصليبين المحاصرين لعكا وصل الى خمسة آلاف فارس ومائة ألف راجل وكان البحر يمدهم بالعدد والعد . وكان المسلمون اذا ما أسروا فرداً من الصليبين فأنهم كانوا لا يقدرون على التفاهم لاختلاف لغاتهم مما جعل من الصعوبة كشف أسرارهم . ففي ١٢

١ – أنظر النوادر السلطانية : ١٠٣ . مفرج الكروب : ٢ / ٢٩١ . الحركة الصليبية : ٢ / ٨٥٥ .

٢ – لامب . شعلة الاسلام : ١٥٧ و ١٥٨ .

٣ – الاصفهاني . الفتح القيس في الفتح القدس ص ٢٢٨ – ٢٢٩ .

* – يقال أن تلك النساء الزينات دخلوا أيضاً مدينة عكا التي كانت خاضعة للصليبيين وهناك تحولت المدينة الى خانة كبيرة من الفسق والفجور ما لا يعد ولا يوصف . ثم أن عكا أخذت أوليك النساء بالخروج الى يافا وبعض المناطق القريبة من المعسكرات الاسلامية حتى أن الشاعر الصليبي أمبروز المعاصر للاحداث تأوه متألماً من تلك الاعمال فقال (رحماك اللهم أبمثل هذا السلاح يسترد ميراث الرب) أنظر غروسية : ٢ / ٦٩٧ – ٦٩٨ نقلا عن زكي النقاش . العلاقات بين العرب والافرنج . ص ١٥٢ – ١٥٣ .

ربيع الاول سنة ٥٨٧ هـ/ ٢٠ سنة ١١٩١ م وصل الى عكا فيليب أغسطس ملك فرنسا ورتشارد قلب الاسد ملك انجلترا(١) الذي كان بوصولهم الى أرض الشام أن أختل ميزان القوى لصالح الصليبين وبات من المؤكد أن تسقط مدينة عكا بأيديهم .

وعلى الرغم من القوة الصليبية الضخمة والمسلحة بأحدث الاسلحة الاوربية ، والتي كانت تحت قيادة أقوى وأحسن ملوك أوربا ، فأن المسلمين بدخول عكا تمكنوا من مقاومة الحصار مدة سنتين كاملتين (٥٨٥ ـ ٥٨٧ هـ / ١١٨٩ ـ ١٩١١ م) شهدوا خلالها أضخم هجمات الصليبين على بلادهم ورغم استبسالهم في صد هجمات الاعداء عنهم ، ألا أن المدينة سقطت أخيراً وذلك لطول مدة الحصار المضروب عليهم وعدم وصول الامداد اليهم ، في الوقت الذي رغب فيه بعض قوات صلاح الدين العودة الى أهليهم ، رغم معارضة صلاح الدين المتكررة لهم ، غير أن بعضهم أصر على العودة مما أحدث نقصاً في القوات العسكرية المدافعة عن عكا فهذا عماد الدين زنكي الثاني مثلاً (أتابك سنجار) شكا الى صلاح الدين « هجوم الشتاء عليه مع عدم الاستعداد له(٢) » اضافة الى أن تقي الدين استأذن من صلاح الدين بعض الوقت لاستجماع العساكر ، غير أنه أنشغل بأمور جانبية ما تسبب في تأخير وتفويت الفرصة تأخر نصف العساكر فوات الفرصة(٣) .

هكذا أذن فالعوامل الخارجية التي أدت الى سقوط عكا تمثلت بكثرة الصليبين المحاصرين للبلد مع استمرار خطوط التموين وضخامة الاسلحة والاساطيل التي كانت تمتلكها ، في حين قابلها نقص في عدد العساكر الاسلامية المدافعة عن البلد ، مع انقطاع خطوط التموين والاتصال بأهالي عكا . أما العوامل الداخلية لسقوط عكا فقد تمثل بتواطىء بعض أهالي عكا غير المسلمين مع الصليبيين . اذ كان بعضهم مسؤولاً عن خزانة المال لمعرفتهم بالامور الحسابية ، حيث عمدوا الى المماطلة في صرف الاموال لتجنيد العسكر وكان « أذا جاءهم جماعة قد جندوا تعنتوهم بأنواع شتى تارة وتارة بأقامة معرفة وأخرى بغير ذلك مما جعل الكثير يتفرق(٤) » في الوقت الذي خرج فيه بعض نقابييهم واعان نقابي الصليبيين حتى وقعت أبدان السور وأبراجه(١) . وكانت ظروف البلد صعبة لم تسمح بعزل أولئك الموظفين من بيت المال أو تتبعهم خوف الفتنة وانشقاق الصف الداخلي ، قابلها عوامل نفسية أخرى

---

١ ـ أنظر الفتح القسي ، ص ٢٣٠ ، الروضتين : ٢ / ١٨٢ .

٢ ـ ابن شداد ، النوادر السلطانية ص ١٤٦ .

٣ ـ الاصفهاني ، الفتح القسي ، ص ٣٥٧ ـ ٣٥٨ .

٤ ـ ابن الاثير ، الكامل : ١٢ / ٥٥ .

(١) الاصفهاني ، الفتح القسي : ٣٦٦ .

أصابت المسلمين المحاصرين بعكا دفعتهم الى التواني وعدم الاستماتة في المقاومة يمكن اجمالها بما يلي :

١ ـ عدم تمكن صلاح الدين ابعاد الصليبيين عن عكا أو ايصال التموين اليها .

٢ ـ أن الأمير سيف الدين الهكاري راسل ملك فرنسا وعرض عليه تسليم عكا اليه بالامان على أن يطلق المسلمين أحراراً . فلم يجبه مما أحدث في نفوس أهالي عكا وهنا .

٣ ـ هروب بعض أمراء عكا ليلاً خارج البلد بعدما مارأوا فعل الهكاري سابق الذكر . فلما شاع الخبر ازداد أهالي عكا وهنا الى وهنهم(٢).

وهكذا اندفع أهالي عكا . مجبرين مع ماتبقى من الامراء فيها . الى أن طلب الامان من الصليبيين علهم ينجون بأرواحهم(٣). وما أن دخل الصليبيون حتى نكثوا العهد وجعلوا جميع أهله أسارى بأيديهم فقد وضعوهم في جهة من البلد واستولوا على كل متاعهم وأموالهم . ثم قبض ريتشارد ـ الذي تزعم الحملة الصليبية الثالثة بعد انسحاب فيليب ملك فرنسا ـ على الاسرى المسلمين وساقهم الى جنوب تل العياضية وأمر بذبحهم جميعاً ولم ينج منهم الا بعض الامراء ليفتدي بهم ريتشارد بعض أسرى الصليبيين(٤). وكانت هذه المذبحة عظيمة بحيث استنكرها العديد من المؤرخين الاوربيين . يقول هارولد لامب « جاءوا بألفين وستمائة من المسلمين الى السهل وأحيطوا ببطانيات علقت فوق جبال بعد أن أوثقت أيديهم وذبحوا بالسيوف ..... (وقد علل لامب أسباب تلك المذبحة بقوله) ولعل الصليبيين كانوا يرون في أعدائهم « أي المسلمين » كفاراً يجب قتلهم اين وجدوا(١) » وذلك بسبب الروح العدائية العاطفية التي غذى بها القسيسون والرهبان رجال الحرب الصليبية الثالثة . كما تبين ذلك من قبل . علماً بأن المسلمين عاملوا أسرى الصليبيين معاملة رحيمة وانسانية فاقت معاملة الصليبيين بعضهم لبعض(٢).

---

(٢) أنظر : الكامل . ١٢ / ٦٦ ـ ٦٨

(٣) من الجدير بالملاحظة أن صلاح الدين [illegible] وافق على تسليم [illegible] بالاسرى الصليبيين [illegible] ريتشارد بخصوص ذلك واتفقوا على مجموع من المال وعدد من الصليبيين [illegible] صلاح الدين لريتشارد ليطلق هو سراح مسلمي عكا [illegible] ريتشارد ماطل [illegible] الامر بقتل أسرى المسلمين . أنظر بخصوص ذلك . العريني . الشرق الاوسط والحروب الصليبية [illegible]

(٤) (4) Lane Poole, Saladin, P. 306

([illegible])

(٢) أنظر بخصوص معاملة [illegible] للأسرى [illegible]

معركة أرسوف : ٥٨٧ هـ / ١١٩١ م

ان انتصار الصليبيين في عكا دفعهم الى التوجه نحو الساحل الشامي لاعادة فرض السيطرة عليه بعد أن كان صلاح الدين قد حرره . وقد فضل ريتشارد المسير بقرب الساحل حيث تسير سفنه الحربية في البحر لتسانده أو لتكون ملجأ له في أوقات الازمات . وقد قصد التوجه الى عسقلان ومنها الى بيت المقدس . حيث تكون الاولى قاعدة له ينطلق فيها للسيطرة على الثانية(٣).

وكان صلاح الدين بروحه العالية يأمل منازلة الصليبيين منازلة مكشوفة ليأخذ بثأر مسلمي عكا . ولذلك تتبع مسير الجيش الصليبي في البر وأخذ يرسل بعض قواته لمداهمة مؤخرة الجيش الصليبي . فكانوا يناوشون الصليبيين ويقتلون بعض خيولهم . وكل أسير يقع في أيديهم يقتلونه بمن قتل بعكا(٤). ولما قاربوا قيسارية لاحقهم المسلمون واشتدوا في قتالهم وأنزلوا بهم خسائر كبيرة . حتى أن ريتشارد نفسه أصيب بجراح في جانبة الايسر من جراء بعض مناوشات الفرسان المسلمين(٥) مما دفعه الى طلب الصلح مع صلاح الدين(٦). الذي كان عندها راغباً في مماطلة الصليبيين حتى تصل اليه بعض قواته . فتظاهر بقبول مبدأ التفاوض مع ريتشارد وأناب عنه أخاه الملك العادل في التفاوض . ولما أصر ريتشارد على مبدأ اعادة القدس وساحل بلاد الشام اليهم لم يبق أمام الطرفين سوى الحرب(١).

في الوقت الذي ابتعدت فيه الجيوش الصليبية عن الساحل . بسبب الظروف الطبيعية . عزم صلاح الدين الاشتباك معهم بمعركة فاصلة . وكان قد اختار قرية دير الراهب موضعاً له . ولما وجد ريتشارد اصراراً من صلاح الدين بدخول الحرب تقدم اليه في ١٤ شعبان سنة ٥٨٧ هـ / ٧ سبتمبر سنة ١١٩١ م . ولم يكد الجيش الصليبي يصل بساتين أرسوف حتى دارت رحى المعركة التي انهزم فيها العسكر الايوبي ودخل بساتين أرسوف بسبب عدم توقعه هجمة الصليبيين عليه هجمة واحدة مباشرة . غير أن انتصار الصليبيين هذا لم يتحقق بشكل كامل لأن الصليبيين لم يلحقوا بالعسكر الايوبي وظنوها مكيدة خطط لها من قبل صلاح الدين وبذلك لم يتابع ريتشارد انتصاره(١).

---

(٣) أنظر : العريني . الشرق الاوسط والحروب الصليبية ١ / ٩٥٦

( ) مدينة تقع في أعالي فلسطين على البحر . استولى عليها الصليبيون سنة ٥٤٨ هـ ثم حررها صلاح الدين سنة ٥٨٣ هـ ثم خربت سنة ٥٨٧ هـ لاسباب عسكرية خوفا من سيطرة الصليبيين عليها .

(٤) ابن شداد النوادر السلطانية ١٦١ . ابو شامة . الروضتين ٢ / ١٩٠

(٥) الشرق الاوسط والحروب الصليبية ١ / ٩٥١ . ٩٥٩ .

(٦) الحركة الصليبية ٢ / ٨٧٥ (١) السابق :

(١) ابن خلدون . التاريخ ٥ / ٤٧٨ . ابن واصل . مفرج الكروب ٢ / ٣٦٦ ـ ٣٦٧ .

ولولا وجود صلاح الدين في ساحة المعركة لخسر العسكر الايوبي خسارة فادحة نظراً لان صلاح الدين كان يتنقل بين جماعة وأخرى من عساكره، ويثبتهم على القتال بعد أن كادوا ينهزمون. يقول ابن شداد: «فلما رأى السلطان مانزل بالمسلمين سار حتى أتى طلبه. فوقف فيه والناس يفرون من القتال وكلما رأوا فاراً من الحرب يحضره عنده. فاجتمع في الطلب خلق عظيم، ووقف العدو في مقابلتهم على رؤوس التلول والروابي، وخاف العدو أن يكون في الشعرا كمين فتراجعوا يطلبون المنزلة[٢]». أما باقي العسكر المنهزم، فان كلُّ من رأى صلاح الدين مع جماعة من الجند واقفين مقابل العدو يعود الى العسكر مسرعاً ولا يتجاوزه استحياء من صلاح الدين والهزيمة[٣] وكانت معركة أرسوف هذه هي المعركة الاولى التي تحسس فيها صلاح الدين قوة ريتشارد وكان من نتيجتها أن اضطر الى تبديل خطته العسكرية في القتال كما سنجد من تخريبه لمدينة عسقلان والرملة. ومما هو جدير بالذكر أنه لم يلق مصرعه من المسلمين في هذه المعركة الا عدد ضئيل، ولم يكن بين القتلى أحد من الفرسان المشهورين وأكثر ماكان لهذه المعركة من أثر، انها رفعت معنويات الصليبيين وزادت من تصميمهم في التوجه نحو القدس لاحتلالها من جديد[٤].

تخريب مدينة عسقلان:

توجه صلاح الدين بعد معركة أرسوف نحو الرملة حيث اجتمعت لديه العساكر والاثقال، ومن هناك أخذ يخطط للعمل الواجب اتخاذه في المستقبل القريب، خاصة وان الصليبيين سوف يتوجهون نحو القدس، وسيكون في طريقهم بعض المدن الاسلامية الصغيرة. ولذلك تطرق مجلس صلاح الدين الى مدينة عسقلان والعمل الواجب اتخاذه نحوها، وقد أشير على صلاح الدين بخرابها خوفاً من أن يحتلها الصليبيون وهي عامرة فيقتلوا من بها من المسلمين، ثم تكون ركيزة في الاستيلاء على القدس وفي قطع طريق مصر[١].

لم يرض صلاح الدين أول الأمر بخرابها وندب الناس لدخولها فلم يجبه احد لقرب عهدهم من عكا، وما جرى للمسلمين فيها من القتل على ايدي الصليبيين، وكان طوال الليل مستيقظاً يفكر بالامر. وفي الصباح الباكر استدعى

---

(٢) ابن شداد. النوادر السلطانية: ١٨٤.

(٣) الروضتين: ٢ / ١٩١. مفرج الكروب: ٢ / ٣٦٨.

(٤) أنظر: الشرق الاوسط والحروب الصليبية: ١ / ٩٦٤ ـ ٩٦٥.

(١) أنظر: ابن تغرى بردى. النجوم الزاهرة: ٦ / ٤٦. الحركة الصليبية: ٢ / ٨٧٦

اليه القاضي الفاضل ابن شداد ، وابنه الملك الافضل وشاورهما في معنى خرابها بعد أن صرح بقوله : والله لأن أفقد أولادي كلهم أحب الي من أن أهدم منها حجراً واحداً . ولكن اذا قضى الله بذلك وعينه لحفظ مصلحة المسلمين طريقاً فكيف أصنع ؟(٢) » . وبذلك فضل صلاح الدين مصلحة المسلمين على محبته للبلد فاستدعى عساكره لهدم البلد مبتدئاً باسواره وذلك ليلة الخميس ١٩ شعبان سنة ٥٨٧ هـ .

وقد استمر تخريب البلد بحدود عشرة أيام وسط بكاء اهلها عليها وهذا الاسراع في هدمها يدل على منتهى الحزم والصواب . فلو سمع الصليبيون بالامر قبل الانتهاء منه لسارعوا اليهاواحتلوها وعندها يخسر صلاح الدين وقوع البلد بأيدي الصليبيين ونقمة اهالي البلد على تخريب بلدهم . علماً بان القائد العسكري لا يدع للظروف والمصادفات أن تتحكم في خططه وللحرب أحكام مؤلمة يضطر اليها القائد اضطراراً(١) .

اتجه صلاح الدين بعدها الى القدس ماراً بالرملة وقد أمر بتخريب حصنها في ٣ رمضان سنة ٥٨٧ هـ أو في يوم الخميس ٨ رمضان وصل صلاح الدين القدس وأخذ يتفقد وسائل الدفاع عن البلد ويأمر باصلاح مايحتاج الى الاصلاح(٢) . في حين كان ريتشارد مشغولاً باعادة بناء أسوار يافا ليتخذها حصناً له ينطلق منها نحو بيت المقدس بعد خراب عسقلان(٣) . وقد أصابه جهد كبير وكان يعانى من شدة الحرارة وكثرة الانفاق وخوفاً من عودة بعض قادته الى بلادهم في الغرب . خاصة وقد ساد في قبرص الاضطرابات(٤) ولذلك فضل ريتشارد مراسلة صلاح الدين عله يتمكن من أن ينهي الحرب بين الجانبين . وكان في هذه الفترة قد اتفق المركيس (كونراد دي مونتفرات) مع صلاح الدين على انهاء حالة الحرب بين الطرفين(٥) رغبةً من الثاني في أن يحدث انشقاقاً في القوة الصليبية .

العلاقة بين ريتشارد وصلاح الدين :

ان ماتعرض له جيش ريتشارد من مشاكل أثناء زحفه نحو القدس والتقارب الذي حصل بين صلاح الدين والمركيس ، وخوف ريتشارد من تفاقم الازمة القبرصية

---

(٢) النوادر السلطانية ، ١٧٩ ، ١٨٦ .

(١) أنظر مؤلفنا سياسة صلاح الدين الايوبي : ٣٤٠ ــ ٣٤١ .

(٢) أنظر : ابن شداد ، النوادر السلطانية : ١٨٢ ، ١٨٩ .

(٣) الروضتين : ٢ / ١٩٢ .

(٤) أنظر : عاشور ، الحركة الصليبية : ٢ / ٨٧٦ ــ ٨٧٧ .

(٥) راجع بخصوص علاقة المركيس بصلاح الدين : سياسة صلاح الدين : ٣٤١ ، ٣٨٦ ــ ٣٨٨ .

وما قد يسبب تأخيره في بلاد الشام على مصير عرشه في انكلترا . لذلك كله عزم على تجديد الاتصال بالملك العادل . نيابة عن صلاح الدين عله يظفر بصداقة صلاح الدين فيفوت الفرصة على المركيس (كونراد) وما قد يترتب على ذلك من أضعاف النشاط الحربي بين الجانبين .

هكذا اذن راسل ريتشارد الملك العادل ولاطفه وقدم له اقتراحاً للسلم يتزوج بمقتضاه العادل بالملكة جوان ـ أخت ريتشارد وأرملة وليم الثاني ملك صقلية ـ شريطة أن تكون القدس عاصمة ملكهما ، وأن تعود اليهما المدن الساحلية المهمة مثل عكا ويافا وأن يسكن القدس مع جوان القسوس والرهبان بعد أن يمنح فرسان الداوية والاسبتارية بعض القرى لارضائهم . وكان على الطرفين ايضاً أن يطلقا سراح المسجونين ، وأن يعيد صلاح الدين الصليب المقدس للصليبيين ، بينما يغادر ريتشارد الى انكلترا(١).

ورغم ماقيل من أن المفاوضات مع ريتشارد كانت لصالح المسلمين لكسب الوقت من تأجيل تأخير هجوم الصليبيين على القدس ، فانها كانت في الحقيقة ـ كما يقول ابن شداد ـ « مكر وهزل(٢)» ، خطط بها الايقاع بين الاخوين (صلاح الدين والملك العادل) ، وكانت ذكية بشكل كبير فلو رفض صلاح الدين طلب العادل لوقع الفراق بينهما ، وكان لابد أن يعقب الفراق خصومة تسبب ضعف الجيش الاسلامي وانقسامه . ولو وافق صلاح الدين على طلب العادل لاثار ريتشارد مشكلة جديدة وهي أن أخته لاتقبل الزواج من مسلم ، فان رضى العادل بدين النصرانية فمعنى هذا عودة القدس وما فتحه صلاح الدين من ساحل الشام الى ايدي الصليبيين ، وأن رفض العادل قبول دين النصرانية فسوف تعود الحالة الى وضعها الاول قبل المفاوضات ، وبذلك لا يخسر الصليبيون شيئاً .

أما الملك العادل فقد وثق بكلام ريتشارد وأحضر جماعة من الامراء وهم علم الدين سليمان ، وسابق الدين وعز الدين ابن المقدم وحسام الدين بشارة بالاضافة الى القاضي بهاء الدين ابن شداد وشرح لهم ماذكره له رسول ريتشارد من مسألة زواجه من جوان وطلب منهم الذهاب الى صلاح الدين وأخباره بالامر وجعل ابن شداد المتكلم باسمه والباقين شهودا . فلما سمع صلاح الدين وافق عليها كي

---

(١) أنظر : الكامل في التأريخ : ١٢/ ٧٢ . النوادر السلطانية : ١٨٧ ـ ١٨٨ . الشرق الاوسط والحروب الصليبية : ١/ ٩٧٥ .

(٢) النوادر السلطانية : ١٨٨ .

لا يحدث انشقاقاً بينه وبين أخيه . ولأنه كان معتقداً بأن ذلك الامر لن يتم وأنه مكر وحيلة من ريتشارد(١).

وقد أخبر العادل بموافقة صلاح الدين فأوفد رسوله في الحال الى ريتشارد يعرفه بالموافقة على الشروط التي عرضها . غير أن ريتشارد أجابه بامتناع أخته عن الزواج من مسلم وعرض عليه دين النصرانية كبديل لحل المشكلة . غير أن العادل رفض التنصر وبقي الامر على سابق عهده .

وبذلك حصل ماتوقعه صلاح الدين وتبين مكر ريتشارد الذي كان يقصد بمراسلته للعادل اشغاله عن التهيأ للحرب . في الوق الذي وصلت فيه الاخبار الى صلاح الدين بأن قوات الصليبيين عازمة على الخروج من يافا ومهاجمة العسكر الاسلامي والمضي بعده نحو القدس(٢).

وفعلاً تحرك الجيش الصليبي ووصل الرملة . ثم توجه الى اللد وعسكر في السهل الواقع بينهما لان صلاح الدين كان قد خربهما . أما صلاح الدين فقد توجه الى حصن النطرون . في منتصف الطريق الى بيت المقدس وأمر بتخريبه كي لا يتخذه الصليبيون حصناً لهم . وفي تلك الاثناء دخل فصل الشتاء واشتد البرد وكثرت الامطار فأذن صلاح الدين لبعض عساكره بالعودة الى أهليهم في حين تكفل أهل العصابات بالمرابطة على التلال وتعقب الصليبيين(٣) علماً بأن ريتشارد عمد الى الاستقرار بجيشه أيضاً عند بيت نوبة على مسافة أحد عشر ميلاً الى الجنوب الشرقي من اللد . وكان قد لقي في تلك الفترة جهداً كبيراً بسبب سوء المناخ والتضاريس التي لم يعرفها هو وجنده في حين كان المرابطون على التلال من عساكر المسلمين يهجمون عليهم بين الفترة والاخرى ويلحقون بهم الاضرار . حتى أن بعض الاشداء من رجال العرب كان يدخل على مخيمات الصليبيين خفية فيضعوا الخناجر على نحورهم فيضطر الصليبي أن يسكت ولا يتجاسر على الكلام فيؤخذ الى العسكر الاسلامي حياً مع معداته وأمواله(١).

ورغم المناوشات التي كانت تجري بين الفريقين والاضرار التي كان يلحقها العسكر الاسلامي والاعراب بمؤخرات العسكر الصليبي . فان ريتشارد كان يحاول

---

(١) راجع مؤلفنا : سياسة صلاح الدين الايوبي : ٣٤٢ ـ ٣٤٣ .

(٢) أنظر : النوادر السلطانية : ١٩٥ ـ ١٩٦ . مفرج الكروب : ٢ / ٣٧١ ـ ٣٧٢ . الشرق الاوسط والحروب الصليبية : ١ / ٩٧٥ ـ ٩٧٦ : Rosebault, Saladin, P. 280.

(٣) الكامل : ١٢ / ٤٨ .

(١) ابن شداد . النوادر السلطانية : ١٩٢ ـ ١٩٣ .

بعد فشل كل محاولة للصلح أن يتقرب من العادل ويطلب منه مراسلة صلاح الدين علّه يظفر بقبول صلاح الدين على عقد هدنة تضمن له نوعاً من المكاسب يحفظ بها ماء وجهه بعد عودته الى وطنه خاصة وأنه كان يعاني من كثرة الانفاق على العساكر . وهكذا كتب ريتشارد الى صلاح الدين كتاباً جاء فيه :

« أن المسلمين والفرنج قد هلكوا . وخربت البلاد وتلفت الاموال والارواح وقد أخذ هذا الامر حقه . وليس هناك حديث سوى القدس والصليب . والقدس متعبدنا مانتنزل عنه ولو لم يبق منا واحد . وأما البلاد فيعاد الينا ماهو قاطع الاردن . وأما الصليب فهو خشبة عندكم لامقدار له وهو عندنا عظيم . فيمن السلطان علينا ونستريح من هذا العناء الدائم(٢) » .

غير أن صلاح الدين لم يرضى بأنصاف الحلول أو الحلول الشكلية التي تقدم للصليبيين التنازلات لانه كان يرى بصدق وعزيمة أن أرض الشام هي ملك المسلمين . وهم أهل البلاد الاصليين . وأن استيلاء الصليبيين عليها كان طارئاً . ولذلك فأنه لايجب لأي حاكم أو السلطان التنازل عن شبر واحد منها الا لمصلحة المسلمين وبموافقتهم ولذلك أجاب ريتشارد بكتاب جاء فيه : « القدس لنا كما هو لكم . وهو عندنا أعظم مما هو عندكم . فانه مسرى نبينا ومجتمع الملائكة . فلا يتصور ان ننزل عنه . ولا نقدر على التلفظ بذلك بين المسلمين . أما البلاد فهي لنا في الأصل واستيلاؤكم كان طارئاً عليها لضعف من كان بها من المسلمين في ذلك الوقت . وأما الصليب فهلاكه عندنا قربة عظيمة ولا يجوز لنا أن نفرط فيه الا لمصلحة راجعة الى الاسلام هي أوفى منها(١) » .

وهكذا رفض صلاح الدين مقترحات ريتشارد وأصر على مجاهدة أعدائه ولم يمض الا أيام . وفي عشية يوم السبت ١٩ شوال سنة ٥٨٧ هـ . وصل الى صلاح الدين رسول من ريتشارد صحبه شيخ كبير جاوز المائة عام وطلب مقابلة صلاح الدين وأوضح له بأن ريتشارد صادق في طلب وده وارضائه وأنه يطلب منه أن يكون حكماً بين أخيه الملك العادل وريتشارد في اقتسام ساحل الشام الذي كان صلاح الدين قد منح ولايته لأخيه العادل ـ كي لا يوقع على العادل لوماً من جانب المسلمين . ولا على ريتشارد من جانب الصليبيين فأجابه صلاح الدين بوعد جميل تضمنت عبارات الرضاء . فعاد الرسول مسروراً الى ريتشارد . وعلى الفور أرسل ريتشارد رسولاً الى صلاح الدين يفاتحه بشأن أسرى الحرب . غير أن صلاح الدين

---

(٢) ابن واصل . مفرج الكروب : ٢ / ٣٧٢ ـ ٣٧٣ .

(١) نفس المصدر السابق : ٢ / ٣٧٣ .

لم يكن راغباً في الصلح مع أعدائه ولذلك رفض الحديث مع رسول ريتشارد بشأن الاسرى وأوضح له بأنه أما أن يكون صلحاً عاماً بين الطرفين أو لا يكون حديث صلح بشأن الاسرى فقط . وكان هدف صلاح الدين من هذه السياسة فسخ قاعدة الصلح التي لوح بها لرسول ريتشارد من قبل . وقد أوضح صلاح الدين لكاتبه القاضي ابن شداد أسباب تغير موقفه بقوله : « متى صالحناهم لم تؤمن غائلتهم . فاني لو حدث لي حادث الموت ماتكاد تجتمع هذه العساكر . ويقوى الفرنج والمصلحة الانزال على الجهاد حتى نخرجهم من الساحل أو يأتينا الموت(٢) » .

هكذا اذن كان صلاح الدين يريد حل المسألة حلًا جذرياً عن طريق مغادرة الصليبيين للأراضي التي احتلوها . ولذلك كان يرى ضرورة استمرار القتال . غير أن ريتشارد كان يريد أن يتوقف القتال لخدمة أهداف الصليبيين عن طريق الاعتراف بقوة الصليبيين في جزء من القدس وساحل الشام . وكان مستعداً في هذه المرة لنيل هدفه بتزويج أخته البكر للملك العادل . كأساس لحل المشكلة . غير أن صلاح الدين رفض طلبه ولذلك استمرت المناوشات بين الجانبين حتى دخلت سنة ٥٨٨ هـ / ١١٩٢ م ففي ٣ محرم أغار ريتشارد على سرية للمسلمين وغنم ماكان بها . وفي ١١ محرم كبس الامير عز الدين جرديك حصن تينين وأسر من كان حوله من الصليبيين . وفي ٢ صفر أغار على عسقلان وجاء بثلاثين أسيراً منهم(١) .

محاولة الصليبيين حصار القدس وفشلهم :

ارتحل ريتشارد بقواته من عسقلان وبلغ بيت النوبة حيث مكث هناك شهراً ينتظر قدوم الامداد من عكا وصور وكان يتطلع منها الى القدس التي كان صلاح الدين قد عاد اليها وأخذ يخطط للدفاع عنها في حين كانت جيوشه في تلك الفترة قد بلغت الذروة من النشاط هادفة ابعاد الصليبيين عن كل الطرق التي توصلهم الى القدس ولذلك كانوا يندفعون بقوة الى مراكز تجمعات الصليبيين ويكيلون لهم الضربات ـ ففي ١٢ تموز سنة ١١٩٢ م كبسوا منطقة قلونية ـ التي تبعد عن القدس فرسخين ـ وأنزلوا بالصليبيين هزيمة ساحقة(٢) وفي ١٧ من الشهر تعرضوا لقافلة صليبية كانت تحمل المؤن من يافا عند الرملة واوقعوا بها خسائر فادحة وعادوا الى القدس بالكثير من الاسرى(٣) .

---

(٢) النوادر السلطانية : ٢٠٣ .

(١) أنظر : الروضتين : ٢ / ١٩٦ . مفرج الكروب : ٢ / ٣٨٠ ـ ٣٨١

(٢) الروضتين : ٢ / ١٩٧ . مفرج الكروب : ٢ ـ ٣٨٣ .

(٣) السابق :

غير أن حدثاً لم يكن متوقعاً . لم يلبث أن غير ذلك الموقف أن ريتشارد بفضل بعض النصارى السوريين تمكن من تحسين علاقته بالبدو في صحراء سيناء حيث أجزل لهم العطاء فصاروا يطالعونه بتحركات جيوش صلاح الدين(٤) . وكانت الوقعة المؤلمة عندما سيطر ريتشارد على قافلة مصرية ضخمة تزيد على ثلاثة آلاف جمل تحمل المؤن والمدد الى صلاح الدين وقد أخبر بتحركاتها وكمن لها عند الصباح وغنم مابها(١) . وبذلك قويت معنويات الصليبيين وتقدموا نحو القدس بعد أن كانوا مختلفين في تنفيذ هذا الهدف خوفاً واستماتة في الدفاع عن القدس . أو وقوعهم في كمين كالذي وقعوا فيه بحطين من قبل(٢).

أما صلاح الدين فأنه نتيجة لتحركات الصليبيين هذه فقد استدعى عساكره من مختلف الجهات وأمرها بالمرابطة قريباً من القدس . في حين أخذ يسرع باكمال ترميمات سور القدس وكان يشتغل مع العسكر بنفسه لاتمام المهمة . كما أمر بافساد المياه الموجودة في ظاهر القدس حيث خرب كل الصهاريج المنتشرة هناك بحيث لم يبق حول القدس مايشرب أصلاً . ومن جهة ثانية التفت صلاح الدين الى العمل من أجل رفع الروح المعنوية للمقاتلين ودفعهم الى الاستماتة في القتال عن طريق تذكيرهم بالجهاد في سبيل الله واليوم الآخر وقد أمر صلاح الدين القاضي بهاء الدين ابن شداد بالقاء الخطب في معنى الجهاد وأهميته والبيعة على الموت في لقاء العدو(٣).

ولم تمض الا ساعات حتى تقدم الامراء والاجناد الى صلاح الدين لمبايعته على المضي في قتال العدو والدفاع عن القدس حتى الموت . وقد جاءت الظروف مواتية لصلاح الدين حيث لم يتقدم ريتشارد لحصار القدس . ففي صبيحة يوم السبت ٢١ جمادي الاخرة / ٤ تموز وصلت الى صلاح الدين الاخبار بأن الصليبيين أوقفوا تقدمهم نحو القدس وان ريتشارد يعارض بشدة حصار بيت المقدس لتعذر الحصول على الماء . وكثرة من بداخل البلد وخارجه من العساكر الاسلامية(٤) . ويقال أن ريتشارد درس وضعية القدس عن كثب وألقى نظرة فاحصة على أسوارها ثم غير خطته القاضية بحصارها بعد أن صرح للصليبيين قوله : « لم يعد البحر على يميننا

---

(٤) أنظر : العريني . الشرق الاوسط والحروب الصليبية : ١ / ٩٩٥ ـ ٩٩٦ .

(١) أنظر بخصوص عدم حرص الصليبيين منازلة بيت المقدس في هذه الاثناء : العريني . الشرق الاوسط والحروب الصليبية : ١ / ٩٩٤ ـ ٩٩٥ .

(٢) الروضتين : ٢ / ١٩٨ . تأريخ ابن الفرات . م ٤ : ٢ / ٦٨ ـ ٦٩ .

(٣) انظر الكلمة التي ألقاها صلاح الدين على جنده وأثرها : ابن شداد . النوادر السلطانية : ٢١٦

(٤) ابن شداد . النوادر السلطانية : ٢١٧ .

ولا المستنقعات لكي تحمينا ... وأنه يستحيل تطويق أي مكان مادام صلاح الدين حياً ، وما دام المسلمون متحدين مع بعضهم[1] » .

وهكذا انسحب ريتشارد عن القدس وقرر مفاتحة صلاح الدين حديث الصلح عله يصل الى بعض أهدافه صلحاً . خاصةً وأنه قد وجد عزيمة من قوات المسلمين في الدفاع عن القدس وفي مقاتلة الصليبيين . علماً بأن أخباراً وصلت الى ريتشارد تؤكد حدوث بعض الاضطرابات الداخلية في بلاده وقد فضل الاسراع بالعمل ليتمكن من العودة ولو بتحقيق أبسط النتائج ولذلك أرسل الى صلاح الدين كتاباً أوضح له فيه حسن نواياه ورغبته الأكيدة بالوصول الى عقد هدنة تضمن مصالح الجانبين . فاستشار صلاح الدين أصحابه بالأمر فأجابوه بالمصالحة لقلة التموين وتعب العساكر وضجرها من مواصلة الحرب . وقد انتهت المحادثات بأن تكون القدس للمسلمين ويكون للصليبيين فيها الزيارة فقط من دون أن يؤخذ منهم ضريبة . وأن تخرب مدينة عسقلان وما وراءها من البلاد كي لاتكون ملجأ للصليبيين ومركزاً يشننون منها غاراتهم على القدس في المستقبل غير أن ريتشارد رفض تخريب عسقلان وأنهى معاهدة الصلح بالفشل[2] .

ولما فشلت المحادثات السابقة . أراد صلاح الدين أن يبرهن لاعدائه تفوقه العسكري واستعداداته الكاملة للحرب ولذلك تقدم الى مدينة يافا يوم الثلاثاء (١) رجب سنة ٥٨٨ هـ / ٢٧ تموز سنة ١١٩٢ م وتمكن من تحرير المدينة بعد أن استولى على كل مابها من أموال وعدد وأثاث وبقايا قماش مما كان قد نهبه العسكر الصليبي من القافلة المصرية التي استولى عليها ريتشارد أثناء عبورها للشام . وقد مر ذكرها من قبل . ولما علم صلاح الدين بتقدم ريتشارد بكل قواته نحو يافا لاستعادتها انسحب منها . لأنه لم يشأ الاصطدام مع عدوه داخل حدود المدينة وفضل الاشتباك معه في ساحات القتال المكشوفة . ولما وصل ريتشارد الى ربض يافا تعجب من سرعة تمكن صلاح الدين من تحريرها فقال : « والله ماظننته (أي صلاح الدين) يأخذ يافا في شهرين . فكيف أخذها في يومين ؟[4] » .

وقد دفع نشاط صلاح الدين في عملياته العسكرية هذه . والظغوط الشديدة التي كان يلاقيها ريتشارد من الصليبيين في الشام ومن الانكليز الذين كانوا يحثونه على

---

(١) أنظر : سيرة صلاح الدين لايوبي : ٣٥١ .

(٢) نفس المرجع السابق : ٣٥٣

(٣) مفرج الكروب : ٢ / ٣٩٤ .

(٤) السابق ٢ / ٣٩٩

العودة الى وطنه(١) الى تجديد محادثات الصلح مع صلاح الدين باي وسيلة كانت ولذلك ارسل الى صلاح الدين رسولاً يطلب منه يافا وعسقلان ويتنازل هو عن القدس كحل للمشكلة غير ان صلاح الدين رفض طلبه وقدم له اقتراحاً يمنحه قيسارية الى صور . فرضي بذلك ريتشارد ثم ترجى من صلاح الدين ان يمنحه يافا وعسقلان عساكرها في خدمته متى شاء(٢) . غير ان صلاح الدين رفض منحه عسقلان كي لاتكون ملجأ للصليبيين يتخذونها مركزاً لشن غاراتهم على القدس في المستقبل . الا ان الحاح ريتشارد دفع بصلاح الدين الى الموافقة على جعل البلدين (يافا وعسقلان) مناصفة بين الطرفين : يافا وما وراءها لريتشارد وعسقلان وما وراءها للمسلمين(٣) . وهكذا تم الاتفاق على عقد هدنة بين الصليبيين والمسلمين وكان ذلك في ٢٠ شعبان سنة ٥٨٨ هـ / ١١٩٢ م وقد تضمنت اهم شروط الاتفاقية مايلي :

(١) تكون الهدنة عامة في البر والبحر ومدتها ثلاث سنوات وثلاث شهور اولها الموافق ٢١ شعبان / ٢٢ ــ ٩ ــ ١١٩٢ م

(٢) تكون مدينة عسقلان خراباً .

(٣) تكون مدينة الرملة واللد مناصفة بين الطرفين .

(٤) للنصارى الحرية التامة في زيارة الاماكن المقدسة في القدس دون ان يؤدوا ضرائب للمسلمين .

(٥) تتم هذه الاتفاقية بعد ان يحلف عليها ملوك وامراء كلا الطرفين(٤)

حلف كلا الطرفين على مضمون الاتفاقية السابقة وكان يوم الصلح يوماً مشهوداً عمت فيه الفرحة وكان على اثره ان ذهب جماعة من التجار المسلمين الى يافا في طلب التجارة . كذلك وصل القدس عدد كبير من الصليبيين لاداء فريضة الحج(١) . وبفضل هذه المعاهدة ايضاً توقفت الاعمال الحربية لصلاح الدين . على انه مما يجب ذكره ان صلاح الدين بقي خمس سنوات يقاتل اعداءه من غير توقف حرر بموجبها معظم فلسطين وساحل بلاد الشام فيما عدا شريط

---

(١) انظر : لامب . شعلة الاسلام : ٢٤٧ .

(٢) انظر : النوادر السلطانية : ٢٢٨ .

(٣) السابق .

(٤) لمعرفة المزيد عن صلح الرملة هذا انظر : النوادر السلطانية : ٢٣٠ ــ ٢٣٥ . الكامل في التاريخ : ١٢ / ٨٥ ــ ٨٦ . مفرج الكروب : ٢ / ٤٠٢ ــ ٤٠٤ . النجوم الزاهرة : ٦ / ٤٨ . البداية والنهاية : ١٢ / ٣٥٠ ــ ٣٥١ . الشرق الاوسط والحروب الصليبية : ١ / ١٠٠٦ ــ ١٠٠٩ . سياسة صلاح الدين : ٣٥٣ ــ ٣٥٥ .

(١) انظر : الاصفهاني . الفتح القدسي : ٤٤٠ ــ ٤٤١ . العليمي . الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل : ١ / ٣٩٠ .

على الساحل يمتد من صور الى يافا وهذه الاملاك التي بقيت بيد الصليبيين تعتبر ضئيلة بالقياس الى مادفعوه من ثمن باهظ . فبالرغم من عظم الحملة الصليبية الثالثة التي اشتركت فيها معظم دول اوربا وبكل طاقاتها فان بيت المقدس بقي بحوزة المسلمين ولم تفلح اوربا في القضاء على صلاح الدين في حين شتت هذه الحملة الصليبية معظم ملوك وامراء اوربا .

ومما هو جدير بالذكر ان التوصل الى عقد الهدنة السابقة في تلك الفترة ، خدم مصلحة الطرفين ، فلو لم يقع الصلح وحدثت حادثة وفاة صلاح الدين التي وقعت بعد اقل من سنة من عقد الصلح ـ لوقع على المسلمين خطر كبير ، ولضاعت على ريتشارد من جهة ثانية ممتلكاته في انجلترا لعدم تمكنه من العودة اليها ثم ان صلاح الدين لم يقبل الصلح الا بعد الحاح الامراء عليه وطلبهم منه الموافقة على عقد الصلح مع الاعداء(٢) ، وقد احتجوا بقولهم : « فانظر الى احوال البلاد فانها خربت ... والاجناد فانها تعبت ... والجياد فانها عطلت وقد اعوزت العلوفات وغلت الالات ولا جلب الامن الديار المصرية مع ركوب المخاطر ... وهؤلاء الفرنج اذا يئسوا من الهدنة بذلوا وسعهم في استفراغ المكنة واستنفاذ المنة ... والصواب ان تقبل من الله الاية التي انزلها (وان جنحوا للسلم فاجنح لها) وحينئذ تعود الى البلاد سكانها وعمارها وتكثر في مدة الهدنة غلاتها واثمارها ... فاذا عادت ايام الحرب عدنا وقد استظهرنا وزدنا »(٣)

وهكذا يبدو مما سبق ان صلاح الدين ومقاتليه وافقوا على قبول هدنة مؤقتة مع الصليبيين(١) لاتخاذ زمنها وسيلة للاعداد للحروب القادمة التي لا بد منها طالما ان الصليبيين لم يخرجوا كلياً من على ارض الشام ، خاصة وان الاستمرار في القتال قد اتعب العساكر الاسلامية كثيراً واجهدها نظراً لفقدان العدة وغلاء اسعار الغلات والعلوفات .

وبذلك فان صلاح الدين لم يعقد مع اعدائه معاهدة سلام . لان هناك فرقاً بيناً بين السلم والسلام وبين الامن والامان . فالسلام حالة تنتفي فيها حالة الحرب .

---

(٢) انظر : مؤلفنا : سياسة صلاح الدين : ٣٥٦ .

(٣) الاصفهاني . الفتح القدسي : ٤٣٤ ـ ٤٣٦ .

(١) مما هو جدير بالذكر ان صلاح الدين كان يدرس فقه الجهاد في الاسلام على ايدي قضاته امثال ابن شداد والقاضي الفاضل . وكان يعلم . حسب رأي الفقهاء . ان حالة الحرب مستمرة مع الاعداء وانه لاوجود لمعاهدة سلام دائمة الا بدخولهم الاسلام او ببعدهم عن ديار المسلمين وان الحرب مستمرة لا يمكن ايقافها الا لاسباب ذرائعية تتعلق بمصالح المسلمين . وهذا الاجراء . وقف الحرب بالهدنة . يجب ان لاتزيد مدته عن عشر سنوات .

والسلم مرحلية يمكن ان تعود فيها حالة الحرب بعد حالة السلم . كذلك فالامن هو اخر مرحلة من مراحل النزاع والحروب وهو نتيجة للسلام ، اما الامان فقد يرافق حالة السلم . وبذلك فمن الواضح ان تنتكس حالة السلم بالحرب وتعود حالة الامان الى حالة الاضطراب والحرب النفسية وكما بدى من مواقف صلاح الدين مع ريتشارد ، انه قد فهم تلك المعايير . ولذلك كان يرفض عقد معاهدة سلام مع اعدائه لانه لم يكن يأمن جانبهم وكانت عبارته المشهورة : « متى صالحناهم لم نؤمن غائلتهم ... والمصلحة الانزال على الجهاد حتى نخرجهم من الساحل او يأتينا الموت »(٢) . اما المعاهدة الاخيرة التي وقعها صلاح الدين مع ريتشارد فكانت معاهدة سلم وامان مؤقتة لمدة ثلاث سنين اتخذت كوسيلة لتجميع القوة والعدد ولامور خاصة متعلقة بالعسكر مر ذكرها من قبل .

وبعد هذه الهدنة عاد صلاح الدين الى القدس في ٤ رمضان واشتغل بعمارة أسوارها وترميم حصونها وتعميق خنادقها ، ولم يغتر بما وقع من صلح مع الصليبيين خوف المكر والخديعة . وكان يجلس بالقدس الشريف بحضرة اهل العلم والدين ويناقش ويذاكر في كيفية بناء الاسوار وحفر الخنادق(١) ومن جهة ثانية فان ريتشارد ايضاً عاد الى بلاده في ٩ ــ ١٠ ــ ١١٩٢ م وكان صلاح الدين في هذه الفترة قد ترك القدس عائداً الى المدينة دمشق . مقر اعماله الاول في الشام ومحل سكنى اولاده . وقد وصلها في ٢٦ شوال سنة ٥٨٨ هـ . ولم يمكث فيها طويلاً حيث توفي في فجر يوم الاربعاء ٢٧ صفر سنة ٥٨٩ هـ (٢) .

هكذا انتهى موقف صلاح الدين من القوى الصليبية . وكان موقفاً حازماً برهن فيه صلاح الدين على مقدرة عسكرية كبيرة وفائقة ، وقسوة على النفس في مواصلة الجهاد وتحمل مشاقة جني ثماره في انتصاراته المتكررة على اعدائه . تلك الانتصارات التي تحققت بفضل امتلاك صلاح الدين وجنده صفات معنوية ومادية جليلة . بالاضافة الى الخطط العسكرية الجيدة التي اتبعها صلاح الدين . وكذلك في مشاركته الفعلة في الحرب الى جانب قواته العسكرية وقد اوضح المستشرق هاملتون جب بعض تلك المميزات الاخرى التي ساعدت صلاح الدين على تحقيق انتصاراته فقال : « جاءت بفضل امتلاكه لصفات معنوية لاتشترك مع المواهب الاستراتيجية

---

(٢) ابن شداد . النوادر السلطانية : ٢٠٣ .

(١) انظر : الاصفهاني . الفتح القدسي : ٤٤٠ . نورى . سياسة صلاح الدين : ٣٥٧

(٢) لمعرفة المزيد عن وفاة صلاح الدين وتأثر الناس وحزنهم على فقد انظر . الفتح القدسي : ٤٥٤ ــ ٤٥٦ . وفيات الاعيان : ٦ / ٢٠٠ ــ ٢٠٢ . الكامل في التاريخ ١٢ : ٩٥

الا في القليل . كان رجلاً يستمد وحيه من مثال اعلى ذي قوة وثبات ... وايمان ديني راسخ الاركان . وعندما جاء دور المدن والقلاع الصليبية . فقد استسلمت هذه بتلك السهولة لسبب رئيسي يعود الى شهرة صلاح الدين في المراعات الدقيقة للعهود التي يأخذها على نفسه وفي سماحة النفس التي لاتعرف المكر والحذر » .(٣)

(٣) صلاح الدين الايوبي : ١٥٠ ـ ١٥١ .



الباب الثالث / الفصل الثاني

«الحملات الصليبية بعد وفاة صلاح الدين وجهود الايوبيين في دحرها »

اولاً ـ انقسام البيت الايوبي
ثانياً ـ محاولة الصليبيين السيطرة على بلاد الشام
ثالثاً ـ الحملة الصليبية الرابعة وانحرافها
رابعاً ـ الحملة الصليبية الخامسة وفشلها
خامساً ـ السلطان الكامل الايوبي والامبراطور فردريك الثاني
سادساً ـ الخوارزمية واسترداد بيت المقدس
سابعاً ـ حملة لويس التاسع على مصر وفشله
ثامناً ـ الخطر المغولي على بلاد الشام ودحره في (موقعة عين جالوت)

« الفصل الثاني »

« الحملات الصليبية بعد وفاة صلاح الدين وجهود الايوبيين في دحرها »

ان مشكلتي الوحدة والتحرير كانتا من اهم المشاكل التي عانى منهما المسلمون في القرن ٦ هـ / ١١ م بعد ان اجتاحت بلاد الشام موجات الغزو الصليبي . وقد تمكن صلاح الدين ، كما مر من قبل ، من تحقيق الهدف الاول . وكان من نتائج ذلك التحقيق ان تحقق الهدف الثاني (وهو تحرير الارض من الغزاة) . وقد تم ذلك بعد مضي عدة شهور على تلك الوحدة بان هزم الصليبيون في معركة حطين وحررت القدس ومعظم ساحل بلاد الشام .

غير ان هذه الوحدة لم تستمر ، اذ سرعان ماتفككت اوصالها بسبب الخلافات الجانبية والاطماع الشخصية لامراء البيت الايوبي . مما دفع بالغزاة الصليبيين ان يستغلوا الفرصة ويعبئوا انفسهم لاحكام سيطرتهم من جديد على القدس وساحل بلاد الشام . غير انهم لم يفلحوا بفضل يقظة المسلمين وما تمخضت عنه الظروف من تزعم الملك العادل ـ اخو صلاح الدين ـ زعامة المسلمين وتمكنه من اعادة وحدة مصر والشام وبلاد الجزيرة من جديد ، ومن ثم تصديه بحزم لعدوان الصليبيين الجديد . فيما يلي عرض لهذه الاحداث .

اولاً ـ انقسام البيت الايوبي :

كان الملك الافضل ـ وهو الابن الاكبر لصلاح الدين ملازماً لابيه عند وفاته ، فاحتفظ بدمشق والقدس وبعلبك وببعض مناطق ساحل الشام لنفسه(١) . اما الملك العزيز عثمان فقد احتفظ بمصر . وقد كان عند وفاة ابيه في حين اخذ الابن الثالث ، وهو الملك الظاهر غازي ، حلب وجميع اعمالها وشمال الشام(٢) . اما الملك العادل فقد كانت حصته حكم الاردن وبلاد الجزيرة وديار بكر(٣) . اما بقية املاك الدولة الايوبية فقد وزعت على اخوة صلاح الدين اما القيادة والسلطنة قد انتقلت الى الملك الافضل ، امير دمشق ، بوصية من صلاح الدين(١)

(١) انظر : ابن الاثير ، الكامل ١٢ / ١٥٥ ـ ١٥٦ .

(٢) الاصفهاني ، الفتح القدسي : ص ٣٥٨ .

(٣) ابن واصل ، مفرج الكروب : ٢ / ٣٧٨ ـ ٣٧٩ .

(١) انظر ابو شامة ، الروضتين : ٢ / ٢٢٦ ، عاشور ، الحركة الصليبية : ٢ / ٩١٢

ورغم الزعامة التي حصل عليها الافضل ، الا انه لم يكن مرغوب فيه لسوء تصرفاته(٢) مما ادى الى ظهور الانقسامات في البيت الايوبي وبالتالي خروج الملك العزيز من مصر الى دمشق في محاولة لانتزاعها من اخيه الافضل وكان ذلك في بداية عام ١١٩٤ م مما دفع بالاخير الى الاستنجاد بعمه الملك العادل . وقد حال الملك العادل دون وصول العزيز الى دمشق وانسحابه عائداً الى مصر(٣) . ليعاود الكرة من جديد بعد عام . الا ان العادل حال دون وصوله الى دمشق من جديد بعد ان حرض ام امراءه عليه . وقد تمكن ، بفضل سياسة جيدة منه ، ان يدب النزاع بين اولاد صلاح الدين وان يكون حكماً بينهم مما مكنه من فرض كلمته عليهم ليصبح سيد الموقف(٤) . وقد اتته فرصته الطيبة عام ١١٩٨ م حيث توفي الملك العزيز ، امير مصر ، وانتقل حكم البلاد اليه(٥) وبذلك اعيد توحيد البلاد من جديد تحت زعامة الملك العادل بعد ان كان قد سيطر على بلاد الشام اثر محاولة الصليبيين احتلالها كما سنوضحه .

ثانياً ـ محاولة الصليبيين السيطرة على بلاد الشام :

ان وفاة صلاح الدين وماعقب ذلك من منازعات بين البيت الايوبي شجعت الصليبيين على القيام بحملة صليبية جديدة لاسترداد بين المقدس من المسلمين ـ دعيت هذه الحملة بالحرب الصليبية الرابعة ـ لاسيما وان صلح الرملة كان هدنة مؤقتة حددت مدتها بثلاث سنين . وعليه فان لدى الصليبيين بعد انتهاء تلك المدة ذريعة في نقضها .

وفي هذه الفترة كان امبراطور المانيا هنري السادس (١١٩٠ ـ ١١٩٧ م) من اشد المتحمسين للحروب الصليبية ، ولكن في هذه المرة بثوبها الجديد الذي قصد من اجله هنري السادس تحقيق مكاسب سياسية على حساب البابوية(٥) اذ يبدو ان

---

(٢) المقريزي ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، ١ / ١١٨ .

(٣) انظر ، مفرج الكروب ، ٣ / ٢٧١ .

(٤) عاشور ، السابق ، ٢ / ٢٧١ .

(٥) في الحقيقة كان الملك العادل اجدر ابناء البيت الايوبي بعد صلاح الدين باعتراف المؤرخين القدامى الذين نعتوه بصفات عديدة منها انه « كان عاقلاً ، ذا رأي سديد صبوراً حليماً ذا اناة » الكامل في التاريخ (بيروت ، ١٩٦٦) ، ١٢ / ٣٥١ . وذكره ابن خلكان « كان ملكا عظيما ذا رأي ومعرفة تامة ، حازما في الامور » وفيات الاعيان ، ٤ / ١٦٨ . وقد مر في الفصل السابق الشيء الكثير عن اعتماد صلاح الدين عليه وتفويضه اليه قيادة عساكر الشام ومفاوضة ريتشارد قلب الاسد .

الامبراطور هنري السادس هدف في حملته فتح القسطنطينية اولا ثم بيت المقدس . اي هدف اخضاع الدولة البيزنطية والشرق اللاتيني باجمعه لسلطته

وقد سهل هنري هذا توافد بعض جموع الصليبيين الى الشام . الامر الذي ادى الى توتر العلاقات بين المسلمين والصليبيين الذين كانوا بزعامة هنري دي شامبني ــ ملك المملكة الصليبية في الشام ــ وقد عاث اولئك الالمان فساداً في بلاد الشام وقتلوا عدداً من المسلمين(٢) . مما دفع بالملك العادل الى طلب النجدة وتعبئة الجيوش . وقد احتشد الجانبان قرب غزة . وهناك دارت معركة حاسمة انتصر فيها المسلمون وتكبد فيها الصليبيون خسائر فادحة في الارواح والاموال(٣) . ولم يكتف الملك العادل بهذا النصر بل تقدم صوب مدينة يافا ودخلها منتصراً(٤)

اما الصليبيون في الشام فقد جاءتهم الامدادات السريعة من عموري لوزجنان ــ ملك قبرص ــ حيث توجهوا الى بيروت وتمكنوا من الاستيلاء عليها تعويضاً لخسارتهم في يافا . وقد استغل امير انطاكية الصليبي هذا الامر وتقدم بعساكره الى اللاذقية وجبلة في محاولة للسيطرة عليها غير ان محاولته باءت بالفشل وذلك للحيطة والحذر التي اتخذها الملك الظاهر الايوبي ــ امير حلب ــ اما الصليبيون الالمان فقد تقدموا نحو حصن تبنين وحاصروه حصاراً شديداً . غير انهم لم يفلحوا في فتحه . فعادوا على اعقابهم خائبين الى صور . وبذلك تبددت حملتهم من دون ان تحقق اي اثر يذكر . سوى انهم اوقدوا نار الحرب . في بلاد الشام بين الصليبيين والمسلمين . بعد ان ساعدوا على نقض صلح الرملة(٥) .

ومما هو جدير بالذكر ان الملك عموري لم يكن بمقدوره لوحده محاربة المسلمين في بلاد الشام كذلك فان الملك العادل كان راغباً في تثبيت ملكه والقضاء على المشاكل الداخلية استعداداً لما قد يحصل من مجيء حملة صليبية جديدة وهكذا ساعدت الاحوال حدوث نوع من التقارب بين الجانبين انتهى بعقد صلح بين الجانبين في اول تموز سنة ١١٩٨ م على اساس احياء بنود صلح الرملة الذي عقد بين صلاح الدين وريتشارد مع الاختفاظ بالفتوحات الجديدة . حيث اخذ الصليبيون بيروت وجبيل . بينما دخلت مدينة يافا في حكم الملك العادل . في حين قسمت صيدا بين الطرفين . واتفق على ان تكون مدة الصلح ثلاث سنين

---

(١) انظر : عاشور . الحركة الصليبية : ٢ / ٩١٧ .

(٢) انظر : المقريزي . السلوك : ١ / ١٤٠ ــ ١٤١

(٣) ابو شامة . الروضتين : ٢ / ٢٣٤ .

(٤) عن تحرير مدينة يافا . انظر . المصدر السابق : ٢ / ٢٣٥ . ابن واصل مفرج الكروب : ٣ / ٧٥ .

(٥) عاشور . الحركة الصليبية : ٢ / ٩٢٢ ــ ٩٢٣ .

(١) انظر . ابو شامة . الروضتين : ٢ / ٢٣٣ . المرين . السلوك : ١ / ١٤١ عاشور . السابق : ٢ / ٩٢٤ .

ثالثاً ـ الحملة الصليبية الرابعة وانحرافها ١٢٠٢ ـ ١٢٠٤ م :

اما بخصوص الحرب الصليبية الرابعة التي كان قد تجهز لها . من قبل امبراطور المانيا هنرس السادس . فانه لم يحل ربيع عام ١٢٠٠ م حتى تم بفضل جهود البابا انوسنت الثالثا اعدادها لاسيما في فرنسا وكان الهدف منها السيطرة على مصر . حيث كالمدن التجارية . ثم المسير منها بعدئذ الى الشام . ولما كان مهاجمة مصر لا يتأتى الا عن طريق البحر . لذلك لا بد من الاتفاق مع البندقية بشأن تسهيل مهمة ابحار هذه الحملة . وقد رحبت البندقية بعرض الصليبيين مقابل الحصول على (٨٥ الف مارك) والاستيلاء على نصف مايفتحه الصليبيون من الاراضي . الا ان هذه الحملة لم تتم اذ سرعان ماغيرت وجهتها واتخذت من القسطنطينية طريقاً لها وذلك لاسباب نوجزها بما يلي :

(١)الحقد الذي يكنه الصليبيون للامبراطورية الشرقية (البيزنطينية) التي لم تساعد الصليبيين اثناء تقدمهم نحو الشام .

(٢)رغبة البندقية في الحصول على المزيد من الامتيازات التجارية في الشرق وخاصة بعد فقدانها لبعض امتيازاتها اثر تخريب حي البندقية في القسطنطينية سنة ١١٧١ م .

(٣)وجود ثارات قديمة للنرمنديون في القسطنطينية لاختلافات حول بعض المصالح المتبادلة .

(٤)رغبة البابوية في السيطرة على الموقف بعد اسقاط الكنيسة الشرقية .

(٥)تبين للصليبيين انه ليس بمقدورهم جمع مبلغ (٨٥ مارك) الذي وعدوا بتقديمه للبندقية(١).

وهكذا تقدم الصليبيون نحو القسطنطينية بدلاً من القدس وتمكنوا في نيسان من سنة ١٢٠٤ م من الاستيلاء عليها . ورغم النتائج الايجابية التي تحققت في هذا العمل . الا أن هذه الحملة كانت « في مجموعها كارثة على البابوية والحركة الصليبية . اذ ارغم البابا على أن يشهد ان دفة الحرب الصليبية . جرى انتزاعها من قبضة يده . وأن الحرب الصليبية .... اصبحت مجرد حركة سياسية »(٢). فقد تناسى الصليبيون أنهم هاجموا بلداً مسيحيا رغم الاختلاف المذهبي ـ حيث قتلوا النساء والرجال ونهبوا كل ما وقع بأيديهم حتى أن الكنائس والأديرة لم تسلم منهم . حتى أن شاهد عيان تمنى لو كانت العاصمة البيزنطية سقطت بيد المسلمين

(١) انظر بخصوص اسباب تحول سير الحملة الصليبية الرابعة الى القسطنطينية : باركر . الحروب الصليبية . ص ٩٨ ـ ١٠١ . عاشور . الحركة الصليبية : ٢ / ٩٣٤ .

(٢) باركر المرجع السابق . ص ١٠٣ ـ ١٠٤ .

بدلاً من سقوطها بيد الصليبيين بعدما ذكر النتائج الايجابية التي حصلت عليها القدس بعد ماذكر النتائج الايجابية التي حصلت عليها القدس بعد مافتحها المسلمون(٣).

اما أحوال الصليبيين بالشام، فانهم على مايبدو كانوا ينتظرون وصول الحملة الصليبية الرابعة ليقوموا بعدها بنقض الهدنة، كعادتهم، ومحاربة المسلمين والغدر بهم. وكان الملك عموري الثاني، من جانبه، حريصاً على عدم استفزاز المسلمين(٤)، الا أن بعض الصليبيين الفلمنكيين والفرنسيين الذين وصلوا في نهاية سنة ١٢٠٢ م وسنة ١٢٠٣ م الى عكا تحالفوا مع الفرسان الداوية، بقيادة رجال الدين من النصارى، واتجهوا نحو جبلة واللاذقية، ثم ارسلوا مخاطبين الملك المنصور الايوبي أمير حماة مخوفين أياه بان ستين الف محارب صليبي قادم الى الشام لمحاربتهم. غير أن الملك المنصور رد على رسول الداوية بعزم وثبات واخبرهم بان عزيمة المسلمين لاتقهر وان الحرب القادمة لامحال. وعلى السرعة جهز جيوشه وتقدم نحو اللاذقية، وهناك انزل بالصليبيين هريمة منكرة حيث ساق اسراهم بعدها الى حماة.(١)

وفي تلك الفترة هاجم الملك عموري اسطولاً اسلامياً قادماً من مصر الى موانيء الشام واستولى عليه بما فيه من بضائع وامتعة قدرت بنحو ستين الف دينار، ثم شرع بعد ذلك الى مهاجمة الاراضي الاسلامية حيث قطع الطريق بين عكا وطبرية واستولى على ماهنالك من اموال، وبدلك تأكد للملك العادل ان الملك عموري نقض العهد. وعليه فقد كتب الى سائر البلاد الاسلامية يستدعي العساكر للحرب(٢). الا ان حرباً حاسمة لم تقع بين الطرفين لان كلاً منهما كان متريثاً ولا يرغب بالقيام بعمل حربي حاسم ضد الطرف الاخر بسبب الاعتقاد بقرب وصول الحملة الصليبية الرابعة، ويرى المؤرخ الفرنسي غروسيه ان الملك العادل كان لايريد ان يستنفذ قواته مع الملك عموري في مناوشات محلية. في حين ان الجهد يجب ان يدخر ضد الحملة الصليبية الجديدة (وهي الرابعة)(٣). التي وصل خبرها الى بلاد الشام. وظن الجميع بانها ستصل الى بلاد الشام بعد خروجها من القسطنطينية. ولم يكن ذلك الا امنية الصليبيين التي لم تتحقق.

---

(٣) عاشور. الحركة الصليبية: ٢ / ٩٣٥.

(٤) Stevenhon. the gerusaebrs in the East. P. 296.

(١) انظر عاشور. السابق: ٢ / ٩٤٢.

(٢) ابن الاثير. الكامل: ١٢ / ٢٨٩.

(٣) Look: Hist des Croisades. Vol. 3. P. 181

ولما تأكد للملك عموري الثاني عدم وصول الحملة الصليبية الرابعة الى الشام . وانها استقرت نهائياً في القسطنطينية عمد الى الاسراع بعقد صلح مع الملك العادل . الذي كان من ناحية راغب فيه ، حيث لم يشأ . لظروف دولته القلقة . ان يتبع سياسة حادة مع الصليبيين . وفضل التعامل معهم على اساس التسامح الديني والمصالح التجارية المشتركة(٤) . وهكذا تم تجديد الصلح بين الطرفين وعلى مايبدو فان الصليبيين استفادوا كثيراً من امتيازات هذا الصلح(٥).

وعلى الرغم من أن فترة الهدنة بين المسلمين والصليبيين مرت بشكل عام بسلام . الا أنه حدث عدة مناوشات بين الطرفين كان منها زحف الملك العادل على مدينة طرابلس في تموز ؟ من سنة ١٢٠٧ م وتمكنه من تحرير حصن القليعات ومحاصرة طرابلس حصاراً شديداً انتهى بعقد صلح مع أميرها بوهيموند الرابع الذي سير للملك العادل هدايا ثمينة وثلاثمائة أسير مقابل موافقته على الصلح(١).

وهنا لابد من الاشادة بموقف الجمهور الاسلامي في بلاد الشام والذي كان بدرجة من الحماس لايقل عما كان عليه أيام الحروب الصليبية الاولى . فقد تجمع اكثر من ثلاثين الفاً من المسلمين في كل من دمشق . وغيرها من المدن الشامية الاسلامية الاخرى . مطالبة بالجهاد في سبيل الله ومشجعةً الملك العادل على الاستمرار في حرب التحرير . حتى ان امرأة مسلمة قطعت شعر رأسها وارسلته للملك العادل وقالت له : اجعله قيداً لفرسك في سبيل الله(٢).

رابعاً ـ الحملة الصليبية الخامسة :

قبل الحديث عن هذه الحملة لابد من الاشارة . ولو بشكل موجز . الى حملة الاطفال الصليبيين سنة ١٢١٢ م والحملة الهنغارية سنة ١٢١٧ م فهما يشيران الى حلقة طريفة من تأريخ الحروب الصليبية . ابتدأها صبي في الثانية عشرة من عمره دعي ستيفن ادعى في فرنسا بأن المسيح (ع) سلمه رسالة امره فيها بأن يقوم هو والأطفال الصليبيين لوحدهم بحملة صليبية . وأن الرب سيكون معهم وان البحر المتوسط سينشق امامهم وانهم سيتمكنون من اعادة البيت المقدس اليهم . وقد اجتمع حوله مايقارب من خمسين الف طفل من فرنسا . وقد حملتهم السفن من ميناء

---

(٤) المرجع السابق : ٣ / ١٨٤ .

(٥) انظر . عاشور . الحركة الصليبية : ٢ / ٩٤٦ .

(١) ابن الأثير الكامل : ١٢ / ٣١٤ .

(٢) انظر : أبو شامة . ذيل الروضتين (القاهرة : ١٩٤٧) ، ص ٦٩ ـ ٧٠ . عاشور . الحركة الصليبية : ٢ / ٩٤٨ .

مرسيليا . ومنذ ذلك الوقت لم يسمع الغرب عن مصيرهم شيئاً ويقال ان بعضهم وصل الى شمال افريقيا وهناك بيعوا في اسواق الرقيق وحملوا منها الى سائر المدن الاسلامية الاخرى(٣).

أما الحملة الهنغارية التي دعا اليها البابا انوسنت الثالث والتي شملت ايضاً عدداً من الالمان والقبارصة . فانها وصلت عكا ثم اتجهت الى بيسان ثم قامت بعدة غارات على جبال لبنان ولكنها في كل اعمالها لم تحقق أي نجاح يذكر مما اضطرها الى العودة خائبة الى اوربا(١).

أما الحملة الصليبية الخامسة . فان المعاهدة التي ابرمها الملك العادل من الصليبيين في الشام . والتي سبق أن أشرنا اليها . دفعته الى التفرغ للانشغال بالمهام الداخلية لدولته . وعدم الاهتمام بمهاجمة المملكة الصليبية لأنه بات لا يخشى ضرراً منها . وان مهاجمتها من ناحية ثانية سوف يؤدي . برأيه . الى اثارة حرب صليبية جديدة .

اضافة الى المصالح التجارية المتبادلة التي قويت بفضل معاهدة الصلح السابقة والتي كان من نتيجتها زيادة الصلات بين التجار المسلمين والتجار البنادقة(٢) . الامر الذي ادى الى الاطمئنان من نوايا الصليبيين الذين كانوا يغدون في اوربا الى حرب صليبية جديدة كان المخطط لها احتلال مصر لأن قادة الحركة الصليبية في الغرب توصلوا آنئذٍ الى نتيجة مفادها : ان السيطرة على مصر يعني التحكم في بلاد الشام . فقد شبهوا مصر بانها رأس الافعى وانها المخزن الذي يمد القوات الاسلامية في بلاد الشام بالعدد والعدة لأن مصر غنية وواسعة(٣).

وعليه فان الفكرة السابقة كانت حدثاً مهماً في تغيير خطير حدث لاتجاه الحركة الصليبية . حيث وضعت الخطط الخامسة في هذه المرة . ولأول مرة منذ بدء الحروب الصليبية . لمهاجمة مصر واحتلالها ثم التوجه من هناك الى بلاد الشام لمحاصرة المسلمين والقضاء عليهم بعد وضعهم في الكماشة . كما فعل بهم صلاح الدين من قبل . وهكذا قدر للحملة الصليبية الخامسة أن تتجه صوب مصر .

---

(٣) للمزيد عن حملة الاطفال هذه . انظر .

Setton, A History of the CRusaders, Vol. 2, P. 330–336

ب ـ مركز الحروب الصليبية ص ١٠٦ ـ ١٠٧ ؛ عاشور الحركة الصليبية : ٢ / ٩٥٤ ـ ٩٥٦ .

(١) انظر : غروسية . المرجع السابق : ٣ / ١٩٦ . ابو الفدا . المختصر . عاشور . السابق : ٢ / ٩٥٦ ـ ٩٦٠ .

(٢) العريني . الشرق الادنى في العصور الوسطى (الايوبيون) ص ١٢٠ .

(٣) انظر : عاشور . الحركة الصليبية : ٢ / ٩٦١ ـ ٩٦٣ .

في هذه الفترة كان (حنادى برين) هو الملك لمملكة بيت المقدس الصليبية الرمزية التي كان مقرها مدينة عكا ـ لأن القدس حررت وأصبح مركز الصليبيين في بلاد الشام عكا ـ ومنذ نهاية عام ١٢١٧ م كانت جموع الصليبيين تتوافد اليه تلبية لدعوة البابا (انوسنت الثالث) ولخليفته من بعده البابا (هونريوس الثالث) . ولم تكد تصبح تلك الجموع قوة كافية حتى خرج بهم الملك حنا في ٢٧ آيار سنة ١٢١٨ م قاصداً (مدينة دمياط) . وقد كانت هذه الحملة خبثة قصد منها القضاء على المسلمين ومعتقداتهم ، ليس في مصر والشام فحسب ، بل وفي الجزيرة العربية . لان الملك حنا راسل نجاشي الحبشة واتفق معه على ضرب مسلمي الحجاز وهدم الكعبة(١).

وفي بداية حزيران سنة ١٢١٨ م وصلت السفن الصليبية الى مصب فرع دمياط حيث نزل الصليبيون على الضفة الغربية لنيل المواجهة للمدينة وقد وجدوها محكمة التحصين(٢)، عندها ادركوا خطأهم . اذ كان عليهم ان ينزلوا في الجانب الشرقي من النيل المواجهة لدمياط . وبذلك اضاعوا وقتاً طويلاً في العبور تمكن خلاله المسلمون من تحصين المدينة وطلب العون .

أما الملك الكامل الايوبي حاكم مصر نيابة عن أبيه العادل ، فأنه انتقل سريعاً الى موضع القتال حيث تولى قيادة الجيش وأمر باستنفار العربان ، ثم بعد ذلك قام بهجوم مضاد خسر فيه الصليبيون كثيراً مما دفعهم الى أن يقيموا برجاً ضخماً من الخشب نصبوه على سفينتين يصل بينهما جسور وحاملات ، استطاعوا به من التحرك داخل المياه وتحطيم البرج الذي كان من أهم الحصون المائية المعدة لحماية مدينة دمياط من جهة البحر(٣) وبذلك فتح الطريق امام الصليبيين لمهاجمة المدينة بحراً وبراً . وقد استغرق عملهم هذا ثلاثة أشهر كاملة . ولما علم الصليبيون في الغرب بهذا النصر ارسلوا المدد بقيادة الكاردينال بلاجيوس ، الذي وصل مصر في ايلول سنة ١٢١٨ م مندوباً عن البابا وقائداً أعلى للصليبيين في جبهة مصر(١).

ورغم بسالة المدافعين عن دمياط وصمودهم الذي دام تسعة اشهر وشدة التحركات العسكرية التي قام بها الملك المعظم الايوبي في جبهة الشام ضد

(١) عاشور . السابق : ٢ / ٩٦٥ .

(٢) انظر : القريزي . السلوك : ١ / ١٨٨ .

(٣) (3) Wiet 6.: L'Egypte Arobe. History de La Natiov Egyptinne, iv (Paris3 1937) P. 346.

(١) Look: King. The Knights Hospitallers in the Holy Land London, 1931) P. 192.

الصليبيين . لاشغالهم وصرف أنظارهم عن مصر(٢) . الا ان الصليبيين تمكنوا من احتلال دمياط في ٥ تشرين الثاني سنة ١٢١٩ م ووضعوا في اهلها السيف قتلا واسراً(٣)

ثم حولوا جامعها كنيسة وبثوا سراياهم في القرى المجاورة يقتلون ويأسرون .(٤) ويمكن ان نورد بايجاز اهم اسباب سقوط المدينة فيما يلي :

(١) كثرة الصليبيين المهاجمين للمدينة وعظم الامدادات التي جاءتهم من الغرب الاوربي .

(٢) الاضطرابات الداخلية التي اثارها الاعراب القاطنين بالدلتا . فقد قطعوا الطرق واغاروا على القرى ونهبوها مستغلين نزول الصليبيين في الدلتا . قبل سيرهم نحو دمياط . ويقال ان اولئك الاعراب بالغوا في الافساد حتى ان خطرهم اصبح على المسلمين ـ انظر ابن الاثير ـ اشد من خطر الصليبيين(٥)

(٣) وفاة السلطان الملك العادل ـ اخو صلاح الدين ـ الذي كان في ٣١ آب سنة ١٢١٨ م وما اعقب ذلك من انقسامات بين اولاده في حكم المملكة . الامر الذي ادى الى عدم توحيد الطاقات ضد العدو المشترك . والاطمئنان له بسبب وجود معاهدة الصلح التي كان الصليبيون يعدون من ورائها لحملتهم الجديدة هذه .

(٤) الخطر الداخلي الكبير الذي هدد الملك الكامل اثناء تصديه للصليبيين على حدود دمياط . اذ ان الامير (عماد احمد بن علي المعروف بابن المشطوب) دبر مؤامرة داخل معسكر الكامل . هدف منها عزل الكامل واحلال اخيه الصغير (الفائز) محله . مما ادى الى اضعاف عزيمة الكامل في المقاومة وانقسام جيشه ثم هروبه واخيراً كانت النتيجة بقدوم الملك المعظم من الشام واعادة الكامل بعد القاء القبض على ابن المشطوب وارساله منفياً الى الشرق ليسجن في حصن الكرك . وكان فعل ابن المشطوب هذا من اهم العوامل التي مكنت الصليبيين من عبور نهر النيل واحكام سيطرتهم على دمياط(١)

---

(٢) قام الملك المعظم بعدة غارات على الصليبيين منها مهاجمة حصن قيسارية وهدمه . كما قام الاشرف موسى بمهاجمة طرابلس وحصن الاكراد . الا ان محاولاتهم لم تفلح في صد الصليبيين عن مصر . للمزيد انظر : ابو شامة : ذيل الروضتين . ص ١٠٦ ـ ١١٠ . عاشور . الحركة الصليبية : ٢ / ٩٦٩ ـ ٩٧١ .

(٣) ابن الاثير . الكامل : ١٢ / ٣٥٠ . (في حوادث سنة ٦١٤ هـ)

(١) لمعرفة المزيد عن مؤامرة ابن المشطوب ونتائجها انظر : ابن تغرى بردى . النجوم الزاهرة : ٦ / ٢٣٠ ـ ٢٣١ . المقريزي . السلوك : ١ / ١٩٦ ـ ٩٧ . عاشور الحركة الصليبية : ٢ / ٩٧٢ ـ ٩٧٣ .

هكذا سقطت مدينة دمياط بيد الصليبيين ، الذين وجدوا فيها مركزاً تجارياً فريداً في حين كان ذلك على المسلمين وقعاً اليماً بسبب احداث العالم الاسلامي المضطربة خاصة وان المغول كانوا في هذه الفترة قد اجتاحوا الجانب الشرقي منه وأخذوا يقوضون اركانه مما جعل العالم الاسلامي آنئذٍ مطوقاً بخطر المغول من الشرق والصليبيين من الغرب .

على اية حال فان الصليبيين بعد دمياط قرروا منازلة القاهرة واغتروا بما حصلوا عليه من مكاسب ورفضوا نداءات الملك الكامل المتكررة بقبول الصلح والانسحاب عن مصر مقابل الحصول على بعض الامتيازات في بلاد الشام . وعليه فقد توجهوا صوب القاهرة . بعد أن وصلت اليهم امدادات ضخمة من أوربا(٢) . ودخلوا وسط مثلث تحيط به المياه من جهات ثلاث : بحيرة المنزلة شرقاً وفرع دمياط غرباً والبحر الصغير جنوباً ـ تلك الارض التي تفيض بالمياه اثناء ارتفاع منسوب النيل ـ وكان دخول الصليبيين الى تلك الارض في أول ليلة من شهر آب من سنة ١٢٢١ م . أي في وقت فيضان النيل وقسوة حرارة الجو . والصليبيون ـ كما يقول المقريزي ـ « لامعرفة لهم بحال أرض مصر ولا بأمر النيل »(٣) .

وقد فرح المسلمون في مصر بهذا الامر وسارع الملك الكامل الى حشد كل قواته وامكانياته قبالة الصليبيين (شمالي شربين) ليحول دون عودة الصليبيين الى دمياط ، ثم أمر بقطع كل السدود وكان الماء زائداً جداً . فلم يشعر الصليبيون الا وقد غرقت اكثر الأرض المحيطة بهم وأرادوا العودة الى دمياط فوجدوا ان المسلمين قد قطعوا الطريق عليهم(٤) . وهكذا ساء موقف الصليبيين في دلتا النيل ولم يبق امامهم سوى التذلل للملك الكامل بقبول الصلح . فأرسلوا اليه في ٢٨ آب سنة ١٢٢١ م يطلبون الصلح . بعد رفضهم اياه من قبل . ويعرضون عليه استعدادهم للجلاء عن دمياط وأرض مصر مقابل السماح لهم بالخروج من مأزقهم سالمين(١) .

وقد تسرع الكامل في اجابة الصليبيين الى قبول الصلح خوفاً من مجيء حملة صليبية جديدة تقدم الى مصر تنتقم مما قد يحل بالصليبيين . ولذلك أسرع في تخليص مدينة دمياط(٢) . من الاحتلال الصليبي بالموافقة على الصلح على أن الكامل اشترط على الصليبيين أن يبعثوا اليه برهائن من ملوكهم . فارسلوا اليه

---

(٢) انظر : السلوك ، ١ / ٢٠٣ .

(٣) المصدر السابق ، ١ / ٢٠٧ .

(٤) انظر ابو شامة ذيل الروضتين ، ص ١٢٩ . عاشور السابق ، ٢ / ٩٨٢ .

(١) ابن تغرى بردى . النجوم الزاهرة ، ٦ / ٢٤١ .

(٢) السابق ، ٦ / ٢٤٢ .

بعشرين رجلا منهم الملك حنا بريين نفسه وبلا جيوش مندوب البابا(٣). وبذلك تم جلاء الصليبيين عن دمياط في ٧ ايلول سنة ١٢٢١ م حيث ابحر الصليبيون الغربيون بعدها الى اوربا في حين عقد الملك هدنة مع الملك الكامل لمدة ثمان سنوات وهكذا فشلت الحملة الصليبية الخامسة بسلامة بيت المقدس بأيدي المسلمين وجلاء الصليبيين عن دمياط دون تحقيق أي هدف يذكر.

خامساً ـ السلطان الكامل الايوبي وموقفه من الامبراطور فردريك الثاني والحملة الصليبية السادسة :

بالرغم من معاهدة الصلح التي عقدها الملك الصليبي حنا بريين مع الملك الكامل. السابقة الذكر. الا أن الملك حنا ذهب بنفسه الى ايطاليا في خريف سنة ١٢٢٢ م حيث قابل البابا انوسنت الثالث كما قابل الامبراطور فردريك الثاني وشرح لهما سوء حالة الصليبيين في الشام بعد فشل الحملة الصليبية الخامسة. كما زار فرنسا واسبانيا واستحث ملوكها على الاسراع بارسال حملة جديدة لانقاذ الموقف(٤) وقد وعد الامبراطور البابا بأن يقوم هو بالحملة الصليبية الجديدة.

وقبل أن تصل هذه الحملة الى بلاد الشام حدث نزاع خطير بين البابوية بزعامة البابا الجديد جريجوري التاسع والامبراطورية ادى الى اصدار قرار الحرمان ضد الامبراطور فردريك(١). غير أنه تأجل اذاعة القرار في محاولة لاحباط حملة الامبراطور واضاعة جهوده في الوصول الى بلاد الشام سدى. وفي هذه الفترة حدث نوع من التقارب بين السلطان الكامل والامبراطور فردريك تبودلت بينهما السفارات. ويقال ان السلطان الكامل استعان بالامبراطور لمواجهة الاخطار التي واجهته من الدولة الخوارزمية واخوة الملك المعظم الذي اخذ يستشيره في محاولة للسيطرة على الدولة الايوبية.

ففي الوقت الذي كانت فيه الاستعدادات قائمة بالحركة والنشاط للاعداد للحملة الصليبية السادسة ارسل السلطان الكامل سفيره (فخر الدين) الى الامبراطور بطلب المساعدة. في حين أرسل الامبراطور سفيره (بيراردوا) الى مصر وكانت النقطة الواضحة لكلا الطرفين هو تفضيل كل منهما للسلم. غير أنه كان في كلا المعسكرين

---

(٣) المقريزي. السلوك : ١ / ٢٠٨ . عاشور. السابق : ٢ / ٩٨٣ . باركر. الحروب الصليبية : ص ١٠٩ ـ ١١٠ .
(٤) عاشور الحركة الصليبية : ٢ / ٩٩٤ .
(١) لمعرفة المزيد عن حوادث هذا النزاع ونتائجه انظر : عاشور. اوربا والعصور الوسطى (القاهرة : ١٩٦١) : ١ / ٣٢٨ ـ ٤١٤ . الحركة الصليبية : ٢ / ٩٩٢ ـ ٩٩٥ . جوزيف جاي ديس. الزنديق الاعظم (القاهرة : د / ت) ص ٣٤٩ و ٣٥٤ ـ ٣٥٨ .

من يعتقد ان السيف وحده هو الفصل . وفي يوم ٢٨ تموز سنة ١٢٢٨ م (٦٢٤ هـ) اقلع الامبراطور فردريك الى بلاد الشام(٢). ولم يتخذ الصليب علماً له . لان البابا كان قد سحبه منه . فاتخذ عوضاً عنه النسر . الذي أصبح لقباله منذ ذلك الحين(٣).

والحقيقة ان الامبراطور فردريك . كان من بين زعماء الحركة الصليبية الذين سبقوه . محباً للعرب والمسلمين وكان يجيد اللغة العربية من بين ست لغات كان يعرفها وكان يتذوق الشعر العربي ويقرب منه الادباء العرب . ولم يكن جاداً في حرب العرب والمسلمين انما كان هدفه اطفاء غضب الكنيسة عليه وقد جاءته الفرصة الحسنة عندما راسله السلطان الكامل الذي كان كسابقه عالماً محباً للعلم وأهله فقد « كان يناظر العلماء ..... وكانت تبيت عنده في القلعة جماعة من أهل العلم ... فينصب لهم أسرّة ينامون عليها بجانب سريره ليسامروه(٤) » ولذلك فلا عجب أن حصل التقارب بينهما حتى أن المقريزي ذكر بأن الامبراطور فردريك كان يرسل للكامل عدة مسائل في الهندسة والحكمة والرياضة ويطلب منه حلها . وكان الكامل يحلها ويرسلها له(٥).

وهكذا قدم الامبراطور الى بلاد الشام . ولم يكن يعتزم حرب المسلمين وكان يعتقد ان هناك فرصاً للوصول الى اتفاق بين الطرفين أو أن ذلك الاتفاق سوف يكون اكثر جدوى من حرب ضروس باهظة النفقات . وفضلاً عن ذلك فان قوات الامبراطور لم تكن كافية لحملة ناجحة في أرض اجنبية . وأخيراً فان قيادة العساكر الاسلامية كانت بيد شخصية جديرة بالانتساب الى عمه صلاح الدين ذلك هو الملك الكامل الذي تشابهت امزجته الى حد بعيد بامزجة الامبراطور(١).

على أية حال فان الامبراطور . لم يكن يستقر به المقام في بلاد الشام حتى اصيب بخيبة أمل بسبب تبدل الموقف في بلاد الشام . فقد توفي الملك المعظم واستقر الوضع بين ابناء البيت الايوبي . وبذلك لم يعد الكامل محتاجاً الى مساعدة الامبراطور فردريك الثاني الذي قدم الى الشام لمساعدته ضد أخيه المعظم . والحقيقة ان الامبراطور بمجيئه الى الشام لم يكن يهدف الى مساعدة الكامل فحسب . بقدر ماكان يحلم به من استلام القدس من الكامل ودخول كنيسة القيامة لتتويج نفسه امبراطوراً هناك وفي كل ذلك نصراً عظيماً يحققه على خصمه البابا والكنيسة التي

---

(٢) جوزيف . الزنديق الاعظم ص ٣٥٠ ـ ٣٥١ ـ ٣٥٤ و Wiet: op. Cit. P.346.

(٣) جوزيف السابق ص ٣٦٠ ـ ٣٦١

(٤) المقريزي . السلوك : ١/ ٢٥٨ ـ ٢٥٩

(٥) السابق . ١/ ٢٣٣ .

(١) انظر : جوزيف . الزنديق الاعظم ص ٣٦٧ .

ناصبته العداء وتمنت فشل حملته ولذلك كانت ترسل الرسل والخطابات الى السلطان الكامل تدعوه الى عدم تسليم بيت المقدس اليه . لان نجاح الامبراطور في مسعاه . وهو محروم من الكنيسة . معناه ان سخط الله واقع على البابا جريجوري(٢). الامر الذي دفع بالامبراطور لاتباع كل وسيلة في سبيل الوصول الى هدفه .

وعليه فقد بادر الامبراطور بارسال الهدايا الثمينة جداً الى الملك الكامل واعلمه بضرورة تسلمه القدس وأنه جاء الى الشام وليس له مصلحة في شن حرب ضد المسلمين ولا في نيته الاستيلاء على أرضهم سوى حفظ كرامته عند الصليبيين وتثبيت عرشه في الغرب الاوربي الذي بات مزعزعاً بفضل محاربة البابا له(٣). وقد اجابه الكامل بجواب لطيف تضمن عبارات الرفض اعلمه فيها بان الظروف قد تبدلت وان السلطان قد استغنى عن المساعدة ولذلك فلا داعي للتفريط بالقدس سيما وان التفريط بها سيؤذي شعور المسلمين(١).

وفي تلك الاثناء ازداد مقام الامبراطور سوءاً في بلاد الشام فقد هبت عاصفة قوية في البحر المتوسط فاغرقت عدداً من سفن المؤن الغذائية تتناقص . ومن جهة ثانية غزا جيش بابوي مملكة صقلية وراح عملاء البابا يذيعون على الشعب نبأ موت الامبراطور فردريك(٢). وعندها لم يكن امام الامبراطورية سوى الاسراع في العودة الى بلاده . ولكن رجوعه فاشلاً سيزيد من خسارته . ولذلك لجأ الى الاستعطاف والتذلل للسلطان الكامل حيث راسله بقوله : (أنا مملوكك وعتيقك . وليس لي عما تأمره خروج . وانت تعلم اني اكبر ملوك البحر وقد علم البابا والملك باهتمامي وطلوعي فان رجعت خائباً انكسرت حرمتي بينهم ... وهذا القدس فهي اهل اعتقادهم زضجرهم ... فان رأى السلطان أن ينعم عليَّ بقبضة البلد والزيارة فيكون صدقة منه(٣) »

وقد نجحت الاستعطافات في التأثير على الملك الكامل الذي اراد أن ينهي سلسلة الحروب بين الشرق والغرب خاصةً وأن يكون مثل هذا الامبراطور الى جانب المسلمين أكثر منه الى جانب البابا . وعليه فقد تم عقد صلح بين الطرفين لمدة عشر سنوات ابتداء من ١٨ شباط سنة ١٢٢٩ / ٦٢٦ هـ تقضي شروطها بأن يتسلم

---

(٢) عاشور الحركة الصليبية : ٢ / ١٠٠٨ . جوزيف . الزنديق الاعظم . ص ٣٦٩ .

(٣) انظر : المقريزي . السلوك . ١ / ٢٣٠ . جوزيف الزنديق الاعظم . ص ٣٦٨ .

(١) عاشور . السابق : ٢١ / ١٠٠٩ .

(٢) جوزيف . السابق . ص ٣٧٠ . عاشور . السابق : ٢ / ١٠١٠ .

(٣) انظر : عاشور الحركة الصليبية : ٢ / ١٠١٠ .

الصليبيون بيت المقدس على الأ تقام به حصون وأن يبقى مسجد عمر ـ الذي هو في قرابة هيكل سليمان ـ في يد المسلمين . ولكن يسمح فيه للنصارى بالدخول اليه للتعبد . وان يتسلم الصليبيون الناصرة . ولكن يسمح للمسلمين بدخول بيت لحم . وان يتسلم الصليبيون بعض المدن الساحلية كصيدا شرط أن لاتقام بها تحصينات . وأخيراً تعهد الامبراطور فردريك بعدم مساعدة الصليبيين الذين قد يهاجمون الكامل خلال فترة الهدنة(١).

اما مدى تقبل المسلمين لهذه المعاهدة فقد كان سلبياً بشكل عام . فقد اظهروا موجة عامة من السخط فقد « اشتد البكاء وعظم الصراخ والعويل . وحضر الائمة والمؤذنون من القدس الى مخيم اكامل واذنوا على بابه في غير وقت الاذان ..... فعظم على اهل الاسلام هذا البلاء واشتد الانكار على الملك الكامل وكثرت عليه الشناعات في سائر الاقطار »(٢). وقد حاول الكامل ان يهون على المسلمين ذلك الامر ان يبرر مسلكه في تلك الاتفاقية فادعى بانه لم يسلم للصليبيين في القدس الا كنائسهم وان المسجد الاقصى وشعار الاسلام باق وان والي المسلمين هنالك قائم(٣).

الا أن المسلمين أصروا على استنكارهم واتهموه بأنه خان الاسلام لعلمهم بان القدس التي ضحى صلاح الدين من اجلها طويلاً قد ضاعت من ايديهم . ويبدو ان الامبراطور فردريك علم بما سببته الاتفاقية من حرج للسلطان الكامل حيث بعث اليه مع الامير فخر الدين كتاب اعتذار يدّعي فيه « بانه لولا انكسار جاهه ماكلف السلطان شيئاً من ذلك »(٤).

أما موقف الصليبيين من هذه الاتفاقية فلم يكن باقل من موقف المسلمين لها فقد تنكر لها الجميع واعتبروا ان هذه الاتفاقية التي جاءت عن طريق الاستعطاف . لاالسيف . قد هانت كرامتهم . خاصةً وان المسلمين قد احتفظوا بالكثير في بيت المقدس . في حين رفضت الداوية والاستبارية كل اعمال الامبراطور لانه كان بنظرهم محروم من الكنيسة مطرود من رحمتها . وهكذا لم يعترف الصليبيون بشكل عام بفضل الامبراطور وتنكروا له وبخسوه الانجاز الكبير الذي حققه لهم باسترداد البيت المقدس دون عناء(٥).

---

(١) جوزيف، الزنديق الاعظم، ص ٢٠٣ وقد جاء نص شروط المقريزي بخصوص بيت المقدس ما يلي: ... أن لايجدد سورها وأن يكون سائر قرى القدس لاحكم فيها للفرنج . وان الحرم بما حوى من الصخرة والمسجد الاقصى . يكون بأيدي المسلمين لايدخله الفرنج الا للزيارة فقط ... ١/ ٢٣٠.

(٢) المقريزي . السلوك ١/ ٢٣٠.

(٣) انظر : نفس المصدر والمكان . العريني . الشرق الاوسط والحروب الصليبية . ص [illegible]

(٤) نفس المرجع والمكان السابق

(٥) عاشور . الحركة الصليبية . ٢/ ١٠٣ ـ ١٠٤.

وفي يوم السبت الموافق ١٧ ــ ٥ ــ ١٢٢٩ م دخل الامبراطور القدس ليتوج نفسه في اليوم التالي امبراطوراً رغم انف البابوية . وقد قام بعدها بزيارة المسجد الاقصى وتصرف باعمال اثارت دهشة المسلمين منها أنه زجر قسيساً كان ينوي دخول المسجد الاقصى ثم طرده وهدد كل من يدخل الى المسجد الاقصى منهم بغير اذن المسلمين وقال : « انما نحن مماليك السلطان الكامل وقد تصدق علينا وعليكم بهذه الكنائس فلا يتعدى احد منكم طوره »(٢). ومنها انه علم ان مؤذن المسجد الاقصى قد امتنع عن قراءة القرآن الكريم والاذان في الليلة التي زار فيها الامبراطور المسجد الاقصى اكراماً له . فلما سمع به استاء واستدعى القاضي شمس الدين . فلما علم بأن السبب كان اجلالاً له قال للقاضي : « لقد اخطأت بمسلك هذا أن غرضنا الاساسي من البقاء في بيت المقدس هو سماع المؤذن وذكره لله . فهل يجوز أن تغيروا شعائركم ... لمجرد ارضائي ؟ هل تظن انك لو حضرت الى بلدي سامنع الكنائس من قرع اجراسها ارضاءً لك ؟ لا والله » ثم اعطاه مبلغاً من المال ليرسله الى المؤذن لتشجيعه في عمله(٣). ثم قام بعد ذلك بزيارة الاماكن المقدسة الاسلامية والمسيحية على السواء . وكان في كل زياراته للأماكن الاسلامية شديد الحرص على احترام المسلمين وشعائرهم . فكان عندما يدخل المسجد مثلاً يخلع نعليه وهو الامبراطور . على غرار ما يفعله المسلمون(٤) مما اثار دهشتهم ومحبتهم اياه .

وبعد أن انهى الامبراطور فردريك الثاني زياراته عاد الى مدينة عكا وهناك علم باضطراب الاحوال . اذ كانت البابوية قد حشدت طاقاتها ضده لذلك اسرع بالعودة الى ايطاليا وكان ذلك في ١٠ حزيران سنة ١٢٢٩ م الا أن البابوية لم تستطع المضي في غيها طويلاً فاضطرت أخيراً الى رفع قرار الحرمان عنه والاعتراف بما حققه من مكاسب في الشرق وكان ذلك في صلح سان جرمانو سنة ١٢٣٠ م(١).

وقد شهدت السنوات التي اعقبت رحيل الامبراطور فردريك الى ايطاليا . اضطراب احوال الصليبيين في الشرق بسبب المنازعات الجانبية التي حصلت بين قادتهم . وقد ظل مقر المملكة الصليبية في مدينة عكا ولم ينتقل الى القدس التي اصبحت مدينة دينية غير محصنة . علماً بأن الغرب الاوربي ظل ايضا حتى سنة ١٢٦٨ م (أي قرابة خمس وثلاثين سنة) مشغولاً بمشاكله الداخلية لم يهتم بشكل

(٢) المقريزي . السلوك : ١ / ٢٣١ .

(٣) جوزيف . الزنديق الاعظم . ص ٣٨٢ . انظر : نفس القصة وبأسلوبها العربي في . السلوك : ٢٣١ .

(٤) جوزيف . السابق ص ٣٨٣ .

(١) انظر عاشور . اوربا العصور الوسطى ١ / ٢٠٧ .

مباشر بالمملكة الصليبية في الشرق . التي بقيت طوال تلك السنين بدون ملك مقيم في بلاد الشام . يرعى احوالها وشؤونها(٢).

ومن جهة ثانية فان الايوبيين حرصوا من جانبهم على عدم الاصطدام مع الصليبيين اصطداماً مباشراً . فقد كان تخوفهم المباشر في هذه الفترة من القوة الخوارزمية . لا من الصليبيين . تلك القوة التي هددت الخلافة العباسية في بغداد لانها اتصفت بالهمجية مما دفع بالايوبيين الى تناس خصوماتهم الداخلية والتحالف مع سلطان سلاجقة الروم (علاء الدين كيقباد الاول) ضد جلال الدين الخوارزمي(٣).

وقد نجح التحالف الايوبي السلجوقي في دحر القوات الخوارزمية في آب سنة ١٢٣٠ م في المعركة التي دارت بين الجانبين قرب ارزنجان والتي قتل فيها معظم العساكر الخوارزمية وفر سلطانهم الى اذربيجان . وقد انحلت بعد ذلك دولته . على أن التحالف الايوبي السلجوقي . الذي كان عليه أن يبقى لمواجهة الخطر المغولي . لم يستمر ذلك ان علاء الدين السلجوقي استغل انهيار الخوارزمية لمنازعة الايوبيين على ملكية خلاط والرها وحران . ولما اجتمع الايوبيون بزعامة الكامل لمناهضته . تخلى أميرا حمص ودمشق الايوبيان عن السلطان الكامل . فاضطر الى العودة ال مصر وبذلك اصبحت كل من آق وحران والرها لقمة سائغة بيد السلاجقة حيث احتلها السلطان علاء الدين من دون منازع سنة ١٢٣٥ . وقد وافق انقسام البيت الايوبي على نفسه وفاة الملك الاشرف في أواخر آب سنة ١٢٣٧ م ثم اعقبه بقليل وفاة السلطان الكامل (في أوائل آذار سنة ١٢٣٨ م) . وقد كان لوفاته نذيراً لتفكك الدولة الايوبية وانهيارها . فقد دب نزاع خطير بين ولديه (العادل الصغير) و (الصالح ايوب) ثم تعاظم النزاع حيث شمل معظم امراء البيت الايوبي الذين استعانوا بالافراد الخوارزمية ضد بعضهم البعض الامر الذي ادى الى مجيئهم وتكتلهم في بلاد الشام بعد أن كانوا متفرقين اثر موت سلطانهم علاء الدين سنة ١٢٣١ م بعد هزيمته سابقة الذكر(١).

---

(٢) Look: Setton, A History of the Cruisodes, Vol. 2. P. 557-559.

(٣) انظر : السلوك : ١ / ٢٣٨ . Setton, Op. Cit, Vol. 2, P. 703.

(١) انظر : بخصوص العلاقة مع سلاجقة الروم والاحداث التي اعقبت وفاة السلطان الكامل : العريني . الشرق الادنى في العصور الوسطى (الايوبيون) : ١ / ١٢٧ ـ ١٣٢ . عاشور . الحركة الصليبية : ٢ / ١٠٣٠ ـ ١٠٣٣ .

سادساً ـ الخوارزمية واسترداد بيت المقدس : ـ

لم يكد أجل الصلح الذي عقده الامبراطور فردريك الثاني مع السلطان الكامل ينتهي في سنة ١٢٣٩ م حتى قامت . البابوية بالدعوة لحملة صليبية جديدة استجاب لها عدد كبير من الفرسان الفرنسيين الذين تزعمهم ثيبوت الرابع (ملك فاغاري) . وقد وصلت هذه الحملة في أول ايلول سنة ١٢٣٩ م الى عكا ومن هناك تجمهر الصليبيون في محاولة للسيطرة على القدس سيطرة تامة(٢). الا ان الناصر داؤد الايوبي . حاكم الاردن . كان اسرع من الصليبيين في عمله فلم يكد يعلم بتوجه الصليبيين نحو القدس حتى بادر الى المسير اليها وأخرج منها الصليبيين الذين كانوا قد نقضوا الهدنة بتحصين القدس وتجديد بناء اسوارها . وكانت احدى شروط الصلح السابقة ان تبقى المدينة مهدمةالاسوار(٣). مما يدل على عزم الصليبيين الاكيد في السيطرة على القدس وطرد المسلمين منها .

اما الصليبيون . فأنهم حال سماعهم بعودة القدس الى المسلمين حتى بادروا باتخاذ عمل فوري ضد المسلمين . اذ قرروا أن يسيطروا على مصر اولاً ثم دمشق وعندها سوف يجبرون المسلمين على التنازل عن البيت المقدس لهم . وفعلاً خرج قسم كبير منهم نحو عسقلان وتمكنوا من السيطرة على قافلة اسلامية كبيرة محملة بالبضائع . ثم اندفعوا بعدها نحو غزة وهناك اصطدما بقوات المسلمين الذين انزلوا بهم خسارة فادحة . فقد قتل من الصليبيين الف وثمانمائة رجل وأسر بعض زعمائهم وسيق مائتين وخمسين منهم أسارى الى مصر(١).

ولم يستغل الايوبيون نصرهم هذا . بل دخلوا في منازعات حادة فيما بينهم انتهت بحدوث مؤامرة عزل فيها الملك العادل الثاني عن حكم مصر ونصب الصالح نجم الدين ايوب (في ١٩ حزيران سنة ١٢٤٠ م / ٦٣٩ هـ . وقد أستاء من هذه المؤامرة الصالح اسماعيل ـ حاكم دمشق ـ فاضطر لارضاء غروره من الاستعانة بالصليبيين ضد امراء البيت الايوبي مقابل منحه اياهم مدينة بيت المقدس بما فيها الاردن . ولكي يبرهن لهم عن حسن نيته بادر بتسليمهم القدس وطبرية وعسقلان مع مناصفة صيدا وطبرية وسائر بلاد الساحل(٢).

---

(٢) Look: Setton. Op. Cit. Vol. 2. P. 463. Crounet. op. cit. Vol. 3. p. 372.

(٣) المقريزي . السلوك ، ١ / ٢٩١ .

(١) انظر ، عاشور . الحركة الصليبية ، ٢ / ١٠٣٥ ـ ١٠٣٦ . Setton. Op. cit. Vol. 2. p. 476-477

(٢) انظر ، ابن تغرى بردى . النجوم الزاهرة ، ٦ / ٣٢٢ . المقريزي . السلوك ، ١ / ٣٠٣ .

وقد استاء المسلمون في كل مكان من تصرفات الصالح اسماعيل واكثروا منن التشنيع عليه ، حتى أن بعض شيوخ المسلمين ، منهم شيخ الشافعية عبد العزيز بن عبد السلام . قطعوا الخطبة في المساجد باسمة والدعاء له . كما ان الحامية الاسلامية رفضت تسليم حصن الشقيق ارنون للصليبيين وابت الانصياع لأوامر الصالح اسماعيل فاضطر الى الحضور بنفسه لمحاصرتها وفتحها ثم سلمها للصليبيين بعد أن عاقب حاميتها(٣).

وبفضل تعاون الصليبيين مع الصالح اسماعيل ، تمكن الاخير من السيطرة على الموقف في بلاد الشام . الا أن الموقف تبدل بعد انتصاره على الصالح ايوب قرب غزة ومسيره نحو مصر في محاولة للسيطرة عليها . في تلك الظروف انشقت القوات الشامية عن الصالح اسماعيل ورفضت فكرة التعاون مع الصليبيين ضد اخوانهم المصريين حيث تركت معسكره وانضمت الى القوات المصرية ليشتركوا جميعاً في حرب الصليبيين ، وقد انزلت بهم خسائر فادحة بعد أن اسروا منهم خلقاً لا يحصى وساقوهم الى مصر(١). في حين عاد ثيبوت الرابع خائباً الى اوربا ليأتي محله ريتشارد كورنول _ اخو هنري الثالث ملك انكلترا _ غير أن الاخير عاد الى انكلترا بعد عدة اشهردون أن يحقق أي هدف يذكر سوى تحصين عسقلان واجابة الصالح اسماعيل بالاستمرار في احترام بنود الصلح المعقود مع ثيبوت الرابع(٢) وكان ذلك في ايار سنة ١٢٤١ م .

والحقيقة ان الخطر الذي كان يهدد بلاد الشام . وفي هذه الفترة ، هو النزاع بين الامراء البيت الايوبي ذلك النزاع الذي دفع بكل منهم الى نيسان القدس ومصالح المسلمين والاهتمام فقط بالحفاظ على المصالح الشخصية بالسيطرة والحكم وتوسيع الاملاك وكانت النتيجة النهائية لذلك النزاع ان وقف الصليبيون الى جانب الملك الصالح . حاكم دمشق ، في حين استدعى الصالح ايوب _ حاكم مصر _ الخوارزمية واعتمد عليهم وكان ذلك في بداية سنة ١٢٤٤ م . ولم تكد دعوته تصل الى الخوارزمية حتى اندفع عشرة الاف رجل منهم نحو بلاد الشام الصليبية . حيث استولوا على طبرية ونابلس ثم توجهوا بعد ذلك الى القدس وتمكنوا من افتتاح المدينة في ١١ تموز سنة ١٢٤٤ م بسهولة بالغة ، واجبروا الصليبيين على مغادرة المدينة . بعد أن توسط لهم الناصر داؤد حاكم الاردن . وقد خرج منهم ستة الاف قاصدين يافا . الا أنه لم

---

(٣) راجع بخصوص استياء المسلمين من اعمال الصالح اسماعيل : السلوك : ١/ ٣٠٨ . النجوم الزاهرة : ٦/ ٣٢٢ . الحركة الصليبية : ٢/ ١٠٣٧ _ ١٠٣٨ .

(١) السلوك : ١/ ٣٠٥ . النجوم الزاهرة : ٦/ ٣٢٣ .

(٢) انظر : غروسية . تأريخ الحروب الصليبية : ٣/ ٣٩٤ .

يصل منهم سوى ثلثمائة فقط لأن الخوارزمية دبروا لهم مكيدة قتلوا فيها معظمهم(٣). وبذلك عادت القدس الى أيدي المسلمين. ولم يقدم اليها جيش صليبي بعد ذلك حتى الحرب العالمية الاولى.

أما الصليبيون فقد استجمعوا قواتهم وتقدموا مع قوات حليفهم الصالح اسماعيل نحو مصر لاخذ الثأر من الصالح ايوب. الا أن الخوارزمية لحقوا بهم واصطدموا معهم في معركة حاسمة وقاسية عند غزة في ١٧ تشرين الاول سنة وقتلوا منهم قرابة ثلاثين الف وسيق منهم بحدود الالف اسير الى مصر(١). وقد كانت نتائج هذه المعركة من الكوارث التي حلت بالصليبيين كسابقتها حطين. حتى ان المؤرخ الفرنسي غروسيه اطلق عليها اسم « حطين الثانية(٢) »

وقد تتبع المنتصرون فلول الجيش المنهزم حتى وصلوا عكا ومن هناك سار الصالح ايوب لمعاقبة المنافقين من الحكام المسلمين الذين تعاونوا مع الصليبيين، وقد تمكن من الاستيلاء على معظم املاكهم كاملاك الناصر داؤد - حاكم الكرك - اما الصالح اسماعيل الذي حصن نفسه بدمشق. فانه لم يتمكن من المقاومة واضطر الى تسليم دمشق اخيراً على أن يخرج بأمواله سالماً منها بعد تعويضه ببعض الحصون القريبة(٣). وبذلك اعادت الدولة الايوبية وحدتها تحت زعامة الصالح ايوب الذي اصبح حكمه نافذاً على مصر ودمشق وبيت المقدس في حين قدم له الولاء والطاعة حكام حماة وحمص وسائر امراء الشام من المسلمين.

سابعاً - حملة لويس التاسع على مصر (الحملة الصليبية السابعة) :

بعد طرد الصليبيين من بيت المقدس على ايدي الخوارزمية. السابق ذكره. ارسل بطريق القدس سفارة الى المغرب الاوربي يدعوهم فيها الى الاسراع بانقاذ مملكة بين المقدس الصليبية في بلاد الشام. وقد وافق ذلك الطلب ان ملك فرنسا (لويس التاسع) كان قد اصيب بحمى ملاريا شديدة في اواخر سنة ١٢٤٤ م وقد نذر أن يخرج على رأس حملة صليبية اذا شفي من مرضه. وقد كان لويس هذا شديد التعصب للصليبية مما جعله من أشهر الاسماء في سجل القديسين في العصور الوسطى. وفي مجمع ليون الذي عقد في صيف سنة ١٢٤٥ م تقررت الحملة بمساندة البابا انوسنت الرابع الذي استنفر للملك لويس الامراء والنبلاء ورجال الجيش الذين

---

(٣) انظر : السلوك : ٩١ ٣١٥ - ٣١٦ . الحركة الصليبية : ٢ / ١٠٤٢ - ١٠٤٥ .

(١) ذيل اروصتين . ص ١٧٤ . النجوم الزاهرة : ٦ / ٣٣٣ . الحركة الصليبية : ٢ / ١٠٤٦ .

(٢) الحروب الصليبية : ٣ / ٤١٥ .

(٣) انظر : النجوم الزاهرة : ٦ / ٣٢٤ - ٣٢٥ .

زودهم ، كما هي عادة البابوية ، بصكوك الغفران . وبذلك اتخذت هذه الحملة طابعاً فرنسياً بحتاً(١).

وقد استعد لويس لهذه الحملة مدة ثلاث سنوات ، ثم رحل اخيراً من باريس في ١٢ آب ١٢٤٨ م وقبل وصوله الى مصر وصلت اخباره والحملة التي اعدها الى سلطان الايوبيين (الصالح ايوب) سراً عن طريق الامبراطور فردريك الثاني ، الصديق الحميم للسلطان الكامل المار ذكره من قبل ، والذي لم يكن راغباً بحرب المسلمين ، وغير قادر على معارضة حملة لويس جهراً لذلك كله ارسل الى الصالح ايوب سفارة من عنده متخفية بزي التجار المسلمين عرفت المسلمين باهداف الصليبيين في حملتهم الجديدة ، ومكنتهم من اخذ الاحتياطات لها(٢).

وفي يوم الخميس الموافق ١٩ من شهر صفر سنة ٦٤٧ هـ / ٣ حزيران سنة ١٢٤٩ م وصل لويس التاسع بقواته امام دمياط وكانوا زهاء الخمسين الف صليبي ، فوجد الحامية الاسلامية تنتظره بقيادة الامير فخر الدين وهناك على الشواطيء دارت معركة قاسية انتصر فيها الصليبيون مما دفع بالامير فخر الدين الى الانسحاب ليلاً الى الضفة الشرقية من نهر النيل حيث توجد مدينة دمياط ، وفي اليوم التالي انسحب عن دمياط نفسها واتجه الى الجنوب حيث توجد اشموم طناح . وعندها خاف اهل دمياط على انفسهم من الحصار والقتل فخرجوا بما لديهم تاركين مدينتهم صفراً من كل شيء(٣) . وقد اتهم المؤرخ المعاصر ابن واصل فعلة الامير والعسكر بقوله : « وكان هذا فعلاً قبيحاً منهم ومن فخر الدين والعساكر . فان فخر الدين يوسف لو منع العسكر من الهرب واقام لامتنعت دمياط ...... ولكن اهل دمياط كانوا مذعورين ، لانهم لما رأوا هرب العساكر وعلموا مرض السلطان ، خافوا ان يستمر عليهم الحصار مدة طويلة فيهلكوا جوعاً ، كما هلك اهل دمياط في المرة الاولى »(٤)

وهكذا خلت دمياط من اهلها والمدافعين عنها ليدخلها الصليبيون بغير قتال ويعملوا بسرعة على تنصيرها وتحويل مسجدها كنيسة وتعيين بطرقاً لها وقد كان

---

(١) انظر : محمد مصطفى زيادة ، حملة لويس التاسع على مصر (القاهرة ١٩٦١) ص ٨٩ ـ ٩٠ عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢ / ١٠٥٢ . Stevenson, The Gruisadors, P. 325.

(٢) النجوم الزاهرة ، ٧ / ٣١١ . حملة لويس التاسع على مصر ، ص ٩١ . الحركة الصليبية ، ٢ / ١٠٥٤

(٣) السلوك ، ١ / ٣٣٥ . حملة لويس التاسع على مصر ، ١٠٦ . الحركة الصليبية ، ٢ / ٦٠ .

(٤) ابن واصل ، مفرج الكروب في اخبار بني ايوب (تاريخ الواصلين) ، ٢ / ٣٥٦ ب (وهو مخطوط مصور بدار الكتب المصرية رقم ٣١٩٥ تمه محمد مصطفى زيادة في كتابه حملة لويس في الملحق رقم واحد من كتابه ص ٢٦٧) .

ذلك بمثابة مصيبة لم يحدث مثلها في تأريخهم الطويل .(١) وقد عاقب الصالح ايوب المتهاونين في الدفاع عن المدينة عقاباً قاسياً . فقد امر بشنق كثيرين في حين وبخ البعض الاخر منهم(٢).

وبعد هذا النصر الذي احرزه الملك لويس في دمياط . بدت عليه علامات الغرور والعظمة والاستهانة بالمسلمين مما دفعه ذلك لارسال كتاب الى السلطان الصالح ايوب في مصر يستهين به ويدعوه الى الاستسلام ويذكره بقوة الصليبيين وتدميرهم للمسلمين في الاندلس ومما جاء في ذلك الكتاب : « نحن نسوقهم سوق البقر (اي للمسلمين في الاندلس) ونقتل منهم الرجال ونرمل منهم النساء ونستأسر البنات والصبيان .... فلو حلفت لي بكل الايمان ... ما ردني عن الوصول اليك ... »(٣). وقد ذكر كتاب لويس هذا ابن ايبك بشيء من التطويل نذكر منه مايلي : « لاتسوق البلاء بيدك اليك وتكون على نفسك وجيشك قد جنيت ... فسيوفنا حداد ورماحنا مداد وقلوبنا شداد ... فان كانت لك فدية القت بين يديك . وان كانت لنا فيدنا العليا عليك ... ستسلم ان سلمت غير محارب ... والا اتيناك بخلق كرام وعصبة مسيحية لم يخف عنك علومها ... »(٤).

وقد وصل كتاب لويس السابق الى السلطان الصالح ايوب في القاهرة وقد كان مريضاً يعاني آلام الموت . فلما قرأ الكتاب تألم كثيراً وامر باستنفار العساكر والعربان ثم رحل الى المنصورة التي جعلها مقراً لاعماله العسكرية . رغم قساوة مرضه . وقدكان امر بارسال الجواب للملك لويس خوفه فيه عاقبة الغرور وبشره بخسارته الاكيدة بحربه للمسلمين(٥). ومما جاء في رده مايلي : « اما بعد فقد وصل كتابك وفهمنا لفظك وخطابك . وها هنا قد اتيتك بالخيل والرجال ... والقيود والاغلال . فان كانت لك فأنت الساعي ... ومن يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً . وفي كتابك تهددنا بجيوشك وابطالك ... او ماتعلم انا نحن ارباب الحتوف ... فلو نظرت ايها المغرور حد قلوبنا وجد حروبنا ... لعضضت على يدك بسن الندم ... وسيعلم الذي ظلموا اي منقلب ينقلبون(٦) »

---

(١) انظر : النجوم الزاهرة : ٦ / ٣٣٠ .

(٢) انظر : العيني . عقد الجمان . حوادث سنة ٦٤٧ نقلا عن الحركة الصليبية : ٢ / ١٠٦٢

(٣) السلوك : ١ / ٣٣٤ .

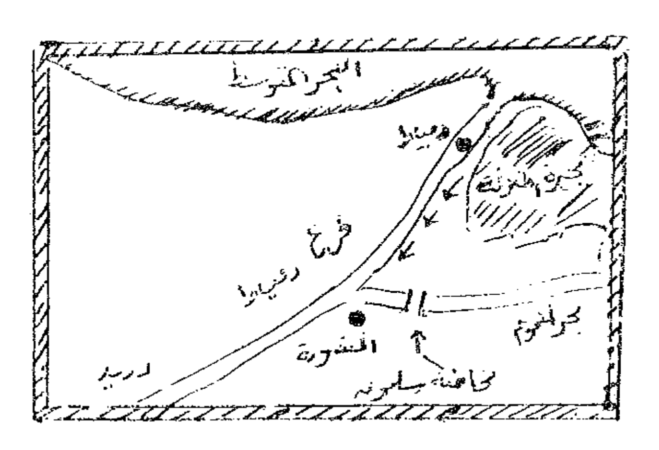
(٤) انظر كنز الدرر وجامع الغرر (مخطوط) نقلا عن زيادة . حملة لويس . ص ١٠٩ .

(٥) ابن واصل . مفرج الكروب : ٢ / ٣٥٧ أ (مخطوط) نقلا عن الملحق رقم - المنشور في كتاب حملة لويس السابق . ص ٢٦٨ .

(٦) ابن ايبك . كنز الدر : ٧ / ٦٩٨ (خطوط) نقلا زيادة حملة لويس ص ١١١ .

وقد ظل السلطان الصالح ايوب مرابطاً مقابل العدو في المنصورة ينظم شؤون الدفاع ويجمع المدد حوله ويكاتب الامراء بالاستنفار . كما كان يرسل بين الفترة والاخرى السرايا للهجوم على الصليبيين ومباغتتهم[1] . وقد استمر على هذه الحال حتى ثقل عليه مرضه ثم وافاه الاجل في يوم ١٥ شعبان سنة ٦٤٧ هـ[2] بعد ان عهد لولده المعظم تورانشاه بالسلطنة في مصر . وقد وصلت اخبار وفاته الى الصليبيين رغم ماحصل من كتمانه .

وقد استغل الصليبيون تلك الوفاة فاسرعوا بالزحف على القاهرة واختاروا طريق الدلتا وساروا على الضفة الشرقية لفرع دمياط في المنطقة التي تسمى (جزيرة دمياط) لاحاطتها بالماء من الشمال الشرقي والغرب ومن الجنوب الشرقي (انظر الشكل التالي) .



ومعنى هذا ان بحر اشموم كان يعترض طريق الصليبيين للوصول الى المنصورة مركز تجمع القوات الاسلامية ـ ومن ثم للزحف على القاهرة . وهو الامر الذي اعطى للقوات الاسلامية مركزاً جيداً في ضرب الصليبيين وعرقلة مسيرهم . وقد نجحوا فعلاً

(١) انظر : المقريزي . السلوك : ١ / ٣٣٧ .

(٢) ابن واصل . مفرج الكروب : ٢ / ٣٥٩ أ (مخطوط) نقلا عن حملة لويس . ص ٢٧٣ .

في مسعاهم وكبدوا الصليبيين خسائر فادحة(١) . ومع ذلك تقدم الصليبيون ولم يجدوا انفسهم الا وهم محاصرون بالمياه في المثلث بين فرع دمياط وبحر اشموم والمسلمون امامه في المنصورة محصنين لايتمكنون من العبور اليهم . ولم ينقذه من الموقف ويمكنه من عبور بحر شموم سوى مخاضة سلمون التي تقع في بلدة سلمون التي دلهم عليها بعض اهل تلك البلدة من غير المسلمين(٢) . وقد عبر معظم الجيش الصليبي النهر واقتحموا المنصورة وهناك دارت معركة رهيبة انتصر فيها المسلمون انتصاراً ساحقاً على الصليبيين كبدوهم خسائر فادحة . وكان قائد الجيش الاسلامي في هذه المعركة هو المملوك بيبرس البندقداري ـ الذي اصبح فيما بعد سلطان الشام ومصر (٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ ـ ٦٧٦هـ / ١٢٧٧ م) ـ(٣) الذي انضوى تحت لوائه كل المماليك في مصر وتمكن بهم اخيراً من انزال الهزيمة بالصليبيين .

ولم يكتف المسلمون بهذا النصر بل عبروا وراء الملك لويس التاسع بحر اشموم واصطدموا بقواته في عدة معارك كان النصر في معظمها للجيش الاسلامي . ولذلك اخذ الملك لويس يتراجع عائداً الى دمياط غير انه اصطدم بنبأ قطع المسلمين الطريق عليه واستيلائهم على السفن الصليبية التي كانت تحمل الميرة والمؤن(٤) . وهكذا وجد الملك لويس نفسه محاصراً ، ضعيفاً ، لم يبق امامه سوى التخضع ومفاتحة السلطان المعظم توارنشاه بشأن الصلح . الا ان السلطان المعظم رفض طلبه . وقد كانت نهاية الصليبيين عند (فارسكور) حيث هجم عليهم المسلمون من كل جانب يتخطفونهم قتلاً واسراً . وكان من جملة الاسرى الملك لويس التاسع نفسه الذي اقتيد مكبلاً بالاغلال الى القاهرة . وهناك اكرم السلطان تورانشاه مكانته وعامله بالحسنى . وكانت النهاية باطلاق سراحه مقابل تخلي الصليبيين عن دمياط وانسحابهم وعدم محاربتهم المسلمين وبموجب هذا الاتفاق تم عقد هدنة للسلام امدها عشر سنوات(١) .

ومما جدير بالذكر ان الملك المعظم توارنشاه قتل في هذه الفترة ٢٧ محرم سنة ٦٤٨ هـ / ٢ ايار سنة ١٢٥٠ م على يد المملوك بيبرس البندقداري قائده العسكري

---

(١) انظر : السلوك : ١ / ٣٤٧ ـ ٣٤٨ . الحركة الصليبية : ٢ / ١٠٦٦ .

(٢) العيني عقد الجمان . حوادث سنة ٦٤٧ هنقلا عن الحركة الصليبية : ٢ / ١٠٦٨ .

(٣) انظر دريد عبد القادر . سياسة المنصور سيف الدين قلاوون تجاه القوى الصليبية (بحث منشور في مجلة اداب الرافدين جامعة الموصل : ١٩٧٨) العدد التاسع . ص ٤٤ .

(٤) السلوك : ١ / ٣٥٣ .

(١) انظر : بخصوص اندحار الملك لويس واسره : ابن واصل . مفرج الكروب (المخطوط) : ٢ / ٣٦٩ أ ـ ٣٧١ أ . زيادة . حملة لويس التاسع . ص ١٦٥ ـ ٢١٠ . عاشورا . الحركة الصليبية : ٢ / ١٠٧٢ ـ ١٠٧٤ . العبادي . قيام دولة المماليك . ١٠٩ ـ ١١٣

المار ذكره وبموته انتهى عصر الدولة الايوبية لينتقل الحكم الى سلطة المماليك البحرية في مصر . اما في الشام فقد بقي الحكم للايوبيين بيد الملك الناصر حاكم حلب . الذي سارع ، بعد احداث مصر ، الى دخول دمشق والسيطرة عليها(٢) الا ان الموقف انتهى بان تكون للمماليك اليد العليا . فقد سيطروا على الموقف تماماً وكانوا الحصن الحصين الذي دفع خطر المغول والصليبيين عن بلاد الشام ومصر ، كما سنذكر ذلك في الصفحات القادمة .

ثامناً ـ الخطر المغولي على بلاد الشام ودحره في (موقعة عين جالوت) :

شهد القرن الثالث عشر الميلادي / السابع الهجري الغزوات المغولية على العالم الاسلامي ، تلك الغزوات التي تركت اثاراً خطيرة في تأريخ المسلمين . فقد دمرت الجيوش المغولية مدن المسلمين ، واتت على كثير من الناس قتلاً واسراً ، بعد تقويضها لمعالم المدينة في كل مكان دخلته . ومن سوء حظ المسلمين انهم كانوا في تلك الفترة ممزقين ، ضعفاء ، لاتجمعهم مركزية ، ولا يقودهم رجل مقدام كجنكيزخان الذي افلح في توحيد القبائل المغول واندفع بهم وبسرعة ، فيما يسمى اليوم بالحرب الخاطفة ، مجتاحاً جنوب اسيا وايران ، ثم اخيراً اقتحموا بغداد في ٤ صفر سنة ٦٥٦ هـ الموافق ١٠ شباط سنة ١٢٥٨ م(٣) وعملوا فيها التخريب بعد ان وضعوا في اهلها ومساكنهم السيف والنار .

ومن الطبيعي ان يتلو ذلك الغزو ، غزو بلاد الشام ، تلك البلاد التي مزقتها المنازعات الداخلية وادامتها الحروب الصليبية . وفي هذه الفترة كان لويس التاسع ، المار ذكره ، قد عاد الى بلاد الشام بعد اطلاق سراحه ـ اثر عقده للهدنة مع المماليك اثر اسره في موقعة المنصورة ـ وهناك عمد ، خيانة للعهد والوعد ، الى تجميع عرى الصليبيين المفككة واخذ يهاجم بعض المدن الاسلامية كنابلس وصور . ولم يكتف باعماله هذه وانما عمد الى التحالف مع الحركة الاسماعيلية الجديدة (الحشيشية) من ناحية ومع المغول من ناحية اخرى(١) . ظناً منه في

---

(٢) انظر : العبادي . السابق . ص ١٢٢ ـ ١٢٣ ح

(٣) انظر بخصوص اجتياح المغول لاسيا واسقاطهم بغداد : ابن طباطبا . الفخري في الاداب السلطانية ص ٦٩ . الذهبي . دول الاسلام : ٢ / ١٢٢ ـ ١٢٣ . الهمذاني . جامع التواريخ : ٢ / ٢٣٦ . عاشور . العصر المماليكي في مصر والشام . ص ٢٦ ـ ٢٧ . فؤاد الصياد . المغول في التأريخ . ص ٢٤٩ ـ ٢٨٧ .

Lone Pool: the Mohom. Dynasties. P.P. 222-231.

(١) انظر : عاشور . الحركة الصليبية : ٢ / ١٠٩٧ و ص ١١٠٠ .

السيطرة على كل بلاد الشام والتوجه بعدها . بمساعدة المغول . للسيطرة على مصر وبذلك يتحقق هدف حملته الفاشلة التي انتهت باسره كما مرَّ .

كذلك فان الارمن النصارى بقيادة (هيتوم) ملك ارمينيا الصغرى تحالفوا ايضاً مع هولاكو وقدموا قواتهم طواعية بين يديه في سبيل تخليص بيت المقدس من ايدي المسلمين ، حتى ان البطريق الارمني وصل الى هولاكو ومنحه البركة وبذلك اتخذت حملة المغول على بلاد الشام سمات الرب الصليبية(٢) . وهكذا اصبح خطر المغول على بلاد الشام لايهدد الصليبيين ، بل على العكس فانهم اعتبروا هجوم المغول على الشام نصراً يحقق لهم امالهم . وعليه فقد غادر لويس التاسع عكا الى فرنسا في ٢٥ نيسان سنة ١٢٥٤ م بعد ان امن مصالح الصليبيين بشكل عام في بلاد الشام(٣) .

وفي شهر رمضان سنة ٦٥٧ هـ / ١٢٥٩ م تحرك الجيش المغولي الكبير من اذربيجان قاصداً الشام بقيادة هولاكو وما ان وصل بلاد الشام حتى انضمت اليه فرقة الارمن النصارى ليتجهوا اولاً لمحاصرة ميافارقين بديار بكر(٤) . وكانت في ذلك الوقت تحت حكم الملك الكامل (محمد بن المظفر بن العادل) وقد تذرع المغول بمهاجمتهم لهذه المدينة : ان الملك الكامل كان قد قتل قسيساً يعقوبياً ، قدم بلاده وكان يحمل جواز مرور مغولي(١) . وهذه الاحداث تدل ، من غير شك ، على ان المسلمين في بلاد الشام واجهوا حرباً صليبية جديدة مبطنة تحت ستار الهجوم المغولي . ولا ادل على ذلك ايضاً ماذكرته بعض المراجع المعاصرة من ان خطة غزو بلاد الشام المغولية وضعها هيثوم ملك ارمينية الصغرى . وقد وضع في الخطة الهجوم على بيت المقدس من منطقة الرها وبعد تخليصها من ايدي المسلمين يتم تسليمها للنصارى هناك(٢) .

على اية حال فان ميافارقين سقطت بيد المغول بعد ان رفض الملك الكامل الاستسلام والانقياد للمغول حيث امتشق الحسام ضدهم ووزع الفضة والذهب والغلال ، التي كانت موجودة في المخازن ، على سائر الجند وبذلك استثار همتهم وتمكن من مقاومة الحصار مدة عامين تقريباً اظهر خلالها المدافعون شجاعة منقطعة النظير . غير ان نفاذ المؤن وانتشار الوباء داخل المدينة وموت الكثيرين دفع بالملك

---

(٢) الصياد ، المغول في التاريخ ص ٢٩١ ــ ٢٩٢ .

(٣) عاشور ، السابق : ٢ / ١١٠٣ .

(٤) غروسية ، الحروب الصليبية (بالفرنسي) : ٣ / ٣٠٧ .

(١) انظر : الصياد ، المغول في التاريخ ، ص ٢٩٢ . عاشور ، الحركة الصليبية : ٢ / ١١٢١

(٢) عاشور ، السابق ص ١٠٢٣ .

الكامل اخيراً الى الاستسلام . وعلى اثره القى المغول القبض عليه ثم قطعوا جسده حتى مات . اما رأسه فقد حملوه على رمح وطافوا به في البلاد(٣) ثم عملوا في لمسلمين ذبحاً وقتلاً ولم يتعرضوا لاحد من النصارى هناك(٤).

ومن ميافارقين زحف المغول الى ماردين وتمكنوا بعد حصار ثمانية اشهر من دخولها بالامان بعد ان دبرت مؤامرة انقلاب اطيح بالملك السعيد الايوبي . وفي تلك الفترة كان المغول قد استولوا على بعض المدن والقلاع المجاورة . فقد استولوا على نصيبين واستسلمت لهم حران والرها . اما سروج ، التي قاومت المغول فقد ابيد اهلها عن اخرهم ثم تبعتها منبج . ثم عبر بعد ذلك هولاكو بجيشه نهر الفرات وتقدم صوب حلب على رأس جيش كبير ضمن العديد من الفرق الارمنية والصليبية . وما ان وصلت الجيوش ابواب حلب حتى سارع مطران اليعاقبة فيها بالخروج من حلب وتقديم فروض الطاعة والشكر لهولاكو . اما المعظم تورانشاه الايوبي فقد صمم على منازلة المغول . الا ان المدينة لم تتمكن من مقاومة الحصار الطويل بسبب الخيانات الداخلية وكثرة المهاجمين لها وقوتهم من الخارج فسقطت يوم ٢٥ كانون الثاني سنة ١٢٦٠ م حيث اعمل في اهلها المهاجمون القتل والاسر والنهب حوالي ستة ايام وكان عدد الاسرى اكثر من مائة الف من النساء والصبيان بيع معظمهم في اسواق الرقيق في المدن الصليبية في الشام وارمينية . في حين لم يتعرض النصارى لاي مكروه ولم يسلم من اذى الصليبيين حتى المسجد الجامع بحلب اذ قام باحراقه الملك هيثوم ملك ارمينيا ـ بنفسه(١).

وهكذا سقطت هذه المدينة البطلة الصامدة التي كانت قد قاومت هجمات الغزاة مرات عديدة . وكانت من اهم حصون المسلمين في الشام . وقد اثار سقوطها الرعب في نفوس المسلمين وحكامهم في بلاد الشام فمنهم من هرب الى مصر للاستنجاد بالمماليك في مصر كما فعل حاكم حماة من قبل ومنهم من فضل الاستسلام حقناً لدماء المسلمين كما فعل حاكم حمص . ولم يبق من المدن المهمة سوى دمشق التي لحقت بحماة فرّ منها الملك الناصر الايوبي الى غزة مما دفع بأهلها الى اعلان الاستسلام . وقد قاومت قلعتها الحصار اربعين يوماً ثم استسلمت وتعرضت بعده المدينة للسلب والنهب . من قبل المغول والنصارى الشرقيين الذين نظموا في طرقات دمشق المواكب الكبيرة لقراءة تراتيلهم . كذلك فقد

(٣) الصياد . السابق . ص ٣٩٢ .

(٤) عاشور . السابق : ٢ / ١١٢١ .

(١) بخصوص سيطرة المغول على حلب وماردين انظر : رشيد الدين . جامع التواريخ : ١ / ٣٠٥ . ابن تغري بردى . النجوم الزاهرة : ٧ / ٤٧ ـ ٤٩ . المقريزي . السلوك : ١ / ٤٢٣ الصياد . المغول ص ٢٩٤ .

استطالوا على المسلمين بدق النواقيس وادخال الخمر الى الجامع الاموي . ثم فاتح هيوم الاول وبوهيموند ـ حاكم انطاكية الحاكم المغولي باغلاق مساجد المدينة وتحويل بعضها الى كنائس فوافق على ذلك .(٢). وفي هذا الشأن يقول المقريزي : « استطال النصارى بدمشق على المسلمين .... فتظاهروا في شرب الخمر في نهار رمضان ورشّوه على ثياب المسلمين في الطرقات وصبوه على ابواب المساجد . والزموا ارباب الحوانيت بالقيام اذا مروا بالصليب عليهم واهانوا من امتنع عن ذلك ... فقلق المسلمون من ذلك وشكوا امرهم لنائب هولاكو فاهانهم وضرب بعضهم ... »(٣) وقد اصبح بذلك المسلمون ـ كما يقول المؤرخ رنسيمان ـ « لاول مرة منذ القرن السابع (اي القرن الاول الهجري يعتبرون اقلية مغلوبة على امرها ... »(١).

« موقعة عين جالوت »

في تشرين الثاني عام ١٢٥٩ م تولى السلطنة في مصر من المماليك (قطز) الذي احكم قبضته فيها وبرهن على تملكه لمقدرة واضحة في الجوانب السياسية والعسكرية . فقد اصبح بنظر المسلمين انذاك هو القائد الوحيد الذي بامكانه ان يتصدى للمغول الذين سيطروا على معظم الشام ولم يبق امامهم سوى مصر ولذلك فقد اصبحت مصر المحطة الرئيسة التي كانت تستقبل الهاربين في العالم الاسلامي من فتك المغول وظلمهم . مما اعطى للمماليك في مصر . وعلى رأسهم قطز . ثقة عالية بانفسهم . وهكذا ثار المماليك واستعدوا للمغول وكانوا « وقتئذٍ من الصلاحية والسلامة مايجعلهم يقبلون تحدي المغول »(٢).

وفي سبيل تحقيق الهدف كان على قطز ان يعمل على توحيد الكلمة وحشد الطاقات ورفع الروح المعنوية لا لجنده فحسب . بل ولمن بقي من الامراء المسلمين في الشام كي تكون كلمة المسلمين واحدة ضد عدوهم المشترك . ولذلك فقد بادر بارسال كتاب من عنده الى الملك الناصر الايوبي اعلمه فيه . بعد ان قسم له الايمان المغلظة . انه لاينازعه الملك ولا يقاومه وانه بمثابة نائبه على الديار المصرية وانه يجب توحيد الكلمة والجيوش ضد العدو المشترك .(٣) وقد افلح في مسعاه حيث اطمأن اليه الملك الناصر .

---

(٢) انظر ابن تغرى . النجوم الزاهرة : ٧ / ٨٠ . الذهبي . دول الاسلام : ٢ / ١٢٥ . عاشور . الحركة الصليبية : ٢ / ١١٢٦ ـ ١١٢٧ و ص ـ ١١٣٠ ـ ١١٣١ . الجبيد . المغول في التاريخ . ص ٢٩٦ .

(٣) السلوك لمعرفة دول الملوك : ١ / ٤٢٥ .

(١) تأريخ الحروب الصليبية : ٣ / ٥٢٨ .

(٢) رنسيمان . تاريخ الحروب الصليبية : ٣ / ٥٣٢

(٣) انظر نص كتاب قطز للملك الناصر الايوبي : المقريزي . السلوك : ١ / ٤١٨ .

اما الصليبيون في عكا . فقد اتجه قطز الى مسالمتهم ومهادنتهم فقد استأذنهم في السماح لجيوشه بعبور الاراضي التي كانوا يحتلونها وطلب منهم الوقوف على الحياد « واستحلفهم ان يكونوا لا لهولا عليه . واقسم لهم انه متى تبعه منهم فارس او رجل يريد اذى عسكر المسلمين . رجع وقاتلهم قبل ان يلقي التتر »(١). وقد بر . على مابدى . اولئك الصليبيون بوعدهم فلم يغدروا بالعسكر الاسلامي من الخلف . ويقال ان السلطان قطز كان قد وافق على طلبهم اياه ببيعهم الخيول المغول باثمان منخفضة ان هو انتصر عليهم(٢).

ومما هو جدير بالذكر ان هولاكو ارسل الى قطز رسالة حادة . تضمنت عبارات التهديد والوعيد . يدعوه فيها الى الاستسلام الفوري دون قيد او شرط . بعد ان حذره عاقبة المخالفة وذكره ماحل بالمسلمين في العراق والشام من دمار ومما جاء في تلك الرسالة :

« ... اتعظوا بغيركم واسلموا الينا . قبل ان ينكشف الغطاء فتندموا ... فما لكم من سيوفنا خلاص . فخيولنا سوابق وسهامنا صواعق وعددنا كالرمال ... فابشروا بالمذلة والهوان ... »(٣).

اما قطز فلم ترهبه رسالة هولاكو هذه ولم ينخدع بما انطوت عليه من حرب نفسية . فقد جمع قادته وشاورهم العمل وكان اتفاقهم جميعاً ان لامناص من حرب المغول والاخذ بثارات المسلمين . ولذلك فقد بادر باعدام رسل هولاكو ليكون جوابه على الحرب عملياً . ثم وقف خطيباً في امرائه قائلاً : « ياامراء المسلمين ... انا متوجه (للجهاد) فمن اختار الجهاد يصحبني . ومن لم يختر ذلك يرجع الى بيته . فان الله مطلع عليه . وخطيئة حريم المسلمين في رقاب المتأخرين »(٤) وقد كان لهذه الخطبة اثرها في تقوية الروح المعنوية للمقاتلين . اذ اندفعوا جميعاً متحالفين على مجاهدة العدو .

ويقال ايضاً ان مما زاد في الروح المعنوية للمماليك انه وصلت اليهم رسالة من (صارم الدين ازبك بن عبد الله الاشرفي) ـ الذي وقع اسيراً في يد المغول اثناء غزوهم للشام . ثم قبل الخدمة في صفوفهم ـ اوضح لهم فيها هدف المغول وقلة عددهم بعد ان شجعهم على القتال ومما جاء في رسالته « ..... فلما علمت ان التتار

---

(١) المقريزي . السلوك : ١ / ٤٣٠ .

(٢) رنسيمان . تأريخ الحروب الصليبية : ٣ / ٣ / ٥٣٦ .

(٣) السلوك : ١ / ٤٢٩ . انظر : الصياد . المغول ص ٣٠٥ ـ ٣٠٦ . العبادي . قيام دولة المماليك الاولى في مصر والشام . ص ١٦١ .

(٤) السلوك : ١ / ٤٣٠ .

لابد لهم من الديار المصرية . بعثت غلاماً لي في صفة جاسوس وامرته ان يجتمع بالملك المظفر قطز والامير بيبرس (وغيرهم) ... ويعرفهم ان التتار لاشيء فلا تخافوا منهم ... وعرفهم ان التتار في عسكر قليل ... »(١)

وهكذا خرج قطز من مصر ومرَّ بسلام في اراضي الصليبيين بحذاء عكا ثم وصل مابين نيسان ونابلس وهناك وفي يوم ١٥ رمضان سنة ٦٥٨ هـ / ٣ ايلول سنة ١٢٦٠ م اصطدم المماليك بالمغول في موقع (عين جالوت) . وهناك دارت معركة قاسية جداً لم يشهد المغول بمثلها في بلاد الاسلام . فقد احاط بهم المماليك من كل جانب والسلطان قطز يصيح بأعلى صوته « وا اسلاماه »(٢) ولم ينتهي ذلك اليوم حتى كان المغول قد ابيدوا عن اخرهم بعد ان اسر قائدهم (كيتوبوقا) ثم قتل بعدها بامر من السلطان قطز بعد ان ساء عمله(٣) .

وقد ابتهج المسلمون بهذا النصر ابتهاجاً منقطع النظير يقول ابو الفداء : « وتضاعف شكر المسلمين لله تعالى على هذا النصر العظيم . فان القلوب قد يئست من النصر على التتر . لاستيلائهم على معظم بلاد الاسلام . ولانهم ماقصدوا اقليماً الا فتحوه ولا عسكراً الا هزموه »(٤) . وقد كان هذا النصر ايذاناً بخلاص الشاميين من سيطرة المغول . اذ ما ان وصلت اخبار الهزيمة الى المدن الاسلامية في الشام حتى بادر ولاة المغول بالهرب قبل ان يقعوا في ايدي المسلمين . الذين من جانبهم سارعوا الى الانتقام من العناصر التي كانت تتعاون مع المغول وتتهجم على الاسلام . وخاصة في مدينة دمشق . حيث دفعوا ثمناً غالياً نتيجة خيانتهم لعهد المسلمين وجيرتهم . وبهذا النصر ايضاً دخلت المدن الاسلامية في بلاد الشام تحت حكم المماليك . لتبدأ وحدة جديدة بين مصر والشام كسابقتها التي تكونت ايام صلاح الدين والتي كان من نتائجها تصفية الوجود الصليبي في بلاد الشام تماماً كما سيجيء ذكره في الفصل القادم

اما اهم النتائج التي تمخضت عنها معركة (عين جالوت) فانه يمكن ايجازها بما يلي :

١ ـ اوقفت خطر تقدم المغول الى البلاد المصرية . بعد ان قضت على قواتهم في

---

(١) ابو شامة . الذيل على الروضتين . ص ٢٠٧ . المقريزي . السلوك : ١ / ٦٣٠ . العبادي . المرجع السابق ص ١٦٥ ـ ١٦٦ .

(٢) السلوك : ١ / ٤٣١ .

(٣) انظر الصياد . السابق ص ٣١٠ ـ ٣١١ .

(٤) انظر : الدكتور فؤاد الصياد . المغول في التأريخ ص ٣١٣ ـ ٣٢١ .

بلاد الشام وبذلك خلصت مصر وبلاد المغرب من ويلات الغزو المغولي الذي كان يعطل سير التطور الحضاري للمنطقة

(٢) اعادة الوحدة بين مصر والشام وجعلت سلطنة المماليك بمصر

(٣) القوة الاساسية في الشرق الادنى .

(٤) بعث الانتصار في موقعة عين جالوت روحاً جديدة في المسلمين فقد تمكنوا من منافسة النصارى في نشر الاسلام بين المغول في ايران فقد فاتحوا زعماء المغول بالاسلام . وكللت مساعيهم بالنجاح واصبح الاسلام ديناً رسمياً لدولة المغول في ايران . وقد عجل هذا الامر اخيراً بزوال الامارات الصليبية في الشرق .

(٥) توطدت العلاقات بين الحكام المغول من المسلمين في القفجاق وبين المماليك في مصر . وتحالف الفريقان ضد عدوهما المشترك وهو (اسرة هولاكو)[١].

---

(١) انظر بخصوص نتائج معركة عين جالوت : الصياد . المغول في التاريخ ص ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣١٧ ، ٣١٨ . رنسيمان . تاريخ الحروب الصليبية ، ٣ / ٥٣٧ ـ ٥٣٨

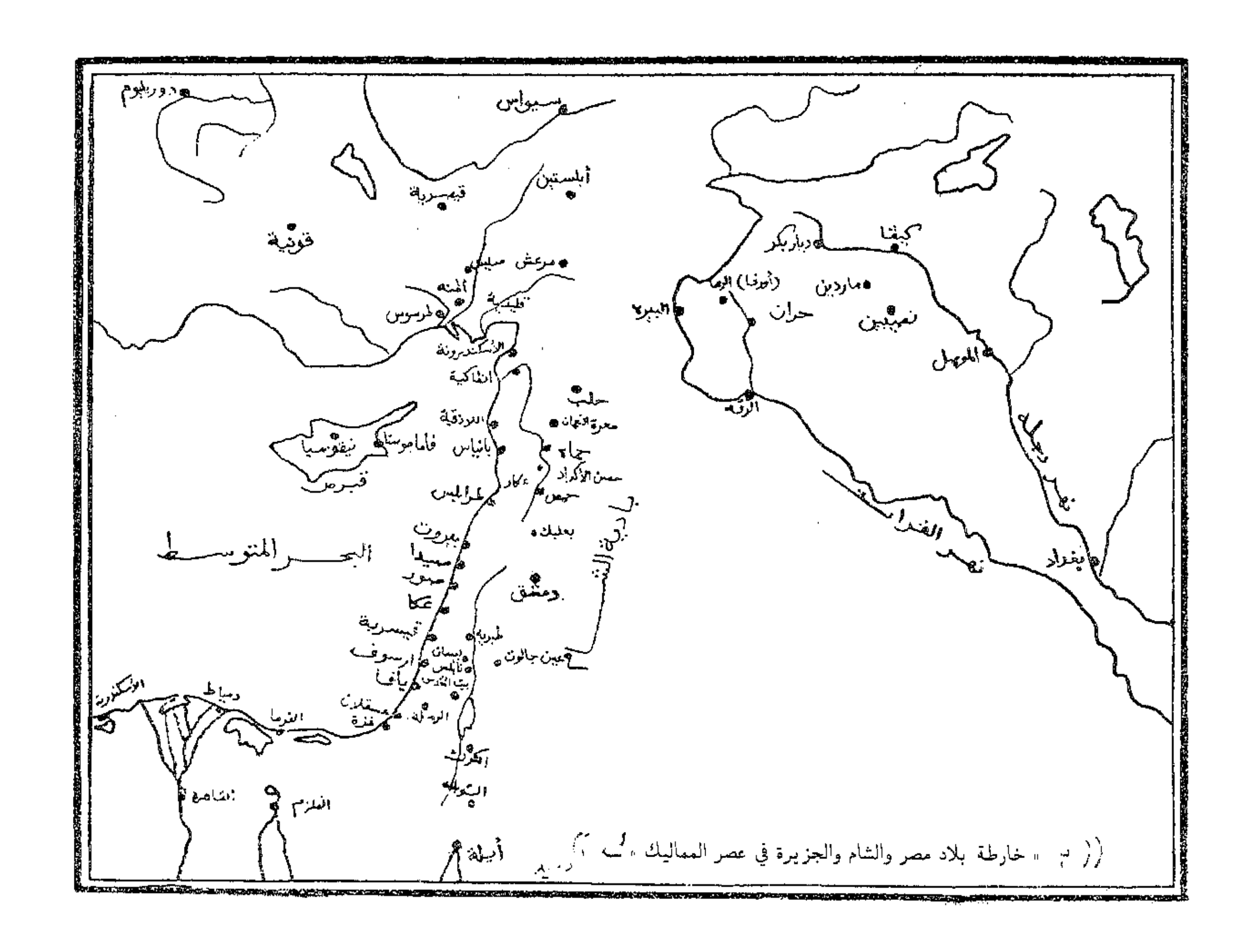
الباب الثالث / الفصل الثالث

« الحروب الصليبية في مراحلها الاخيرة »

موقف المماليك من الغزو الصليبي لبلاد الشام

اولا : موقف الظاهر بيبرس من الصليبيين وتحرير انطاكية .
ثانياً : موقف المنصور سيف الدين قلاوون من الصليبيين والهدنة مع امارة طرابلس
ثالثاً : السلطان خليل وتحرير مدينة عكا .





((٣ » خارطة بلاد مصر والشام والجزيرة في عصر المماليك

« موقف الظاهر بيبرس من الغزو الصليبي لبلاد الشام »

تحدثنا في الفصل السابق عن نصر المماليك في عين جالوت . ذلك النصر الذي كان اشارة لخلاص بلاد الشام من الخطر المغولي ومن ثم الخطر الصليبي الذي أخذ ينازع ادواره النهائية على ايدي المماليك الذين تزعم أمرهم آنئذٍ السلطان قطز . والذي استطاع بحنكته السياسية ان يعيد الى بلاد الشام الامن الذي فقدوه بفعل الغزو المغولي . ومن عجب ان هذا السلطان ـ قطز ـ بعد تبوئه لمركز قيادة المسلمين في الشام ومصر . أخذ يعيد بعض امراء البيت الايوبي الى اماراتهم الصغيرة في بلاد الشام فقد اعاد الملك المنصور الى حماة . كما اعاد الاشرف موسى الى حمص . في حين منح نيابة حلب للملك السعيد علاء الدين بن بدر الدين لؤلؤ الذي ترك الموصل فاراً من خطر المغول(١) . ولم يعمد الى ضم تلك الامارات الى حكمه بشكل مباشر . كما أنه لم يمنحها للامراء من المماليك الذين شاركوه بشكل مباشر في دحر الخطر المغولي مما أثار ضغينة في قلوبهم عليه .

وبهذه السياسة التي اتبعها قطز مع الامراء المماليك لم يقدر ان يهنأ طويلاً بثمرة انتصاره الكبير الذي حققه في عين جالوت . اذ سرعان مااتفق الامير بيبرس البندقداري ـ وهو من كبار المماليك الذي كان لهم دوراً كبيراً في الانتصار على المغول والذي كان طامعاً في حكم ولاية حلب* ـ مع بعض المماليك على القيام بانقلاب عسكري والاطاحة بالسلطان قطز . وقد نجحوا في مسعاهم وتمكنوا من قتل قطز وذلك في ١٥ ذي القعدة سنة ٦٥٨ هـ / ٢٢ تشرين اول سنة ١٢٦٠ م ثم اتفقوا بعد ذلك بيبرس فأقاموه سلطاناً ولقب بالملك الظاهر(٢) .

ومنذ ان تولى الظاهر بيبرس السلطنة في مصر أثبت مقدرة كبيرة في سياسة الامور الداخلية ومن ثم في التصدي بحزم للصليبيين . لان محاربة الصليبيين لاتأتي بالعمل البطولي الارتجالي وحده ، بل بالوحدة وبيناء الجبهة الداخلية اولا وباعداد العدة ثانياً . وقد امتازت حروب السلطان بيبرس مع الصليبيين بعنفها

---

(١) Look: Ency. of Islam, Art: Kutuz of Egypt in the middle ages, p. 262.

(٢) راجع بخصوص انتقال السلطة الى الظاهر بيبرس ومقتل السلطان قطز مايلي : النجوم الزاهرة : ٧ / ٨٦ ـ ٨٧ . الكتبي . فوات الوفيات : ٢ / ١٣٣ السلوك لمعرفة دول الملوك : ١ / ٤٣٥ ـ ٤٣٧ . تاريخ بن الفرات : ٧ / ٨١ ـ ٨٣ .

* يقال ايضاً ان بيبرس قتل قطز ليس بسبب طمعه في ولاية حلب فحسب . وانما كان هناك عداء قديم بين الطرفين اختفى مؤقتاً بسبب الخطر المغولي . ثم ظهر بعد الانتصار في عين جالوت ولمعرفة اسباب ذلك العداء انظر : البعبادي . قيام دولة المماليك الاولى (بيروت : ١٩٦٩) : ١٧٣ .

وطولها . كما امتازت برجحان كفته وانتصاره المستمر فلم تنقضي سنة من السنوات العشر الواقعة بين ٦٥٩ ـ ٦٦٩ هـ / ١٢٦١ ـ ١٢٧١ م دون ان يوجه بيبرس حملة صغيرة او كبيرة ضد الصليبيين بالشام . فقد هاجم عكا واستولى على يافا وقيسارية وارسوف والرملة وصفد وانطاكية . وفيما يلي تفصيل السياسة ببيرس هذه .

ففي مجال السياسة الداخلية عمد اولاً الى القضاء على الاضطرابات الداخلية . منها تصفية المعارضين لحكمه والذين احتجوا على مقتل السلطان قطز منهم الامير علم الدين سنجر الحلبي ، الذي كان قطز قد استنابه بدمشق الذي نادى بنفسه سلطاناً على دمشق وركب بشعار السلطنة وأمر بالخطبة له على المنابر وضرب السكة باسمه ثم ارسل الى الامراء بحلب وحماة بوجوب طاعته مما دفع بالظاهر بيبرس الى تجريد حملة عسكرية ضده . وقد تمكنت في كانون الثاني سنة ١٢٦١ م الموافق ١٦ صفر ٦٥٩ هـ من القضاء عليه واعادة دمشق تابعة الى مصر(١).

كذلك . فقد تمكن الظاهر بيبرس من القضاء على التمردات الفاطمية في القاهرة والتي اثارها رجل يدعى بالكوراني . فارسي الاصل من منطقة نيسابور ، وكان يهدف الى قلب نظام الحكم واستبداله بالحكم الفاطمي . وقد تمخضت حركة الكوراني هذه الى اعلان العصيان على بيبرس والمسير في شوارع القاهرة ليلاً ثم الهجوم على مخازن الاسلحة والاصطبلات وأخذ ما بها من السيوف والخيول . غير ان الظاهر بيبرس تمكن بقواته الخاصة من الاحاطة بالمتمردين والقبض على جميع زعمائهم ومنهم الكوراني حيث أقر السلطان بصلبه على باب زويله بالقاهرة(٢) . وبذلك انتهت آخر محاولات الفاطمين في اعادة نفوذهم الى مصر .

ومن ناحية ثانية فقد عمد الظاهر بيبرس الى اعادة احياء الخلافة العباسية في القاهرة ليقيلها مما أصابها من انتكاس على يد المغول وليظهر امام المسلمين بمظهر الحامي للخلافة . وليضفي على نفسه نوعاً من الزعامة والنفوذ على البلاد الاسلامية . باعتباره صاحب الفضل في تلك الاعادة . وهذا العمل يمنح دولته صفة الشرعية ويمدها بتأييد المسلمين .

وعليه فقد ارسل بيبرس في طلب احد ابناء البيت العباسي فوصل الى القاهرة القاسم احمد حيث قوبل بالترحاب وبكل مظاهر الاحترام في رجب سنة ٦٥٩ هـ / حزيران سنة ١٢٦١ م . وبعد عدة ايام عقد السلطان بيبرس مجلساً عاماً بالديوان الكبير بالقلعة استدعى اليه كل اعيان البلد ثم قام السلطان أمام الجميع متأدباً فبايع الخليفة على العمل بكتاب الله ، وسنة رسوله ، وعلى الامر بالمعروف والنهي

---

(١) انظر السلوك لمعرفة دول الملوك : ١ / ٤٣٨ ـ ٤٣٩ . المختصر في اخبار البشر : ٣ / ٢١٠ .

(٢) المقريزي . السلوك : ١ / ٤٤٠ .

عن المنكر وعلى الجهاد في سبيل الله (ويقصد بها مجاهدة الصليبيين) . ثم تبعه بعد ذلك القوم بالمبايعة ولقب الخليفة (بالمستنصر بالله)[١].

وكيفما كانت نهاية هذا الخليفة المؤلمة[٢] . فان السلطان بيبرس استدعى أخاه أبي العباس احمد وبايعه بالخلافة كما بايع سلفه من قبل . غير انه عدل في هذه المرة عن التفكير بأن يكون مقر الخليفة في بغداد . حيث جعله في القاهرة بعيداً عن خطر المغول[٣] . وبذلك احييت الخلافة العباسية للمرة الثانية بالقاهرة . غير ان تلك الخلافة لم تتدخل في شؤون الدولة المملوكية الا قليلاً . حيث بقيت القوة والسلطة بيد المماليك الذين انتفعوا من الخلافة في تدعيم مركزهم .

ومن ناحية ثالثة عمد السلطان بيبرس الى تأمين وصول قواته الى بلاد الشام بالسيطرة على كل المدن والقلاع الممتدة على الطريق بين مصر والشام وجعلها تابعة له . وخاصة حصن الكرك الذي كان تحت سيطرة الملك عمر بن العادل بن الكامل الايوبي الذي لم يقدم فروض الطاعة للمماليك وقد تم للسلطان مأأراد حيث تمكن من قتل الملك عمر وبذلك اصبحت الكرك تابعة لمصر[١] . ولم يكتف السلطان بيبرس بهذا العمل ـ لتأمين وصول قواته الى الشام ومنع اي التفاف حولهم من الخلف ـ بل عمد ايضاً الى التحالف مع بعض القوى الخارجية ليتفرغ للجانب الصليبي .

فقد حالف الامبراطور ميخائيل الثامن امبراطور الدولة البيزنطية . كما حالف ملك نابولي وصقلية وملك قشتالة الفونسو العاشر . بالاضافة الى محالفته لبركة خان زعيم القبيلة الذهبية (مغول القفجاق) . وهو اول خان من اولاد جنكيزخان يعتنق الاسلام . وكان على عداء مستمر مع مغول فارس الذين اسقطوا الخلافة العباسية وعاثوا في بلاد الشام فساداً . كما حالف سلطان سلاجقة الروم (عز الدين كيكاوس) . ويقال ان الظاهر بيبرس كان يبعث بالرسائل والهدايا للآخرين

---

(١) ابو شامة . الذيل على الروضتين : ٢١٣ . المقريزي . السلوك : ١ / ٤٥١ السكبي . طبقات الشافعية : ٥ / ٨٤ .

(٢) قتل الخليفة المستنصر بالله قرب الانبار على ايدي المغول بعد محاولته استرجاع مقر الخلافة بغداد من ايدي المغول وفي اثناء مسيره الى بغداد وقبل ان يكمل استعدادته العسكرية هجم عليه المغول في ٢ محرم سنة ٦٦٠ هـ وتمكنوا من تشتيت شمله حيث لم يعرف له خبر بعد تلك المعركة .

(٣) المقريزي . السلوك : ١ / ٤٧٧ ـ ٤٧٩ .

(١) راجع المقريزي . السلوك : ١ / ٤٩١ ـ ٤٩٢

(بركة خان وعز الدين) او يحثهم على محاربة مغول فارس لكف أذاهم عن دولته . كي يتمكن هو من التفرغ للصليبيين(٢).

وأخيراً فان الظاهر بيبرس التفت الى تحصين الاطراف والثغور وعمارة القلاع التي خربها المغول في بلاد الشام . وأخذ يزودها بالرجال والسلاح . من مصر وبعض مدن الشام القوية(٣). كما عمل على تقوية الاسطول والجيش ويقال انه كان يشرف بنفسه على بناء السفن الحربية في دور صناعتها التي كانت موجودة في عصره فى كل من الفسطاط والاسكندرية ودمياط(٤).

وبعد ان انهى السلطان بيبرس مشاريعه الداخلية تفرغ للجانب الصليبي . حيث بدأ بتوزيع قواته على حصون الشام وأخذ يعدهم للحرب الشاملة عدأ جيداً . على ان هذه الحرب الشاملة ــ على قول الدكتور عاشور ــ (سبقتها مفاوضات ومناوشات بين الطرفين بدأت منذ اواخر سنة ١٢٦١ بمحاولة اتفاق الصليبيين مع بيبرس على استرجاع اسراهم وعقد هدنة فوافق السلطان بيبرس بشرط العودة الى (ماكان الامر عليه الى آخر أيام الملك الناصر (صلاح الدين) واطلاق الاسرى غير ان الصليبيين لم يوافقوا(١)... على هذه الشروط . ولما وجدوا في السلطان بيبرس قوة في عساكره وفي تصميمه على قتالهم عادوا مرة ثانية يطلبون الصلح . غير ان السلطان رد عليهم قوله : « لم لاكان هذا قبل حضورنا الى هذا المكان ؟ ... (وكان قد تقدم بقواته قرابة من حصون الصليبيين) ردوا ماأخذتموه من البلاد وفكوا أسرى المسلمين جميعهم فاني لااقبل غير ذلك »(٢). وبهذا الاسلوب قابل السلطان رسل الصليبيين واوضح لهم تصميه الاكيد على القتال وبتنازلهم عن حقوق المسلمين التي اغتصبوها .

وقد بدأ بيبرس حربه للصليبيين بمهاجمته اقليم الجليل . ثم بالهجوم على مدينة عكا واقتحام ابوابها . وفي نيسان سنة ١٢٦٣ م اعاد الكرة على عكا ولكنه لم يتمكن من تحريرها لحصانتها وكثرة من بها من الصليبيين فتركها وهاجم بعض الحصون القريبة منها . كما هاجم في الشهر التالي قيسارية وعثليث(٣). وفي اوائل

---

(٢) راجع بخصوص محالفات الظاهر بيبرس المصادر التالية ابن واصل مفرج الكروب : ٢ / ٤٠٢ ــ ٤٠٤ . ٤٠٩ . المقريزي . السلوك : ١ / ٤٦٥ . ٤٦٩ . ٤٧١ . جمال الدين الشيال . تاريخ مصر الاسلامية . ٢ . ٢٠٦ ــ ٢١٤ .

(٣) السلوك : ١ / ٥٢٥ . بدائع الزهور . ١ / ١١١ . صبح الاعشى : ١٤ / ٤٠١

(٤) المقريزي . الخطط : ٢ / ١٨٠ . ١٨٥ . ٢٠١

(١) الحركة الصليبية : ٢ / ١١٤٣ ــ ١١٤٤

(٢) المقريزي . السلوك : ١ / ٤٨٥ ــ ٤٨٦

(٣) السابق : ١ / ٤٨٧ .

تشرين ثاني هاجم الصليبيون منطقة بيسان ونهبوها وعادوا محملين بالغنائم « وعندئذ ادرك بيبرس ان المناوشات والهجمات المحلية على الصليبيين لم تعد كافية لردعهم وانه لا بد من القيام بحرب شاملة ضدهم »(٤).

وفي اوائل سنة ١٢٦٥ م دخل بيبرس في عملياته العسكرية ضد الصليبيين ، وكانت في هذه المرة قاسية وواسعة النطاق اذ نزل بقواته الضخمة الى غزة ومن هناك تقدم الى قيسارية وتمكن من تحريرها في اواخر شهر شباط ثم تقدم نحو يافا فدخلها ظافراً بغير قتال لأن الصليبيين فروا منها هاربين بأنفسهم . ومن يافا سار نحو عثليث وحرره وكان بأيدي الصليبيين منذ سنة ١٢١٨ م . ومن عثليث اتجه صوب ارسوف وضرب عليها حصاراً شديداً (مدة اربعين يوماً) استسلمت بعده المدينة . ومن ارسوف توجه صوب عكا . غير انه لم يستطع في هذه ان يحررها ايضاً نظراً لمساندة هيو الثالث ــ ملك قبرص ــ لها وامداده اياها باسطول ضخم شمل كل قوة قبرص البحرية . ولذلك تركها السلطان بيبرس وعاد الى مصر ، ليعاود الكرة على الصليبيين في العام التالي بعد ان انقضى فصل الشتاء . وقد بدأ عمله في اوائل شهر تموز سنة ١٢٦٦ م حيث حاصر صفد (مقر تجمع الداوية) وتمكن من تحريره ثم اعقبه تحرير هونين وتبين ومدينة الرملة(١).

وبهذه الانتصارات الاخيرة تحطمت معنويات الصليبيين في الشام وسارعت بعض تجمعاتهم الى السلطان بيبرس بقصد كسب رضاه مقابل تنازلهم عن نصف غلات المناطق المسيطرين عليها(٢) . حتى ان ملكة بيروت ايزابيلا قدمت بنفسها الى بيبرس وطلبت رضاه وانه وافقها على عقد هدنة لمدة عشرة سنوات . ويقال ان هذه الملكة كانت كلما عزمت على مغادرة بيروت ذهبت الى السلطان بيبرس واستودعته بلادها حتى تعود(٣).

وقد شجعت هذه الامور السلطان الظاهر بيبرس للانتقام من العناصر التي عاونت المغول في قتل المسلمين وتدمير بلادهم ، خاصة وان هولاكو كان قد توفي وانشغل اتباعه في حرب مغول القفجاق ، الذين اعلنوا اسلامهم ، كما أشرنا من قبل ، وكان على رأس اولئك الجماعات(٤) الارمن في مملكة ارمينية الصغرى ذلك ان

---

(٤) ... السابق ، ١ / ١١٤٤ ــ ١١٤٥ .

(١) ... السلوك ، ١ / ٥٥٠ . النجوم الزاهرة ، ٧ / ١٣٨ . الحركة الصليبية ، ٢ / ١١٤٥ ــ ١١٤٦ .

(٢) ... القلقشندي ، صبح الاعشى ، ١٤ / ٤٣ ــ ٥٠ .

(٣) ... صبح الاعشى ، ١٤ / ٣٩ ــ ٤٢ . تاريخ ابن الفرات ، ٧ / ٣٥

(٤) ... الجماعات الاخرى التي عاونت المغول في بلاد الشام على ضرب المسلمين (السريان) الذين لم يغفر ... بيبرس حيث تنبه لحسن الجيرة ولذلك هاجم اهم حصونهم (قارا) الواقع بين حمص ودمشق وتمكن ... عقوبة فيهم .

... المقريزي ، السلوك ، ١ / ٥٥٣ . عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢ / ١١٤٦ .

ملكهم هيثوم الاول تحالف بشكل مباشر مع المغول وامدهم بفرقة من قواته لحرب المسلمين بالشام . وكان ذلك بمساندة امارة انطاكية وطرابلس الصليبيتين . وهكذا زحف الجيش الاسلامي بامرة القائد المملوكي المنصور قلاوون والملك المنصور الثاني الايوبي (امير حماة) نحو ارمينية الصغرى . وفي نهاية شهر آب سنة ١٢٦٦ م وعند حصن دربساك انزل المسلمون بالارمن هزيمة منكرة . قتلوا في تلك المعركة احد ابناء الملك الارمني هيثوم في حين اسروا الابن الثاني . ثم اعقبوا نصرهم هذا بهجوم كاسح على المدن الارمنية الرئيسية واستولوا على كل ماكان بها وكان الملك هيثوم آنئذ ضيفاً على المغول في تبريز يستجدي منهم المساعدة . وقد عاد الجيش المنتصر بعدها الى بلاد الشام ومعه كما قيل اربعين الف اسير ومن الغنائم ما لايحصى . ولم يستطع الملك هيثوم ان ينقذ ابنه الا بعد ان تنازل للسلطان بيبرس عن العديد من الحصون المهمة . وبذلك خسرت مملكة ارمينية الصغرى دورها في احداث الشرق الادنى . حيث لم تقم لها قائمة تذكر بعد خسارتها هذه (١).

ولم يستقر المقام في الشام بأولئك المنتصرين حتى وصلت اليهم اوامر السلطان بيبرس بالتجهز التام للمسير الى المعاقل الصليبية لتصفية آخر الحساب معهم . وبعد ان تمت الاستعدادات توجه بيبرس بقواته نحو مدينة انطاكية فوصل اليها في ١٥ مايس سنة ١٢٦٨ م وهناك قسم قواته الى ثلاث فرق وزعها حول المدينة ليحكم حصارها وليمنع وصول المدد اليها من البر والبحر ولم يستطع الصليبيون مع قوة المهاجمين وشدة الحصار . من المقاومة وبذلك تمكن بيبرس من تحريرها فدخلها المسلمون وغنموا غنائم كبيرة لاتعد من الاموال والاسرى(٢).

كان سقوط انطاكية حدثاً مهماً في تاريخ الحروب الصليبية . نظراً لكون هذه الامارة من الامارات الصليبية المهمة والرئيسية في بلاد الشام . فقد أسسها الصليبيون في الشرق سنة ١٠٩٧ م بعد تأسيسهم لامارة الرها ولم يبق لهم من المراكز المهمة سوى طرابلس وعكا . وكان تحرير انطاكية بداية النهاية لممالك الصليبيين في الشام . اذ انقطعت صلة الصليبيين في طرابلس وعكا بأرمينية الصغرى . وبذلك غدت مصالح الصليبيين في الشام مهددة بشكل مباشر ولم يبق امامهم سوى مملكة قبرص الصليبية التي توحدت مع مملكة طرابلس وعكا لانهم انضموا لتاج واحد

---

(١) النجوم الزاهرة : ٧ / ١٤٠ ـ ١٤١ . السلوك : ١ / ٥٥٥ . الحركة الصليبية : ٢ / ١١٤٧ ـ ١١٤٨ . العبادي . قيام دولة المماليك الاولى في مصر والشام : ٢٣٠ ـ ٢٣١ .

(٢) السلوك : ١ / ٥٦٨ . الحركة الصليبية : ٢ / ١١٤٩ . قيام دولة المماليك : ٢٢٥ ـ ٢٢٦ .

تحت زعامة الملك هيو الثالث الذي باشر حكمه ، بعقد هدنة مع السلطان بيبرس شاغلة فيها لحين قدوم مساعدات من الغرب الاوربي(١).

وقد رغب بيبرس من ناحيته ايضاً عقد هدنة مؤقتة مع الملك هيو ليستجمع قواه من جديد وليعطي لقواته قسطاً من الراحة خاصة وان فصل الشتاء قادم ، وانه ينطلب منه العودة الى مصر ليدير بعض شؤونها الداخلية . علماً بأنه وصلت من ارغونة الى عكا في اواخر تشرين الاول سنة ١٢٦٩ م قوة صغيرة اعقبها قدوم قوة فرنسية بزعامة لويس التاسع(٢) في صيف سنة ١٢٧٠ م(٣) . ورغم فشل تلك القوتين الا ان بيبرس حرص على ان يكون قريباً من مصر خوفاً من تكرار حملة لويس التاسع على المنصورة ـ المار ذكرها من قبل ـ ولذلك وافق على توقيع الهدنة مع الملك هيو الثالث .

وما ان استقامت الامور لدى السلطان بيبرس وتبين له ان الحملة الفرنسية اتجهت ضد تونس وانتهى أمرها بالفشل حتى عاد بيبرس مسرعاً من مصر الى الشام ليباشر بنفسه قيادة العمليات العسكرية ضد آخر معقلين من معاقل الصليبيين في الشام وهما (امارة طرابلس وعكا) ففي نيسان سنة ١٢٧٠ م / ٦٦٩ هـ زحف على طرابلس وتمكن من تحرير كل الحصون والقرى المجاورة لها من أمثال حصن الاكراد وحصن عكا ، ثم زحف الى طرابلس بقصد تحريرها بعد ان كاتب اميرها الصليبي بلغة شديدة اللهجة حذره وأنذره فيها وتوعده لمحالفته المغول من قبل ضد المسلمين ، الا ان بيبرس عدل عن رأيه ووافق على عقد صلح مؤقت مع بوهيموند السادس ـ امير طرابلس ـ وذلك لوصول حملة صليبية انكليزية الى الشام بقيادة الامير ادوارد(١). وبذلك دخلت طرابلس وقبرص في الهدنة مع بيبرس .

على أية حال فالهدنة مع الصليبيين كانت بنظر الظاهر بيبرس هدفاً تكتيكياً ولذلك كان يسارع بنقضها حال مايكون هناك سبباً لنقضها وقد فعل ذلك مع الصليبيين عدة مرات منها نقضه للصلح الذي عقده مع الاسبتارية في بيروت وصور سنة ١٢٦٧ م(٢)، ومنها نقضه للصلح الذي عقده مع الملك هيو الثالث ملك صقلية ـ

---

(١) راجع بخصوص موقف ملك قبرص من الامارات الصليبية في الشام ، عاشور ، قبرص والحروب الصليبية (القاهرة / ١٩٥٧) ، ٤٧ ـ ٤٨ .

(٢) اطلق على حملة لويس التاسع الفرنسية هذه بعض المؤرخين (الحملة الصليبية الثامنة) وقد انتهت بالفشل اذ لم تكد مراكب الصليبيين تصل تونس حتى اصيب الملك لويس بحمى شديدة توفي على اثرها . ثم انسحبت تلك الحملة من تونس لقاء مكاسب مادية طفيفة تجر وراءها اذيال الخيبة والعار .

(٣) انظر ، عاشور . الحركة الصليبية ، ٢ / ١١٥١ ـ ١١٥٢ .

(١) المقريزي . السلوك ، ١ / ٥٩٠ . ٥٩٢ . عاشور . الحركة الصليبية ، ١ / ١١٥٢ م .

(٢) انظر ، القلقشندي . صبح الاعشى ، ١٤ / ٣١ ـ ٣٦ .

المار ذكره من قبل ـ اذ ان القبارصة قبضوا على رسله وهم ذاهبون الى سلاجقة الروم عن طريق جزيرة قبرص . مما دفعه ذلك الى توبيخ الصليبيين بالشام وارساله اسطولاً الى قبرص لتأديب الملك هيو . غير ان الاسطول لم يحقق اهدافه بسبب الرياح الشديدة التي هبت على اسطوله . وقد اعقب ذلك القيام بحملة جديدة ضد امارة طرابلس انتهت بعقد صلح بين الطرفين لمدة عشر سنوات ابتداء من سنة ١٢٧١ م دل احد بنودها ان موت احد الطرفين المتعاقدين يكفي لنقض الهدنة مما يدل على ان بيبرس لم يرض ان يلتزم المسلمون بالصلح من بعده مع الصليبيين . ويقال ان بيبرس نفسه كان مندساً بين اعضاء الوفد الذي مثل بلاده متنكراً في زي مملوك عادي كي يطلع بنفسه على تحصينات طرابلس فيعرف مواطن الضعف والقوة فيها تمهيداً لتحريرها فيما بعد(٣) غير انه توفي وكانت معاهدة الصلح هذه آخر عهده بالصليبيين .

ثانياً ـ موقف المنصور سيف الدين قلاوون من الغزو الصليبي لبلاد الشام

توفي الظاهر بيبرس ولم يخلف من بعده الا ولداً في الثامنة عشرة من عمره اسمه السعيد ناصر الدين محمد بركة خان ومن دون ان يعين له اتابكا فاضطربت الاحوال السياسية في البلاد وأخذ الحاكم الصبي في ملاحقة كبار الامراء والتضييق عليهم . ومنهم المنصور سيف الدين قلاوون(١) . مما دفع الى الاجماع على عزله والتعويض له عن حكم مصر بحكم حصن الكرك وانتخب من بعده قلاوون الذي كان من كبار قادة الجيش(٢) . وبذلك انتهى حكم اسرة الظاهر بيبرس البندقداري وظهرت اسرة قلاوون التي كونت العمود الفقري لدولة المماليك البحرية .

وبعد ان تسلم السلطان قلاوون مقاليد الامور انشغل اولاً بالسياسة الداخلية اذ عمد الى تثبيت مركزه واعادة الوحدة بين مصر والشام بشكل متماسك وقوى كي يتسنى له التفرغ الكامل للصليبيين . فقد قضى على تمردات العشائر وقطاع الطرق أمثال جاموسي والمحوجب اللذين كانا يعيثان فى ارض مصر فساداً بالسلب مرة

---

(٣) راجع : السلوك : ١/ ٥٩٥ . العبادي . قيام دولة المماليك : ٢٢٨ ـ ٢٢٩ .

(١) ينتمي السلطان قلاوون الى قبيلة برج اغلى الساكنة بحوض نهر الفولكا . فهو تركي الاصل ولمعرفة المزيد عنه انظر : السلوك : ١/ ٦٦٣ . تاريخ ابن الفرات : ٧/ ٩٤ ـ ٩٥ . فوات الوفيات : ٣/ ٢٠٣ . دريد عبد القادر نوري . سياسة المنصور سيف الدين قلاوون تجاه القوى الصليبية في بلاد الشام . (بحث منشور في مجلة آداب الرافدين) جامعة الموصل . كلية الاداب العدد التاسع لسنة ١٩٧٨ . : ٤٥ وما بعدها .

(٢) ابن اياس . بدائع الزهور : ١/ ١١٤ . المقريزي . السلوك : ١/ ٦٥٤ .

وأخرى بالقتل حيث قبض عليهما وأمر باعدامهما . كما عمد الى تنظيف الجيش وادارته من العناصر غير الاسلامية خوفاً على تسرب المعلومات العسكرية الى الجانب الصليبي(٣) . كما عمد الى الاكثار من شراء المماليك والعناية بتدريبهم عسكرياً حتى قدر عدد مماليكه باثني عشر ألف مملوك(٤) .

وبعد ان وثق قلاوون في مقدرته توجه صوب توحيد القوى والطاقات وكان اول عمل بدأ به هو التخلص من منافسيه الذين كانوا يسعون للوصول الى السلطة داخل مصر وعمل على ابعادهم الى خارج البلاد ليتسنى له الانفراد بالحكم وبالتالي التفرغ للسياسة الخارجية . وكان من اهم الامراء المشكوك في أمرهم (سنقر الاشقر) الذي ابعده قلاوون الى مدينة دمشق . غير انه عمل هناك على استقطاب الاتباع حوله وحاول ان يمد نفوذه الى مدن الشام الاخرى . مما دفع بقلاوون الى استخدام القوة ضد الاشقر . حيث تقدم بقواته من مصر الى الشام وتمكن من اعادة كل المدن والقلاع الاسلامية وبلاد الشام تابعة لحكم مصر . وبذلك اعاد قلاوون الوحدة بين مصر ومعظم بلاد الشام وأصبح بفضل تلك الوحدة سلطاناً لا ينافسه احد من الامراء القيادة البتة في كل من مصر والشام وبلاد الجزيرة والحجاز . كما اصبح اعداؤه من الصليبيين ـ بفضل تلك الوحدة ـ تحت قبضة يده محاصرين من الشمال والشرق ومن الجنوب .

وبعد ان سيطر قلاوون على الاوضاع الداخلية وقضى على منافسيه تقدم لمحاربة الصليبيين بعد ان أمن خطوط رجعته وكسب ثقة المسلمين به . وكان اول عمل بدأ به هو ارسال الوحدات العسكرية المنظمة لحفظ الساحل الشامي من غدر الهجمات الصليبية التي أخذت تتحرك في تلك الظروف مستغلة الوضع الداخلي المتأزم في بلاد الشام . وكمثال على ذلك استغل جماعة من الصليبيين سنة ٦٧٩ هـ فرصة اغارة المغول على حلب وحاولوا الاستيلاء على حصن الاكراد ونكلوا بأهله . الا انهم لم يتمكنوا من الاستمرار في عدوانهم بفضل يقظة المسلمين وظهور القادة المخلصين الذين تمكنوا من استغلال الظروف السياسية السائدة والاطاحة بأعمال الصليبيين العدوانية في منطقة الشام . ويكفي ان اقول ان ظهور مثل اولئك القادة كان طبيعياً استجابة للتحدي الذي اصاب المشرق العربي بفعل الغزو الصليبي حتى انه كان من المألوف ان يصل الى القيادة والامارة رجال من المماليك ممن فهموا روح العصر

---

(٣) تاريخ ... الحروب ... [illegible]

(٤) حسين ... في تاريخ ... [illegible]

[illegible]

الذي يعيشون فيه ومبادئه السائدة وأفادوا منها وما سيف الدين قلاوون الا دليل على صحة ذلك الافتراض .

وقد سار سيف الدين قلاوون على سياسة صلاح الدين الايوبي والظاهر بيبرس في اخراج الصليبيين من بلاد الشام واستولى على ما بقي في أيديهم سنة ٦٨٦ هـ / ١٢٨٩ م عدا مدينة عكا التي استولى عليها من بعده ابنه السلطان خليل سنة ٦٩١ هـ / ١٢٩٤ م . وقد كان قوياً بحيث فتح الكثير من القلاع التي لم يتمكن صلاح الدين من فتحها لحصانتها وكثرة الامدادات الصليبية التي كانت تصلها من الغرب كمدينة طرابلس وحصن المرقب(١) .

وكانت سياسة قلاوون تجاه الصليبيين في فترة الاعداد لبناء الجبهة الداخلية تتمثل بالموافقة على عقد مهادنات مؤقتة مع الصليبيين نظراً للانشغال بصد الهجوم المغولي والتفرغ للقضاء على منافسيه من الامراء المسلمين ومن جهة ثانية فان قلاوون قصد من تلك المهادنات « فصل الصليبيين بالشام عن المغول في العراق وفارس(٢) » .

وقد وقع أول تقرير للهدنة بين الاسبتارية بطرابلس وقلاوون وحلف عليه سنة ٦٨٠ هـ ـ ١٢٨١ م « لمدة عشر سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشرة ساعات وأولها يوم السبت ثاني عشري المحرم .... وتقررت (الهدنة أيضاً) مع متملك* طرابلس والشام .... لمدة عشر سنين(٣) » وكان جوهر الاتفاقية ينص على الشروط التالية :

(١) يقيم نواب السلطان قلاوون وصاحب طرابلس الصليبي بمدينة اللاذقية للاشراف على استخراج الجبايات وتقسيمها مناصفة .
(٢) على الطرفين المتهادنين الا يبنيا أو ينشئا قلعة أو مدينة تجاور البلاد خارج مناطقهما .
(٣) لا يجوز نقض الهدنة بوفاة أحد الطرفين أو بانتقال الحكم الى غيره(٤) .

والحقيقة أن قلاوون كان مضطراً لعقد مثل تلك المهادنات لانه كان واقعاً تحت تأثير الخوف من الهجوم المغولي ومن احتمال استغلال الصليبيين لتلك

---

(١) أنظر علي ابراهيم حسن ، تأريخ المماليك البحرية ، ٥٨ ، ٥٩ .
(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢ / ١١٦٦ .
(٣) المقريزي ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، ق ٣ / ١ / ٦٨٥ ، انظر تأريخ ابن الفرات ، ٧ / ٢٠٤
* متملك وتعني ملك مزعوم أو مزيف ، وقد أشار المؤرخون العرب القدامى الى ملوك الصليبيين بالشرق بهذا الاسم تقديرا منهم بأن هذا الملك مغتصب
(٤) أنظر ، تأريخ ابن الفرات ، ٧ / ٢٠٥ ـ ٢٠٦ ، سرور ، دولة بني قلاوون ، ٢٣٣ .

الظروف والهجوم على المسلمين(١). كما كان منهمكاً في القضاء على المشاكل الداخلية فأراد أن يموه على الصليبيين بمثل تلك الاتفاقيات ولكي يبرهن على ظاهر صدقه ويمرر طريقته عليهم عمد الى الموافقة على قبول مهادنات ذات أمد طويل يستغل بعض وقتها للاعداد لهم . والهجوم عليهم بعدما يرى منهم أية محاولة ولو كانت غير جادة في نقض شروط الهدنة .

وفعلاً بعد أربع سنوات هاجم حصن المرقب العائد للطائفة الاسبتارية سنة ٦٨٤ هـ / ١٢٨٥ م وتمكن من فتحه بعد أن أمن مخاوف المغول ورأى من الاسبتارية ما يهدد قوافل التجار المسلمين(٢). وكان حصن المرقب هذا من أعظم الحصون الصليبية خطورة عليه نظراً لمناعته وحصانته(٣). ومن ناحية ثانية فان الصليبيين أيضاً قبلوا تلك المهادنة للمشاكل الداخلية التي كانوا يعانون منها . وتخل بعض المدن الصليبية في أوربا عنهم(٤) نظراً لأن قلاوون حافظ على العلاقات الودية التي أحكم أواصرها السلطان بيبرس مع امبراطور القسطنطينية كما ابرم معاهدة دفاعية بينه وبين جيمس ملك صقليا والفونسو صاحب قشتالة مما أضعف قوى الصليبيين في الشرق وجعلهم يخسرون بعض حلفائهم(٥).

ويتبين من دراسة الفترة الاولى لعلاقة قلاوون بالصليبيين أن سياسته تجاههم كانت مقتصرة على غارات خاطفة ومركزة على بعض المعاقل والحصون الصليبية المهمة والموافقة على عقد مهادنات مؤقتة لغرض التفرغ الكامل لبناء الجبهة الداخلية . كما تبين من قبل . وبعد أن حقق هدفه السابق تقدم لتصفية حسابه الكامل مع الصليبيين فاسقط طرابلس معقل تجمعهم الاول . وقبل التطرق الى شرح تلك الخطوات اشير الى مسألتين هامتين اولاهما : أن قلاوون ما كان له أن يحقق أهدافه لولا نجاح سياسته في تثبيت الجبهة الداخلية والسيطرة على معظم بلاد الشام والجزيرة . وثانيهما : أن قلاوون لم يتمكن من انجاح سياسته تجاه الصليبيين لولا أن خدمته بعض الظروف المواتية التي تمثلت بمساندة امراء المسلمين له واضطراب أحوال الصليبيين الداخلية من جهة ثانية .

---

(١) من الادلة التي تثبت أن الصليبيين كانوا يستغلون الفرص في الهجوم على المسلمين في الاوقات الحرجة ما ذكره ابن الفرات أنه سنة ٦٧٩ هـ كتب أمير الشام الى قلاوون يستأذنه في غزو الصليبيين بالمرقب لأنهم لما بلغهم قدوم المغول قويت نفوسهم وامتد طمعهم فأذن السلطان قلاوون في ذلك . (تأريخ ابن الفرات : ٧ / ١٩٥).

(2)Lane Pool, AHistory of Egypt in the middle ages, P.281 Steveson, The Grusoder in REast, P. 349.

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة : ٧ / ٣١٧ .

(٤) انظر : عاشور . الحركة الصليبية : ٢ / ١١٦٨ .

(٥) انظر : توفيق اليوزبكي . تأريخ تجارة مصر البحرية في العصر المماليكي : ٥٧

الا أنه يجب ألا نبالغ في تعظيم مساندة الامراء المسلمين له ولا في التفكك الداخلي والاضطراب الذي ساد بين الصليبيين في منطقة الشام لأن ـ ذلك يخالف الوقائع التأريخية ويخدم وجهة النظر الصليبية من ناحيتين أولاهما : أنه يبرر خسارة الصليبيين أمام قلاوون . وثانيهما أنه يقلل من أهمية تلك الانتصارات .

وكثيراً ما ذكرت بعض المصادر الغربية والعربية المقلدة لها وصفاً لا يخلوا من مبالغة كبيرة في تبيان مدى الضعف الذي كانت عليه الامارات ـ الصليبية قبل أن يغزوها قلاوون وكمثال على ذلك جاء في احدى المراجع مايلي : « لعل الغريب في قصة الدور الأخير من أدوار المعركة الصليبية بالشام هو أن الصليبيين ظلوا حتى اللحظة الاخيرة لا يشعرون بالخطر الذي يهددهم من جانب المماليك فاستمروا غارقين في منازعاتهم الداخلية ... وفي ذلك ـ الوقت نشبت الحرب في ايطاليا بين بيزا وجنوا فامتدت بعد قليل الى بلاد الشام(١) » .

وفي النص السابق مبالغة واضحة في تبيان الضعف الذي كان عليه الصليبيون في الشام ويتبين منه وكأن الصليبيين كانوا غافلين عن الحرب ضد المسلمين فهجم عليهم قلاوون بقواته وانتصر عليهم وبذلك فان انتصاره عليهم لم يكن له أهمية تأريخية لان الطرف الثاني لم يكن مستعداً للحرب .

ولو تفحصنا المصادر العربية لوجدنا مايدل على أن الصليبيين كانوا مستعدين للحرب وأنه كانت تصلهم أمدادات قوية من الصليبيين في أوربا يقول المقريزي : « في أول ربيع الآخر (من سنة ٦٨٣ هـ) ورد الخبر بحركة الفرنج لأخذ الشام (دمشق) فتجهز السلطان للسفر(٢) . . . » أي أن الصليبيين كانوا هم البادئون في التحرك ضد المسلمين . وفي سنة ٦٨٧ هـ / ١٢٨٨ م نقض الصليبيون في طرابلس الهدنة وأسروا جماعة من التجار وغيرهم(١). مما يدل على شعورهم بقوتهم العسكرية وتخطيطهم للهجوم على المسلمين وفي سنة ٦٨٨ هـ ١٢٨٩ م قدمت مساعدات من الصليبيين في أوربا الى مدينة طرابلس قبل فتحها وهي أربع شوان(٢) محملة بالعدد والعدة لتقوية الحامية الصليبية في المدينة(٣). كل هذه الادلة تثبت قوة

(١) أنظر : عاشور . الحركة الصليبية : ٢ / ١١٦٥ .

(٢) السلوك لمعرفة دول الملوك : ق ١ / ٣ / ٧٢٢

(١) نفس المصدر السابق : ١ / ٧٤٦ .

(٢) الشيني او الشواني و الشونة : وهي السفن الحربية الكبيرة وتعتبر من اهم القطع العسكرية البحرية وهي من صنع مصري وكانت تسير بمئة وربعين مجدف وتقمر حمولتها بمئة وخمسين جندي وكان يقام فيها الابراج والقلاع كما كانت ترمي منها النار على العدو

انظر ابن شداد . النوادر السلطانية : ٤٤ هامش رقم (٤) ابن واصل مفرج الكروب . ٢ / ١٣ هامش رقم (١)

(٣) نفس المصدر السابق ١ / ٦٦٦

الصليبيين في منطقة الشام ، وامكانياتهم العسكرية ، وقدرتهم عل التحرك ضد المسلمين .

على اية حال فان الهدنة بين الصليبيين في طرابلس والسلطان قلاوون وقعت تحت تأثير مصلحة الطرفين المتبادلة غير ان بعض الامراء من المماليك رفضوا الصلح مع الصليبيين واعتبروا السلطان خائناً يجب قتله وبالتالي نقض الهدنة مع الصليبيين . ففي سنة ٦٨٠ هـ علم السلطان أن جماعة من امرائه قد اتفقوا مع الامير سيف الدين كوندك الظاهر السعيدي على قتله « وكاتبوا الفرنج بأنهم لا يصالحون »(٤).

وقد تمكن قلاوون من السيطرة على الموقف وقتل مناوئيه بعد ان بين لعامة الناس حسن نواياه فقد تلطف في الامر وتحفظ على نفسه حتى اجتمع الامراء عنده « فوبخ كوندك ومن معه وذكر لهم ماعتمدوه من مكاتبة الفرنج فلم ينكروا وسألوا العفو فأمر السلطان بهم فقبض عليهم وهم كوندك وايدغمش ... مع ثلاث وثلاثين من الامراء ... وفر عشرة امراء ومائتا فارس(٥).... » .

وقد انتهت المؤامرة التي احيكت ضد قلاوون بالفشل وثبت مركزه ولم يتبين من دراسة المصادر التاريخية مايدل على تأييد شعبي لاولئك الامراء وربما كان لسياسة استخدام القوة واعدام الامراء المناوئين أثر في ذلك ، غير ان ـ النص السابق يظهر منه ان الذين وقفوا ضد سياسة قلاوون كانوا كثرة من الامراء والجند يقدر عددهم بنحو ثلاثمائة رجل .

وبعد نجاح الصليبيين بطرابلس في الوصول الى اهدافهم السابقة مع قلاوون تشجع الصليبيون في منطقة عكا(١) على مراسلة السلطان قلاوون في محاولة للوصول الى هدنة للصلح معه كالتي وقعت مع الاسبتارية في طرابلس فوافق عليها قلاوون لمصلحة بدت له معهم .

ففي خامس شهر ربيع الاول من سنة ٦٨٢ هـ / ٣ يونية سنة ١٢٨٣ م عقدت الهدنة بين السلطان قلاوون وبين حكام الصليبيين بمملكة عكا وصيدا

---

(٤) نفس المصدر السابق : ١ / ٦٨٦ .

(٥) المقريزي . السلوك : ق ٣ جـ ١ / ٦٨٦ .

(١) من الجدير بالذكر ان مدينة عكا كانت من اهم معاقل الصليبيين انذاك . نظراً لمناعتها اذ كانت قد استولى عليها الصليبيون سنة ١١٠٤ م واستعادها منهم صلاح الدين الايوبي ١١٨٧ م ثم سقطت بأيديهم مرة ثانية سنة ١١٩١ م بعد مجيء الحملة الصليبية الثالثة حيث نكل الصليبيون بأهلها من المسلمين وذبحوهم خارج اسوار المدينة . انظر : دريد عبد القادر نوري سياسة صلاح الدين الايوبي : ٢٩٧ ـ ٢٩٨ . ٣٢٨ ـ ٣٣٥ هارولد لامب . شعبة الاسلام : ٢١٧ .

وبلادها وهم اودو بولشيان نائب ملك مملكة بيت المقدس الصليبية(٢). وقد حضر معه كل من مقدم الداوية والاسبتارية وبعض كبار الامراء الصليبيين واتفقوا على ان تكون الهدنة لمدة عشر سنين وعشرة اشهر وعشرة ايام وعشرة ساعات. وقد ورد نص الاتفاقية في كتاب تاريخ الدول والملوك لابن الفرات(٤). ويمكن اجمال شروطها بما يلي:

١ ـ ان تكون جميع بلاد المسلمين ومايملكون في مأمن من غدر الصليبيين المتواجد في الشام او الذين يأتون اليهم من اوربا وقد جاء في نص المعاهدة مايلي:

« ان جميع ماهو للسلطان ولولده من البلاد ... وجميع العساكر والرعايا ... وجميع التجار والسفار والمترددين في البر والبحر والسهل والجبل في الليل والنهار يكونون امنين. في حالتي صدروهم وورودهم على انفسهم واموالهم واولادهم وحريمهم وبضائعهم .... وعلى جميع مايتعلق بهم .... وانه لاينال بلاد السلطان وولده وحصونهما ولا قلاعهما ولا بلادهما ولا عساكرهما ولا جيوشهما ولا عربهما ولا تركمانهما ولا اكرادهما على اختلاف الاجناس والانفار ولا على ماتحويه ايديهم من المواشي والاموال والغلال وسائر الاشياء منهم (اي سائر الصليبيين) بغدر ولا بسوء ولا يخشون من جهتهم امرأ مكروهاً ولا اغارة ولا تعرضاً ولا اذية(١)... »

٢ ـ وبالمقابل تعد قلاوون ان تكون جميع البلاد العكاوية الداخلة المشروحة الداخلة في هذه الهدنة المباركة الخاصة منها وما هو مناصفة مطمينة هي ورعاياها وساير اجناس الناس فيها والقاطنين بها والمترددين اليها على اختلاف اجناسهم واديانهم والمترددين اليها من جميع بلاد الفرنجية والتجار والسفار .... منها واليها في بر وبحر وليل ونهار(٢)... »

---

(٢) King, the Knight, Hospitallers in the Holylend, P. 284.

(٣) الداوية Templers منظمة عسكرية دينية تطلق على جماعة فرسان المعبد وقد اسس هذه الجمعية (Hugh de Payns) سنة ١١١٩ م لحماية طريق الحجاج النصارى بين يافا والقدس ثم تحولت بعد ذلك الى هيئة حربية. كان لرؤسائها وفرسانها شأن كبير في تاريخ الامارات الصليبية في الشام. اما اعداد هذه الطائفة فغير معروف وقد اشترك من هذه الطائفة حوالي ٣٠٠ في معركة حطين ضد صلاح الدين ولمعرفة المزيد عنها انظر نص المعاهدة في تاريخ ابن الفرات : ٧ / ٢٦٢ ـ ٢٧٠
King, op. Cit, P.P. 1–5, 7–33

= انظر نص المعاهدة في تاريخ ابن الفرات : ٧ / ٢٦٢ ـ ٢٧٠.

(١) ابن الفرات . التاريخ (بيروت : ١٩٤٢) : ٧ / ٢٦٣ ـ ٢٦٤.

(٢) نفس المصدر السابق : ٧ / ٢٦٤ ـ ٢٦٥.

٣ _ على الصليبيين ان لايجددو في غير عكا وعثليت وصيدا المناطق الداخلة في الهدنة قلعة او برجا ولا يجددوا حصناً قديماً ولا مستجداً(٣).

٤ _ اذا هرب احد من المسلمين الى الاراضي الصليبية الداخلة في الهدنة وتنصر بارادته ترد جميع ممتلكاته الى السلطان. وان كان لايقصد الدخول في دين النصرانية. يرد الى السلطان قلاوون بما معه بعد ان يعطي الامان وتؤخذ له الشفاعة. وكذلك اذا حضر احد من عكا والمدن الواقعة تحت النفوذ الصليبي بقصد الدخول في دين الاسلام بارادته يرد الى الصليبيين كل مامعه. وان كان لايقصد الدخول في دين الاسلام. يرد الى الحكام بعكا بشفاعة بعد ان يعطي له الامان.

٥ _ اذا وجد في صحبة احد تجار المسلمين في عكا والبلاد العائدة للصليبيين والداخلة في الهدنة شيء من الممنوعات مثل السلاح، تعاد الى صاحبها الذي اشتراه منه ويعاد اليه ثمنه ولا تصادر امواله ولا يؤذى بشيء يعامل التجار الصليبيون بمثل ذلك في البلاد الاسلامية.

٦ _ «متى اخذت اخيده من الجانبين او قتل قتيل على اي وجه كان، ردت الاخيذة بعينها ان كانت موجودة او قيمتها ان كانت مفقودة. والقتل يكون العوض عنه بنظيره من جنسه ... وان لم تظهر كانت اليمين على والى المكان المدعي عليه، وثلث نفر يقع اختيار المدعي عليهم من تلك الولاية(٢)».

٧ _ ان على الصليبيين بعكا ان يحافظوا على اموال ومتاع المسلمين اذا حدث عطب في سفنهم او اذا انكسرت. واذا لم يجدوا اصحاب تلك السفن فان عليهم ان يسلموا مايعثرون عليه لنواب السلطان قلاوون في بلاد الشام. ويجري للصليبيين مثل ذلك في بلاد المسلمين. وكذلك الحال بالنسبة لتجار الطرفين اذا توفي احدهم في غير بلاده فان الطرف الثاني يحافظ على امواله ومتاعه وتسلم بأمانة الى الجهة ذات العلاقة.

٨ _ اذا حاول الصليبيون الموجودون في الغرب الهجوم على بلاد المسلمين من البحر فان على الصليبيين الموجودين بعكا والبلاد الواقعة في الهدنة ان لاينصروهم

(٣) جاء خط في كتاب دولة بني قلاوون في مصر للدكتور محمد جمال الدين سرور ص ٢٣٤ ان على الفرنجة ان لايجددوا في عكا وعثليت وصيدا حصناً او سوراً. وقد اعتمد الدكتور سرور على مخطوط لتاريخ ابن الفرات. والصحيح ماورد اعلاه لان النسخة المحققة لتاريخ ابن الفرات اوضحت انه يحق لكلا الطرفين التصرف بما يملكون بحرية وان على الصليبيين ان لايتجاوزوا حدودهم ويبنون او يجددوا قلعة او حصناً فيما عدا عكا وعثليت وصيدا التي هي ممتلكاتهم الداخلة في الهدنة. انظر تاريخ ابن الفرات: ٧ / ٢٦٥.

(٢) تاريخ ابن الفرات: ٧ / ٢٦٦.

وان يخبروا السلطان قلاوون بخبرهم قبل وصولهم بمدة شهرين . اما اذا كان العدو من جهة البر كالمغول مثلاً ، فان على من يسبق اليه خبر تحركهم الى الشام ان يخبر الطرف الثاني .

٩ ـ على الصليبيين الذين توقع الهدنة معهم ان لا يساعدوا لصوص البحر بشيء ، وان لا يسهلوا لهم مهمة بيع المواد المسروقة ، وان ظفروا بأحد منهم فيجب القاء القبض عليه وكذلك الحال بالنسبة لامراء المسلمين .

١٠ ـ لا يجوز وضع عراقيل امام حركة تجار الطرفين . ويجب ان يجروا على عوايدهم المستمرة وان لا يوضع عليهم رسوم جديدة . ويكونون آمنين مطمئنين في حالة سفرهم واقامتهم بما معهم من اموال ومتاع ماعدا المواد الممنوعة .

١١ ـ من كان من فلاحي البلاد العائدة للسلطان مسلماً كان ام نصرانياً العودة الى ارضه ومن كان من فلاحي الارض التابعة للصليبيين ان يعود الى ارضه مسلماً كان ام نصرانياً . ومن لم يرجع بعد هذا الاعلان يطرد من الجهتين بحيث لا يبقى فلاحو بلاد المسلمين في البلاد الصليبية ولا فلاحوا البلاد الصليبية في الاراضي الاسلامية . ويكون رجوع الفلاح من الجهة الاخرى بأمان

١٢ ـ يسمح السلطان قلاوون لكل الحجاج من النصارى بمختلف اجناسهم بزيارة كنيسة الناصرة ويحافظ عليهم وعلى اموالهم ، كما يحافظ على بلادهم من كل اعتداء من جنوده او المفسدين كذلك يحافظ الطرف الثاني على ممتلكات المسلمين في بلادهم ويمنعون اي اعتداء يقع على اراضي المسلمين .

١٣ ـ كل طرف مسؤول عن الشروط السابقة بعينها شرطاً شرطاً وفصلاً فصلاً ، واذا اخل ببعضها ، فقد نقض الهدنة وهو مسؤول عن نقضها ومهلته في ذلك اربعون يوماً من الجهتين وينادي برجوع كل جماعة الى وطنها مطمئنة .

وقد تعهد السلطان قلاوون بالحفاظ على المعاهدة السابقة وتنفيذ نصوصها واقسم على ذلك امام الشهود بقسم طويل جاء في بعضه مايلي :

« والله .... وبالله... وحق القرآن ومن انزله ... انني افي بحفظ هذه الهدنة ... من اولها الى اخرها ... ولا أتأول فيها ولا في شيء منها ، استفتيء فيها طلباً لنقضها مادام الحاكمون بمدينة عكا وصيد وعثليت ... وافين باليمين ... عاملين بشروطها ... وان نكثت في هذه اليمين فيلزمني الحج الى بيت الله الحرام ... حاسراً ثلاثين حجة ويلزمني صوم الدهر كله(١) ... »

كذلك تعهد الامير الصليبي اودوبولشيان ـ نائب الملك شارل بالبلاد الشامية ـ

(١) نفس المصدر السابق : ٧ / ٢٧٠ ـ ٢٧١ .

ان يحافظ على الهدنة وان لا يخل بشروطها وقد جاء في بعض قسمه مايلي : ـ « والله ... وبالله ... وحق المسيح ... وحق الصليب ... وحق الاناجيل الاربعة ... وحق الست مارية ام النور وماتلقيته من الاباء والاقساء المعمودية ، انني قد اخلصت نيتي في الوفاء للسلطان المنصور ... بجميع ماتضمنته هذه الهدنة ... (وان لاتعرض لكافة المسلمين ولبلادهم) بأذية ولا ضرر ... مادام الملك المنصور وافياً باليمين ... ومتى خالفتها او نقضتها فأكون بريئاً من ديني ... واكون مخالفاً للكنيسة(١)

ويتبين من دراسة نصوص المعاهدة السابقة والحلف عليها ان كلا الطرفين المتهادنين كانا صادقين في مسعاهما وانهما رغبا بكل جدية ان يحل في بلاد الشام فترة من السلام والاطمئنان لتنعم المنطقة برفاهية اقتصادية وبتقدم مادي يكسب كلا الطرفين الوقت في اعداد العدة للنهوض بالواجب المحتم . طالما لم يتمكنا من الاستمرارية به في الفترة التي وقعت فيها الهدنة .

وقد دل التأكيد على التجار والفلاحين في المعاهدة السابقة وورود اكثر من نص بحق التجار مايدل على اهميتهم مادياً وعسكرياً وبالتالي على رغبة كلا الطرفين بتطوير العمليات التجارية والاستفادة منها في مجال كشف احوال الطرف الثاني ومعرفة امكانياته .

كما دل النص الخامس في الاتفاقية السابقة على انه كانت تقوم بين الطرفين ـ لاعلى المستوى الرسمي ـ عملية بيع الاسلحة . ومما يدل على ذلك انه في سنة ٦٨٧ هـ ورد الخبر الى السلطان قلاوون ان الامير علم الدين سنجر الشجاعي وزير الديار المصرية باع جملة من الرماح والسلاح للصليبيين فاعترف الامير الشجاعي بما فعل وقال « انا بعته بالغبطة الوافرة والمصلحة الظاهرة فالغبطة انني بعتهم من الرماح والسلاح ماعتق وفسد وقل الانتفاع به وبعته باضعاف قيمته والمصلحة ان يعلم الفرنج انا نبيعهم السلاح هواناً بهم واستحقاراً لامرهم وعدم مبالاة بهم(٢) .

غير ان دفاعه لم يؤخذ به واتهم بأنه يحاول اساءة سمعة السلطان قلاوون وعسكره وقيل له « ان الاعداء لايحملون بيع السلاح لهم على ماظننت انت . وانما الذي يشيعونه بينهم وتنقله الاعداء الى امثالهم ان يقولوا قد احتاج صاحب الديار المصرية والبلاد الشامية حتى باع سلاحه لاعدائه(٣) » لذلك امر السلطان باحتجازه ومصادرة امواله .

---

(١) نفس المصدر السابق : ٧ / ٢٧٠ ـ ٢٧١ .

(٢) تاريخ ابن الفرات : ٨ / ٦٣ .

(٣) نفس المصدر والمكان السابق . السلوك . ق ٣ . ١ / ٧٤٠ .

وعملية بيع الاسلحة هذه تدل من وجه ثان الى ان الصليبيين كانوا فعلاً قد استغلوا فترة انعقاد الهدنة في عملية تجميع قواهم واعداد عدتهم وانهم اضطروا الى شراء الاسلحة المستعملة من المسلمين لأن تموين الصليبيين الغربي انخفض بسبب المشاكل الدائرة في اوربا آنذاك(١). او لأنهم كانوا يخافون ان يفتضح امرهم امام السلطان قلاوون بأن الغرب الصليبي يمدهم بالسلاح فتنقض الهدنة لأن قلاوون كان قد فصل بالمعاهدة السابقة بحكمته في الفقرة الثانية من المعاهدة السابقة بين الصليبيين المتواجدين في الشرق وبين الصليبيين الموجودين في اوربا .

على أية حال فان الهدنة بين الصليبيين والسلطان قلاوون لم تستمر بسبب المشاكل التي أثارها الصليبيون وقبل التطرق اليها أرى من الضروري الكلام على بعض المؤرخين الذين اساءوا عن غير قصد ، ان يظهروا للسلطان قلاوون بمظهر الرجل الخداع الماكر الناقض للعهود والمواثيق من دون مبرر انتهازاً للفرص من دون الاستناد في ذلك الى أدلة تاريخية . علماً بأن قلاوون كان قد حلف الايمان المغلظة في الحفاظ على المعاهدة السابقة ان حافظ الصليبيون عليها .

وقد جاء في بعض تلك المراجع ما يدل على ان قلاوون كان البادىء في نقض الهدنة مع الصليبيين بعد ان تحجج عليهم وعلم فيهم ضعفاً(٢). وعلى الرغم من ان نكث العهود كان في تلك الفترة يعتبر جزء من الاعمال الدبلوماسية والسياسية التي يموه بها ضد الاعداء ، غير انه من دراسة بعض النصوص القديمة تبين ان قلاوون لم يكن هو البادىء في نقضها ، بل ان الذين نقضوا الهدنة هم الصليبيون بطرابلس فقد هاجموا قافلة تجارية وقطعوا طرق المواصلات واسروا التجار المسلمين ففي سنة ٦٨٧ هـ / ١٢٨٩ م ورد الى السلطان قلاوون في مصر كتاب من نائبه في الشام يقول فيه « ان الفرنج بطرابلس نقضوا وأخذوا جماعة من التجار وغيرهم وصار بأيديهم عدة اسرى وكانوا لما ملك السلطان قلعة المرقب قد بعثوا اليه هدية وصالحوه على الا يتركوا عندهم اسيراً ، ولا يتعرضوا لتاجر ولا يقطعوا الطريق على مسافر(١) . . . » . وهذا النص لا يستنتج منه مطلقاً ما يدل على ان قلاوون تحجج على الصليبيين بل الذي يبدو منه ان الصليبيين هم الذين نقضوا العهد . فهل يفسر رد الاعتبار وأخذ الثأر بأنه تحجج ؟ .

---

(١) للاطلاع على ما ذكر من ظهور مشاكل في داخل بعض المدن الاوربية في هذه الفترة وأثره على ضعف الصليبيين في منطقة الشام ، انظر ، عاشور . الحركة الصليبية ، ٢ / ١١٧٠ ـ ١١٧١ .

(٢) جاء في كتاب الحركة الصليبية ما نصه ، « بعد ان اضطربت أحوال طرابلس وانقسم اهلها شيعاً . تحجج قلاوون بأن أهل طرابلس نقضوا الهدنة واعتدوا على التجار المسلمين . . . »
عاشور ، ٢ / ١١٧٣ . انظر كذلك ، سرور . دولة أبن قلاوون ، ٢٣٧

(١) المقريزي . السلوك ، ق ٣ . ١ / ٧٤٦ . وانظر ، تاريخ ابن الفرات ، ٨ / ٨٠ .

وهكذا نقض الصليبيون في طرابلس العهد فتجهز قلاوون للحرب ولبس شعار السلطنة وسار بقواته من مصر متوجهاً الى بلاد الشام في العاشر من محرم سنة ٦٨٨ هـ / ١٢٨٩ م بعد ان كاتب الامراء في الشام بتجهيز العساكر لقتال طرابلس وفي ٢٠ من شهر صفر نزل على طرابلس وحاصرها حصاراً شديداً وامر بضربها بالمجانيق ثم توالى الزحف عليها حتى تمكن الحجازين من احداث عدة ثقوب في اسوارها حتى سقطت بايديهم ونكل بمن فيها من الصليبيين لان البلد فتح عنوة واسر عدد كبير منهم رغم ان متملك جزيرة قبرص الصليبي كان قد امدهم باربع سفن حربية محملة بالكثير من العدد والعدة (٢).

وبعد دخول قلاوون لمدينة طرابلس منتصراً امر بهدمها لكي لاتكون ملجأ للصليبيين في المستقبل يحاولون العودة اليها من جديد اذا ماسنحت لهم فرصة مؤاتية او اذا وصلهم امداد من الصليبيين في الغرب لانها قريبة من البحر . ولذلك فان هدمها كان اولى بالنسبة لقلاوون فهدمها ، ثم عمر مدينة مجاورة لها في الداخل بنى فيها العديد من الحمامات والمساجد والمدارس كما اجرى المياه في دورها بقساطل واحتفل ببنائها(٣).

اما الصليبيون فقد امر باخراجهم من المدينة وتوزيع مابقى منهم على القرى المجاورة التابعة لطرابلس والخالية من التحصينات العسكرية ليسلم من اذاهم بعد ان ابقى بيد الاميرة لوكانت اخت الامير بوهمند السابع ــ الاميرة الشرعية التي كانت سوف تحكم طرابلس ــ قريتين من قرى المدينة(١). كذلك نصب اميراً صليبياً على منطقة جبيل اكراماً لابيه المقتول حاكم مدينة طرابلس والذي كان قد حضر الى السلطان قلاوون متشفعاً مستسلماً(٢).

وعلى الرغم من ان التنازل للصليبيين ، بعد ذلك الانتصار ، لم يحدث له مثيل في الفترة التاريخية السابقة غير انه يبدو ان السلطان قلاوون قصد من وراءه ترضية خواطر الدول الاوربية المساندة للصليبيين . والحفاظ على مصالحه التجارية التي كانت مرتبطة مع بعض الدول الاوربية(٣). وقد كان لهذه السياسة التي اتبعها قلاوون مع الصليبيين اثر فيما جرى من تطورات في عالم السياسة والدبلوماسية بينه وبين بعض الممالك النصرانية .

---

(٢) ابو المحاسن . النجوم الزاهرة : ٧ / ٣٢١ . المقريزي . السلوك : ق ٣ . ١ / ٧٤٧ ; King: Op. Cit, P.288.

(٣) انظر : تاريخ ابن الفرات : ٨ / ٨١ . السلوك لمعرفة دول الملوك : ق ٣ . ١/ ٧٤٧ ــ ٧٤٨ .

(١) Stevenson, The Crusader in the East, P. 350. Stevenson, Op. Cit, P, 351.

(٢) تاريخ ابن الفرات : ٨ / ٨١ . السلوك : ق ٣ / ٧٤٨ .

(٣) انظر : توفيق اليوزبكي . تاريخ تجارة مصر البحرية : ٥٧ .

فقد اتفق ملك ارغونة وصقلية على مهادنة قلاوون ومساعدته ضد الصليبيين بالشام اذا ماأخلوا بالهدنة الجديدة وحاولوا الاعتداء على المسلمين

ولم يكد قلاوون ينتهي من تصفية حسابه مع الصليبيين في منطقة طرابلس ويعود مطمئناً الى مصر حتى جاءته الاخبار من الشام في شعبان سنة ٦٨٩ هـ ان الصليبيين بعكا نقضوا العهد وهجموا على التجار المسلمين وقتلوهم فغضب قلاوون غضباً شديداً وحلف ان ينتقم للتجار المسلمين . وقد حاول عبثاً الصليبيون تهدئة خواطره بأن ادعوا ان الذي قتل التجار المسلمين كانوا من «أفرنج الغرب وانه ليس برضاهم »(٥) غير ان السلطان لم يلتفت اليهم وامر بالتجهز للحرب وكتب الى الامراء في الشام بعمل المجانيق وتجهيز العدد والعدة لحصار عكا غير انه لم يكمل مهامه ويصل الى الشام . لان المرض داهمه قبل مغادرته مدينة القاهرة فتوفي في ليلة ٦ ذي القعدة سنة ٦٨٩ هـ نوفمبر سنة ١٢٩٠ م فخلفه ابنه السلطان اشرف اخيل الذي تمكن من اتماع مشروع ابيه في مقاتلة الصليبيين وتحرير مدينة عكا .

ثالثاً ـ السلطان خليل وتحرير مدينة عكا :

ما ان استلم السلطان اشرف خليل الحكم حتى بادر بالمسير من مصر الى الشام لاتمام مشروع ابيه في القضاء على آخر معقل من معاقل الصليبيين وهو (عكا) . وفي هذه الفترة كانت مدينة عكا مستعدة للقتال اذ كانت قد وصلت اليها الاخبار بنية قلاوون الزحف اليها ولذلك سارعت بطلب النجدة من البابا نيقولا الرابع الذي بادر بالاعداد للحملة الجديدة . وقد استجابت البندقية لنداء البابا نيقولا فأسهمت في اعداد حملة صغيرة ذهبت الى الشام للدفاع عن عكا . وقد ضمت هذه الحملة رجالاً همجاً غذتهم البابوية بالحقد على المسلمين ولذلك لم تكد تصل فلول هذه الحملة الى عكا حتى بادرت بالهجوم على القرى المجاورة والقت القبض على الفلاحين المسلمين وعملت في رقابهم السيوف . ولم يكتفوا بذلك بل عمدوا الى تمشيط مدينة عكا من المسلمين حيث القوا القبض على العديد من التجار المسلمين ـ الذين قصدوا عكا في ظل الامان المعطى لهم بعد عقد الصلح مع قلاوون ـ وامروا بذبحهم جميعاً(١) .

وقد ارتاع الصليبيون في عكا من هذه المذبحة التي انزلوها بالمسلمين ، وخشوا عاقبة الامر ولذلك بادروا مسرعين الى ارسال سفرائهم الى السلطان خليل بن قلاوون

(٥) تاريخ ابن الفرات : ٨ / ٩٣ .

(١) المقريزي . السلوك : ١ / ٧٥٣ ـ ٧٥٤ . عاشور . الحركة الصليبية : ٢ / ١١٧٨ .

يعتذرون عما حل بالمسلمين في عكا ويسألونه العفو . الا انه لم يقبل منهم اعتذارهم وحلف ان يأخذ بثأر المسلمين وبذلك اصبحت الحرب امراً لامفر منه(٢). اذ اعلن السلطان خليل النفير العام لقواته الشامية وطلب منهم ان يكون التجمع حول عكا .

وفي ٥ نيسان سنة ١٢٩١ م اكتمل وصول القوات الاسلامية من مختلف مدن الشام وبذلك شرع المهاجمون بحصار المدينة وتشديد ضرب اسوارها بالمجانيق الضخمة التي كانت تزن حمولة القذيفة الواحدة منها على القنطار الدمشقي او اكبر. وقد تمكن المهاجمون بفعل تلك القذائف من احداث عدة ثقوب في اسوار المدينة . مما افزع من بداخل المدينة من الصليبيين . ولذلك جمعوا كل قواتهم التي كانت في الشام وحشروها خلف اسوار عكا . كما طلبوا العون السريع من ايطاليا وصقلية . وقد لبى النداء ملك قبرص (هنري الثاني) حيث وصل في ٤ مايس من نفس السنة بجموع ٩ الاف من الجند الصليبيين رفقة قدر كبير من المؤن والامدادات . وقد استقبله الصليبيون بكل مظاهر الفرحة املاً منهم بأن النصر سيحالفه وقد اشعلوا طوال الليل نيراناً لم ير مثلها(٢) في محاولة لحرب المسلمين حرباً نفسية ليفهموهم بأن اوربا وصلت لنجدتهم .

وعلى الرغم من الاعداد الكبيرة من القوات الصليبية التي احتشدت داخل عكا والتي وصلت الى اربعين الفاً من المشاة والفرسان . وعلى الرغم مما اثاره الصليبيون من حرب نفسية للمسلمين . الا ان السلطان خليل وجنده لم يفكروا سوى في تحرير المدينة ولذلك ثبتوا على حصارها وشددوا قبضتهم عليها مما دفع بالملك هنري الثاني الى التفاهم سلمياً مع السلطان خليل عله يظفر بالوصول الى عقد صلح معه . الا ان السلطان خليل رفض تلك المحاولات ولم يقبل الا بالحرب او بالتسليم دون قيد او شرط مع اعطاء الامان للصليبيين بمغادرة ارض الشام بسلام(٣).

ولما رفض الصليبيون التسليم شدد المسلمون هجماتهم على القلعة التي كان يدافع عنها الملك هنري نفسه وقد انهار جدارها واصيب الصليبيون باليأس وعندها انسحب الملك هنري الى قبرص حفاظاً على ماء وجهه ليترك الصليبيون ومصيرهم المؤلم الذي سوف ينتظرهم(٤). وفي يوم الجمعة ١٨ مايس سنة ١٢٩١ م اشتد الحصار على المدينة وتمكن المسلمون من اقتحامها وهناك دارت معركة قاسية بين المسلمين

---

(٢) السلوك : ١ / ٧٥٧

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة : ٨ / ٥ ـ ٦

(٢) المصدر السابق : ٦

(٣) عاشور . الحركة الصليبية : ٢ / ١١٨٢

(٤) Look: Stevenson, The Crusaders in the East. P. 353–354.

والصليبيين . خسر فيها الصليبيون خسائر فادحة بالارواح منها مقتل زعيمي الاسبتارية والداوية ولم يجد لهم الغزاة من ملجأ سوى البحر . فهرعوا الى سفنهم فارين . ولكن تلك السفن لم تكن كافية فغرق بعضها في البحر بسبب كبر حمولتها في حين وقع العدد الاكبر من الصليبيين في ايدي المسلمين لينالوا عقابهم . وفي ٢٨ نيسان كانت كل المدينة قد حررت وبذلك خسر الصليبيون اخر اكبر قوة لهم . اما التجمعات الصليبية التي كانت منتشرة في بعض قلاع وحصون الساحل الشامي فقد اسرعت بالهرب او بالتسليم . وفي خلال شهرين بعد الانتصار السابق لم يبق للصليبيين في الشام مقام(١).

وهكذا انتهت ممالك الصليبيين في الشام واحدة بعد الاخرى دون ان تحقق لها هدفاً يذكر . وثبت مركز المسلمين وحقهم في البلاد ولم يجني الصليبيون سوى الخذلان المبين . لكن اذا كانت صفحة الصليبيين بشكلها المباشر قد انطوت في بلاد الشام . فانها تحولت الى مناطق اخرى كما سنذكره ـ كما انها عادت الى الوطن العربي في مصر قرون بأثواب جديدة تمثل ذلك بحركات الاستعمار القديم والحديث وبمساندة الغرب . لحركات الارتداد والعنصرية متمثل ذلك بردة سعد حداد في جنوب لبنان وبالعنصرية الصهيونية التي احتلت فلسطين . واخيراً فان الفشل الذي مني به الصليبيون في الشام كان له نتائج ايجابية على المستوى الاجتماعي والاقتصادي والفكري في اوربا سنذكره في الفصل القادم .

---

(١) انظر : السلوك : ١ / ٧٦٥ . النجوم الزاهرة : ٨ / ٩ ـ ١٠ . الحركة الصليبية : ٢ / ١١٨٢ ـ ١١٨٣ .

الباب الثالث / الفصل الرابع

نتائج الحروب الصليبية

اولاً ـ نتائج الحروب الصليبية على اوربا
ثانياً ـ نتائج الحروب الصليبية على العالم الاسلامي
ثالثاً ـ تحول النشاط الاوربي الى التوسع في مناطق اخرى



« نتائج الحروب الصليبية على اوربا »

لعل الحروب الصليبية قد فاقت غيرها من الحروب فيما خلفته من نتائج مباشرة وغير مباشرة على اوربا . فقد اقامت علاقات ثقافية واجتماعية واقتصادية بين اوربا والشرق ادت الى تطور تلك النواحي جميعاً بفضل اقتباس الاوربيين للعديد من نواحي تقدم المجتمع العربي الذي كان يرفل بالازدهار والتقدم الحضاري وينعم بنتائج الاسلام التي نشرت الخلق والفضيلة والتسامح بين معتنقيه .

فالمجتمع الاوربي الذي كتب له ان يحتك بالمجتمع العربي الاسلامي في بلاد الشام ، خلال الحروب الصليبية . كان قد بدأ في تلمس عناصر الحياة الجديدة في حين كان المجتمع العربي الاسلامي قد بلغ الذروة في النواحي الاجتماعية والاقتصادية والفكرية . غير ان ضعفه في الجانب السياسي والعسكري كان قد ادى الى تفككه وتأشير بداية انحداره .

ومن الجدير بالذكر ان كل الحضارات قديماً وحديثاً هي حضارات متصلة ومنفصلة في آن واحد ، فهي متصلة لأن كل امة تقتبس من الامم التي سبقتها ماتراه مناسباً لحضارتها وتترك ما لايتفق وحضارتها ثم تعمل على صياغته وابرازه بشكل جديد يعطي للحضارة الجديدة طابعها الخاص الذي يميزها عما سواها . والحضارة العربية الاسلامية التي امتازت باصالتها ودقتها انفتحت على حضارات الامم الاخرى من دون تعصب فقد خرج العرب من جزيرتهم فاتحين الكثير من المناطق التي كانت خاضعة لتكتلات سياسية وحضارية مختلفة . وقد عمدوا منذ البدء الى التفاعل معها بحيث لايؤثر ذلك على عقيدتهم ودولتهم . فكانوا متسامحين مع غيرهم وقد وجدوا تشجيعاً بتتبع العلوم والأخذ بها ولو كانت في ارض الصين . ولذلك اقبلوا على علوم غيرهم من الامم ينهلوا من ايجابياتها ، وهذا الاقتباس البعيد عن التقليد المحض امتزج بابتكاراتهم ومخترعاتهم التي كانوا بحاجة اليها فنتج عن كل ذلك حضارة جديدة اصيلة لها طابعها ومميزاتها الخاصة التي ميزتها عن سواها من الحضارات .

ولم يكن فضل العرب في اقتباس ايجابيات الحضارات القديمة التي سبقت الاسلام فحسب بل وفي المحافظة عليها وايصالها الى الغرب بشكل مدروس ومحقق فكانت الحضارة العربية الاسلامية بذلك الجسر الامين الذي مد اوربا بكل اعطيات الشرق العلمية ومنجزاته الحضارية ولذلك فلا عجب ان وجدنا العديد من الكلمات العربية والمصطلحات العلمية داخلة في اللغات الاوربية في مختلف الميادين ومنذ عصر الحروب الصليبية ، وسوف يتوضح ذلك فيما بعد .

وجاء تأثير الحروب الصليبية عن طريق اطلاع مئات الالوف من الصليبيين على حضارة المسلمين في الشرق وتعرفهم عليها عن كثب . وكان وجودهم في الشام بمثابة هجرة مؤقتة كسبوا بتلك الهجرة العديد من العادات والتقاليد والافكار الشرقية التي نقلوها الى بلادهم لتحدث هناك انقلاباً عظيماً في مجتمعهم وافكارهم . لأن الشرق ـ كما قلنا من قبل ـ كان متقدماً على الغرب في كل مناحي الحياة قبل الحروب الصليبية يقول العلامة الفرنسي مونتوكلا : « ان العرب بقوا زمناً طويلاً حافظي العلم الوحيدين واننا مدينون لهم باشعة النور الاولى التي ازاحت عنا ظلمات القرن الحادي عشر ... » .(١)

وعليه فالحروب الصليبية رغم انها سلسلة طويلة من الحروب والسيطرة على ارض الغير تمثلت بشكل من اشكال الاستعمار الاستيطاني ، فهي تعتبر من وجه ثان فصل من فصول تاريخ المدنية في الغرب لأن الصليبيين الذين عاشوا على ارض الشام سنوات طوال وجدوا انفسهم ضمن مدنية راقية ابهرت ابصارهم وأخذت بعقولهم فنشأ عن إحتلاطهم هذا انتباههم من الخمول الذي كانوا فيه منغمسين فاحسوا بضرورة تمزيق غشاوة الجهل التي اسدلت عليهم. وقد اقر بذلك بعض المؤرخين الغربيين الذين قالوا بأن يقظة الغرب العقلية ظهرت بعد رجوع الصليبيين الى ديارهم وذلك لاحتكاكهم بالمشارقة الذين كانوا متقدمين عليهم في كافة فروع المعرفة والانظمة السياسية والاجتماعية . ومن اولئك المؤرخين ارنست باركر الذي قال : « ان اوربا بعد الحروب الصليبية اختلفت في نواحي عديدة عن اوربا في القرن الحادي عشر الميلادي . فاولاً حدثت تغييرات سياسية كثيرة خضعت الى حد كبير لنفوذ وسلطات الحروب الصليبية ... ونمت البابوية ... واذا انتقلنا من مجال السياسة الى تاريخ المدنية والحضارة فاننا نجد ان آثار الحروب الصليبية ازدادت عمقاً .. فقد جرى الاتساع في التفكير والافق العقلي ..... فلم يحدث ان ازدادت دراسة الجغرافية فحسب . بل تولد ايضاً حافز قوي لكتابة التاريخ » . ويقول في موضع آخر ان الحروب الصليبية « اسهمت في تفكك النظام الاقطاعي في الغرب ... وزادت في نمو الحركة المدرسية »(٢). وفيما يلي عرض مفصل لتلك النتائج :

اولاً ـ النتائج الحضارية :

كانت الحضارة العربية الاسلامية حتى مطلع القرن الثاني عشر الميلادي . بلا

(١) [illegible] ترجمة محمد بورقيبة وزميله ، تونس [illegible]

(٢) [illegible] الحروب الصليبية ص [illegible]

مراء ، هي الحضارة الوحيدة المتقدمة في العالم . في حين كانت اوربا غارقة في غمرة من التأخر الحضاري ، فقد كانت الامية ضاربة اطنابها في شعوب اوربا عندما تحركت الحروب الصليبية الى الشرق وكان الامير المؤرخ اسامة بن منقذ احد شاهدي العيان لهم فقد عاصرهم طويلاً واختلط بهم وسجل عنهم الكثير في كتابه « الاعتبار » ومن جملة ماذكره بحقهم قوله : « لايرى فيهم سوى بهائم . امتازوا بصفة الشجاعة والقتال لاغير . كما في البهائم فضيلة القوة والحمل »(٢). وكان الغالب من الصليبيين ايضاً لايعرف من العالم الا مايحيط به . ولم تكن لهم معلومات صحيحة عن بلاد الشرق وعن احواله سوى ماالشاعه بينهم دعاة الحرب من الامراء ورجال الدين الذين وصفوا المسلمين بالجهل والكفر وما الى ذلك من الصفات السلبية . غير ان الحرب الصليبية كشفت الحقيقة امام الغرب الاوربي فكانت المشاهدة والخبرة ثم الاقتباس ، السبيل الذي اتخذه الاوربيون في نقل معالم حضارة الشرق الى الغرب(٣). وقد اثبتت التجارب والابحاث التاريخية الحديثة ان ثمة حركة إفاقة شاملة دخل فيها الغرب الاوربي ابان الحروب الصليبية وقد اطلق عليها اسم « النهضة الاوربية في القرن الثاني عشر » وكانت الحروب الصليبية من بين اسباب تلك النهضة(٤).

ومما تجدر الاشارة اليه ان بعض المؤرخين تجاهلوا الأثر الحضاري للحروب الصليبية على اوربا ، او عمدوا الى الاقلال من شأنه في حين ان الحروب الصليبية قدمت خدمات جليلة للصليبيين في النواحي الحضارية . كما سنذكره . غير انه يجب ان لانبالغ في هذا الجانب كثيراً نظراً لأن « الحقيقة الكبرى التي يجب الا نغفل عنها هي ان الصليبيين اتوا الى الشرق الادنى محاربين لاطلاب علم . وان ظروف اقامتهم في الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر كانت وسط محيط واسع من الاعداء يهاجونهم ويتربصون بهم الدوائر . مما لم يترك لهم مجالاً للاستقرار الهادىء الذي هو شرط اساسي للتوافر على طلب العلم ... »(١).

والحقيقة انه رغم الحروب المستمرة التي وقعت بين الجانبين الا انه قد تخللتها فترات عديدة ساد فيها السلم والامن وتبودلت فيها العديد من اوجه النشاط الحضاري ، حيث تبودلت فيها الاراء وتداخل الطرفان جنباً الى جنب سواء أكان ذلك بين المدن المحتلة من قبل الصليبيين والمدن الاسلامية ، او في داخل الممالك

(٢) الاعتبار (برنستون : ١٩٣٠) ، ص ١٣٢ .

(٣) انظر : محمد العروسي المطوى ، الحروب الصليبية بين الشرق والغرب (تونس : ١٩٥٤) ص ١١٠

(٤) سعيد عبد الفتاح عاشور ، الحركة الصليبية : ٢ / ١٢٦٩ .

(١) الحركة الصليبية : ٢ / ١٢٦٩ ـ ١٢٧٠ .

الصليبية ذاتها (بين مئات الصليبيين المحتلين للارض وبين اهالي المنطقة ومواطنيها). هذا بالاضافة الى ان التجارة بين الطرفين كانت نشطة جداً اثـناء الحروب الصليبية . وكان التجار وطلاب الرحلات يتنقلون بسلام من حصن لآخر دون ان يمسهم اي اذى ويكفي دليلاً على ذلك ان العديد من المعاهدات التي ابرمت بين الجانبين كان احد بنودها ان تكون التجارة حرة وان يسمح للتجار بالتنقل بسلام . منها ماحدث سنة ٦٨٢ هـ / ١٢٨٣ م بين السلطان قلاوون وامراء الصليبيين بالشام(٢).

ومن ناحية ثانية فان العديد من المدن والحصون الاسلامية المتواجدة في ساحل بلاد الشام كانت قد سقطت سنين طوال بيد الصليبيين ، وبعض تلك المدن بقيت مأهولة بسكانها الاصليين من المسلمين بينما كانت السلطة والقوة بيد الصليبيين ، الذين عمدوا الى الاختلاط بالمسلمين اختلاطاً شديداً حتى ان بعض مساجدهم جعلوها مناصفة ، احتلوا نصفها لاقامة طقوسهم الدينية الى جانب المسلمين(١).

وهذا الاختلاط سيؤدي بدون شك ، الى تعرف الصليبيين على كل احوال المسلمين وافكارهم وصناعاتهم وبالتالي الاستفادة منها ومن ثم نقلها الى اوربا(٢). والحروب الصليبية هذه كانت هجرة مؤقتة تعرف فيها آلاف الصليبيين على منجزات المسلمين الحضارية . او قل انهم تتلمذوا ، بطريق غير مباشر ، على ايدي المسلمين لينقلوا ماتعلموه بعد ذلك الى بلادهم . فهل يستطيع احد بعد ذلك ان يقول : بأن الصليبيين ، خلال تلك السنوات الطوال التي تداخلوا فيها مع المسلمين لم يقتبسوا شيئا منهم ؟

ولا يخفى بأن الصليبيين عاشوا في الممالك الصليبية التي انشأوها في بلاد الشام عيشة المواطنة حتى ان بعضهم نسي وطنه الاصلي وتحول بفضل استقراره في بلاد الشام شرقياً ، وقد ادل على ذلك المؤرخ الفرنسي فوشيه دوشارتر الذي ذكر في حوادث سنة ١١٢٠ م قوله : « فمن كان منا ايطالياً او فرنسياً بالامس قد اصبح اليوم في وطنه الجديد جليلياً او فلسطينياً . . فقد نسي كل منا وطنه الاول ... وغدا الواحد منا يملك بيتاً وحشماً ... وانا نستعمل من آن لآخر اللغات المحلية

---

(٢) دريد عبد القادر نوري . سياسة المنصور سيف الدين قلاوون تجاه القوى الصليبية . بحث منشور في مجلة اداب الرافدين (جامعة الموصل ، ١٩٧٨) العدد (٩) ص ٦٠

(١) انظر : رحلة ابن جبير (ليدن ، ١٩٠٧) ص ٣٠٣

(٢) تحدث عما جاء اعلاه المؤرخ اسامة بن منقذ . وهو المعاصر للاحداث في العديد من صفحات كتابه الموسوم الاعتبار ويمكن الرجوع اليه للتعرف عن كيفية استفادة الصليبيين من المنجزات الحضارية للمسلمين في مدينة صور راجع مثلا الصفحات التالية :

المختلفة ... وفي كل يوم يغدو علينا الاقرباء والاصدقاء واصبح بفضل الله الفقير منا غنياً ... »(٣) ولذلك فلا مجال للشك بالقول بأن الصليبيين تتلمذوا باعدادهم الهائلة على أيدي المسلمين في بلاد الشام وأخذوا عنهم مالم يكونوا يعرفوه من قبل . ولما حانت ساعة جلائهم عادوا يحملون انطباعاتهم وينشرون الدعوة الى اصلاح شامل كالذي عرفوه في الشرق .

اما الجوانب الحضارية التي تأثر بها الصليبيون فهي كثيرة وبالغة الاهمية . فقد نقلوا نباتات جديدة وصناعات جديدة والوان جديدة مع ازياء حديثة . فالسكر والليمون والبطيخ والقطن والحرير الموصلي والدمقس والمرايا الزجاجية كل هذه الاشياء وغيرها كثير انتقلت الى اوربا نتيجة الحروب الصليبية . وكثير منها انتقل حتى بلفظه . وفي معاجم لغات العالم في اوربا . حتى اليوم . العديد من تلك الالفاظ العربية منها متعلق بالتجارة البحرية مثل تعريفه Tariff ومنها الفاظ متعلقة بالالات الموسيقية كالعود والنقارة Naker (١). ومنها الفاظ متعلقة متعلقة بالامور الطبية مثل حكيم Hakeem ومرىء Meri (٢) ومنها ماهو متعلق بعلم الجبر Algebra والفلك مثل الدبران Aldebran وبنات نعش Banet naisch والشرطان Sharatan (٣).

اما في مجال الفن الاوربي فقد تأثر الصليبيون في فن بناء الحصون والقلاع الاسلامية . فتقدمت لديهم حركات الحصار واستعمال المجانيق والكباشات الهادمة وكذلك استعمال القوس القذاف ولبس الدروع واستخدام الوسائد القطنية تحت الدروع . واستخدام الحمام الزاجل لنقل المعلومات . وكذلك في انتشار علامات النسب على الاسلحة وشارات الفرسان . فضلاً عن استخدام المشربيات وهي الثقوب الصغيرة التي تفتح في اعلى القلاع وعلى الاسوار لرمي النشاب منها . وصب الماء المغلي والزيت الساخن على الاعداء الذين يقتربون من الاسوار . كذلك تعلم الصليبيون في بلاد الشام استخدام البارود في المعركة وحمل السيوف العربية وبخاصة اليمنية منها والتي تمتاز بخفتها .(٤) كما تعلموا ايضاً طرقاً جديدة « لتشييد

---

(٣) انظر : Crousset, Hist. des Croisadees, I. p. 387.

(١) باركر . الحروب الصليبية . ص ١٥١ ـ ١٥٢ .

(٢) انظر : العقاد . اثر العرب في الحضارة الاوربية (القاهرة : ١٩٦٠) ص ٤١٣ .

(٣) حكمت نجيب عبد الرحمن . دراسات في تاريخ العلوم عند العرب (الموصل : ١٩٧٦) . ص ٢٣٥ ـ ٢٣٦ .

(٤) انظر : عاشور الحركة الصليبية : ٢ / ١٢٧٠ ـ ١٢٧١ فيليب حتي . تاريخ العرب (الموجز) ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤ . النقاش . العلاقات بين العرب والافرنج ص ١٦٠ ـ ١٦٤ . المطوى . الحروب الصليبية . ص ١١٩ .

الاستحكامات الحربية ومهاجمتها . فالقلعة المستديرة ... اخذت تحل مكان ... البرج القديم والفناء الداخلي » . (١).

كذلك تأثر الاوربيون بهندسة البناء العربي ، حيث بنوا في القرن الثالث عشر الميلادي البروج بين الجدران واقاموا الابواب ذات الزوايا القائمة التي تحول دون رؤية ما في الداخل بشكل مباشر ، كما تأثر الصليبيون بفن بناء الكنائس الشرقية المتأثرة بالفن العربي(٢). ومن الجدير بالملاحظة ان بيوت الاغنياء منهم بنيت في اوربا بعد الحروب الصليبية على غرار البيت العربي الذي حوى آيات الزخرفة كتصفيح الجدران بالرخام والفسيفساء واتخاذ السجاد والطنافس والمصنوعات الدمشقية والانية الزجاجية مع تنوير الدار بالشموع المطيبة على عادة العرب ، وكذلك في تبديل ملابسهم بملابس شرقية واسعة الاكمام زاهية الالوان . كذلك وقد اعجب الصليبيون بالحمامات الشرقية وما يتعلق بها فنقلوها الى بلادهم ، اضف الى ذلك اعجابهم بالاطعمة العربية التي اقبلوا عليها بانواعها واشكالها . (٣)

ولا يخفى بأن الصليبيين تأثروا ايضاً بآداب الشرق ، فكانوا يتذوقون ما عند العرب من آيات العلم والفن والآداب فيحفظون بعض الشعر العربي ويستدلون به ، كثيراً ماكانوا يستشيرون العرب في قضايا تتعلق في الطب والفلسفة والرياضيات حتى ان العديد من الصليبيين تعلم اللغة العربية وأفاد من التاريخ الاسلامي كريموند حاكم مدينة صيدا الصليبي الذي كان « يعرف العربية وعنده اطلاع على شيء من التواريخ « وكان عنده مسلم يقرأ له ويفهمه ... »(٤) كذلك كان همفري حاكم حصن تبنين ، يعرف العربية وقد عمل ترجماناً لرتشارد قلب الاسد في المفاوضات التي كانت بينه وبين الملك العادل اخو صلاح الدين . (١)

وقد تأثر بعض الصليبيين ايضاً بالقصص والشعر العربي ، فاستوحاها بعضهم في كتاباته مثل كودفروا وتانكرد الذين اتخذوا موضوعات قصص للشعراء الجوالين . وكذلك نجد تأثير الشعر العربي في اسطورة « الكاس المقدسة » التي تضمنت عناصر ترجع بلا ريب ، الى اصل شامي وربما كانت قد تأثرت بقصص الف ليلة وليلة او كليلة ودمنة . كذلك فان حكاية (الستجاب لتشوسر هي من حكايات الف ليلة وليلة . ومما يلفت النظر ايضاً انه في عصر الحروب الصليبية دخلت القصة الشعرية

---

(١) باركر . الحروب الصليبية . ص ١٤٦ .
(٢) انظر : المطوى . الحروب الصليبية . ص ١١٨ .
(٣) انظر : اسامة بن منقذ . الاعتبار . ص ١٤٠ ـ ١٤١ . ابن جبير . الرحلة . ص ٣٨٨ .
(٤) ابن شداد . النوادر السلطانية ، ص ٨٠ .
(١) النقاش . العلاقات . ص ١٩٨ .

الى اوربا . فقد نظم مثلاً الشاعر امبروز قصائد شعرية في تاريخ الحرب الصليبية الثالثة وفي التغني في مدينة انطاكية(٢) .

ومما هو جدير بالذكر ان الحروب الصليبية قد تأثرت في كتابة التاريخ والجغرافية في اوربا . حيث ظهر بفضل تلك الحروب مادة تاريخية وجغرافية ضخمة . يقول ارنست باركر : « ان مانجم عن الحروب الصليبية من المعرفة والخبرة الجديدة ، قد هيأ مادة جديدة للتفكير العلمي والخيال الشاعري في آن واحد ، فلم يحدث ان زادت دراسة الجغرافية . بل تولد ايضاً حافز قوي لكتابة التاريخ »(٣) . ومن جملة تلك المؤلفات كتاب « حركة الفرنج » لمؤلفه المجهول النورماندي الذي تحدث باسهاب عن الحملة الصليبية الاولى . وكذلك كتاب « تاريخ مملكة القدس » لفوشيه دوشارتر ومؤلفات وليم الصوري الضخمة الذي ولد ونشأ في بلاد الشام وقد الف « تاريخ ما وراء البحار » في ثلاث وعشرون مجلداً تناول فيها الحوادث حتى سنة ١١٨٣ م . ومؤلفه الآخر « تاريخ الامراء المسلمين منذ ظهور النبي » وقد ترجما الى اللغة الفرنسية واصبحا اهم مرجعين في تاريخ الحروب الصليبية . وكذلك الف وليم الطرابلسي كتاباً جيداً سماه « بحث في حالة العرب »(٤) .

اما الجغرافية ، فلا ريب انها كانت من الموضوعات التي اهتم بها الصليبيون وذلك لوصف الطرق المتعددة التي تصل بين القدس والغرب الاوربي وبعد ذلك جاء وصف بلاد الشام واحوالها ومدنها ومسالكها كي يستفاد منها الصليبيون في عملية السيطرة والغزو . كذلك لاننسى ما جلبته الحروب الصليبية من عوامل نشاط التجارة الامر الذي ادى ايضاً الى تقدم الاهتمام بعلم الجغرافية ايضاً .(١) ولا يخفى بأن الحركات التبشيرية كانت ولا تزال تعمد الى معرفة المزيد عن الخطط والمواقع الجغرافية للبلدان وما يتعلق بالجغرافية البشرية ليتسنى لها معرفة الطرق المناسبة لنشر عقيدتها . ولذلك يمكن القول بأن الاستعمار الصليبي ودعاة الحركة التبشيرية والتجار في العصور الوسطى كانوا عوامل مساعدة ادت بالجغرافية الى التطور والاندفاع لمعرفة المزيد عن بلاد الشام بمسالكه ومدنه وسكانه تلك المعارف التي انتقلت الى اوربا بعد ان كانت مجهولة عندهم .

ومن تلك الاثار الجغرافية نذكر اطلس بيترو فيسكونتي الذي حوى تسع خرائط يرجع تاريخها الى سنة ١٣١٨ م وهو يحوي على مجموع البحر المتوسط وفيه خرائط

---

(٢) السابق . ص ١٩٨ ــ ١٩٩

(٣) باركر . الحروب الصليبية ص ١٥٠ .

(٤) النقاش . العلاقات . ص ٢٠٠ .

(١) عاشور الحركة الصليبية ، ٢ / ١٣٨٠ .

تفصيلية للساحل الشامي وجزيرة قبرص . كذلك يوجد في مكتبة الفاتيكان بحث جغرافي يعود تاريخه الى مطلع الرابع عشر يوجد فيه عدة مصورات ايقونية للقدس وعكا وفيه خرائط دقيقة للارض المقدسة .(٢)

ثانياً ـ النتائج الاجتماعية والسياسية

كان نظام الحكومة والمجتمع قائم في اوربا على نظام الاقطاع الذي جاء نتيجة طبيعية لظروف خاصة سادت غربي اوربا في القرنين التاسع والعاشر اثر ضعف امبراطورية شارلمان وسقوطها فريسة للاضطرابات الداخلية ، كما انه يرجع الى ماساد حياة الرومان في اواخر عهدهم من ضعف وعجز الملاكين الصغار من استثمار اراضيهم فاضطروا الى التخلي عنها للملاكين الكبار والجيران الاقوياء . وربما اندفع بعضهم ، خوفاً على ارضه ومنتجاتها من النهب ، الى اللجوء الى الكنيسة او الى الامراء والملوك الافرنج ليستغلوا ارضهم تحت عهدتهم فيكونوا خاضعين لهم ولسيادتهم . وبهذه الطريقة تكونت الرابطة الجديدة بين الناس حيث جعلتهم سيد ومسود . وما هو مألوف في تلك الظروف ايضاً ان ينضم اولئك الناس تحت راية زعيم حربي يدفعون له مبلغاً معيناً من المال دفاعه عنهم وحمايتهم وهكذا غدت الارض العامل الاساسي في علاقة الناس بعضهم ببعض ، وغدا بذلك ملوك غربي اوربا كسادة اقطاعيين ، وبفضل ذلك النظام ايضاً تبعثرت عناصر الحضارة فلا قانون عام له حريته لدى الجميع ولا ادارة تسمع كلمتها .

وقد جاءت الحروب الصليبية لتحدث هزة عنيفة في ذلك النظام ، وذلك لهجرة الآف من اولئك الاقطاعيين ومن الاقنان الى بلاد الشام للاشتراك في الحروب الصليبية ثم ما اعقب ذلك من موت مئات منهم ، واتجاه الباقين الى اعمال جديدة غير التي الفوها من قبل بسبب تغير ظروفهم الاقتصادية والاجتماعية بعد عودتهم الى بلادهم . يقول ارنست باركر : « انه يصح التسليم بأن الحروب الصليبية اسهمت في تفكك النظام الاقطاعي ، بجعل الملكية حرة سهلة الانتقال وباضعاف قوة الالقاب ، وساعدت ايضاً على نمو المدن بما حدث من ازدياد حركة التجارة وضخامتها » .(١) وهكذا بفضل تلك الهجرة الجماعية للاقنان الى بلاد الشام تأثر النظام الاقطاعي في اوربا وساءت حالة الارض التي اهملت ، ويكفي للتصور سوء تلك الحالة التي واجهتها اوربا اذا ماعلمنا انه في الحرب الصليبية الاولى وحدها اشترك فيها اكثر من عشرة الاف قن تركوا الارض التي كانوا يفلحونها واتجهوا نحو

---

(٢) النقاش العلاقات . ص ٢٠٢ .

(١) الحروب الصليبية . ص ١٤٤ .

المشرق بحجة الاشتراك في الحرب الصليبية . وهذا بدوره قد ادى الى تصدع النظام الاقطاعي ، بل والى انهياره والى انقراض طبقة عبيد الارض تدريجياً من المجتمع الاوربي .(١)

والنظام الاقطاعي . كما تبين . لم يكن نظاماً اجتماعياً فحسب ، بل كان ايضا نظاماً سياسياً ظل عاملاً من عوامل ضعف السلطة المركزية لان كبار الاقطاعيين متعوا انفسهم بشبه استقلالية في حكمهم لاقطاعاتهم . ولذلك كانت الملكيات في غرب اوربا مسلوبة السلطان لا يستطيع الملك ان يدعي حق الحكم المطلق على كافة ارجاء مملكته ، ثم جاءت الحروب الصليبية لتقلب تلك الاوضاع وتساعد « على تقوية سلطان الملكية وتدعم السلطة المركزية في بلدان الغرب الاوربي على حساب الامراء الاقطاعيين ، ذلك ان عدداً كبيراً من كبار الامراء اسهموا في الحروب الصليبية فاستنفذت ... قدراً ضخماً من امكانياتهم وقوتهم وثروتهم وجهودهم . ووجهت تلك الطاقة باجمعها الى الشرق بدلاً من توجيهها ضد ملوكهم ومنافسيهم ... الامر الذي ادى الى اضعاف شوكة الامراء واتاح فرصة للملكية لكي تتنفس الصعداء »(٢).

هكذا اذن مهد السبيل لظهور الملكية القوية في الغرب الاوربي في اواخر العصور الوسطى ، واول تلك الملكيات التي رفعت الحروب الصليبية من شأنها هي ملكية فرنسا التي اصبحت في نهاية القرن الثالث عشر اكبر دولة في تاريخ اوربا . تليها انكلترا والمانيا . ومن الجدير بالذكر ان الامبراطورية البيزنطية تعرضت ايضاً لتغيير كبير بفعل الحروب الصليبية شأنها في ذلك شأن البابوية . فالاولى ضعف سلطانها في اسيا الصغري وبلاد اليونان . اما البابوية فقد استغلت الحروب الصليبية واتخذتها وسيلة لعزل الاباطرة في الغرب وخلعهم عن الزعامة . ومع ان الحروب الصليبية رفعت من شأن البابوية الا انها ـ كما يقول باركر ـ « اسهمت ايضاً في افسادها ، اذ غدت الحروب الصليبية اداة في يد البابوية استخدمتها في كل عمل من اعمالها السيئة ، فاثارت الحرب الصليبية حين لم يكن مايدعو الى حرب صليبية » .(١)

ثالثاً ـ النتائج الاقتصادية

كان من ابرز النتائج الاقتصادية للحروب الصليبية التدهور الاقتصادي الناتج عن

---

(١) انظر : عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢ / ١٢٧٢ .

(٢) عاشور ، الحركة الصليبية ، ٢ / ١٢٧٣ .

(١) الحروب الصليبية ، ص ١٤٩ .

كثرة النفقات وشدة الطلب على النقود لتمويل المحاربين الصليبيين . فباع كثير منهم املاكهم واراضيهم . الامر الذي ترتب عليه انخفاض اثمان الاراضي والعقارات وغير المنقولات الاخرى . وقد لعب اليهود في اوربا دوراً نشيطاً في تلك الظروف حيث استغلوا الشعب الاوربي بتقديم قروضهم بربا فاحش مما دفع الاوربيون الى الانتقام منهم(٢).

كذلك تطور النظام المالي في غرب اوربا بفضل الحروب الصليبية فمنذ سنة ١١٤٧ م فرض لويس السابع . ملك فرنسا . ضريبة من اجل الحروب الصليبية . وقد قرر لويس السابع اعادة فرض هذه الضريبة من جديد ثم حذا حذوه هنري الثاني ملك انكلترا سنة ١١٦٦ م ثم تطورت هذه الضريبة الى ماعرف باسم « عشور صلاح الدين » والضريبة الاخيرة المفروضة سنة ١١٦٦ م لها اهميتها لأنها فرضت لاول مرة على المنقولات وفي هذا اعتبارات جديدة « يصح اعتبارها بداية النظام الحديث للضرائب »(٣).

ومن الجدير بالذكر ان اتخاذ الصليبيين الذريعة بفرض الضرائب السابقة لم يكن راجعاً للسلطة الزمنية فحسب . بل ايضاً لسلطة البابوية التي افادت من تلك الضرائب لصالحها فلاول مرة قرر البابا انوسنت الثالث على رجال الدين ضريبة باسم العشور لصالح الحروب الصليبية . ومنذ ذلك الحين صارت ضريبة العشور هذه ضريبة اعتيادية يدفعها كل المتمكنين تقريباً(١).

كذلك فقد انتعش النشاط التجاري بين الغرب والشرق بفعل الحروب الصليبية وقد أدى ذلك الى انتعاش لبعض المدن الاوربية مثل جنوه والبندقية وبيزا وبرشلونة ولما كان النظام الاقطاعي قد تصدع ـ كما تبين من قبل ـ . لذلك أخذ الاقتصاد الاوربي يتحول من الزراعة الى التجارة . او قد ازداد النشاط التجاري على حساب الزراعة حيث تطورت المدينة التجارية ونالت استقلالاً اكثر من ذي قبل وبالتالي خفت قبضة الامراء عن المدن « وصارت كل مدينة عبارة عن قومون . اي وحدة سياسية واقتصادية مستقلة في شؤونها الداخلية . وان من يدرس نشأة المدن الاوربية في تلك الفترة ليدرك خطورة الدور الذي قامت به القومونات في نواحي الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية في الغرب الاوربي »(٢).

---

(٢) انظر : الحروب الصليبية : ٢ / ١٢٧٤ . انتوني ويست . الحروب الصليبية . ص ١٧٩ .

(٣) باركر . الحروب الصليبية . ص ١٤٧ . وانظر : عاشور . السابق : ٢ / ١٢٧٥ .

(١) باركر . الحروب الصليبية . ص ١٤٧ .

(٢) عاشور . الحركة الصليبية : ٢ / ١٢٧٥ ـ ١٢٧٦ .

ثم لا يخفى بأن النشاط التجاري أدى الى تنشيط المصارف واتساع نطاق اعمالها وتحسين طرق التجارة وانشاء اخرى جديدة . كما أدى ذلك الى ازدهار الاسواق وما الى ذلك ما هو متعلق بسير الحملات التجارية بين الشرق والغرب(٣). وقد أكد رانسيمان هذه المفاهيم بقوله : « كانت موانيء الشرق الفرنجي في اوقات السلم تعج بالتجار القادمين من دمشق وحلب والموصل ومناطق اخرى كثيرة . . . وهم يحملون سلعهم لبيعها الى تجار البندقية وجنوة وبرشلونة » ثم يقول « ويمكننا الجزم بأثر الصليبيين على تاريخ البنوك . فالفرسان الداوية الذين نشأوا بسبب الحروب الصليبية هم اول القائمين بالبنوك الدولية . ولعل كلمة الصك العربية انتقلت بفضلهم الى اللغات الاوربية وصارت جك »(٤).

« نتائج الحروب الصليبية على العالم الاسلامي »

ثمة حقيقة ظاهرة في المجتمع الاسلامي قبيل . قدوم الصليبيين الى بلاد الشام ، حيث كان يسوده جو من التعقيد الذي اكتنف وضعه السياسي والاقتصادي والديني . فقد كانت تحكمه قوى مختلفة . وكثيراً ما كان النزاع يدب بينها من اجل البقاء او السيطرة على املاك الغير . فقد كانت بلاد الشام اوصالاً مفككة بين قوى الفاطميين والاتابكة وغيرها من القوى المحلية الاخرى كالقبائل العربية المحلية والسلاجقة(١). ولذلك فقد تمكن الصليبيون من القدوم الى المنطقة والسيطرة على طرسوس والرها وانطاكية والقدس بعد سنة ٤٩١ هـ / ١٠٩٧ م بعد ان عملوا في أهل تلك المدن من المسلمين القتل وفي أموالهم النهب(٢).

وما أن استقر الغزاة في بلاد الشام حتى بدت تظهر على المسلمين في الشام خاصة والشرق الاسلامي عامةً أثر ذلك الغزو . فقد رفع القادة المسلمون . وقبل كل شيء . (الجهاد في سبيل الله) تلك الراية التي لم يعمل بها منذ زمن طويل والتي كانت اسلوباً عملياً وجدياً يستطيعون به جمع الكلمة ورص الصف ومن ثم ضرب الغزاة والانتصار عليهم .

وقد أوضح المؤرخ الفرنسي شامبدور هذا المفهوم عندما ناقش اسباب نجاح الحملة الصليبية الاولى وفشل الحملة الصليبية الثانية . فذكر بأنه في الحرب الصليبية الثانية

---

(٣) السابق : ٢ / ١٢٧٦ .

(٤) المدينة البيزنطية . ترجمة صالح احمد العلي (بغداد : ١٩٥٦) ، ص ٢٥٨ ـ ٢٥٩ .

(١) انظر : جب صلاح الدين الايوبي (القاهرة : ١٩٧٣) ص ٤٥ ـ ٦٠ .

(٢) انظر : ابن القلانسي . ذيل تأريخ دمشق (بيروت : ١٩٠٨) ص ١٣٦ ـ ١٣٧ . عبد العزيز سالم . دراسة في تاريخ مدينة صيدا ص ٩١ .

كان المسلمون متحدين تحت راية قيادة نور الدين الذي دفعه حماسه الديني الى انقاذ سوريا . فقد أحيا حركة الجهاد وبذلك حلت لدى المسلمين عقلية جديدة محل العقلية السابقة التي كان معها المسلمون متفرقين(٣) .

وعليه فقد أدت الخروب الصليبية الى يقظة العالم الاسلامي والى ظهور قادة مخلصين اكفاء تمكنوا من استغلال الظروف السياسية التي كانت تسود المنطقة وفي مدة قصيرة ، كان من أولئك الرجال مودود وعماد الدين زنكي ونور الدين محمود وصلاح الدين والظاهر بيبرس وغيرهم ممن ورد ذكره في الكتاب السابق من قبل .

ويكفي أن نقول ان ظهور مثل اولئك القادة كان طبيعياً . بل حتمياً استجابة للتحدي الذي أصاب المشرق الاسلامي حتى أنه كان من المعقول جداً أن يتوقع المرء أن ينهض المسلمون ويتحدوا ليصدوا الهجوم الموجه الى ديارهم »(١) . وكان من المألوف أيضاً أن يصل الى أعلى الرتب رجال من عامة الناس ، أو من المماليك أو من رجال الجيش ممن فهموا روح العصر الذي يعيشون فيه ومبادئه السائدة وأرادوا أن يفيدوا منها(٢). وما صلاح الدين وقطز والظاهر الا أمثلة على صحة ذلك الافتراض .

كذلك قد تكون لدى المسلمين أثر استيلاء الصليبيين على القدس ، شعوراً بالاستياء وتوتراً قاد زعامته الفكرية الشعراء والكتاب والعلماء ، الذين جردوا حملة اعلامية لاثارة الناس ودفعهم لتحرير القدس . فقد تجمهر الناس في المحلات العامة في دمشق وحلب والموصل وبغداد . ودخل الكثير منهم ، بقيادة علماء الدين ، المساجد واخذوا يدعون للحرب وبسرعة ضد الغزاة الصليبيين . ففي سنة ٥٠٥ هـ مثلاً « كثر الضجيج والبكاء وبطلت الجمعة . وأخذوا الخليفة في الاهبة . . . »(٣). وفي سنة ٥٣٢ هـ خرج أهالي حلب وبزاعة من النساء والصبيان والرجال في مظاهرة كبيرة ، دخلوا بها المساجد ومنعوا الناس من اقامة الصلاة . ودفعوهم لقتال الاعداء ، واضطروا لكسر المنابر(٤) وكان ذلك بداية عملية لاعادة حركة الجهاد التي استمرت حتى بعد القضاء على آخر معالم الصليبيين في الشام والتي انتهت بأيدي العثمانيين كما سنذكره بعد قليل .

---

(٣) Champdor, Saladin Leplus Pur heros-de islam (Fronc: 1956) P, 30.

(١) جورج رنتز ، دراسات اسلامية (بيروت ، ١٩٦٠) ص ١٠٣ .

(٢) علي بيومي ، قيام الدولة الايوبية في مصر (القاهرة ، ١٩٥٢) ص ٢٩ .

(٣) انظر ، دريد عبد القادر ، سياسة صلاح الدين ، ص ٦١ .

(٤) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ٨ / ١٦٣ ، دريد عبد القادر ، سياسة صلاح الدين ، ص ٥٣ .

ومن ناحية ثانية بدأنا نقرأ منذ هذه الفترة تفاسير جديدة للقرآن الكريم . وأحاديث لم تسمع من قبل تمجد القدس . وتغالي في فضائله وتسهب في تعدادها . ومن جملة تلك الادبيات ما ألفه الشيخ برهان الدين في (منتخب فضائل بيت المقدس) والذي بالغ في أهمية بيت المقدس فقال : « ان أرض بيت المقدس هي أول ارض بارك الله فيها . ومن تحت قبة الصخرة تخرج كل المياه العذبة »(١). كذلك وقد نقلت عدة احاديث عن الرسول (ص) . يبدو عليها الوضع . في تبيان أهمية القدس وفضائله نذكر منها ما قيل ان الرسول (ص) قال : « من زار بيت المقدس محتسباً اعطاه الله ثواب الف شهيد »(٢). ومنها ما نقل عن كعب الاحبار قوله : « قال الله تعالى لبيت المقدس انت جنتي وقدسي وصفوتي من بلادي من يسكنك فبرحمة مني ومن خرج منك فبسخط مني عليه »(٣).

ونقل ووضع من هذه الاحاديث الشيء الكثير . والقصد من نشرها اثارة حمية المسلمين وقادتهم الى العمل من أجل تحرير القدس التي هي ثاني المسجدين وثالث الحرمين ومعراج الرسول (ص) ومقر الانبياء عليهم السلام . ولذلك فان مثل تلك الاحاديث تقلل من شأن القادة المسلمين الذين لا يسعون وبجدية لتحرير تلك الأراضي من الغزاة حتى أنه نقل عن أبي عمرو الشيباني قوله : « ليس يعد من الخلفاء الا من ملك تلك المسجدين . المسجد الحرام ومسجد بيت المقدس الشريف »(٤).

ومن الواضح أن احاديث فتح بيت القدس وتحريرها من أيدي الغزاة كان حديث الساعة وموضع الامثال وكان الانسان اذا ماأراد أن يُخجِل انساناً آخر ذكره باستيلاء الصليبيين على القدس وعدم تمكنهم من تحريرها ففي احدى مجالس صلاح الدين الايوبي كان حاضراً عنده الحكيم الاديب عبد المنعم مظفر الغساني الجلياني . فأراد الفاضل البيساني . كاتب صلاح الدين . ان يغض مزاحاً من نسب الجلياني فقال له : « ياأبا الفضل كم بين جليانة وغرناطة ؟ فقال الذي بين بيسان والقدس . فخجل الفاضل وظهر ذلك في وجهه »(٥)

---

(١) منتخب ابن الجوزي . . فضائل بيت المقدس . مخطوط في مكتبة المتحف ببغداد رقم ١٠١٢٣ ورقة ٥ و ١١ .

(٢) الظاهري . زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك (باريس : ١٨٩٣) ص ١٧ .

(٣) العليمي . الانس الجليل بتأريخ القدس والخليل (النجف : ١٩٦٨) : ١ / ٢٢٨ . دريد . سياسة صلاح الدين . ص ٥٨ ـ ٦٠ .

٤) العليمي . الانس الجليل : ١ / ٣٤١ .

٥) ابو الحسن الاندلسي . الغصون اليانعة (القاهرة : د / ت) ص ١٠٧ ـ ١٠٨ دريد . سياسة صلاح الدين . ص

ومن الملاحظ أن الحروب الصليبية عادت بالعديد من الفوائد على المسلمين منها انها دفعتهم للعناية بفنون الحرب والاستكثار من العدة والخيل والدبابات واسلحة القتال الاخرى . ولما وجدوا من الاعداء قوة واستمرار في الحرب اندفعوا اكثر في الاهتمام بشؤون الحرب واخترعوا اشياء في هذا الجانب حيرت الصليبيين يوم حصار عكا . وقد اثبت المسلمون بشكل عام كفاءة نادرة واندفاعاً الى الحرب يضرب له المثل . فقد كانوا ـ كما يقول الاصفهاني ـ يرون في القتال ديناً وحتماً واجباً وكانوا يمنعون عن المشاركة فيها ولا يمتنعون ، حتى اضحت الحرب عندهم صناعة وعادة .

كذلك برهنت الحروب الصليبية على نبوغ القادة المسلمين في فن الحرب والسياسة وقد ادل على ذلك الخطط الحكيمة والسياسة الرشيدة التي قام بها القائد نور الدين محمود زنكي وصلاح الدين وغيرهما كثير وقد مر في هذا الكتاب العديد من تلك الصور . اذ لولا الحروب الصليبية ماظهر أولئك القادة ، ولولا معركة حطين وتحرير القدس ماعلا شأن صلاح الدين وهكذا (١) .

ولا يخفى بان هجرة المئات من الصليبيين الى بلاد الشام وتعرفهم عن كثب على اخلاق المسلمين ومعاملاتهم اليومية قد قلب الصورة السيئة التي رسمت في اوربا عن الاسلام والمسلمين . فقد تبين بوضوح خطأ ماقيل عن همجيتهم ووحشيتهم وظهر لدى الصليبيين العكس ، فقد كان المسلمون كرام ، عاملوا الصليبيين بالكرم والاحسان في أوقات المهادنات وقدموا لاعدائهم المأكل والمشرب في اوقات الازمات والمجاعات ، كما ظهر أن المسلمين متفوقين على اعدائهم اجتماعياً واقتصادياً وقد دفع كل ذلك الى استقرار العديد من الصليبيين الى جانب المسلمين والى اسلام المئات من الصليبيين على أيدي المسلمين وبخاصة في عهد صلاح الدين .

ولم يتحلى المسلمون بهذه الاخلاق النبيلة مع اعدائهم في اوقات السلم فحسب ، وانما كان ذلك ايضاً في اوقات الحرب . فبالرغم من القساوة والمذابح البشعة التي قام بها الصليبيون تجاه المسلمين في عكا وصور والقدس وبيروت وانطاكية وجدنا من المسلمين معاملة حسنة باسرى الحرب وعدم الغدر بهم والاحسان اليهم وقد جاء في هذا الكتاب العديد من تلك الصور التي ادهشت الصليبيين وجاءت باعتراف كل مؤرخي الحروب الصليبية منها مكرمة صلاح الدين لاسرى معركة حطين ومنه الاحسان الى الصليبيين الذين كانوا بداخل القدس بعد تحريرها سنة ٥٨٣ هـ / ١١٩١ م والسماح لهم بأخذ اموالهم وممتلكاتهم الى حيث يذهبون في حين خاض الصليبيون في دماء المسلمين بعد أن دخلوها في الحرب الصليبية الاولى . كذلك ورغم الاحسان

---

(١) راجع : محمد كرد علي ، الاسلام والحضارة العربية (القاهرة ، ١٩٥٠) ، ١ / ٣٠٢ ــ ٣٠٣ .

الى الصليبيين الذين كانوا في عكا بعد تحريرها فقد عمد ريتشارد قلب الأسد الى ذبح أسرى المسلمين حول اسوار عكا في الحرب الصليبية الثالثة(١).

وقد عدد المؤرخ أيوركا مآثر المسلمين في حسن معاملة الصليبين فقال : « لقد اظهر الجند المسلمون الذين رافقوا المطرودين من أهل الصليب شفقة مؤثرة ، ولاسيما على النساء والاطفال ، ولا يتأتى ايراد البرهان على سمو اخلاق صلاح الدين بأكثر مما عامل به الصليبيين ... ونسي الافرنج بعد حين هذه اليد لصلاح الدين عندهم ، وذلك انهم لما استبطأوا دفع الغرامة التي فرضها ريتشارد ... اخذ ملك الانكليز الفين وسبعمائة من اسرى المسلمين وقتلهم على رأس تل في عكا ...(٢) » .

ثم لاننسى بأن الحروب الصليبية قد خدمت المسلمين من الناحية السياسية ، اذ بفضل غزوهم لبلاد الشام ومصر تحقق هدف المسلمين الرئيس في الوحدة . فلم تكد تصل اولى قوات الصليبيين الى الشام حتى ظهرت للعيان تشكيلات الوحدة بين الموصل وبعض مدن الجزيرة والشام والتي اكتملت بشكل واضح في عهد نور الدين ثم استقرت وتوسعت في عهد صلاح الدين الايوبي اذ اصبحت الوحدة تشمل بالاضافة الى بلاد الشام والجزيرة بلاد مصر وديار بكر والقفجاق واليمن وبلاد الحجاز . وقد تم بفضل هذه الوحدة تحقيق الهدف الثاني الكبير وهو تحرير الارض من أيدي الغزاة الصليبيين .

ولا يخفى بان الحروب الصليبية قد تركت آثاراً واضحة على علاقة المسلمين مع اوربا من ناحية وعلى علاقتهم مع النصارى الشرقيين من ناحية ثانية . فالمعروف ان ثمة اتصالات محدودة كانت قد تمت بين المسلمين والاوربين قبل الحروب الصليبية ، اقتصرت على تبادل بعض الهدايا والكتب بين حكام بعض المناطق في الشرق مع عدد من ملوك اوربا شملت ايضاً تبادل سفراء أو السماح للحجاج الاوربيين من النصارى بزيارة البيت المقدس وكانت هذه العلاقات غير ذات أهمية فردية كما حدث ذلك مثلاً في عهد الخليفة العباسي هارون الرشيد مع شارلمان ، كذلك اشارت بعض المصادر الى وجود سفارة تالية ارسلتها برتا التوسكاني الى الخليفة المتوكل سنة ٩٠٦ م(١) وهذه الاشارات الى العلاقات بين الشرق والغرب نادرة في مصادرنا وتمثل معظم ماكتبه المسلمون حتى القرن الحادي عشر . غير أن الحروب الصليبية وما نتج عنها من احياء لاستعادة الاراضي المغتصبة دفع بالمسلمين الى

---

(١) راجع ماذكرناه في الباب الثالث حول الحرب الصليبية الثالثة .

(٢) محمد كرد علي ، المرجع السابق ، ص ٢٩٨ .

(١) برنارد لويس ، السياسة والحرب (بحث منشور في تراث الاسلام) سلسلة عالم المعرفة ، القسم الاول (الكويت : ١٩٧٨) ص ٢٧٥ .

التعرف عن حقيقة اولئك الغزاة الامر الذي شجع العديد من كتاب الجغرافيا والرحلات الى بحث مايتعلق بالدول الاوربية ـ كالأدريسي (ت : ١١٦٩) وابن سعيد الاندلسي (ت : ١٢٧٤) .

ولم يقتصر الامر على هذا الجانب فحسب بل تعداه الى توسيع عمليات الاتصالات مع اوربا وخاصةً في المجال التجاري فقد استقر العديد من التجار الاوربيين في بعض موانيء الساحل الشامي وقاموا بعمليات تجارية منظمة بين الشرق والغرب عادت بالفوائد الجمة على كلا الطرفين.

اما فيما يخص العلاقة مع الذميين فان الحروب الصليبية قد ادت الى اساءة العلاقة بين المسلمين وجيرانهم الذميين . يقول المستشرق برنارد لويس : « جاء الصليبيون يحملون معهم تراثاً ضخماً من الشك والتعصب أثروا به على العرب المسيحيين بجيرانهم المسلمين واضعفوا الوثيق من الصلات التي كانت قائمة قبل الحروب الصليبية »(٢). ففي الأيام الاولى لحركة الجهاد اخضع هؤلاء النصارى الى عدد من القيود التي لم تكن صارمة لانهم بشكل عام تمتعوا بقدر كبير من الحرية الاجتماعية والاقتصادية بالاضافة الى الحرية الدينية . الا أن المرارة الناجمة عن الصراع الطويل مع الصليبيين ومتطلبات الامن الداخلي . في عصر احتل فيه الولاء للدين المقام الاول ، مع وجود بعض الاشارات النادرة لتنكر هؤلاء لحسن الجيرة ... كل هذه العوامل تضافرت من اجل تشويش العلاقتين بين الجانبين وبخاصةً في الفترات المتأخرة كما حدث ذلك في عهد المنصور سيف الدين قلاوون وماكان من عزله لكتاب الجيوش من النصارى دفعاً للحفاظ على أمن القوات العسكرية ومنع تسرب الاخبار الى الغزاة الصلبيين وكان ذلك قبل بدءه بعملية التحرير . كما مر ذكره في الفصل السابق .

هذا وقد اشارت بعض المراجع التأريخية الى أن الحروب الصليبية قد أثرت في فن العمارة في البلاد التي دارت فيها رحى الحرب . حيث انشأت بسبب تلك الحروب الكثير من القلاع والحصون على طول الساحل الشامي . ولا تزال حتى اليوم بقايا البروج وكذلك خرائب القلاع الهائلة القائمة على الهضاب عند سفوح الجبال . فقد كان مثلاً لمدينة بيروت . كما كان لأكثر مدن العصور الوسطى قلعة بنيت لتكون مركزاً حصيناً للمدينة . وقد بقيت تلك القلعة قائمة حتى سنة ١٨٥٦(١).

اما التفاعل الثقافي والاجتماعي . فقد كان قليلاً جداً . لأن المسلمين في كل

(٢) الغرب والشرق الأوسط (لاغوس : ١٩٧٥) ص ٢٢ .

(١) راجع بخصوص بناء البروج لاجل حماية المدن في فترة الحروب الصليبية . فيليب حتي . لبنان في التأريخ (بيروت : ١٩٥٩) ص ٣٨١ ـ ٣٨٢ .

مكان كانوا يعتبرون انفسهم ارفع ثقافة من اعدائهم وكانوا لا يرون فيهم سوى بهائم . وقد أوضح لنا هذا الجانب المؤرخ اسامة بن منقذ الذي بين بشكل دقيق ، وهو المعاصر للأحداث . ماكان عليه الافرنج من انحطاط في الجانب الاجتماعي والثقافي . وماكانوا عليه من انعدام في النخوة والغيرة(٢) ومع كل هذا فان بعض التأثيرات الاجتماعية الصليبية انتقلت الى الشرق عن طريق الحروب الصليبية مثل التوسع في مبدأ توريث الاقطاع .

كذلك فان الحروب الصليبية ساعدت على ظهور بعض الدويلات الاسلامية في منطقة الشام والجزيرة ومصر . اذ بفعل هذه الحروب تكونت الامارة الزنكية ، وبتبني صلاح الدين لحركة الجهاد وضرب الغزاة الصليبيين تمكن من تكوين دولته ونجح في تحقيق مسعاه . اذ ان البيت الايوبي « استمد مكانته وهيبته في نظر المعاصرين وفي التاريخ من حسن بلاء ملوكه وبخاصة صلاح الدين ضد الصليبيين . وبعبارة اخرى فان الحروب الصليبية واخطارها هي التي هيأت لبني ايوب الفرصة المناسبة للظهور وامدتهم بميدان واسع للعمل والبقاء » .(١) كما أمدت من بعدهم المماليك ايضاً بالقوة وبالاستمرار في الحكم . لان المماليك لم يكن لهم سند شرعي في الحكم فكان تصديهم للغزو الصليبي ونجاحهم فيه هو من اكبر العوامل التي مكنت لهم وساعدت على استمرار وجودهم .

وفي الوقت الذي مكنت فيه الحروب الصليبية من بقاء بعض الدول . فانها في الوقت نفسه كانت من اهم العوامل التي اضعفت الدولة البيزنطية . وهي الدولة التي ظلت تحمي اوربا لقرون طويلة . لان الصليبيين عاشوا في اراضي الدولة البيزنطية ثم دخلوا في نزاع طويل مع اباطرتها حول ملكية المدن التي سيطر عليها الصليبيون في بلاد الشام . وقد انتهى الامر بوقوع هذه الدولة تحت تأثير الغزاة الصليبيين الامر الذي ادى اخيراً الى سقوطها بيد العثمانيين(٢).

ومن الناحية السلبية فانه يجب أن لاننسى ان الحروب الصليبية قد ادت الى استشهاد المئات من المقاتلين المسلمين . كما ادت الى نهب وتدمير العديد من قراهم ومدنهم والى وقوع المئات اسرى بيد الغزاة الذين كانوا يعاملونهم معاملة قاسية . ومن ناحية ثانية فان الاستمرار في الحروب الدفاعية التحررية من جانب المسلمين والاعداد لها قد ادى الى تأخير في الانتاج الزراعي خاصة لان الكثير من

---

(٢) انظر كتاب الاعتبار . ص ١٣٥ ، ١٣٧ ، ١٤٠ ــ ١٤١ . المرجع السابق ص ٣٨٧ .

(١) عاشور . الحركة الصليبية : ٢ / ١٢٦٦ .

(٢) انظر : المرجع السابق : ٢ / ١٢٦٧ ــ ١٢٦٨ .

المزارعين كانوا من رجال الحرب وان استمرار انشغالهم في الحروب سيؤدي من دون شك الى بور الاراضي الزراعية والى ارتفاع في اثمان المنتوجات الزراعية .

كذلك ومن المؤكد ايضاً فان انشغال القوات العسكرية الاسلامية في بلاد الشام لسنين طويلة في الحروب التحرير ضد الغزاة الصليبيين قد اضعف قواها وبالتالي سهل من مهمة مهاجمة المغول للجناح الشرقي للدولة الاسلامية ولما كانت الحروب الصليبية من اهم العوامل التي شغل بها المسلمون في الشام فان ذلك قد ادى الى انفراد قوات الخلافة العباسية بالدفاع عن نفسها ضد قوات المغول الضخمة الامر الذي ادى الى سقوطها ومن ثم الى اجتياح المغول لبلاد الشام . ولو لم تظهر قوة المماليك في مصر في تلك الفترة لهدد الخطر المغولي العالم الاسلامي باجمعه . كذلك ولو لم يتحالف الصليبيون مع المغول ضد المسلمين لامكن التخلص منهم قبل اوانهم .

ثم لا يخفى ايضاً بان انشغال المسلمين بالحروب الصليبية قد مكن من استمرار وجود افراد الحركة الحشيشية الذين ظلوا من اخطر الجماعات على امن المسلمين ووحدتهم في بلاد الشام والذين كانوا في كثير من الاحيان سنداً للصليبيين .

واخيراً فان ردة الفعل الاسلامي تجاه الغزو الصليبي لبلاد الشام لم تنتهي بهزيمة الاعداء العسكرية او بانهاء اخر ممتلكاتهم في الشام فحسب . بل لقد تولد عنها دفع جديد في مجال احياء حركة الجهاد ضد الاعداء جاءت من القسم الشرقي ومن قوة الاتراك الذين اعتبروا بالغزو الصليبي لبلاد الشام فاهتموا بقواهم العسكرية ومن ثم اندفعوا الى الممالك الصليبية في اوربا في محاولة للقضاء عليها او ادخالها في الاسلام .

لقد كانت الحرب قد خمدت نوعاً ما بين محاربي التخوم على طول الحدود مع الدولة البيزنطية منذ فترة طويلة ولكن من جراء اسلام هؤلاء الاتراك استؤنفت الحرب المقدسة بشكل قوي على مقياس لم يعرف الا منذ زمن الاسلام الاول فقد اسلم ، خلال قرن من الزمان ، كل حكام المغول في غربي اسيا ثم اتبعهم اتباعهم ، ولذلك فقد اضيفت الى الاسلام قوة سياسية وعسكرية جديدة ادت الى قيام زحفين رئيسيين الى داخل اوربا احدهما قام به خانات القبيلة الذهبية (وهم المغول القفجاق) . والآخر قام به الاتراك العثمانيون انتهى بتحقيق محمد الفاتح فتح القسطنطينية عام ١٤٥٣ م والقيام بعدة هجمات الى دول اوربا هددوا خلالها فينا براً والجزر البريطانية بحراً(١).

---

١ نظر برنردلوس . لسيسة والحرب . المرجع السابق ص ٢٨٦ و ٢٨٩

ب ـ تحول النشاط الاوربي الى التوسع في مناطق أخرى

لقد كان لسقوط عكا سنة ٦٩٠ هـ / ١٢٩١ م بيد المسلمين واجراءات طرد الصليبيين من الشرق الاسلامي تمهيداً لانتقال الحركة الصليبية الى مرحلة جديدة تمتاز بطابع خاص تتفق وتطور الاوضاع في الشرق الادنى من ناحية وفي الغرب الاوربي في أواخر العصور الوسطى من ناحية أخرى[١].

ان الاوضاع السياسية والاجتماعية والدينية التي امتازت بها بلاد غرب اوربا في العصور الوسطى ، قد تغيرت وتبدلت لتمهد ظهور بوادر العصور الحديثة وهذا لم يترك مجالاً لطاقة جديدة عند الاوربيين يوجهونها لخدمة الحركة الصليبية فالامبراطورية الرومانية المقدسة في اوائل القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي ليس لديها من الموارد البشرية او المالية فائض يمكنها من المشاركة في الحرب الصليبية ، وخاصة بعد أن انهكها الصراع مع البابوية . أما انكلترا وفرنسا فقد انشغلنا بمشاكلهما الداخلية بالاضافة الى انهما اشتبكا ضد بعضهما البعض في حرب المائة عام . مما أدى الى استنفاذ موارد الدولتين وجهودهما معاً .

اما اسبانيا ، فقد ادت المنافسات بين وحداتها السياسية التي انقسمت اليها وهي ارغونة وقشتالة وليون ونافاري والبرتغال الى عدم تمكينها من المساهمة في حرب صليبية خارج شبه جزيرة ايبيريا ، على الرغم من ان جميع تلك الدول الاسبانية على استعداد للتضامن في الحرب ضد المسلمين لطردهم من الاندلس[٢]. وفيما يتعلق بايطاليا ، حيث نشأت فيها المدن التجارية ذات الكيان السياسي والاقتصادي المستقل وارتبطت مع المسلمين بعلاقات تجارية مما يجعل مصالحها تتعارض مع محاربتهم ، لذلك ابتعدت ايطاليا في بداية العصور الحديثة عن المشاركة في اية مغاليات تستهدف استعادة النشاط الصليبي في المشرق الاسلامي .

وكان لظهور الشعور القومي في غرب اوربا في اواخر العصور الوسطى وهو الشعور الذي وحد ابناء كل امة من الامم الاوربية ، وجعلها تشعر بأن لها كيان خاص ومصالح خاصة تميزها عن غيرها من الامم ، أثر كبير في ظهور تيار فكري جديد يحدد معالم الدول التي تقوم على اساس قومي ـ وان لكل دولة من هذه

---

(١) د . سعيد عبد الفتاح عاشور . الحركة الصليبية : ٢ / ١١٢٩ .

(٢) كانت الحرب الصليبية التي شنت ضد المسلمين في اسبانيا . لاتقل اهمية عن الحروب الصليبية التي شنت على المسلمين في المشرق .

الدول كيان سياسي مستقل ويرتبط ابناؤها بشعور موحد ، يجعلهم يتعصبون بعضهم لبعض ، فضلاً عن تعصبهم لوطنهم ، وانتهت بذلك فكرة الامبراطورية العالمية التي كان الفكر السياسي اسيراً لها طيلة العصور الوسطى .

ان هذا التطور استأثر بتفكير المعاصرين بما لم يترك فائضاً من الطاقة او متسعاً من الجهد والوقت لمواصلة الحرب ضد المسلمين في الشرق ، وهي الحرب التي اثبتت التجارب الطويلة ، فداحة ثمنها وعدم جدواها(١).

ولعل من المفيد القول ، بأن الحركة الصليبية اخذت تخرج من مجال السياسة العملية وخاصة بعد سقوط عكا وطرد الصليبيين من بلاد الشام ، ولم يبق لهم من القواعد مايستطيعون الانطلاق منها نحو المواقع الاسلامية الا جزيرة ارواد التي تقع على مسافة ميلين من الساحل ، قبالة انطرطوس وهي ليست ذات قيمة عسكرية واستراتيجية ، ولذلك كان لابد للحملات التي ينوي الصليبيون القيام بها ان يجري تنظيمها وامدادها بالمؤن والمعدات من جزيرة قبرص في عرض البحر وفي ذلك صعوبات ملموسة يواجهها الصليبيون وهي عديمة الجدوى .

وبالتدريج فقد اخذت حقيقة الشرق الصليبي بعد سنة ٦٩٠ هـ / ١٢٩١ م تتلاشى وتتداعى ـ وقد أثار اختفاءها الحزن في اوربا ، ولكن لم يكن موضع دهشة واستغراب نتيجة ماوقع هناك من مشكلات ومنازعات ، فلم يعد به جذوة الحماس التي كانت تدفع امرائه وسادته للمسير صوب الشرق مثلما حدث ايام الحملة الصليبية الثالثة ، بل انه ليس باستطاعة غرب اوربا ان يوجه الى الشرق حملة شعوب مثل الحملة الصليبية الاولى ، اذ ان شعوب اوربا أخذت تنعم بما استجد من اسباب الراحة والرخاء ، فلن تستجيب لدعوات تستند على التنبوءات من أمثال ماكان يقوم به بطرس الناسك ، وذلك بنفس التقوي الساذجة الجاهلة التي اشتهر بها اجدادهم قبل قرنين من الزمان . ولم يقتنعوا بما انطوت عليه الامتيازات المبذولة من وعود وآمال وصدمهم ماحدث من استخدام « الحرب المقدسة » لتحقيق اغراض سياسية(١).

وقد شهدت اواخر العصور الوسطى تحطم النظام الاقطاعي في بلدان غرب اوربا هذا النظام الذي اعتمد على الاقنان والعبيد الذين اتاحت لهم الخروب الصليبية مخرجاً فتركوا الاراضي التي يفلحونها وساهموا في النشاط الصليبي وجاءوا الى الشرق للبحث عن حياة افضل تحت ستار محاربة المسلمين غير ان نشأة المدن وتطورها فتح بابا آخر امام هؤلاء الاقنان والعبيد فهاجروا من الارض التي ارتبط

(١) د . سعيد عبد الفتاح عاشور ، المصدر نفسه ، ١١٣٠ ـ ١١٣١
(١) رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ٣ / ٧١٧ ـ ٧١٨ .

بها آباؤهم واجدادهم ، كما ان اضحاب الضياع قد اكتشفوا ان نظام العبيد والاقنان غير اقتصادي ، فأخذوا يحررون اقنانهم بالجملة (٢).

ان هذه التطورات التي وجدت طريقها في الغرب الاوربي حطمت الاسس التي يستند عليها المجتمع الاوربي في العصور الوسطى ، وهو ماترتب عليه فتح آفاق جديدة امام الاوربيين اهم بكثير من مجرد حمل السلاح والرحيل الى الشرق لمحاربة المسلمين كما ان شخصية الفرد بدأت تظهر في غرب اوربا في اواخر العصور الوسطى . وأخذ المجال يتسع امام الفرد لاظهار كفايته الخاصة ومواهبه الذاتية ونشاطه الفردي ، لذلك تقلص اقبال الافراد عن المشاركة في مزيد من الحروب ضد المسلمين في الشرق (٣).

وقد ظلت البابوية (١) المحور الاساسي للحركة الصليبية خلال العصور الوسطى ، ولكنها تعرضت لتطورات خطيرة ، ذلك ان الافاق الجديدة التي أخذت تتفتح امام الناس في اواخر العصور الوسطى نتيجة للنشاط الاقتصادي والتطور السياسي والاجتماعي وازدهار العلوم الجديدة وظهور الجامعات الحديثة التي تبنت تطوير البحوث العلمية ، أن هذه التيارات جعلت الغرب الاوربي ينشغل عن الكنيسة وتعاليمها وقيودها ويتجه نحو حياة اكثر حرية واوسع افقاً . ولم يكد يمضي على سقوط عكا في ايدي المسلمين سنوات قليلة حتى مرت البابوية بمنحة ادت الى تدهور نفوذها تدهوراً واضحاً ، بحيث لم يبق لها سوى القليل من سلطانها العالمي الواسع الذي كانت عليه في نهاية القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي واوائل السابع الهجري . ان اوضاع البابوية جعلت المعاصرين يعيدون النظر في حقيقة الوظيفة البابوية وأهمية البابا في المجتمع ومصدر سلطاته الواسعة ، وكان نتيجة ذلك ضياع هيبة البابوية وضعف نفوذها على النفوس ، مما افقد الحركة الصليبية قيادتها وزعامتها القوية التي ـ تعهدتها منذ بداية الدعوة .

ونتيجة لذلك فان التطورات التي سادت المجتمع الاوربي في الميادين السياسية والاجتماعية والدينية والفكرية . جعلت استمرار الحركة الصليبية بنفس القوة والحماسة والروح التي كانت عليها في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي

---

(٢) د . سعيد عبد الفتاح عاشور . الحركة الصليبية ، ٢ / ١١٣١ .

(٣) د . سعيد عبد الفتاح عاشور . اوربا العصور الوسطى ، ٢ / ٢٨٦ ـ ٢٨٧ .

(١) محنة الاسر البابلي (٧٠٥ ـ ٧٧٩ هـ / ١٣٠٥ ـ ١٣٧٧ م) عند هجر البابوات روما واقاموا في افينون شبه خاضعين للملكية الفرنسية . ثم ازمة الانشقاق الديني (٧٨٠ ـ ٨٢٠ هـ / ١٣٧٨ ـ ١٤١٧ م) بوجود ثلاثة مجموعات متنافسة . لكل منها أشياع يمالئون ويسفهون الاطراف الاخرى . د . سعيد عبد الفتاح عاشور . اوربا العصور الوسطى ، ١ / ٥١٣ ـ ٥٢٠

امراً متعذراً . وبعبارة اخرى . فقد صار لا بد للحركة الصليبية تحت تأثير تلك التطورات من أن تتخذ لنفسها طريقاً جديداً يتفق ومرحلة الانتقال من العصور الوسطى الى مرحلة العصور الحديثة(٢).

ومن الجدير بالذكر ان الغرب الاوربي يصعب عليه أن يتخلى عن الفكرة الصليبية تخلياً تاماً مفاجئاً . فقد ظلت تلك الفكرة تراود عقول بعض المتحمسين والمتدينين الذين دعوا لاستئناف الحرب ضد المسلمين او ايجاد مجالات اخرى وفي مناطق اخرى لاستئنافها . وعبر هؤلاء عن حماستهم وآرائهم بمجموعة من المشاريع الصليبية ذات الأهمية البالغة مما جعل الحركة الصليبية تدخل دوراً جديداً حيث راح هؤلاء الدعاة يكتبون الرسائل والكتب ويرفعونها الى البابوات والملوك والامراء . يشرحون فيها مشاريعهم الصليبية ومن أشهر هؤلاء هو أحد الرهبان الفرانسيسكان واسمه فدنزيو البادوي Fidenzio of Padua أعتمدت عليه البابوية كثيراً في شؤون الشرق لخبرته الواسعة عن احوال الشعوب الاسلامية . وقد اصدر كراساً بعنوان « تحرير الأراضي المقدسة » أهداه الى البابا نيقولا الرابع . شرح فيه تاريخ الارض المقدسة وأشار الى ضرورة فرض الحصار الاقتصادي على البلاد الاسلامية واتخاذ قواعد استراتيجية في الجهات الساحلية الارمنية(١). وحدد نوع الجيش يلزم للقيام بهذا المشروع والطريق المفضل الذي ينبغي أن يسلكه ذلك الجيش(٢). وفي العام التالي ـ أي ٦٩١ هـ / ١٢٩٢ م تقدم أحد الدعاة الايطاليين واسمه ثاديوس Thaddeus بتقرير تاريخي عن سقوط عكا(٣). دعا فيه الى تكوين حلف عسكري من امراء اوربا برئاسة البابوية . وكان تقريره عنيفاً أراد أن يستشير فيه الغرب لارسال حملة صليبية جديدة واختتمه بنداء الى البابوية وحكام اوربا بعمل فعال لاستخلاص الاراضي المقدسة من المسلمين(٤).

غير أن أبرز الذين عالجوا موضوع الحرب الصليبية هو ريموند لول Raymondlull المبشر الاسباني . وقد تأثر بكتاب ثاديوس وبأراء أحد الدعاة الجنوبيين واسمه جلفانو ليفانتي . وامتاز ريموند هذا عن بقية الدعاة بمعرفته اللغة العربية ودرايته لطبيعة البلاد الاسلامية وكان من رجال السياسة العمليين . وقدم للباشا مشروعه وأشار فيه الى ضرورة توجيه الجهود الى العمل الحاسم ضد المسلمين .

---

(٢) د . سعيد عبد الفتاح عاشور . الحركة الصليبية : ٢ / ١١٣٣ .

(١) د . عبد القادر يوسف . علاقات بين الشرق والغرب : ٢٢٨ ـ ٢٢٩ .

(٢) د . سعيد عبد الفتاح عاشور . الحركة الصليبية : ٢ / ١١٣٥ .

(٣) وكان معاصراً لمعركة عكا الشهيرة . بل شهدها فعلا .

(٤) د . عبد القادر يوسف . المصدر نفسه : ٢٢٩ . د . سعيد عبد الفتاح عاشور . المصدر نفسه : ١١٣٥ .

وارسال حملة عسكرية يتولى قيادتها ملك محارب(RexBellator) تشترك فيها جميع هيئات الفرسان من داوية واسبتارية ويقومون ، وأن تتوحد هذه الطوائف في طائفة واحدة تحت قيادته ، وجعلها العمود الفقري للجيش ، وتتولى ازاحة المسلمين من اسبانيا حيث يبدأ خط سيرها من هناك ثم تعبر الى الشمال الافريقي وتتحرك على امتداد الساحل الى تونس ثم الى مصر . واقترح ايضاً جعل كل من جزيرة رودس ، ومالطة وقبرص مراكز الانطلاق الرئيسية في الهجوم بما لهذه الجزر من مرافىء بحرية يمكن اتخاذها قواعد عسكرية ، في الوقت الذي ينبغي على الاسطول الصليبي أن يحافظ عليها من أي هجوم اسلامي محتمل ، ويبدو أنه أوصى فيما بعد أن تنتزع حملة بحرية (القسطنطينية) من اليونانيين ، ثم تمضي في سيرها عبر بلاد الاناضول(١).

وقد جاء في تقرير ريموند لول ، الذي امتاز باتساع الافق وعمق الخبرة تأكيدات على تعاون الاسطول البحري مع الجيش البري وتنظيمهما وعن كميات المؤن والاسلحة فضلاً عن التعليمات التي يتزود بها المبشـرون الشـرقيين بالتعصب وأساء الظن بهم ، ولم يحاول الافادة منهم في مشروعه الصليبي(٢).

واستشارت البابوية هيثوم ملك ارمينيا السابق الذي اعتزل الدنيا وأقام في أحد الاديرة الفرنسية وطلبت منه ان يبين رأيه في كيفية استعادة المملكة الصليبية . فاقترح هيثوم بكتابة المرسوم « تاريخ الاراضي الشرقية » القيام بحملتين لمهاجمة المسلمين ، احداهما بحرية تتخذ قبرص وارمينية قاعدة لها والاخرى برية عن طريق القسطنطينية وارمينيا وان تتحالف مع الارمن والمغول ، وأشار الى ضرورة احتفاظ الدول الاوربية بأساطيل قوية في المحيط الهندي لقطع دابر التجارة المصرية ، كما أوصى بضرورة استيلاء الصليبيين على القسطنطينية كاجراء اولي لتأمين الطريق البري(٣).

وتقدم المؤرخ الايطالي ماريانو سانودو Marino Canudo باقتراحات الى البابا كليمنت الخامس سنة ٧٠٩ هـ / ١٣٠٩ م وموجزها يدور حول منع المتاجرة مع الاقطار الاسلامية وفرض الحصار الاقتصادي على مصر لمدة ثلاث سنوات ثم احتلالها عسكرياً والزحف نحو بلاد الشام والاستيلاء على الاراضي المقدسة والاقامة فيها . وقد ظهرت في مشروع هذا المؤرخ أهمية العامل التجاري في الحركة الصليبية ، وسرعان ما اتضح

---

(١) رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية : ٣ / ٧٢٤ .

(٢) د . سعيد عبد الفتاح عاشور ، المصدر نفسه : ١١٣٦ .

(٣) د . عبد القادر اليوسف ، علاقات بين الشرق والغرب ، ٢٣٠ ، د . سعيد عبد الفتاح عاشور ، المصدر نفسه : ١١٣٦ .

للبابوية ان تنفيذ فكرة الحصار الاقتصادي على مصر والشام يتطلب انشاء قوة بوليسة بحرية تخضع للبابوية وتقوم بمراقبة شواطىء مصر لمنع أية سفينة اوربية من الوصول الى الموانىء الاسلامية والمتاجرة معها . ورأى مارينو سنانودو أن تقوم الاساطيل الصليبية بمراقبة شواطىء الهند ايضاً باعتبارها منبع التجارة بين المصريين والاوربيين . ويمكن القول . ان جزيرة قبرص بموقعها الفريد في شرق البحر المتوسط هي أصلح مكان لتنفيذ المشاريع الصليبية السابقة . وهكذا نهضت جزيرة قبرص بالذات بعبأ الحرب الاقتصادي ضد مصر وبلاد الشام لما لها من مميزات الموقع الجغرافي ما جعلها تستطيع أن تشن هجمات متوالية على الموانىء الاسلامية في مصر والشام . كما استمر حكام قبرص يعتبرون أنفسهم ورثاء العرش المضاع في الاراضي المقدسة ، وبقيت قبرص حاملة لواء الحرب منذ سقوط عكا حتى سنة ٨٣٠ هـ / ١٤٢٦ م اذ اتخذ ملوكها العديد من الخطوات العسكرية والدبلوماسية ضد مصر أملًا في تحطيم قوة المماليك واستعادة عرض بيت المقدس(٢).

ونجحت الاتصالات المتكررة بين الغرب الاوربي من ناحية وملوك الحبشة المسيحيين من ناحية اخرى . في استثارة ملوك الحبشة ضد المسلمين وفي جذبهم الى داخل مجال الحرب الصليبية . غير ان تحقيق فكرة اشتراك الحبشة مع الغرب الاوربي في حملة صليبية كبرى ضد مصر كان أمراً متعذراً . وذلك لبعد المسافة بين الحبشة وغرب اوربا من ناحية . وصعوبة الظروف التي أحاطت بكل من الجبهتين عندئذ من جهة أخرى . واتجه الاوربيون . بعد فشلهم الاعتماد على الحبشة في القيام بعمل جدي ضد المسلمين في الشرق الادنى . الى فكرة جديدة هي محاولة اكتشاف طريق جديد . غير طريق مصر ـ للوصول الى الشرق وتجارته . وقد نجح فاسكودي غاما البرتغالي في اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح الى الهند وجاء ذلك ضربة قاضية ضد مصر وامكانتها التجارية(٤).

ويمكن القول ان النشاط الاوربي بالتوسع تمتل بعد اخفاقه في المشرق الاسلامي . في مجموعتين من الممالك الصليبية في الشرق الادنى هما :

أ ـ مملكتا ارمينيا الصغرى وقبرص حيث قدر لهاتين المملكتين الاستمرار في الحكم مدة أطول من جميع البقايا الصليبية الاخرى .

ب ـ الممالك التي أسستها الطوائف الدينية العسكرية وهي :

---

(١) د . سعيد عبد الفتاح عاشور . الحركة الصليبية : ٢ / ١١٤٦ .

(٢) د . عبد القادر اليوسف . علاقات بين الشرق والغرب : ٢٣٣ ـ ٢٣٤ .

(٣) د . سعيد عبد الفتاح عاشور . المصدر نفسه : ١١٥٢ .

(٤) د . سعيد عبد الفتاح عاشور . المصدر نفسه : ١١٥٣

١ ـ الاسبتارية في جزيرة رودس .
٢ ـ التيوتون في بلاد البلطيق .
٣ ـ الداوية في منطقة جنوب اوربا ـ فرنسا .

وجميع هذه البقايا جاءت وليدة الحركة الصليبية ونشأت بفعل تيارها ومن ثم أخذت على عاتقها مهمة استئناف محاربة المسلمين سياسياً واقتصادياً وعسكرياً .

١ ـ مملكة ارمينيا الصغرى :

قامت هذه المملكة في اقليم قيليقية بين جبال طوروس والبحر ، وامتدت حتى حدود امارة انطاكية ، وقد استطاعت أن تنهض بدور بارز في الحركة الصليبية وذلك بحكم موقعها الجغرافي بين القوى الاسلامية والمسيحية العديدة في شمال الشام والعراق وشرق آسيا الصغرى ، هذا فضلاً عما كان من اتصال الارمن بالبابوية والقوى المسيحية في غرب اوربا وقد استمر العداء بين المسلمين وهذه المملكة ، وحاول المسلمون انزال الهزيمة بها مراراً ، غير ان ملوكها تعهدوا ـ عقب الهزائم المتلاحقة التي نزلت بهم على يد المسلمين ـ بدفع جزية سنوية لهم(١) .

ان وقوف المسلمين ضد هذه المملكة كان بسبب مساعدتها للبابوية في ـ احكام الحصار الاقتصادي على مصر ومن ثم بلاد الشام والعراق ، وذلك عن طريق فتح موانيهم للسفن الاوربية الغربية وخاصة ميناء ايناس ، وقد دفع ذلك ـ الغرب الاوربي الى تحويل جزء كبير من نشاطه التجاري الى طريق اياس ـ الجزيرة ـ ـ تبريز ـ واستعاض التجار الاوربيون بهذا الطريق عن طريق مصر في الحصول على كثير من متاجر الشرق(١) . وقدمت لهؤلاء التجار تسهيلات خاصة مادية ومعنوية من أجل تشجيع الاوربيين على المتاجرة معها بدلاً من الموانىء المصرية . لذلك صمم المسلمون على تدمير مدن ارمينيا الساحلية ، وتمكنوا فعلاً من السيطرة على الساحل ، مما اضطر الارمن الى تهديم اسوار ميناء اياس .

لقد تعرضت مملكة ارمينيا الصغرى للزوال على يد العثمانيين في الشمال وعلى يد المماليك في الجنوب حيث أغار هؤلاء على ميناء اياس والحقوه بمناطق نفوذهم كما استولوا على أطنة وطرسوس ولم يبق من المملكة سوى العاصمة سيس وانزرب في المناطق الجبلية ـ وفي سنة ٧٧٧ هـ / ١٣٧٥ م زالت هذه المملكة على أثر استيلاء المماليك على العاصمة واقتيد ملكها ليو السادس اسيراً مع حاشيته الى القاهرة(٢) .

---

(١) د . محمد جمال الدين سرور ، دولة بني قلاوون في مصر : ٢٢٤ ـ ٢٢٥ .
(١) د . سعيد عبد الفتاح عاشور ، الحركة الصليبية : ٢ / ١١٥٧ .
(٢) اطلق سراحه بعد سبع سنوات نتيجة لتوسطات حكومة البنادقة ودفعه الفدية وامضى بقية عمره متهرباً ومتردداً على الاوساط البابوية وبلاطات حكام اوربا حتى وفاته بعد احدى عشر سنة . وبذلك اصبحت ارمينيا تابعة للمماليك حتى وقوعها بيد العثمانيين سنة ٩٢٢ هـ / ١٥١٦ م .

٢ ـ دولة آل لوزجنان في قبرص :

بعد استيلاء المسلمين على عكا سنة ٦٩٠ هـ / ١٢٩١ م اصبحت قبرص معقلاً مهماً من معاقل الصليبيين وأقواها وجبهة رئيسية في الحروب الصليبية في الشرق الادنى . واضحى ملوك لوزجنان وجهاً لوجه امام المسلمين . وفتحت قبرص ابوابها الى اللاجئين والمشردين من بقايا الصليبيين الفارين من بلاد الشام الذين خسروا بسقوط عكا آخر معقل من معاقلهم . فلم يبق أمامهم سوى جزيرة قبرص القريبة المنيعة . وهكذا أخذ الصليبيون ينزحون الى الجزيرة فرادي وجماعات ومعهم نساءهم واولادهم وما أمكن نقله من ثروتهم وهناك في قبرص رحب بهم الملك هنري الثاني . كما آوى هيئات الفرسان المشردة من بلاد الشام فظل الاسبتارية في ليماسول الى أن تم لهم انتزاع جزيرة رودس من الدولة البيزنطية واتخذوها مقراً لهم(١) .

وتقدم هنري الثاني لوزجنان ملك قبرص بمشروعه الصليبي الى البابا كليمنت الخامس . وقد نادى فيه بضرورة فرض حصار اقتصادي على مصر . كما شن الحرب الاقتصادية على مصر وبلاد الشام واتخذت هذه الحرب شكل اغارات متفرقة على بعض المدن الساحلية . وعندما تولى العرش الملك بطرس الاول أراد أن يقوم بحملة صليبية ضخمة يطعن بها المسلمين طعنة نجلاء وأدرك ان مشروعه هذا يحتاج الى استعدادات كبيرة وموارد عديدة . قام برحلة طويلة الى غرب اوربا للدعاية لحملته والحصول على ما يرغب فيه من معونة ومساعدات فاجتمعت السفن الصليبية وعدد كبير من المغامرين والانصار(٢) . وهاجم الاسكندرية ونجح في اقتحام المدينة فاستولى الذعر على أهلها وفروا تاركين « المدينة بما فيها للفرنج » ونهبوا المدينة وأحرقوا القصور والخانات واعتدوا على النساء والبنات وخربوا الجوامع والمساجد . وبلغ من وحشية الصليبيين أنهم كانوا يقتلون المرأة بعد أن يذبحوا ابنها على صدرها(٣) .

وعلى أثر استيلاء ملك قبرص الصليبي على الاسكندرية . أرسل البابا الى بطرس مهنئاً . كما ارسل الى ملوك الغرب وامرائه يناشدهم أن يسرعوا في تقديم المساعدة الى قبرص . فأرسل اليه ملك فرنسا شارل الخامس يخبره بأنه سوف يبعث اليه بجيش عظيم يحطم به قوة المسلمين . كذلك سمع كثير من المغامرين من فرسان اوربا بوفرة الغنائم التي غنمها الصليبيون من الاسكندرية فنزحوا الى قبرص للدخول

---

(١) د . سعيد عبد الفتاح عاشور . الحركة الصليبية : ٢ / ١١٦٣ .

(٢) د . سعيد عبد الفتاح عاشور . المصدر نفسه : ١١٦٤ .

(٣) ن . م . : ١١٦٥ .

(٤) ن . م . : ١١٦٧

في خدمة الملك وطلبوا منه القيام بحملة وهجوم صليبي آخر على المسلمين . ويبدو ان قبرص أصبحت وكراً لقراصنة الصليبيين يخرجون منها للاغارة على البلدان والسفن الاسلامية . وكان موقف السلطات المصرية من تلك الغارات . قطع العلاقات التجارية مع الاوربيين . وقد تأخرت المدن الايطالية التجارية من جراء هذه المقاطعة الاقتصادية . وأخذت تساورها المخاوف من مشاريع ملك قبرص وخاصة عندما حاول الاخير الاستغاثة بأوربا للمرة الثانية . غير أنه لم يجد الاستجابة لا في المدن الايطالية ولا في مملكة الاراكون فعاد خائباً الى قبرص(١). وتصدى المماليك للانتقام من قبرص وملوكها فأرسلوا حملاتهم الواحدة أثر الاخرى حتى استطاعوا احتلال عاصمتهم ليماسول ودارت موقعة فاصلة هزم القبارصة على أثرها . واقتيد الملك جانوس Janus اسيراً للقاهرة وبذلك كانت نهاية دولة لوزجنان الصليبية في قبرص حيث أصبحت تابعة للمماليك حتى سنة ٩٢٣ هـ / ١٥١٧ م أي حتى استيلاء العثمانيين على مصر(٢).

٣ ـ الاسبتارية في جزيرة رودس :

أخذ الاسبتارية وهم احدى الطوائف الدينية العسكرية بعد أن استقروا في جزيرة قبرص ، يبحثون عن وطن آخر . وقد تمكنوا من الاستيلاء على جزيرة رودس(٣) واتخذوا فيها على الفور مقرهم وجعلوا من المدينة بمينائها امنع حصن في شرق البحر المتوسط ولقي استيلاء الاسبتارية على جزيرة رودس ترحيباً كبيراً في الغرب . باعتبار أنه انتصار صليبي . والواقع ان فتح ردوس وهب الاسبتارية قوة جديدة وهيأ لهم الوسيلة في تحقيق آمالهم .

وأثبتت الاسبتارية أنهم عند حسن ظن البابوية والغرب الاوربي بهم حيث لم تكن تنقصهم الحماسة الدينية لمواصلة الحرب الصليبية . وقد استغلوا قاعدتهم في

---

(١) يقال بأن السبت المباشر لزيارته لكي يبارز الفارس لسبر الذي كان قد تلقى اهانة من قبل الملك اثناء اشتراكه في الحملة على الاسكندرية . وقبل الملك تحدي لسبر حيث وعد الفارس الالتقاء به في البلاط الفرنسي . ولم تتم المبارزة لوساطة البابويه (د . عبد القادر أحمد اليوسف . علاقات بين الشرق والغرب ، ٢٣٦ ـ ٢٣٧

(٢) د. عبد القادر اليوسف . المصدر نفسه ، ٢٣٧ .

(٣) وكان قد قدم الى قبرص قرصان جنبوي اسمه فينولودي فينولي الذي سبق أن حصل من الامبراطور البيزنطي اندرونيقوس على جزيرتي كوس وليروس فعرض على مقدم الاسبتارية فولك فيلاريت بأن يقوم مع الاسبتارية بفتح جميع جزر أرخبيل الدوديكانيز = واقتسامها معاً فأبحر مقدم الاسبتارية الى اوربا ليحصل على موافقة البابا على المشروع . وشرع الاسبتارية في غزو جزيرة رودس سنة ٧٠٨ هـ / ١٣٠٨ م التي صارت حصناً لهم (رنسيمان . تاريخ الحروب الصليبية ، ٣ / ٧٢٩ ـ ٧٣٠)

رودس لمواصلة الحرب ضد المسلمين براً وبحراً . وكان الاسبتارية قد انجوا بطرس الاول ملك قبرص في اعتدائه ضد المسلمين فعاونوه بالمال والرجال والسفن فضلاً عن مائة من الفرسان . كما اتخذها الملك بطرس الاول لوزجنان لتكون مركز التجمع للاساطيل والجيوش المشتركة في حملته الصليبية . ان وحدة الهدف الصليبي جعلت آل لوزجنان في قبرص والاسبتارية في رودس يتعاونون جميعاً ضد المسلمين . وقد احس الاسبتارية بالخطر عقب انتصار المماليك على آل لوزجنان في قبرص فعرضوا على المماليك عقد معاهدة صداقة وعدم اعتداء وعندما تناهت الى السلطان العثماني مراد الثاني الاخبار التي تفيد ان فرسان الاسبتارية في رودس يحاولون الانضمام الى الحلف المسيحي الكبير الذي اوشك ان يتكون في اوربا لشن حرب صليبية كبرى ضد المسلمين ، حرض السلطان العثماني ، المماليك على غزو رودس لاشغال الاسبتارية عن الانضمام لذلك الحلف(١) فراح المماليك يغيرون عليها واصبحت هدفهم ، غير ان الاسبتارية ظلوا يحتفظون بقواهم المعنوية والعسكرية لانهم يمتلكون اسطولاً عسكرياً قوياً كفل لهم الحماية من غارات المماليك ، بالاضافة الى امتلاكهم جهاز تجسسي كبير اشبه بشبكة تجسس عالمية يطلعون بواسطته على اخبار اعدائهم ويرصدون تحركاتهم ضد الجزيرة ، بل لم يحجم الاسبتارية في كثير من الاحيان عن الاغارة على السفن الاسلامية بحيث لم يقو المماليك على الانتقام لضعف دولتهم وتدهور احوالها العامة . وبعد استيلاء العثمانيين على دولة المماليك سنة ٩٢٣ هـ / ١٥١٧ م تمت سيطرتهم على جزيرة رودس وانهاء دور فرسان الاسبتارية لسنة ٩٢٨ هـ / ١٥٢٢ م(٢).

٤ ـ فرسان التيوتون في بلاد البلطيق :

نشأت هيئة الفرسان التيوتون بعد اصدار البابا كليمنت الثالث مرسوماً سنة ٥٨٧ هـ / ١١٩٢ م يقضي بالاعتراف بها ، وقد استقت معظم مبادئها من الهيئات الاخرى التي سبق قيامها في الاراضي المقدسة مثل الاسبتارية وفرسان القديس حنا . واتخذت هيئة فرسان التيوتون مركزها الرئيسي في عكا بعد ان استولى عليها الصليبيون وظلت هذه الهيئة محتفظة بطابعها الالماني في الاراضي المقدسة . على ان الروح الصليبية سرعان ماخبت حماستها في قلوب الاوربيين وتناقص عدد الصليبيين الجدد واخذت الامارات الصليبية تتساقط الواحدة تلو الاخرى ، وعندئذ صار لزاماً على الهيئات الصليبية المتعددة ببلاد الشام ان تبحث لها عن ميادين اخرى تستنفذ فيها

(١) د . محمد مصطفى زيادة . المحاولات الحربية للاستيلاء على جزيرة رودس ، ١٩٨ .

(٢) د . ابراهيم طرخان ، في عصر دولة المليك الجراكسة ، ١٠٧ ـ ١١٤ .

امكانياتها المادية وحماستها الدينية . وقد وجد الفرسان التيوتون ميداناً صالحاً لنشاطهم في شمال اوربا بين وادي الفستولا وخليج فنلاند . غير انه لم تكن امامهم من الفرص ما يمكنهم من تحقيق امالهم ولكن بعد ان تيحت الفرصة لهرمان فون سالزا مقدم الفرسان التيوتون لتأسيس دولة مسيحية بشمال اوربا تغني عن بلاد الشام ومتاعبها . وكان هرمان حريصاً الا يعمل لحساب احد وان يضمن استقلال الفرسان التيوثون في مقرهم الجديد . فحصل من الامبراطور فردريك الثاني على شهادة رسمية باستيلاء المنظمة على منطقة كولم على الحدود بين ماسوفيا وبروسيا بالاضافة الى ما يفتحونه من المناطق في المستقبل على ان ـ يتمتعوا في هذه الاجزاء بسلطة تامة . وبذلك اخذ هؤلاء ينزحون الى بروسيا في هذه وبدءوا يغزون الاراضي الوثنية المجاورة بنجاح كبير وعلى الرغم من قلة اعدادهم نسبياً امتازوا بقوة اسلحتهم ودرايتهم بشؤون الحرب[١]. وبعد سقوط عكا سنة ٦٩٠ هـ / ١٢٩١ م في ايدي المسلمين . ركز الفرسان التيوتون كل نشالطهم في شمال اوربا حيث كان نطاق عملهم اوسع ومجال الاستقلال اعظم بعيداً عن سيطرة البابوية وتدخلها . لذلك نقل مقدم الفرسان الثيوثون مقره من البندقية الى مارنبورج Marienburg سنة ٧٠٩ هـ / ١٣٠٩ م . ومنذ ذلك الوقت اصبحت هذه المدينة حاضرة الفرسان الثيوثون ومقر قيادتهم . على ان قطع الصلة بين الفرسان الثيوثون من جهة والاراضي المقدسة في بلاد الشام وجنوب اوربا من جهة اخرى . كانت له نتائج بعيدة المدى . اذ ادى الى اضعاف صلة هؤلاء الفرسان بالبابوية وتقوية الروابط التي تربطهم بألمانيا والامبراطورية[٢]. ونتيجة لاستنجاد الثوار داخل بروسيا ببولندا فقد استطاعت الاخيرة ان تجعل من بروسيا الشرقية ـ التي هي موطن الفرسان الثيوثون ـ دوقية تابعة لها . مما جعل انتهاء دولة الفرسان الثيوثون بشمال اوربا سنة ٩٣٢ هـ / ١٥٢٥ م امرأ واقعاً .

٥ ـ الداوية في منطقة جنوب اوربا :

وهم احدى هيئات الفرسان التي اسهمت بنصيب واضح في الخروب الصليبية وقد فقدت اهميتها العسكرية منذ سقوط عكا سنة ٦٩٠ هـ / ١٢٩١ م ولكنها ظلت بعد ذلك تقوم بنشاط مصرفي ومالي واسع كان عليها ثروة طائلة وقد انصرف معظم افرادها الى تطمين مصالحهم الدنيوية . لذلك اصبحت اشبه شيء بتنظيم سري يحوطه الغموض . واقترح بعض البابوات ضم الداوية الى هيئة فرسان الاسبتارية

(١) د . سعيد عبد الفتاح عاشور . اوربا العصور الوسطى : ١ / ٦١٨ ـ ٦٢٢

(٢) ن . م . : ٦٢٤ .

التي بقيت تحتفظ بطابعها العسكري ، غير ان فرسان الداوية عارضوا فكرة ادماج الهيئتين بعضهما في بعض(١).

ان النشاط المالي الذي تميز به فرسان الداوية ادى الى ان يكونوا على اتصال وثيق بالمسلمين، اذ اتخذ كثير منهم اصدقاء من المسلمين واهتموا بالديانة والدراسات الاسلامية ، نظراً لانهم كانوا قد اتخذوا جزيرة قبرص ، القريبة من بلاد الشام والاراضي المقدسة مقراً لهم . واتهم فرسان الداوية بالهرطقة والالحاد ، واصدر البابا كليمنت الخامس قراراً يقضي بالتحقيق في مسلك الداوية ومحاكمتهم ، وعندئذ انتهز فيليب الرابع ملك فرنسا الفرصة سنة ٧١٠ هـ / ١٣١٠ م فأحرق اربعة وخمسين من فرسانهم في باريس ، وبعد سنتين اصدر امره بحل هيئة الداوية ومصادر املاكها والقاء القبض على جميع من كان بفرنسا من رجال الداوية(٢)، واعقب ذلك اجراء القاء القبض على جميع افراد الداوية في أوربا ومصادرة املاكهم واجراء محاكمات من هذا القبيل . وباحراق مقدم الداوية جاك دي مولاي Jacques De Molai بعد محاكمته انحلت فرقتهم وتفرقوا في البلاد وسُلِم كل مالها من ثروة واملاك للاسبتارية(٣).

وعلى العموم فان الغرب الاوربي ادرك ان الثمن الذي يدفعه في الحروب الصليبية باهض لايعادل الفوائد التافهة التي يحصل عليها ، فأخذ الاوربيون يوجهون نشاطهم نحو ميادين اخرى اجدى عليهم وانفع لهم في حين رأى البابوات ان يستغلوا ماتبقى من حماسة دينية عند الغربيين في تحقيق مآربهم السياسية . وهكذا تركت الاراضي المقدسة لتصلح ميداناً للتنافس التجاري بين البنادقة والبيازنة والجنوبيين ، هذا عدا ما استمر به من منازعات بين الامراء الصليبيين وبين الطوائف الدينية العسكرية(١).

ومهما يكن من امر فان الحروب الصليبية التي احجبها الغرب الاوربي على المسلمين في العصور الوسطى كانت بدافع التعصب الديني وانتقاماً لما حل بالمسيحية وكنيستها من انكماش في النفوذ والسلطان نتيجة لانتشار الاسلام ، كما ان تلك الحروب لم تكن محدودة او مقتصرة على بلد واحد وانما كان من الممكن ان تشتعل نيرانها في كل بلد يثور فيه الصليبيون على المسلمين . وهكذا بعد ازالة اخر معقل من معاقل الصليبيين في بلاد الشام تحول نشاط الاوربيين الغربيين الى

---

(١) د . سعيد عبد الفتاح عاشور . المصدر نفسه ، ٢٨٤ .

(٢) رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ٣ / ٧٣٢ .

(٣) د . سعيد عبد الفتاح عاشور . المصدر نفسه ، ٢٨٥ .

(١) ن . م . ، ٤٦٠ .

اسبانيا واسيا الصغرى وشمال افريقية بالاضافة الى مصر والعراق وشبه الجزيرة العربية والبحر المتوسط والبحر الاحمر(٢).

ان الحروب الصليبية كانت اوسع مما كان يظن البعض بأنها مجرد حرب لاسترداد الاراضي المقدسة من المسلمين وحماية حجاج الغرب القاصدين الى تلك الاراضي – ولو كانت كذلك لاقتصرت على بلاد الشام. غير انها كانت المتنفس الذي عبر به الغرب الاوربي في العصور الوسطى عن حماسته الدينية من ناحية وعن نقمته على العرب والمسلمين من ناحية اخرى وكذلك عن رغبته في التوسع والاستعمار. وعن ثورته على اوضاعه المتردية في جميع بلدان اوربا الغربية(٣).

احتلت افريقية اهمية في مشاريع الصليبيين. وتتوضح هذه الاهمية من المشروع الذي طرحه ريموند لول حيث اوصى بموفينا بالقيام بحملة صليبية تتخذ طريق اسبانيا فشمال افريقية للوصول الى مصر والشام وذلك سنة ٧١١ هـ / ١٣١١ م وقد قام هو نفسه بمهمة التبشير في هذه البلاد ثلاث مرات. واستطاع الخلاص الا في المرة الاخيرة حيث اقام في تونس. ثم انتقل الى بجاية حيث اعدم رجماً بالحجارة سنة ٧١٦ هـ / ١٣١٦ م. وبقي شمال افريقية يحتل مكانه في تفكير بنبض دعاة الحروب الصليبية. وقد اوضح هؤلاء ان يكون الطريق الذي ينبغي ان يسلكه صليبيوا اسبانيا وارغونة والبرتغال ونافاري هو طريق شمال افريقية(١).

وتغلغل الاوربيون في محاولاتهم للتفتيش عن مناطق النفوذ في افريقية حيث تجمع اسطول مشترك اسهمت فيه صقلية بثلاث سفن وبيزا وجنوا باثني عشر سفينة. واستطاع رجال هذا الاسطول ان يستولوا سنة ٧٩٠ هـ / ١٣٨٨ م على جزيرة جربة الواقعة في خليج قابس بشمال افريقية. واستولى عليها الصليبيون دون صعوبة. وقد شجع ذلك الصليبيين على القيام بحملة صليبية اكبر ضد المسلمين في شمال افريقية. وكان لابد لجنوا من الاعتماد على مساعدة احدى الدول الاوربية الكبرى. فاتجهت الى فرنسا طالبة التعاون معها في هذا المشروع(٢).

واستأثرت تونس باطماع الاوربين في تلك الحقبة لاهمية موقعها التجاري مما جعل كثيراً من التجار الايطاليين يترددون على سوسة والمهدية وسفاقس وقابس.

---

(٢) د. سعيد عبد الفتاح عاشور. الحركة الصليبية : ٢ / ١١٧٦.

(٣) ن. م. : ١١٧٧.

(١) ن. م. :

(٢) د. سعيد عبد الفتاح عاشور. المصدر نفسه : ١١٨٠.

فضلاً عن جزيرة جربة التي استولت عليها صقلية آنئذ . ويلاحظ وجود فنادق للتجار الاوربيين في المهدية وسفاقس وقابس وجربة في اواخر العصور الوسطى .

ولعل من المفيد القول . ان المغرب العربي لم يسلم في الفترات المتأخرة من العصور الوسطى من هجمات الاوربيين . حتى قرر بعض المؤرخين ان الحروب الصليبية نقلت ميدانها من المشرق الى المغرب في القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي . وقد تزعم حركة الهجوم على المغرب في ذلك الدور الاسبانيون والبرتغاليون . فنجح الاسبانيون في احتلال اجزاء من ساحل الجزائر فحصنوها واقاموا فيها قلاعاً لهم . في حين احتل البرتغاليون اجزاء من الساحل الغربي لافريقية[١].

ونظراً للهجمات الاوربية على بلاد المغرب . نشط المغاربة في تسليح سفنهم لقطع الطريق على المراكب الاوربية وقاموا بهجمات مضادة على شواطىء البلدان الاوربية . وهي في الحقيقة لم تكن الا لوناً من الحرب الدينية من جهة ودفاعاً عن اوطانهم من جهة اخرى . ومن الاعمال البحرية للمغاربة ضد القوى الاوربية . ماقام به عروج بن يعقوب الذي عرف باسم بربروس الاول واخيه خير الدين . حيث اشتدا في مهاجمة السفن والثغور الاوربية . مما سبب ازعاجاً للاوربيين[٢].

ويبدو ان من عوامل تقارب العثمانيين والمغاربة هو تحالفهم ضد الاوربيين الصليبيين الذين اتخذوا من توجيه الحروب ضد المغاربة طابعاً دينياً واضحاً . لذلك لم يجد المغرب في نهاية الامر الا ان يلقي بنفسه في احضان الدولة العثمانية . فأستولى العثمانييون على الجزائر سنة ٩٣٦ هـ / ١٥٢٩ م ثم على تونس ٩٤١ هـ / ١٥٣٤ وبذلك انتهت تطلعات الاوربيين وتوسعهم في هذه المنطقة من العالم الاسلامي . .

ولم يقتصر ميدان الحروب الصليبية على المشرق والاراضي المقدسة بل شمل ايضاً اسبانيا . حيث اخذ الصليبيون الوافدون من انكلترة والمانيا يساهمون في فتح لشبونة . كما اشترك الصليبيون الفرنسيون في مساعدة ريموند برنجار كونت برشلونة وبروفانس ضد المسلمين . هذا في حين مد فرسان هيئة الداوية والاسبتارية الى وادي نهر ابرو بأسبانيا فضلاً عن الشام . ولم تلبث هيئة الرهبان السسترشيان ان اقامت لها مركزاً تبشيرياً في اسبانيا . حيث كونوا قوة عسكرية للدفاع عن مصالحهم من جهة ولحرب المسلمين من جهة اخرى . ثم تكاثرت بعد ذلك في اسبانيا المنظمات الدينية ذات الصبغة العسكرية . مثل هيئة القديس جوليان التي اسسها ملك ليون والتي اتخذت بعد ذلك اسم « منظمة القنطرة » نسبة الى مدينة القنطرة

---

(١) ن . م . : ١١٨٤ .

(٢) ن . م . : ١١٨٥ .

التي تقع على نهر تاجة والتي استولى عليها الصليبيون ونقلوا اليها نشاطهم(٣) والجدير بالاشارة الى ان نتيجة المعركة الصليبية كانت عكسية بالنسبة الى اسبانيا عنها في الشرق الادنى ، فبينما نجد طرد الصليبيين من الشرق بعد سقوط عكا وتصفية معاقلهم ومؤسساتهم . يقابله اخراج المسلمين من اسبانيا وتركز الاوربيين فيها وتوسعهم . وربما يوجد تعليل لهذه الظاهرة في ان المسلمين كانوا بعيدين عن قلب العالم الاسلامي ومركز حركة الجهاد . في الوقت الذي كانت اسبانيا جزء لايتجزأ عن القارة الاوربية . وكان المسيحيون فيها قريبين من مركز البابوية ومن قلب العالم المسيحي مما جعل هناك عدم تكافؤ في الكفتين(١). لذلك لم يتردد البابوية في تشجيع المنظمات الدينية التي قامت في اسبانيا بنفس الدور الذي قامت به الطوائف الدينية العسكرية مثل هيئة فرسان الاسبتارية والداوية والثيثون في الاراضي المقدسة . بل ان البابا الاسكندر الثالث والبابا انوسنت الثالث لهما الفضل في قيام اشهر منظمة دينية عسكرية عرفتها اسبانيا وهي منظمة سنتياجو Santiago (سنتياغو) . ونظراً لتعدد هذه المنظمات والجهود التي بذلتها . اشتدت حماسة الصليبيين في حرب الاندلسيين ، كما اخذ الطابع الديني يغلب على هذه الحرب ليجعل منها حرباً صليبية مقدسة لاتقل اهمية في نظر الغربيين المعاصرين عن الحروب الصليبية الدائرة في المشرق(٢).

وهكذا بدأت مرحلة جديدة في التاريخ بين المسلمين والمسيحيين الوطنيين في اسبانيا من المرجح جداً ان الصليبيين الوافدين كانوا يؤججون حدة هذا الصراع لصالحهم ولايجاد مناطق نفوذ لهم ، كما لم يعد هذا الصراع مجرد حروب محلية متفرقة بين زعماء الفريقين . وانما اصبح صراعاً عاماً شاملاً بين حضارتين متباينتين ودينيتين مختلفتين . ظلا يتقاسمان النفوذ ويتنازعان السيادة على ذلك الركن الجنوبي الغربي من اوربا طوال عدة قرون(٣).

والواقع ان البابا انوسنت الثالث الذي وصلت البابوية في عهده الى عظمتها . كان صاحب الفضل في اثارة حماسة الصليبيين في اسبانيا وتشجيع جماعات عديدة من اهالي البلاد الغربية ودفع الصليبيين الاوربيين الى عبور جبال البرانس (البرت) للمشاركة في الحرب المقدسة ضد المسلمين . ويلاحظ على اثر اعلان البابا الحرب

---

(٣) د . سعيد عبد الفتاح عاشور . أوربا العصور الوسطى : ١ / ٥٤٨ .

(١) د . سعيد عبد الفتاح عاشور . الحركة الصليبية : ٢ / ١١٩٢ .

(٢) ن . م . : ٥٤٩ .

(٣) ن . م . : ٥٤٩ .

الصليبية ضد مسلمي الاندلس اجتماع عدد كبير من فرسان اوربا في اسبانيا تحت زعامة رئيس اساقفة باريون (١).

ولعل من المفيد القول، ان الحروب التي دارت بين المسلمين والمسيحين الوطنيين في اسبانيا كان يغذيها الصليبيون الغربيون لايجاد موطيء قدم لهم في هذه المنطقة. ولذلك يمكن اعتبارها حلقة اخيرة في سلسلة الحروب الصليبية، حيث كانت البابوية تبارك جهود المسيحيين في اسبانيا والصليبيين في اوربا في حربهم ضد المسلمين، فقد اشير الى متطوعين من مختلف جنسيات غرب اوربا اشتركت في هذه الحروب منهم: السويسريين، والانكليز، والالمان وهؤلاء نزحوا الى اسبانيا للتعبير عن حماستهم الصليبية في حرب المسلمين والتفتيش عن حياة افضل هناك.

اما موقف الاتراك في اسيا الصغرى من التوسع الاوربي الصليبي، وخاصة بعد سقوط عكا وزوال دولة الصليبيين في بلاد الشام، فكان يتسم بالعداء للصليبيين والوقوف ضد اهدافهم ومشاريعهم الرامية الى غزو اسيا الصغرى لانها الطريق الذي يوصل الصليبيين الى الاراضي المقدسة، وقد شارك ملوك قبرص في مشاريع اولئك الدعاة للحرب الصليبية مشاركة فعالة، بل انهم كثيراً ما استعجلوا تنفيذها. فتألف حلف من الامبراطورية البيزنطية ومملكة قبرص وفرسان الاسبتارية في جزيرة رودس وغيرها من القوى المسيحية والصليبية في الغرب، ضد الاتراك واستطاعت سفن الصليبيين ان تطارد سفن الاتراك في بحر ايجة فضلاً عن تدمير قلعة ازمير(٢).

وبظهور العثمانيين سنة ٧٢٧ هـ / ١٣٢٦ م في آسيا الصغرى، كقوة اسلامية كبرى، دخلت حركة التوسع الاوربي الصليبي مرحلة جديدة تتميز بالتراجع الاوربي واعتبار نشاط العثمانيين وحركتهم التوسعية على حساب الدولة البيزنطية وغيرها من القوى المسيحية في شرق اوربا ذو مسحة دينية خطيرة ينبغي الوقوف ضدها. فتألفت حملات صليبية من الاوربيين لحماية شرق اوربا من خطر حركة التوسع الاسلامية على حد زعمهم.

ونظرا للنجاحات التي احرزها العثمانيون في تقدمهم نحو القارة الاوربية استيلائهم على غاليبولي وأدرنة والصرب وبلغاريا واحاطتهم بالقسطنطينية فان فزع ساد الغرب الاوربي مما حملهم على اعلان الحرب الصليبية ضد العثمانيين

---

(١) Painter. AHistory of the PaPa Cy. P. 472.

(٢) د. سعيد عبد الفتاح عاشور. الحركة الصليبية: ٢ / ١١٨٧.

المسلمين ـ ولم تلبث ان اخذت الاستعدادت تجري للحملة الصليبية المنتظرة ، فأبدت فرنسا استعدادها للمساهمة في تلك الحملة واشترك الالمان كذلك واعقبهم الانكليز والهنغاريون وامراء ولاشيا وترانسلفانيا ودوقات برجنديا واورليان واعداد كبيرة من المتطوعين من بولندا وبوهيميا وايطاليا واسبانيا . واجتمعت هذه الجيوش في بود «Budd» سنة ٧٩٩ هـ / ١٣٩٦ حيث بلغت الجيوش الصليبية اكثر من مائة الف مقاتل . وهو اكبر عدد من الصليبيين اشترك في موقعة واحدة مع المسلمين في تاريخ الحروب الصليبية(٢).

وفي موقعة نيوبوليس التي دارت بين العثمانيين والصليبيين ، احرز العثمانيون نصراً مؤزراً ، فانها الجيش الصليبي الضخم في سرعة مذهلة ولم يقوى على الصمود امام العثمانيين . ان حملة نيقوبوليس هي اخر حملة صليبية كبيرة ذات صفة دولية . ولم يلبث العثمانيون ان شددوا حصارهم على القسطنطينية من جديد ، فأحس الامبراطور البيزنطي قسطنطين الحادي عشر بخطورة الاستعدادات التي كان يبذلها العثمانيون على مدينته فاستجدى معونة الغرب واوضح للبابوية وملوك الغرب الاوربي عاقبة استيلاء المسلمين على القسطنطينية غير ان تيار النهضة الاوربية اخذ يستأثر بأنتباه الاوربيين جميعاً ، مما لم يعد لدى الغرب الاوربي متسعاً للتفكير بأمر المسلمين(٣) وحربهم . وهكذا سقطت القسطنطينية في ايدي العثمانيين سنة ٨٥٧ هـ / ١٤٥٣ م فكان بداية لمرحلة جديدة في التاريخ ، حيث افاق الغرب الاوربي واهتزت البابوية والعالم المسيحي الغربي لتلك الكارثة ، وحاول البابا بيوس الثاني سنة ٨٦٨ هـ / ١٤٦٣ م ، ان يضع مشروعاً لحملة صليبية كبرى على طراز الحملات الصليبية التاريخية . ولكن الناس في الغرب الاوربي لن ينساقوا وراء البابوية ورجال الدين انسياقاً اعمى لتحقيق هدف لم تعد له قيمة في نظرهم . لذلك صمم البابا على القيام بنفسه بالحملة الصليبية وان يمولها ويتولى قيادتها ، ولم يكد يبلغ « انكونا » حتى توفي فانفض عنه بحارة سفنه وانتهت الحملة الصليبية المزعومة الى انهيار تام(١).

---

(١) وفي تلك الاثناء نفذ الى البحر الاسود اسطول يسيره فرسان الاسبتارية بقيادة مقدمهم فيليبرت نايإك والبنادقة والجنويون فرساً قبالة نهر الدانوب (رنسيمان . تاريخ الحروب الصليبية ، ٣ / ٧٦٤) . د . سعيد عبد الفتاح عاشور . المصدر نفسه ، ١١٩٠ .

(٢) تحولت كنيسة ايا صوفيا الى جامع كبير نقشت على جدرانه آيات القرآن الكريم واسماء الخلفاء الراشدين (د . سعيد عبد الفتاح عاشور . المصدر نفسه ، ١١٩٢)

(٣) رنسيمان . المصدر نفسه ، ٧٧٩ ـ ٧٨٠ . د . سعيد عبد الفتاح عاشور . المصدر نفسه ، ١١٩٢ .

(١) رنسيمان المصدر نفسه ، ٧٨٠

ويذهب الاستاذ رنسيمان الى القول ، انه منذ اربعة قرون أرسل البابا ايربان الثاني بدعوته للحرب الصليبية ، الالوف من الرجال ليخاطروا بحياتهم اما الآن فان كل ما استطاع البابا بيوس الثاني الذي اتخذ الصليب ان يحشده لم يتجاوز عدداً قليلاً من المأجورين ، الذين تخلوا عن واجبهم ، قبل ان تتحرك الحملة ... لقد ماتت الروح الصليبية(٢).

ويمكن ان نستخلص مما ورد ، ان النشاط الاوربي الصليبي ضد المسلمين ، قد تحول بعد سقوط عكا وطرد الصليبيين من بلاد الشام عموماً ومن الاراضي المقدسة بصورة خاصة ـ الى آسيا الصغرى وشمال افريقية واسبانيا ، فضلاً عن مناطق جنوب اوربا وشمالها ، وقد استمر هذا النشاط متخذاً طابعاً اخر ، وهو الطابع الاقتصادي التجاري والاستيطاني واستنزاف الثروات والحصول على الموارد ، لذلك راح البابوات يصدرون اوامرهم بمقاطعة التجارة مع المسلمين ويحثون على استغلال المواقع المهمة في العالم لتكريس الافكار الصليبية وتأجيج حماسة المسيحيين في غرب اوربا . وكان مما جرى استغلال موقع جزيرة قبرص واثارة حماسة ملوكها من آل لوزجنان في تنفيذ بعض اركان سياسة البابوات هذه .

كما ان النشاط الاقتصادي الذي اثارته الحروب الصليبية ، لم يقتصر على المدن الايطالية وحدها ، بل اسهم فيه كثير من المدن في غرب اوربا

« قائمة المصادر والمراجع »

أولاً ـ أهم المصادر العربية مرتبة حسب حروف الهجاء : ـ

(١) ابن الأثير ، عز الدين أبو الحسن الشيباني (ت : ٦٣٠ هـ)
الكامل في التأريخ (بيروت : ١٩٦٦) .

(٢) ابن اياس ، محمد بن احمد (ت : ٩٣٠ هـ)
بدائع الزهور في وقائع الدهور (القاهرة : ١٣١١ هـ) .

(٣) ابن تغرى بردى ، جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت ٨٧٤ هـ)
النجوم الزاهرة في اخبار سلوك مصر والقاهرة
(القاهرة : ١٩٣٥) .

(٤) ابن جبير ، ابو الحسن محمد بن محمد الكناني (ت : ٦١٤)
رحلة ابن جبير (ليدن : ١٩٠٧ وبيروت ١٩٦٤) .

(٥) ابن الجوزي ، ابو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد
(ت : ٥٩٧ هـ) المنتظم في تأريخ الملوك والأمم
(حيدر آباد الدكن : ١٣٥٨ هـ) .

(٦) ابن خلدون ، عبد الرحمن (ت : ٨٠٨ هـ)
تأريخ ابن خلدون المسمى (العبر وديوان
المبتدأ واخبار من عاصرهم من ذوي السلطان
الأكبر (بيروت : ١٩٦١) .

(٧) ابن خلدون ، السابق
المقدمة (طبعة بيروت : ١٩٧١) .

(٨) ابن خلكان ، شمس الدين احمد بن محمد (ت : ٦٨١ هـ)
وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان ، تحقيق محمد
محيي الدين عبد الحميد (القاهرة : ١٩٤٩) .

(٩) ابن شاهنشاه ، الملك المنصور محمد بن عمر الايوبي
(ت : ٦١٧ هـ) مضمار الحقائق وسر الخلائق ،
تحقيق د . حسن حبش (القاهرة : ١٩٦٨) .

(١٠) ابن شداد ، بهاء الدين يوسف بن رافع (ت : ٦٣٢ هـ)
النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية
(سيرة صلاح الدين) تحقيق د . جمال
الدين الشيال (القاهرة : ١٩٦٤) .
(١١) ابن شداد ، عز الدين أبو عبدالله محمد
بن علي (ت : ٦٨٤ هـ) .
الاعلاق الخطيرة بذكر امراء الشام والجزيرة
قسم مدينة دمشق ، ت ١ ، ج ٢ ، تحقيق
سامي الدهان (دمشق : ١٩٥٦) .
(١٢) ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة بذكر امراء الشام
والجزيرة قسم لبنان ، الاردن وفلسطين ت ٢ ، ج ٢ ،
تحقيق سامي الدهان (دمشق : ١٩٦٢) .
(١٣) الاصفهاني ، عماد الدين ابن عبدالله محمد
بن محمد (ت : ٥٩٧ هـ) .
خريدة القصر وجريدة العصر ، تحقيق
د . شكري فيصل (دمشق ١٩٥٥) .
(١٤) الاصفهاني ، كتاب الفتح القسي في الفتح القدسي
(ليدن : ١٨٨٧ م) .
(١٥) ابن عبد الحق ، صفي الدين عبد المؤمن (ت : ٧٣٩ هـ)
مراصد الاطلاع على اسماء الامكنة والبقاع
تحقيق علي محمد البجاوي (القاهرة : ١٩٥٤ م) .
(١٦) ابن العديم ، كمال الدين بن القاسم ـ عمر ـ
(ت : ٦٦٠ هـ) زبدة الحلب في تاريخ حلب ،
تحقيق سامي الدهان (بيروت : ١٩٦٨) .
(١٧) ابن العماد ، عبد الحي الحنبلي (ت : ١٠٨٩ هـ)
شذرات الذهب في اخبار من ذهب
(بيروت : د / ت) .
(١٨) ابن الفرات ، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم
(ت : ٨٠٧ هـ) .
تأريخ ابن الفرات ، تحقيق محمد
الشماع (بصرة : ١٩٦٧ م) .

(١٩) ابن القلانسي ، ابو يعلي حمزة (ت : ٥٥٥ هـ)
ذيل تاريخ دمشق ، تحقيق آمدروز
(القاهرة : ١٩٠٨) .
(٢٠) ابن الكازوني ، علي بن محمد البغدادي (ت ٦٩٧ هـ)
مختصر التاريخ من أول الزمان الى
منتهى دولة بني العباس ، تحقيق د .
مصطفى جواد (بغداد : ١٩٧٠) .
(٢١) ابن كثير ، عماد الدين أبي الفداء اسماعيل
(ت ٧٧٤ هـ) البداية والنهاية
(القاهرة : ١٩٣٢) .
(٢٢) ابن منقذ ، اسامة بن مرشد الشيزري (ت : ٥٨٤ هـ)
كتاب الاعتبار ، حرره فيليب حتي
(برنستون : ١٩٣٠) .
(٢٣) ابن ميسر ، محمد بن علي بن يوسف
(ت : ٦٧٧ هـ) اخبار مصر ، تحقيق هنري
ماسيه (القاهرة : ١٩١٩) .
(٢٤) ابن واصل ، جمال الدين محمد بن سالم (ت : ٦٩٧ هـ)
مفرج الكروب في اخبار ابن ايوب ،تحقيق
جمال الدين الشيال (القاهرة : ١٩٥٧)
(٢٥) ابن الوردي ، ابو الحفص زين الدين عمر
(ت : ٧٤٩ هـ) تاريخ ابن الوردي
(النجف : ١٩٦٩) .
(٢٦) ابو شامة ، شهاب الدين ابو محمد بن
عبد الرحمن (ت : ٦٦٥ هـ)
الروضتين في اخبار الدولتين النورية
والصلاحية (القاهرة : ١٢٨٧ ــ ١٢٨٨ هـ) .
(٢٧) ابو الفدا ، عماد الدين اسماعيل بن نور الدين
(ت : ٧٣٢ هـ)
المختصر في اخبار البشر (بيروت : د / ت)

(٢٨) البنداري . قوام الدين ابو الفتح علي بن محمد (ت : ٦٤٣ هـ) .
تاريخ دولة السلجوق وهو مختصر لكتاب « تواريخ آل سلجوق » .
للعماد الاصفهاني (القاهرة : ١٣١٨ هـ) .

(٢٩) البنداري . سنا البرق الشامي وهو مختصر لكتاب « البرق الشامي » للعماد الاصفهاني تحقيق د . رمضان شنن (بيروت : ١٩٧١) .

(٣٠) الدواداري . ابو بكر بن عبدالله بن ايبك (ت : حوالي سنة ٧٣٥ هـ)
كنز الدرر وجامع الغرر . تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور (القاهرة : ١٩٧٢ م) .

(٣١) سبط ابن الجوزي . شمس الدين بن المظفر يوسف (ت : ٦٥٤ هـ)
مرآة الزمان في تاريخ الايمان . ق ١ ، ج ٨ (حيدر آباد الدكن : ١٩٥١) .

(٣٢) العليمي . عبد الرحمن الجبري العمري (ت : ٩٢٧ هـ)
الانس الجليل بتاريخ القديس والخليل (النجف : ١٣٨٨ هـ) .

(٣٣) القلقشندي . ابو العباس احمد بن علي (ت : ٨٢١ هـ)
صبح الاعشى في صناعة الانشا (القاهرة ١٩٦٣) .

(٣٤) القلقشندي . مآثر الانافة في معالم الخلافة . تحقيق عبد الستار احمد فراج (كويت : ١٩٦٤) .

(٣٥) الكرماني . احمد حميد الدين (من مؤرخي ق ٥ هـ)
تجارب الامم وتعاقب الهمم (القاهرة : ١٢٣٤ م) .

(٣٦) المقريزي . تقي الدين احمد بن علي (ت : ٨٤٥ هـ)
المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار (القاهرة ١٣٢٤ هـ / ١٩١١ م) .

(٣٧) المقريزي . السلوك لمعرفة دول الملوك . تحقيق محمد مصطفى زيادة (القاهرة : ١٩٣٩) .

(٣٨٠) اليافعي ، ابو محمد عبدالله بن اسعد .
(ت ؛ ٧٦٨ هـ) مرآة الجنان وعبرة اليقظان
في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان
(حيدر آباد الدكن ؛ ١٩٧٠) .

ثانياً ـ المراجع الحديثة مرتبة حسب حروف الهجاء

(٣٩) باركر ، ارنست
الخروب الصليبية ، ترجمة السيد الباز
العريني (بيروت ؛ د / ت) .

(٤٤) بدوي ، احمد
الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية
في مصر والشام (القاهرة ؛ د / ت) .

(٤١) بدوي . الحياة الادبية في عصر الخروب الصليبية
بمصر والشام (القاهرة ؛ د / ت) .

(٤٢) بدوي . صلاح الدين بين الشعراء عصره وكتابه
القاهرة ؛ ١٩٦٠) .

(٤٣) بيومي ، علي
قيام الدولة الايوبية في مصر
(القاهرة ؛ ١٩٥٤) .

(٤٤) توفيق ، عمر كمال
تاريخ الامبراطورية البيزنطية (القاهرة ؛ ١٩٧٠) .

(٤٥) جب ، هاملتون آ . ر
صلاح الدين الايوبي ، تحرير يوسف ـ ايبش
(بيروت ؛ ١٩٧٣) .

(٤٦) حبشي ، حسن
نور الدين والصليبيون (القاهرة ؛ ١٩٤٨) .

(٤٧) حسن . حسن ابراهيم وعلي ابراهيم حسن
الفاطميون في مصر (القاهرة ؛ ١٩٤٢) .

حسن وافية . النظم الاسلامية (القاهرة ؛ ١٩٧٠) .

(٤٨) خليل ، عماد الدين
أ ـ امارة بني ارتق ، وهي رسالة معدة
لنيل درجة الدكتوراه باشراف الدكتور
حسن حبشي (القاهرة : ١٩٦٨) . غير منشورة .
ب ـ عماد الدين زنكي (بيروت :
(٤٩) رانسيمان ، ستيفن
تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة السيد
الباز العريني (بيروت) .
(٥٠) رانسيمان ، المدينة البيزنطية ـ الحروب الصليبية ـ
ترجمة : د . صالح احمد العلي (بغداد : ١٩٥٦) .
(٥١) زيادة ، محمد مصطفى
حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته
في المنصورة (القاهرة : ١٩٦١) .
(٥٢) السامر ، فيصل
الدولة الحمدانية في الموصل وحلب جـ ١ ـ ٢
(بغداد : ١٩٧٣) .
(٥٣) سرور ، محمد جمال الدين
مصر في عصر الدولة الفاطمية (القاهرة : ١٩٦٠) .
(٥٤) سعداوي ، نظير حسان
التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين
(القاهرة : ١٩٥٧) .
(٥٥) عاشور ، سعيد عبد الفتاح
الحركة الصليبية صفحة مشرقة في تاريخ
الجهاد العربي في العصور الوسطى
(القاهرة : ١٩٦٣) .
(٥٦) عاشور ، اوربا في العصور الوسطى ، التاريخ السياسي
(القاهرة : ١٩٦١) .
(٥٧) عاشور ، قبرص والحروب الصليبية (القاهرة : ١٩٥٧) .
(٥٨) عاشور ، الناصر صلاح الدين يوسف بن ايوب
سلسلة اعلام العرب (٤١)
(القاهرة : ١٩٦٥) .

(٥٩) عثمان . فتحي
الحدود الاسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري الكتاب الأول والقاهرة : د / ت) .

(٦٠) العريني . السيد الباز
الشرق الادنى في العصور الوسطى القسم الأول (الاوربيون) (بيروت : ١٩٦٧) .

(٦١) العريني المماليك (بيروت : ١٩٦٧) .

(٦٢) القزاز . محمد صالح داؤد
الحياة السياسية في العصر العباسي الأخير (النجف : ١٩٧١) .

(٦٣) كلاري . روبرت
فتح القسطنطينية على يد الصليبية . ترجمها عن الفرنسية وقدم لها د . حسن حبشي (القاهرة : ١٩٦٤) .

(٦٤) لامب . هارولد
شعلة الاسلام . ترجمة محمود عبدالله (بغداد : ١٩٦٧) .

(٦٥) ماجد . عبد المنعم
ظهور خلافة الفاطميين في مصر الاسكندرية : ١٩٦٨) .

ماجد نظم الفاطميين ورسومهم في مصر والقاهرة (١٩٥٣ ـ ١٩٥٥) .

(٦٦) المطوي . محمد العروسي
الحروب الصليبية في المشرق والمغرب (تونس : ١٩٥٤) .

(٦٧) المعاضيدي . خاشع عيادة
الحياة السياسية في بلاد الشام خلال العصر الفاطمي (بغداد : ١٩٧٥) .

(٦٨) مؤنس ، حسين
الوزارة في العصر الفاطمي (القاهرة ، ١٩٧٠) .
(٦٩) نوري ، دريد عبد القادر
سياسة صلاح الدين الايوبي في بلاد مصر والشام والجزيرة ٥٧٠ ـ ٥٨٩ / ١١٧٤ ـ ١١٩٣ م . (بغداد ، ١٩٧٦) .

ثالثاً ـ المراجع الاجنبية

(70) Archer (T.) Kingsford (C.):
The Crusades, London, 1894.

(71) Browne (Edward Gr.):
Alitrary history of persia Vol. II Cambridge, 1951.

(72) Cahen (Claude):
La syrie du nord alepoque des croisadeset La principaute fanque dantioche, Paris, 1940.

(73) Champdor (Albert):
Saladin Le plus purheros de Iislam, Editions Albin Micher, Paris, 1956.

(74) Daniel (Norman):
Mislam on the west (the Making of an Image), Edinburgh, 1966.

(75) Eliseeff (Nikita):
Nur Ad–Din 1118–1174, Tome III Damas 1967.

(76) Enciyclopedia de L'Islam: (Art. Hashishiyya) Vol. III, Paris, 1971
(76) Enciyclopedia de L'Islam: (Art. Hashishiyya) Vol. III, Paris, 1971.

(77) Encyclopedia of Islam Vol, İ, (art, Al–Bathaniyya) London, 1960.

(78) Grousset (Rene).
Histoire des Croisdeset du royaume frame de Jerusalem, Tome II, Paris, 1935.

(79) Hodgson (Marshall G.S.)3G.S):
The Order of Assassins, The struggle of the early Nizair Islam–lis Aganist Islamic world (london: 1955).

(80) King (E.J.):
The Knights Hospitallers in the Holy land (London: 1931).

(81) Lane pool (S.):
A. A History of Egypt in the middle ages (London: 1968).
B. Saladin and the fall of the kingdom of Juruslem (London: 1898).

(82) Rosebault (C.J):
Saladin prince of Chivalrg (London: 1930)

(83) Setton (K.M.):
A History of theCrusades (2vols) pennsyl vanis, 1958.

(84) Sivan (E.)
L'Islam et La Croisade Ideologie at propagande dans les Reactons Musulmanes aux Croisades (Paris: 1968).

(85) Stevenson (W.R.):
The Crusaders in the East (Cambridge: 1907).

الفهرســــــت

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة
الفصل الرابع ـ نتائج الحروب الصليبية	٢٥٥
(١) النتائج السياسية والاقتصادية والاجتماعية في اوربا	٢٥٥
(٢) نتائج الحروب الصليبية على العالم الاسلامي	٢٦٥
(٣) تحول النشاط الاوربي الى التوسع في مناطق اخرى	٢٧٣
٣٢٩	
قائمة بأهم المصادر والمراجع المعتمدة	٢٩١

ملحق رقم ـ ١ ـ

ثم دخلت سنة إحدى وتسعين وأربعمائة

ذكر ملك الفرنج مدينة أنطاكية

كان ابتداء ظهور دولة الفرنج . واشتداد أمرهم . وخروجهم إلى بلاد الإسلام ، واستيلائهم على بعضها ، سنة ثمان وسبعين وأربعمائة . فملكوا مدينة طُلَيْطُلَة وغيرَها من بلاد الأندلس ، وقد تقدّم ذكر ذلك .

ثم قصدوا سنة أربع وثمانين وأربعمائة جزيرة صِقِلِّية وملكوها . وقد ذكرتُهُ أيضاً . وتطرّقوا إلى أطراف إفريقية . فملكوا منها شيئاً وأُخذ منهم ، ثم ملكوا غيره على ما تراه .

فلمّا كان سنة تسعين وأربعمائة خرجوا إلى بلاد الشام . وكان سبب خروجهم أنّ ملكهم بَردويل جمع جمعاً كثيراً من الفرنج . وكان نسيب رُجار الفرنجيّ الذي ملك صقلّية . فأرسل إلى رُجار يقول له : قد جمعتُ جمعاً كثيراً ، وأنا واصل إليك ، وسائر مِنْ عندك إلى إفريقية أفتحُها . وأكون مجاوراً لك .

فجمع رُجار أصحابه ، واستشارهم في ذلك . وقالوا : وحقّ الإنجيل هذا جيّد لنا ولهم ، وتصبح البلاد بلاد النصرانيّة . فرفع رجله وحبق حبقةً عظيمة[1] وقال : وحقّ ديني ، هذه خير من كلامكم ! قالوا : وكيف ذلك ؟ قال : إذا وصلوا إليّ أحتاج إلى كلفة كثيرة ، ومراكب تحملهم إلى إفريقية ، وعساكر

---

1) B. قوية .

مِنْ عندي أيضاً . فإن فتحوا البلاد كانت لهم ، وصارت المؤونة لهم من صِقِلّية ، وينقطع عنّي ما يصل من المال من ثمن الغلاّت كلّ سنة . وإن لم يُفلحوا رجعوا إلى بلادي . وتأذّيتُ بهم . ويقول تميم غدرتَ بي . ونقضتَ عهدي . وتنقطع الوصلة والأسفار بيننا ، وبلاد إفريقية باقية لنا ، متى وجدنا قوّة أخذناها .

وأحضر رسوله . وقال له : إذا عزمتم على جهاد المسلمين . فأفضل ذلك[1] فتح بيت المقدس ، تخلّصونه من أيديهم ويكون لكم الفخر . وأمّا إفريقية فبيني وبين أهلها أيمان وعهود .

فتجهّزوا ، وخرجوا إلى الشام . وقيل : إنّ أصحاب مصر من العلويّين ، لمّا رأوا قوّة الدولة السلجوقيّة . وتمكّنها واستيلاءها على بلاد الشام إلى غزّة ، ولم يبق بينهم وبين مصر ولاية أخرى تمنعهم ، ودخول أقسيس إلى مصر وحصرها . خافوا[١] . وأرسلوا إلى الفرنج يدعونهم إلى الخروج إلى الشام ليملكوه ، ويكونوا بينهم وبين المسلمين ، والله أعلم[2] .

فلمّا عزم الفرنج على قصد الشام . ساروا إلى القُسطنطينيّة ليعبروا المَجاز إلى بلاد المسلمين ، ويسيروا في البرّ . فيكون أسهل عليهم . فلمّا وصلوا إليها منعهم ملك الروم من الاجتياز ببلاده . وقال : لا أمكّنكم من العبور إلى بلاد الإسلام حتّى تحلفوا[٢] لي أنّكم تسلّمون إليّ أنطاكية ، وكان قصده [أن] يحثّهم على الخروج إلى بلاد الإسلام . ظنّاً منه أنّهم[٣] أتراك لا يُبقون منهم أحداً . لما رأى من صرامتهم وملكهم البلاد .

---

1) B. فاقصد بذلك　　2) Om. B.

---

١ فخافوا .
٢ تحلفون .
٣ أن .

فأجابوه إلى ذلك، وعبروا الخليج عند القُسطنطينيّة سنة تسعين [وأربعمائة] . ووصلوا إلى بلاد قَلْج أرسلان بن سليمان بن قُتلمش ، وهي قُونيَةُ وغيرها ، فلمّا وصلوا إليها لقيهم قَلْج أرسلان في جموعه . ومنعهم ، فقاتلوه فهزموه في رجب سنة تسعين [وأربعمائة] ، واجتازوا في بلاده إلى بلاد ابن الأرمنيّ ، فسلكوها . وخرجوا إلى أنطاكية فحصروها .

ولمّا سمع صاحبها باغي[1] سيان بتوجّههم إليها ، خاف من النصارى الذين بها ، فأخرج المسلمين من أهلها ، ليس معهم غيرهم ، وأمرهم بحفر الخندق ، ثم أخرج من الغد النصارى لعمل الخندق أيضاً ، ليس معهم مسلم ، فعملوا فيه إلى العصر . فلمّا أرادوا دخول البلد منعهم ، وقال لهم : أنطاكية لكم تهبونها ١ لي حتّى أنظر ما يكون منّا ومن الفرنج ؛ فقالوا له : من يحفظ أبناءنا ونساءنا ؟ فقال : أنا أخلفكم فيهم ؛ فأمسكوا ، وأقاموا في عسكر الفرنج ، فحصروها تسعة أشهر . وظهر من شجاعة باغي سيان . وجودة رأيه . وحزمه ، واحتياطه ما لم يشاهَد من غيره ، فهلك أكثر الفرنج ، موتاً ، ولو بقوا على كثرتهم التي خرجوا فيها لطبّقوا بلاد الإسلام[2] ، وحفظ باغي سيان أهل نصارى أنطاكية الذين أخرجهم . وكفّ الأيدي المتطرّقة إليهم .

فلمّا طال مقام الفرنج على أنطاكية راسلوا أحد المستحفظين للأبراج ، وهو زرّادٌ يُعرف برُوزَبه ، وبذلوا له مالاً وأقطاعاً . وكان يتولّى حفظ برج يلي الوادي ، وهو مبنيّ على شبّاك في الوادي ، فلمّا تقرّر الأمر بينهم وبين هذا الملعون الزرّاد ، جاؤوا إلى الشبّاك ففتحوه ودخلوا منه ، وصعد جماعة كثيرة بالحبال ، فلمّا زادت عدّتهم على خمسمائة ضربوا البوق ، وذلك

---

1) C. P. ياغي .   2) Om. B.

---

١ تهبوها .

عند السحَر . وقد تعب الناس من كثرة السهر والحراسة . فاستيقظ باغي سيان ، فسأل عن الحال . فقيل : إنّ هذا البوق من القلعة . ولا شكّ أنّها قد مُلكت ، ولم يكن من القلعة ، وإنّما كان من ذلك البرج ، فدخله الرعب . وفتح باب البلد . وخرج هارباً في ثلاثين غلاماً ، على وجهه[1] . فجاء نائبه في حفظ البلد ، فسأل عنه . فقيل إنّه هرب . فخرج من باب آخر هارباً . وكان ذلك معونة للفرنج . ولو ثبت ساعةً لهلكوا .

ثمّ إنّ الفرنج دخلوا البلد من الباب . ونهبوه . وقتلوا من فيه من المسلمين . وذلك في جمادى الأولى .

وأمّا باغي سيان فإنّه لمّا طلع عليه النهار رجع إليه عقله . وكان كالوَهْان[3] . فرأى نفسه وقد قطع عدّة فراسخ . فقال لمن معه : أين أنا ؟ فقيل : على أربعة فراسخ من أنطاكية . فندم كيف خلص سالماً . ولم يقاتل حتّى يزيلهم عن البلد أو يُقتل . وجعل يتلهّف ، ويسترجع على ترك أهله وأولاده والمسلمين . فلشدّة ما لحقه سقَط عن فرسه مَغْشيّاً عليه . فلمّا سقط إلى الأرض أراد أصحابه أن يُركبوه . فلم يكن فيه مُسْكة [فإنّه كان] قد قارب الموت فتركوه وساروا عنه . واجتاز به إنسان أرمنيّ كان يقطع الحطب ، وهو بآخر رمق . فقتله وأخذ رأسه وحمله إلى الفرنج بأنطاكية .

وكان الفرنج قد كاتبوا صاحب حلب . ودمشق . بأنّنا لا[4] نقصد غير البلاد التي كانت بيد الروم . لا نطلب سواها ؛ مكراً منهم وخديعةً ، حتّى لا يساعدوا صاحب أنطاكية .

1) Om. B. 2) B. لم يملكوه . 3) B. كالرهان .

4) B. add. نأخذ ولا .

ذكر مسير المسلمين إلى الفرنج وما كان منهم

لمّا سمع قوام الدولة كربوقا بحال الفرنج ، وملكهم أنطاكية . جمع العساكر وسار إلى الشام . وأقام بمَرْج دابق . واجتمعت معه عساكر الشام . تُركها وعربها سوى من كان بحلب ، فاجتمع معه دُقاق بن تُتُش وطُغتكين[1] أتابك . وجناح الدولة . صاحب حمص ، وأرسلان تاش . صاحب سنجار ، وسليمان بن أرتُق ، وغيرهم من الأمراء ممّن ليس مثلهم . فلمّا سمعت الفرنج عظمت المصيبة عليهم ، وخافوا لما هم فيه من الوَهْن . وقلّة الأقوات عندهم ، وسار المسلمون . فنازلوهم على أنطاكية . وأساء كربوقا السيرة ، فيمن معه من المسلمين . وأغضب الأمراء[١] وتكبّر عليهم ظنّاً منه أنّهم يقيمون معه على هذه الحال . فأغضبهم ذلك ، وأضمروا له في أنفسهم الغدر . إذا كان قتال ، وعزموا على إسلامه عند المصدوقة[2] .

وأقام الفرنج بأنطاكية . بعد أن ملكوها ، اثني[3] عشر يوماً ليس لهم ما يأكلونه . وتقوّت الأقوياء بدوابّهم ، والضعفاء بالميتة وورق الشجر . فلمّا رأوا ذلك أرسلوا إلى كربوقا يطلبون منه الأمان ليخرجوا من البلد . فلم يعطهم ما طلبوا . وقال : لا تخرجون[٢] إلاّ بالسيف .

وكان معهم من الملوك بردويل ، وصَنجيل . وكُندفري . والقُمّص .

---

1) Variat hujus nominis scriptura, jam طغتكين , jam طغدكين .

2) B. المصدر .   3) B. ثلاثة .

---

١ الآراء .

٢ تخرجوا .

صاحب الرُّها ، وبَيْمُنت[1] ، صاحب أنطاكية ، وهو « المقدّم عليهم[2] .
وكان معهم راهب مُطاع فيهم ، وكان داهية من الرجال . فقال لهم : إنّ المسيح ، عليه السّلام ، كان له حربة مدفونة بالقسيان الذي بأنطاكية . وهو بناء عظيم . فإن وجدتموها فإنّكم تظفرون ، وإن لم تجدوها فالهلاك متحقّق .

وكان قد دفن قبل ذلك حربةً في مكان فيه ، وعفّى[١] أثرها . وأمرهم بالصوم والتوبة . ففعلوا ذلك ثلاثة أيّام ، فلمّا كان اليوم الرابع أدخلهم الموضع جميعهم ، ومعهم عامّتهم ، والصُّنّاع منهم ، وحفروا في جميع الأماكن[٢] فوجدوها كما ذكر ، فقال لهم : أبشروا بالظفر ؛ فخرجوا في اليوم الخامس من الباب متفرّقين من خمسة ، وستّة ، ونحو ذلك . فقال المسلمون لكربوقا : ينبغي أن تقف على الباب ، فنقتل كلّ من يخرج . فإنّ أمرهم الآن ، وهم متفرّقون ، سهل . فقال : لا تفعلوا ! أمهلوهم حتّى يتكامل خروجهم فنقتلهم . ولم يمكّن من معاجلتهم[3] ؛ فقتل قوم من المسلمين جماعة من الخارجين ، فجاء إليهم هو بنفسه ، ومنعهم ، ونهاهم .

فلمّا تكامل خروج الفرنج ، ولم يبق بأنطاكية أحد منهم ، ضربوا مصافّاً عظيماً ، فولّى المسلمون منهزمين ، لما عاملهم به كربوقا أوّلاً من الاستهانة بهم ، والإعراض عنهم ، وثانياً من منعهم عن قتل الفرنج . وتمّت الهزيمة عليهم ، ولم يضرب أحد منهم بسيف ، ولا طعن برمح ، ولا رمى بسهم ، وآخر من انهزم سُقمان بن أُرتُق ، وجناح الدولة ، لأنّهما كانا في الكمين ، وانهزم كربوقا معهم . فلمّا رأى الفرنج ذلك ظنّوه مكيدة ، إذ لم يجرِ قتال يُنهزم من مثله ،

---

1) Codd. سمنت .   2) B. مقدم العسكر .   3) B. مقاتلتهم .

---

١ وعفا .
٢ الامكان .

وخافوا أن يتبعوهم . وثبت جماعة من المجاهدين ، وقاتلوا حِسبةً . وطلباً للشهادة ، فقتل الفرنج منهم ألوفاً . وغنموا ما في العسكر من الأقوات والأموال والأثاث والدوابّ والأسلحة ، فصلحتْ حالهم ؛ وعادت إليهم قوّتهم .

ذكر ملك الفرنج معرّة النُّعمان

لمّا فعل الفرنج بالمسلمين ما فعلوا ساروا إلى مَعَرّة النّعمان . فنازلوها ، وحصروها ، وقاتلهم أهلُها قتالاً شديداً . ورأى الفرنج منهم شدّةً ونكاية ، ولقوا منهم الجدّ في حربهم . والاجتهاد في قتالهم . فعملوا عند ذلك برجاً من خشب يوازي سور المدينة . ووقع القتال عليه . فلم يضرّ المسلمين ذلك . فلمّا كان الليل خاف قوم من المسلمين . وتداخلهم الفشل والهلع . وظنّوا أنّهم إذا تحصّنوا ببعض الدور الكبار امتنعوا بها ؛ فنزلوا من السور وأخلوا الموضع الذي كانوا يحفظونه ؛ فرآهم طائفة أخرى ؛ ففعلوا كفعلهم ، فخلا مكانهم أيضاً من السور .

ه ولم تزل تتبع طائفة منهم التي تليها في النزول ؛ حتّى خلا السور ، فصعد الفرنج إليه على السلاليم ، فلمّا علَوه تحيّر المسلمون[1] ، ودخلوا دورهم ؛ فوضع الفرنج فيهم السيف ثلاثة أيّام ؛ فقتلوا ما يزيد على مائة ألف ؛ وسبوا السبي الكثير ، وملكوه ، وأقاموا أربعين يوماً . وساروا إلى عَرْقَةَ فحصروها أربعة أشهر ، ونقبوا سورها عدّة نقوب . فلم يقدروا عليها ، وراسلهم مُنقِذ، صاحب شَيْزَر ، فصالحهم عليها ، وساروا إلى حِمص وحصروها ، فصالحهم صاحبها جناح الدولة ، وخرجوا على طريق النواقير إلى عكّا ، فلم يقدروا عليها .

ثم دخلت سنة ثلاث وخمسمائة

ذكر ملك الفرنج طرابلس وبيروت من الشام

في هذه السنة ، حادي عشر ذي الحجّة ، ملك الفرنج طرابلس .

وسبب ذلك : أنّ طرابلس كانت قد صارت في حكم صاحب مصر ونائبه فيها . والمدد يأتي إليها منه ، وقد ذكرنا ذلك سنة إحدى وخمسمائة . فلمّا كانت هذه السنة ، أوّل شعبان ، وصل أسطول كبير من بلد الفرنج في البحر ، ومقدّمهم قمّص كبير اسمه ريمند بن صنجيل ومراكبه مشحونة بالرجال ، والسلاح ، والميرة ، فنزل على طرابلس ، وكان نازلاً عليها قبله السرداني ابن أُخت صنجيل ، وليس بابن أُخت ريمند هذا ، بل هو قمّص آخر ، فجرى بينهما فتنة أدّت إلى الشرّ والقتال ، فوصل طنكري صاحب أنطاكية إليها ، معونةً للسرداني ، ووصل الملك بغدوين ، صاحب القدس ، في عسكره ، فأصلح بينهم ، ونزل الفرنج جميعهم على طرابلس ، وشرعوا في قتالها ، ومضايقة أهلها ، من أوّل شعبان ، وألصقوا أبراجهم بسورها ، فلمّا رأى الجند وأهل البلد ذلك سُقِط في أيديهم ، وذلّت نفوسهم ، وزادهم ضعفاً تأخّرُ الأسطول المصريّ عنهم بالميرة والنجدة .

وكان سبب تأخّره : أنّه فرغ منه ، والحثّ[1] عليه ، واختلفوا فيه أكثر

1) B. وارتجت .

من سنة ، وسار ، فردّته الريح ، فتعذّر عليهم الوصول إلى طرابلس ليقضي الله أمراً كان مفعولاً .

ومدّ الفرنج القتال عليها من الأبراج والزحف ، فهجموا على البلد وملكوه عنوةً وقهراً يوم الاثنين لإحدى عشرة ليلة خلت من ذي الحجّة من السنة . ونهبوا ما فيها . وأسروا الرجال ، وسبوا النساء والأطفال ، ونهبوا الأموال . وغنموا من أهلها من الأموال ، والأمتعة ، وكُتُب دور العلم الموقوفة . ما لا يُحدّ ولا يحصى ، فإنّ أهلها كانوا من أكثر أهل البلاد أموالاً وتجارة . وسلم الوالي الذي كان بها ، وجماعة من جندها كانوا التمسوا الأمان قبل فتحها ، فوصلوا إلى دمشق . وعاقب الفرنج أهلها بأنواع العقوبات ، وأُخذت دفائنهم وذخائرهم في مكامنهم .

ملحق رقم ـ ٢ ـ

(فتح القدس)

لما فرغ صلاح الدين من أمر عسقلان وما يجاورها سار الى بيت المقدس وبها البطرك الاعظم وبليان بن نيزران صاحب الرملة وربيسة قوبية الملك ومن نجا من زعمائهم من حطين وأهل البلد المفتتحة عليهم وقد اجتمعوا كلهم بالقدس واستماتوا الدين وبعد الصريخ وأكثروا الاستعداد ونصبوا المجانيق من داخله وتقدم اليه أمير من المسلمين فخرج اليه الافرنج فأوقعوا به وقتلوه في جماعة ممن معه وفجع المسلمون بقتله وساروا نزلوا على القدس منتصف رجب وهالهم كثرة حاميته وطاف بهم صلاح الدين خمسة أيام فتحيزت وأعليه للقتال حتى اختار جهة الشمال نحو باب العمود وكنيسة صهيون فحول اليه ونصب المجانيق عليها واشتد القتال وكان كل يوم يقتل بين الفريقين خلق كان ممن استشهد عز الدين عيسى بن مالك من أكابر أمراء بني بدران وأبوه صاحب قلعة جعبر فأسف المسلمون لقتله وحملوا عليهم حتى أزالوهم عن مواقفهم وأجحروهم البلد وملكوا عليهم الخندق ونقبوا السور رفوهن الافرنج واستأمنوا الصلاح الدين فأبى الا العنوة كما ملكه الافرنج أول الامر سنة احدى وسبعين وأربعمائة استأمن له بالباب ابن نيزران صاحب الرملة وخرج اليه وشافهه بالاستئمان واستعطفه فأصر على الامتناع فتهدده بالاستماتة وقتل النساء والابناء وحرق الامتعة وتخريب المشاعر المعظمة واستلحام أسرى المسلمين وكانوا خمسة آلاف أسير واستهلاك جميع الحيوانات الداجنة بالقدس من الظهر وغيره فحينئذ استشار صلاح الدين [illegible]ـبه فجنحوا الى تأمينهم فشارطهم على عشرة دنانير للرجل وخمسة للمرأة ودينارين للولد صبي أو صبية وعلى أجل أربعين يوما فمن تأخر أداؤه عنها فهو أسير وبذل بليان ابن نيزران عن فقراء أهل ملته ثلاثين ألف دينار وملك صلاح الدين المدينة يوم الجمعة لتسع وعشرين من رجب سنة ثلاث وثمانين ورفعت الاعلام الاسلامية على أسواره وكان يوما مشهودا ورتب على أبواب القدس الامناء لقبض هذا المال ولم يبن الامر

فيه على المشاحة فذهب أكثرهم دون شئ وعجز آخر الامر ستة عشر ألف نسمة فأخذوا أسارى وكان فيه على التحقيق ستون ألف مقاتل غير النساء والولدان فان الافرنج أزروا اليه من كل جانب لما افتتحت عليهم حصونهم وقلاعهم ومن الدليل على مقاربة هذا العدد ان بليان صاحب الرملة أعطى ثلاثين ألف دينار على ثمانية عشر ألفا وعجز منهم ستة عشر ألفا وأخرج جميع الامراء خلقا لا تحصى فى زى المسلمين بعد أن يشارطوهم على بعض القطيعة واستوهب آخرون جموعا منهم يأخذون قطيعتهم فوهبهم اياهم وأطلق بعض نساء الملوك من الروم كانوا مترهبات فأطلقهم بعبيدهم وحشمهم وأموالهم وكذا ملكة القدس التى أسر صلاح الدين زوجها ملك الافرنج بسببها وكان محبوسا بقلعة نابلس فأطلقها بجميع ما معها ولم يحصل من القطيعة على خراج وخرج البطرك الاعظم بما معه من ماله وأموال البيع ولم يتعرض له وجاءته امرأة البرنس صاحب الكرك الذى قتله يوم حطين تشفع فى ولدها وكان أسيرا فبعثها الى الكرك لتأذن الافرنج فى النزول عنه للمسلمين وكان على رأسه قبة خضراء لها صليب عظيم مذهب وتسلق جماعة من المسلمين اليه واقتلعوه وارتجت الارض بالتكبير والعويل ولما خلا القدس من العدو أمر صلاح الدين برد مشاعره الى أوضاعها القديمة وكانوا قد غيروها فأعيدت الى حالها الاول وأمر بتطهير المسجد والصخرة من الاقذار فطهرا ثم صلى المسلمون الجمعة الاخرى فى قبة الصخرة وخطب محى الدين بن زكى قاضى دمشق بأمر صلاح الدين وأتى فى خطبته بعجائب من البلاغة فى وصف الحال وعظة الاسلام اقشعرت لها الجلود وتناقلها الرواة وتحدثت بها السمار أحوالا ثم أقام صلاح الدين بالمسجد للصلوات الخمس اماما وخطيبا وأمر بعمل المنبر له فحدثوا عنده بأن نور الدين محمود اتخذ له منبرا منذ عشرين سنة وجمع الصناع بحلب فأحسنوا صنعته فى عدد سنين فأمر بحمله ونصبه بالمسجد الاقصى ثم أمر بعمارة المسجد واقتلاع الرخام الذى فوق الصخرة لان القسيسين كانوا يبيعون الحجر من الصخرة ينحتونها ويبيعونها بالذهب وزنا بوزن فتنافس الافرنج فيها التماس البركة منها ويدعونها فى الكنائس فخشى ملوكهم أن تفنى الصخرة فعالوا عليها بفرش الرخام فأمر صلاح الدين بقلعه ثم استكثر فى المسجد من المصاحف ورتب فيه القراء ووفر لهم

الجرايات وتقدّم ببناء الربط والمدارس فكانت من مكارمه رحمه الله تعالى وارتحل الافرنج بعد ان باع واجميع ما يملكونه من العقار بأرخص ثمن واشتراه أهل العسكر ونصارى القدس الاقدمون بعد أن ضربت عليهم الجزية كما كانوا والله تعالى أعلم

(حصار صور ثم صفد وكوكب والكرك)

لما فتح صلاح الدين القدس أقام بظاهره الى آخر شعبان من السنة حتى فرغ من جميع أشغاله ثم رحل الى مدينة صور وقد اجتمع فيها من الافرنج عوالم وقد نزل بها المركيش وضبطها ولما انتهى صلاح الدين الى عكا أقام بها أياما فبالغ المركيش فى الاستعداد وتعميق الخنادق واصلاح الاسوار وكان البحر يحيط بها من ثلاث جهاتها فوصل جانب اليمين بالشمال وسارت كالجزيرة وساروا اليها فنزل عليها التسع بقين من رمضان على تل يشرف منه على مكان القتال وجعل القتال على أقيال عسكره نوبا بين ابنه الافضل وابنه الظاهر وأخيه العادل وابن أخيه تقي الدين ونصب عليها المجانيق والعرادات وكان الافرنج يركبون فى الشواني والحراقات ويأتون المسلمين من ورائهم فيردون عليهم من البحر ويقاتلونهم ويمنعونهم من الدنو الى السور فبعث صلاح الدين عن أسطول مصر من مرسى عكا فجاء ودافع الافرنج وتمكن المسلمون من قتال الاسوار وحاصروها برا وبحرا ثم كبس اسطول الافرنج خمسة من أساطيل المسلمين فغنموا بهم ورد صلاح الدين الباقى الى بيروت لقلتها فاتبعها أساطيل الافرنج فلما أرهقوهم فى الطلب ألقوا بأنفسهم الى الساحل وتركوها فحكمها صلاح الدين ونقضها وجد فى حصار صور فلم يفد وامتنعت عليه لما كان فيها من كثرة الافرنج الذين أمنهم بعكا وعسقلان والقدس فنزلوا اليها بأموالهم وأمدوا صاحبها واستدعوا الافرنج وراء البحر فوعدوهم بالنصر وأقاموا فى انتظارهم ولما رأى صلاح الدين امتناعها شاور أصحابه فى الرحيل فترددوا وتخاذلوا فى القتال فرحل آخر شوال الى عكا وأذن للعساكر فى المشى الى أوطانهم الى فصل الربيع وعادت عساكر الشرق والشام ومصر وأقام بقلعة عكا فى خواصه ورد أحكام البلد الى خرديك من أمراء نور الدين وكان صلاح الدين عند ما اشتغل بحصار عسقلان بعث عسكرا لحصار صور فشددوا حصارها وقطعوا عنها الميرة وبعثوا الى صلاح الدين وهو يحاصر صور فاستأمنوا له ونزلوا عنها

فلكها وكان أيضا صلاح الدين لما سار الى عسقلان جهز عسكر الحصار قلعة كوكب يحرسون السابلة في طريقها من الافرنج الذين فيها وهي مطلة على الاردن وهي للاستبارية وجهز عسكرا لحصار صفد وهي للفداوية مطلة على طبرية ولجأ الى هذين الحصنين من سلم من وقعة حطين وامتنعوا بهما فلما جهز العساكر اليهما صلحت الطريق

وارتفع منها الفساد فلما كان آخر ليلة من شوال غفل الموكلون بالحصار على قلعة كوكب وكانت ليلة شاتية باردة فكبسهم الافرنج ونهبوا ما عندهم من طعام وسلاح وعادوا الى قلعتهم وبلغ ذلك صلاح الدين وهو يعتزم على الرحيل عن صور فشد من عزيمته ثم جهز عسكرا على صور مع الامير قايماز النجمي وارتحل الى عكا فلما انصرم فصل الشتاء سار من عكا في محرم سنة أربع وثمانين الى قلعة كوكب فحاصرها وامتنعت عليه ولم يكن بقي في البلاد الساحلية من عكا الى الجنوب غيرها وغير صفد والكرك فلما امتنعت عليه جهز العسكر لحصارها مع قايماز النجمي ورحل عنها في ربيع الاول الى دمشق ووافته رسل ارسلان وفرح الناس بقدومه والله تعالى ولي التوفيق

غزو صلاح الدين الى سواحل الشأم وما فتحه من حصونها وصلحه آخرا مع صاحب انطاكية

لما رجع صلاح الدين من فتح القدس وحاصر صور وصفد وكوكب عاد الى دمشق ثم تجهز للغزو الى سواحل الشأم وأعمال انطاكية وسار عن دمشق في ربيع سنة أربع وثمانين فنزل على حمص واستدعى عساكر الجزيرة وملوك الاطراف فاجتمعوا اليه وسار الى حصن الاكراد فضرب عسكره هنالك ودخل متجردا الى القلاع بنواحي انطاكية فنقص طرفها وأغار على ولايتها الى طرابلس حتى شفى نفسه من ارتيادها وعاد الى معسكره بحرث الارض بالغنائم فأقام عند حصن الاكراد ووفد عليه هنالك منصور بن نبيل صاحب جبلة وكان من يوم استيلاء الافرنج على جبلة عند صاحب انطاكية حاكما على جميع المسلمين فيها ومتوليا أمور سمند فلما هبت ريح الاسلام بصلاح الدين وظهوره نزل اليه ليكشف الغماء ودله على عورة جبلة واللاذقية واستحثه لهما فسار أول جمادى ونزل بطرسوس وقد اعتصم الافرنج

منها ببرجين حصينين واخلوا المدينة فخربوها واستباحوها وكان أحد الحصنين للفداوية وفيه مقدمهم الذى أسره صلاح الدين يوم المصاف وأطلقه عند فتح القدس واستأمن اليه أهل البرج الآخر ونزلوا اليه عنه فخربه صلاح الدين والتى تجارته فى البحر وامتنع عليه برج الفداوية فسار الى المرقب وهو للاستبارية ولا يرام لعلوه وارتفاعه وامتناعه والطريق فى الجبل الى جبلة عليه فهو عن يمين الطريق والبحر عن يساره فى مسلك ضيق انما يمر به الواحد فالواحد

(فتح جبلة)

وكان وصل اسطول من صاحب صقلية مددا للافرنج فى تلك السواحل فى ستين قطعة فأرسوا بطرابلس فلما سمعوا بصلاح الدين اقلعوا الى المغرب ووقفوا قبالتها ينضحون بسهامهم المارة بتلك الطريق فضرب صلاح الدين على ذلك الطريق سورا من جهة البحر من المتارس ووقف وراءه الرماة حتى سلك العسكر المضيق الى جبلة ووصلها آخر جمادى وسبق اليها القاضى وملكها صلاح الدين لحينه ورفع أعلام الاسلام على سورها ونزل حاميتها الى القلعة فاستنزلهم القاضى على الامان واستمر منهم جماعة فى رهن القاضى والمسلمين عند صاحب انطاكية حتى أطلقهم وجاء رؤساء أهل البلاد الى طاعة صلاح الدين وهو بجبل ما بين جبلة وحماة وكان الطريق عليه بينهما صعبا ففتحه صلاح الدين من ذلك الوقت واستناب بجبلة سابق الدين عثمان بن الداية صاحب شيزر وسار عنها الى اللاذقية والله تعالى أعلم بغيبه وأحكم

(فتح اللاذقية)

ولما فرغ صلاح الدين من أمر جبلة سار الى اللاذقية فوصلها آخر جمادى الاولى وامتنع حاميتها بحصنين لها فى أعلى الجبل وملك المسلمون المدينة وحصروا الافرنج فى القلعتين وحفروا تحت الاسوار وأيقن الافرنج بالهلكة ودخل اليهم قاضى جبلة ثالث نزولها فاستأمنوا معه وامنهم صلاح الدين ورفعوا أعلام الاسلام فى الحصنين وخرب المسلمون المدينة وكانت مبانيها فى غاية الوثاقة والضخامة واقطعها تقى الدين ابن أخيه فأعادها الى أحسن ما كانت من العمارة والتحصين وكان عظيم الهمة فى

ذلك وكان اسطول صقلية في مرسى اللاذقية وسخطوا ما فعله أهلها ومنعوهم من الخروج منها وجاء مقدمهم الى صلاح الدين فرغب منه اقامتهم على الجزية وعرّض في كلامه بالتهديد بامداد الافرنج من وراء البحر فاجابه صلاح الدين باستهانة أمر الافرنج وهدده فانصرف الى أصحابه ورحل صلاح الدين الى صهيون والله تعالى أعلم

(فتح صهيون)

ولما فرغ صلاح الدين من فتح اللاذقية سار الى قلعة صهيون وهي على جبل صعبة المرتقى بعيدة المهوى يحيط بجبلها واد عميق ضيق ويتصل بالجبل من جهة الشمال وعليها خمسة أسوار وخندق عميق فنزل صلاح الدين على الجبل لضيقها وقدم ولده الظاهر صاحب حلب فنزل مضيق الوادي ونصب المنجنيقات هنالك فرمى بها على الحصن ونضحهم بالسهام من سائر أصناف القسي وصابروا قليلا ثم زحف المسلمون ثاني جمادى الاخرى وسلكوا بين الصخور حتى ملكوا أحد اسوارها وقاتلوهم منه فملكوا عليهم سورين آخرين وغنموا جميع ما كان في البلد من الدواب والبقر والذخائر ولجأت الحامية الى القلعة وقاتلهم المسلمون عليها فنادوا بالامان فشرط عليهم مثل قطيعة القدس وملك المسلمون الحصن وولى عليه ناصر الدين بن كورس صاحب قلعة بوقابس فحصنه وافترق المسلمون في تلك النواحي فوجدوا الافرنج قد فروا من حصونها فملكوها جميعا وهيؤا البهاطريتا على عقبة صعبة لعفاء طريقها السهلة بالافرنج والاسماعيلية والله تعالى أعلم

(فتح بكاس والشغر)

ثم سار صلاح الدين عن صهيون ثالث جمادى الى قلعة بكاس وقد فارقها الافرنج وتحصنوا بقلعة شغر فملك بكاس وحاصر قلعة الشغر والطريق منها مسلوك الى اللاذقية وجبلة وصهيون فقاتلهم ونصب المنجنيقات عليها فقصرت حجارتها عن الوصول وكانوا قد منعوا وبعثوا خلال ذلك الى صاحب انطاكية وكان الحصن من اياله فاستمدوه والا اعطوا الحصن بما قذف الله في قلوبهم من الرعب فلما قعد عن نصرهم فاستأمنوا الى صلاح الدين وسألوه انظار ثلاث للفتح فأنظرهم وأخذ رهنهم ثم سلموه بعد الثلاث في منتصف جمادى من السنة والله تعالى أعلم

(فتح سرمينية)

كان صلاح الدين عند اشتغاله بفتح هذه الحصون بعث ابنه الظاهر غازيا صاحب حلب الى سرمينية وحاصرها واستنزل الافرنج الذين بها على قطيعة اعطوها وهدم الحصن وكان فتحه آخر جمادى الاخيرة فانطلق جماعة من الاسارى كانوا بهذا الحصن وكانت هذه الفتوحات كلها فى مقدار شهر وجميعها من أعمال انطاكية والله تعالى أعلم

(فتح برزية)

ولما فرغ صلاح الدين من قلعة الشغر سار الى قلعة برزية قبالة افامية وتقاسمها فى اعمالها وبينهما بحيرة من ماء العاصى والعيون التى تجرى وكانوا أشد شئ فى الاذى للمسلمين فنازلها فى الرابع والعشرين من جمادى الاخيرة وهى متعذرة المصعد من الشمال والجنوب وصعبته من الشرق وبجهة الغرب مسلك اليها فنزل هنالك صلاح الدين ونصب المجانيق فلم تصل حجارتها لبعد القلعة وعلوها فرجع الى المزاحفة وقسم عساكره على أمرائها وجعل القتال بينهم نوبا فقاتلهم أولا عماد الدين زنكى بن مودود صاحب سنجار واصعدهم الى قلعتهم حتى صعب المرتقى على المسلمين وبلغوا مواقع سهامهم وحجارتهم من الحصن وكانوا يدحرجون الحجارة على المقاتلة فلا يقوم لها شئ فلما تعب أهل هذه النوبة عادوا وصعد خاصة صلاح الدين فقاتلوا قتالا شديدا وصلاح الدين وتقى الدين ابن أخيه يحرضانهم حتى أعيوا وهموا بالرجوع فصاح فيهم صلاح الدين وفى أهل النوبة الثانية فتلاحقوا بهم وجاء أهل نوبة عماد الدين على اثرهم وحمى الوطيس وردوا الافرنج على أعقابهم الى حصنهم فدخلوه ودخل المسلمون معهم وكان بقية المسلمين فى الخيام شرقى الحصن وقد أهمله الافرنج فعمد أهل الخيام من تلك الناحية واجتمعوا مع المسلمين فى أعقاب الافرنج عند الحصن فملكوه عنوة وجاء الافرنج الى قبة الحصن ومعهم جماعة من أسارى المسلمين فى القيود فلما سمعوا تكبير اخوانهم خارج القبة كبروا فدهش الافرنج وظنوا أن المسلمين خالطوهم فألقوا باليد واسرهم المسلمون واستباحوهم

واحرقوا البلد وأسروا صاحبها وأهله وولده وافترقوا فى أسراهم فجمعهم صلاح الدين حتى اذا قارب انطاكية بعثهم اليها لان زوجة صاحب انطاكية كانت تراسل صلاح الدين بالاخبار وتهاديه فرعى لها ذلك والله تعالى ولى التوفيق

(فتح دربساك)

ولما فرغ صلاح الدين من حصن برزية دخل من الغد الى الجسر الجديد على نهر العاصى قرب انطاكية فأقام عليه فلحق به خلف العسكر ثم سار الى قلعة دربساك ونزل عليها فى رجب من السنة وهى معاقل الفداوية التى يلجؤن الى الاعتصام بها ونصب عليها المجانيق حتى هدم من سورها ثم هجمها بالمزاحفة وكشف المقاتلة عن سورها ونقبوا منها برجا من أسفله فسقط ثم باكروا الزحف من الغد وصابرهم الافرنج ينتظرون المدد من صاحبهم سمند صاحب انطاكية فلما تبينوا عجزه استأمنوا صلاح الدين فأمنهم فى أنفسهم فقط وخرجوا الى انطاكية وملك الحصن فى عشرين من رجب من السنة والله تعالى أعلم

(فتح بغراس)

ثم سار عماد الدين عن دربساك الى قلعة بغراس على تعددها وقربها من انطاكية فيحتاج مع قتالها الى ردء من العسكر بينه وبين انطاكية فحاصرها ونصب عليها المجانيق فقصرت عنها لعلوها وشق عليهم حمل الماء الى أعلى الجبل وبينما هم فى ذلك اذ جاء رسولهم يستأمن لهم فأمنهم فى أنفسهم فقط كما أمن أهل دربساك وتسلم القلعة بما فيها وخربها فجددها ابن اليون صاحب الارمن وحصنها وصارت فى ايالته والله أعلم

(صلح انطاكية)

ولما فتح حصن بغراس خاف سمند صاحب انطاكية وأرسل الى صلاح الدين فى الصلح على أن يطلق أسرى المسلمين الذين عنده وتحامل عليه أصحابه فى ذلك ليريح الناس ويستعدوا فأجابه صلاح الدين الى ذلك لثمانية أشهر من يوم عقد الهدنة وبعث اليه من استحلفه وأطلق الاسرى وكان سمند فى هذا الوقت عظيم الافرنج متسع المملكة

وطرابلس وأعمالها قد صارت اليه بعد القمص واستخلف فيها ابنه الاكبر وعاد صلاح الدين الى حلب فدخلها ثالث شعبان من السنة وانطلق ملوك الاطراف بالجزيرة وغيرها الى بلادهم ثم رحل الى دمشق وكان معه أبو فليتة قاسم بن مهنا أمير المدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة وأتم التسليم قد عسكر معه وشهد فتوحه وكان يتيمن بصحبته ويتبرك برؤيته ويجتهد فى تأنيسه وتكرمته ويرجع الى مشورته ودخل دمشق أول رمضان من السنة وأشير عليه بتفريق العساكر فأبى وقال هذه الحصون كوكب وصفد والكرك فى وسط بلاد الاسلام فلا بد من البدار الى فتحها والله سبحانه وتعالى أعلم

(فتح الكرك)

كان صلاح الدين قد جهز العساكر على الكرك مع أخيه العادل حتى سار الى دربه الذى وبفراس وأبعد فى تلك الناحية فشد العادل حصارها حتى جهدوا وفنيت أقواتهم فراسلوه فى الامان فأجابهم وسلموا القلعة فملكها وملك الحصون التى حوالبها وأعظمها الشوبك وأمنت تلك الناحية واتصلت ايالة المسلمين من مصر الى القدس والله تعالى أعلم

(فتح صفد)

لما عاد صلاح الدين الى دمشق أقام بها نصف رمضان ثم تجهز لحصار صفد فنزل عليها ونصب المجانيق وكانت أقواتهم قد تسلط عليها الحصار الاول فخافوا من نفادها فاستأمنوا فأمنهم وملكها ولحقوا بمدينة صور والله تعالى أعلم

(فتح كوكب)

لما كان صلاح الدين على صفد خافه الافرنج على حصن كوكب فبعثوا اليه نجدة وكان قايماز النجمى يحاصره فشعر بتلك النجدة وركب اليهم وهم مختفون ببعض الشعاب فكبسهم ولم يفلت منهم أحد وكان فيهم مقدمان من الاستبارية فحملهما الى صلاح الدين على صفد فأحضرهما للقتل على عادته فى الفداوية والاستبارية فاستعطفه واحد منهما فعفا عنهما وحبسهما ولما فتح صفد سار الى كوكب وحاصره وارسل اليهم

بالامان فاصرّوا على الامتناع عليه فنصب عليهم المجانيق وتابع المزاحفة ثم عاقه المطر عن القتال وطال مقامه فلما انقضى المطر عاود المزاحفة وضايقهم بالسور ونقب منه برجا فسقط فارتاعوا واستأمنوا وملك الحصن منتصف ذى القعدة من السنة ولحق الافرنج بصور واجتمع الزعماء وتابعوا الرسل الى اخوانهم وراء البحر فى حوزة يستصرخونهم فتابعوا اليهم المدد واتصل المسلمون فى الساحل من ايلة الى بيروت لا يفصل بينهم الا مدينة صور ولما فرغ صلاح الدين من صفد وكوكب سار الى القدس فقضى فيه نسك الاضحى ثم سار الى عكا فاقام بها الى انسلاخ الشتاء والله تعالى أعلم

(فتح الشقيف)

ثم سار صلاح الدين فى ربيع سنة خمس وثمانين الى محاصرة الشقيف وكان لارناط صاحب صيدا وهو من أعظم الناس مكرا ودهاء فلما نزل صلاح الدين بمرج العيون جاء اليه وأظهر له المحبة والميل وطلب المهلة الى جمادى الاخيرة ليتخلص أهله وولده من المركيش بصور ويسلم له حصن الشقيف فأقام صلاح الدين هنالك لوعده وانقضت مدة الهدنة بينه وبين سمند صاحب انطاكية فبعث تقى الدين ابن أخيه مسلحة فى العساكر الى البلاد التى قرب انطاكية ثم بلغه اجتماع الافرنج بصور عند المركيش وأن الامداد وافتهم من أهل ملتهم وراء البحر وأن ملك الافرنج بالشام الذى أطلقه صلاح الدين بعد فتح القدس قد اتفق مع المركيش ووصل يده به واجتمعوا فى أمم لا تحصى وخشى أن يتقدم اليهم ويترك الشقيف وراءه فتنقطع عنه الميرة فأقام بمكانه فلما انقضى الاجل تقدم الى الشقيف واستدعى ارناط فجاء واعتذر بأن المركيش لم يمكنه من أهله وولده وطلب الامهال مرة أخرى فتبين صلاح الدين مكره فحبسه وأمره أن يبعث الى أهل الشقيف بالتسليم فلم يجب فبعث به الى دمشق فحبس بها وتقدم الى الشقيف فحاصره بعد أن أقام مسلحة قبالة الافرنج الذين بظاهر صور فجاءه الخبر بأنهم فارقوا صور لحصار صيدا فلقيتهم المسلحة وقاتلوهم فغلبوهم وأسروا سبعة من فرسانهم وقتلوا آخرين وقتل مولى لصلاح الدين من أشجع الناس وردوهم على أعقابهم الى معسكرهم بظاهر صور فجاء صلاح الدين بعد انقضاء الوقعة فأقام فى المسلحة رجاء أن يصادف أحدا من الافرنج فيتقدم منهم وركب فى بعض الايام ليشارف معسكر الافرنج فظن عسكره أنه يريد القتال فتبعوا وأوغلوا الى العدو وبعث صلاح الدين الامراء فى أثرهم يردونهم فلم يرجعوا ورآهم

الافرنج فظنوا أن وراءهم كمينا فارسلوا من يكشف خبرهم فوجد وهم منقطعين فحملوا عليهم وأثاء وهم جميعا وذلك تاسع جمادى الاولى من السنة ثم انحدر اليهم صلاح الدين فى عساكره من الجبل فهزمهم الى الجسر وغرق منهم فى البحر نحو من مائة دارع سوى من قتل وعزم السلطان على حصارهم واجتمع اليه الناس ثم عاد الافرنج الى صور وعاد السلطان الى بانياس ليشارف عكا ورجع الى مخيمه ولما وصل الى المعسكر جاء الخبر بأن الافرنج يتعدون عن صدور مذاهبهم لحاجاتهم فكتب الى المعسكر بعكا ووعدهم ثامن جمادى الاخيرة يوافونه من ناحيتهم للاغارة عليهم وأكمن لهم فى الاودية والشعاب من سائر النواحى واختار جماعة من فرسان عسكره وتقدم اليهم بأن يتعرضوا للافرنج ثم يستطردوا لهم الى مواضع الكمناء ففعلوا ونَاشبوا الافرنج وانفوا من الاستطراد وطال على الكمناء الانتظار فخرجوا خشية على أصحابهم فوافوهم فى شدة الحرب فانهزم المسلمون ووقع التمحيص وكان أربعة فى الكمين من امراء طيء فعدلوا عن طريق أصحابهم وسلكوا الوادى وتبعهم بعض العسكر من موالى صلاح الدين ورآهم الافرنج فى الوادى فعلموا أنهم أضلوا الطريق فاتبعوهم وقتلوهم والله تعالى أعلم

* (محاصرة الافرنج أهل صور لعكا والحروب عليها) *

كانت صور كما قدمنا ضبطها المركيش من الافرنج الواصل من وراء البحر وقام بها وكان كلما فتح صلاح الدين مدينة أو حصنا على الامان لحق أهلها بصور فاجتمع بها عدد عظيم من الافرنج وأموال جمة ولما فتح القدس لبس كثير من رهبانهم وقسيسيهم وزعمائهم السواد حزنا على البيت المقدس وارتحل بطرك من القدس وهم معه يستصرخون أهل الملة النصرانية من وراء البحر للاخذ بثأر القدس فخرجوا للجهاد من كل بلد حتى النساء اللواتى يجدن القوة على الحرب ومن لم يستطع الخروج استأجر مكانه وبذلوا الاموال لهم وجاء الافرنج من كل مكان ونزلوا بصور ومدد الرجال والاقوات والاسلحة متداركة لهم فى كل وقت واتفقوا على الرحيل الى عكا ومحاصرتها فخرجوا ثامن رجب من سنة خمس وثمانين وسلكوا على طريق الساحل وأساطيلهم تحاذيهم فى البحر ومسلحة المسلمين تتخطفهم من جوانبهم حتى وصلوا الى عكا منتصف

رجب وكان رأى صلاح الدين أن يحاذيهم في مسيرهم لينال منهم فخالفه أصحابه واعتذروا بضيق الطريق ووعره فسلك طريقا آخر ووافاهم على عكا وقد نزلوا عليها وأحاطوا بها من البحر الى البحر فليس للمسلمين اليها طريق ونزل صلاح الدين قبالتهم وبعث الى الاطراف يستنفر الناس فجاءت عساكر الموصل وديار بكر وسنجار وسائر بلاد الجزيرة وجاء تقي الدين ابن أخيه من حماة ومظفر الدين كوكبرى من حران والرها وكان أمداد المسلمين تصل في البر وامداد الافرنج في البحر وهم محصورون في صورة محاصرين وكانت بينهم أيام مذكورة ووقائع مشهورة وأقام السلطان بقية رجب لم يقاتلهم فلما استهل شعبان قاتلهم يوما بكامله وبات الناس على تعبية ثم صبحهم بالقتال ونزل الصبر وحمل عليهم تقي الدين ابن أخيه منتصف النهار من الميمنة حمله أزالتهم عن مواقفهم وملك مكانهم واتصل بالبلد فدخلها المسلمون وشحنها صلاح الدين بالمدد من كل شئ وبعث اليهم الامير حسام الدين أبا الهيجاء السمين من أكابر امرائه من الاكراد الحطبية من اربل ثم نهض المسلمون من الغد فوجدوا الافرنج قد أداروا عليهم خندقا يمتنعون به ومنه وهم القتال يومهم وأقاموا كذلك ومع السلطان أحياء من العرب فكمنوا في معاطف النهر من ناحية الافرنج على الساحل للغداة منهم ركب وهم منتصف شعبان وقتلوهم وجاؤا برؤسهم الى صلاح الدين فأحسن اليهم والله تعالى أعلم

(الوقعة على عكا)

كان صلاح الدين قد بعث عن عسكر مصر وبلغ الخبر الافرنج فارادوا معاجلته قبل وصولهم وكانت عساكره متفرقة في المسالح على الجهات فمسلحة تقابل انطاكية وسمند من أعمال حلب ومسلحة بحمص تحفظها من أهل طرابلس ومسلحة تقابل صور ومسلحة بدمياط والاسكندرية واعتزم الافرنج على مهاجمتهم بالقتال وفي بشعر وابهم وصبحوهم لعشرين من شعبان وركب صلاح الدين وعبى عساكره وقصدوا الميمنة وعليها تقي الدين ابن أخيه فتزحزح بعض الشئ وأمده صلاح الدين برجال من عنده فحطوا على صلاح الدين في القلب فتضعضع واستشهد جماعة منهم الامير على ابن مردان والظهير أخو الفقيه عيسى والي القدس والحاجب خليل الهكارى

وغيرهم وقصدوا خيمة صلاح الدين فقتلوا من وزرائه ونهبوا واستشهد جمال الدين بن رواحة من العلماء ووضعوا السيف في المسلمين وانهزم الذين كانوا حوالى الخيمة ولم تسقط وانقطع الذين ولوها من الافرنج عن أصحابهم وراءهم وحملت ميسرة المسلمين عليهم فاجتمع وراء الخنادق وعادوا الى خيمة صلاح الدين فقتلوا كل من وجدوا عندها من الافرنج وصلاح الدين قد عاد من اتباع أصحابه يردهم للقتال وقد اجتمعوا عليهم فلم يفلت منهم أحد وأسر وامقدم الفداوية فأمر بقتله وكان أطلقه مرة أخرى وبلغت عدة القتلى عشرة آلاف فألقوا في النهر وأما المنهزمون من المسلمين فمنهم من رجع من طبرية ومنهم من جاوز الاردن ورجع ومنهم من بلغ دمشق واتصل قتال المسلمين للافرنج وكادوا يلجون عليهم معسكرهم ثم جاءهم الصريخ بنهب اموالهم وكان المنهزمون قد حملوا أثقالهم فامتدت اليها أيدي الاوباش ونهبوها فكان ذلك مما شغل المسلمين عن استئصال الافرنج وأقاموا في ذلك يوما وليلة يستردون النهب من أيدي المسلمين ونفس بذلك عن الافرنج بعض الشيء والله تعالى أعلم

(رحيل صلاح الدين عن الافرنج بعكا)

ولما انقضت هذه الواقعة وامتلأت الارض من جيف الافرنج تغير الهواء وأنتن وحدث بصلاح الدين قولنج كان يعاوده فأشار عليه أصحابه بالانتقال عن الافرنج ينتقلون وان أقاموا عدنا اليهم وحمله الاطباء على ذلك فرحل رابع رمضان من السنة وتقدم الى أهل عكا بحياطتها وأعلمهم بسبب رحيله فلما ارتحل اشتد الافرنج في حصار عكا وأحاطوا بها دائرة مع اسطولهم في البحر وحفروا خندقا على معسكرهم وأداروا عليهم سورا من ترابه حصنا من صلاح الدين أن يعود اليهم ومسلحة المسلمين قبالتهم يناوشوهم القتال فلا يقاتلونهم وبلغ ذلك صلاح الدين وأشار أصحابه بارسال العساكر ليمنع من التحصين فامتنع من ذلك لمرضه فتم للافرنج ما أرادوه وأهل عكا يخرجون اليهم في كل يوم ويقاتلونهم والله تعالى أعلم

(معاودة صلاح الدين حصار الافرنج على عكا)

ثم وصل العادل أبو بكر بن أيوب منتصف شوال في عساكر مصر ومعه الجم الغفير من المقاتلة والاصناف الكثيرة من آلات الحصار ووصل على اثره اسطول مصر مع

الامير لؤلؤ وكبس مركبا فغنم ما فيه ودخل به الى عكا وبرئ صلاح الدين من مرضه وأقام بمكانه بالجزيرة الى انسلاخ الشتاء وسمع الافرنج أن صلاح الدين سار اليهم واستقلوا سطة المسلمين عندهم فزحفوا اليهم في صفر سنة ست وثمانين واستمات المسلمون وقتل بين الفريقين خلق وبلغ الخبر بذلك صلاح الدين وجاءته العساكر من دمشق وحمص وحماة فتقدم من الجزيرة الى تل كيسان وتابع القتال على الافرنج يشغلهم عن المسلمين فكانوا يقاتلون الفريقين وكان الافرنج مدة مقامهم على عكا قد صنعوا ثلاثة أبراج من الخشب ارتفاع كل برج ستون ذراعا وفيه خمس طبقات وغشوها بالجلود وطلوها بالادوية التي لا تعلق النار بها وشحنوها بالمقاتلة ودنوها الى البلد من ثلاث جهات في العشرين من ربيع الاول سنة ست وثمانين وأشرفوا بها على السور فكشف من عليه من المقاتلة وشرع الافرنج في طم الخندق وبعث أهل عكا سابحا في البحر يصف لهم حالهم فركب في عساكره واشتد في قتال الافرنج فخف على أهل البلد ما كانوا فيه وأقاموا كذلك ثمانية أيام يقاتلون الجهتين وعجزوا عن دفع الابراج ورموها بالنفط فلم يؤثر فيها وكان عندهم رجل من أهل دمشق يعاني أحوال النفط فأخذ عقاقير وصنعها وحضر عند قراقوش حاكم البلد وأعطاه دواء وقال ارم بهذا في المنجنيق المقابل لاحدى الابراج فيحترق فحرد عليه ثم وافق ورمى به في قدر ثم رمى بعده بقدر أخرى مملوءة نارا فاضطرمت النار واحترق البرج بمن فيه ثم فعل بالثاني والثالث كذلك وفرح أهل البلد وتخلصوا من تلك الورطة فأمر صلاح الدين بالاحسان الى ذلك الرجل فلم يقبل وقال انما فعلته لله ولا أريد الجزاء الامنه ثم بعث صلاح الدين الى الملوك الاطراف ليستنفرهم فجاء عماد الدين زنكي بن مودود صاحب سنجار ثم علاء الدين بن طالب صاحب الموصل ثم عز الدين مسعود بن مودود وبعثه أبوه بالعساكر ثم زين الدين صاحب اربل وكان كل واحد منهم اذا وصل يتقدم بعسكره فيقاتلون الافرنج ثم يضربون أبنيتهم وجاء الخبر بوصول الاسطول من مصر فجهز الافرنج أسطولا لاقتاله وشغلهم صلاح الدين بالقتال ليتمكن الاسطول من دخول عكا فلم يشغلوا عنه وقاتلوا الفريقين برا وبحرا ودخل الاسطول الى مرسى عكا سالما والله تعالى أعلم بغيبه

(وصول ملك الالمان الى الشأم ومهلكه)

هؤلاء الالمان شعب من شعوب الافرنج كثير العدد موصوف بالبأس والشدة وهم موطنون بجزيرة انكلطيرة فى الجهة الشمالية الغربية من البحر المحيط وهم حديثو عهد بالنصرانية ولما سار القسس والرهبان بخبر بيت المقدس واستنفار النصرانية لها قام ملكهم لها وقعد وجمع عساكره وسار للجهاد بزعمه وفسح النصارى له الطريق وقصد القسطنطينية فعجز ملك الروم عن منعه بعد ان كان يعد بذلك نفسه وكتب بها الى صلاح الدين لكنه منع عنهم الميرة فضاقت عليهم الاقوات وعبروا خليج القسطنطينية ومرّوا بمملكة قليج ارسلان وتبعهم التركمان يحفون بهم ويتخطفون منهم وكان الفصل شتاء والبلاد باردة فهلك أكثرهم من البرد والجوع ومرّوا بقونية وبها قطب الدين ملك شاه بن قليج ارسلان قد غلب عليه أولاده وافترقوا فى النواحى فخرج ليصدّهم فلم يطق ذلك ورجع فساروا فى أثره الى قونية وبعثوا اليه بهدية على أن يأذن لهم فى الميرة فاذن لهم واسترهنوا عشرين من أمرائه وتكاثر عليهم اللصوص فقيدوا أولئك الامراء وحبسوهم وساروا الى بلاد الارمن وصاحبها كافورلى بن حطفاى بن اليون فأمدّهم بالازواد والعلوفات وأظهر طاعتهم وساروا الى انطاكية ودخل ملكهم ليغتسل فى نهر هنالك فغرق وملك بعده ابنه ولما بلغوا انطاكية اختلفوا فبعضهم مال الى تمليك أخيه وبعضهم مال الى العود فعادوا كلهم وسار ابن الملك فيمن ثبت معه يزيدون على أربعين ألفا وأصابهم الموتان وحسن اليهم صاحب انطاكية المسير الى الافرنج على عكا فساروا على جبلة واللاذقية ومرّوا بحلب وتخطف أهلها منهم خلقا وبلغوا طرابلس وقد أفناهم الموتان ولم يبق منهم الانحو ألف رجل فركبوا البحر الى عكا ثم رأوا ما هم فيه من الوهن والخلاف فركبوا البحر الى بلدهم وغرقت بهم المراكب ولم ينج منهم أحد وكان الملك قليج أرسلان يكاتب صلاح الدين بأخبارهم ويعده بمنعهم من العبور فلما عبروا اعتذر بالعجز عنهم وافتراق أولاده واستبدادهم عليه وأما صلاح الدين فانه استشار أصحابه عند وصول خبرهم فأشار بعضهم الى لقائهم فى طريقهم ومحاربتهم وأشار آخرون بالمقام لئلا يأخذ الافرنج عكا ومال صلاح الدين الى هذا الرأى وبعث العساكر من جملة الى اللاذقية وشيزر الى حلب ليحفظوها من عاديتهم والله تعالى ولى التوفيق

(واقعة المسلمين مع الافرنج على عكا)

ثم زحف الافرنج على عكا فى عشر من جمادى الاخيرة من سنة ست وثمانين وخرجوا من خنادقهم الى عساكر صلاح الدين رقصد العادل أبو بكر بن أيوب فى عساكر مصر فاقتتلوا قتالا شديدا حتى كشفهم الافرنج عن الخيام وملكوها ثم كر عليهم المصريون فكشفوهم عن خيامهم وخالفهم بعض عساكر مصر الى الخنادق فقطعوا عنهم بعض مدد أصحابهم فأخذتهم السيوف وقتل منهم ما يزيد على عشرين ألفا وكانت عساكر الموصل قريبا من عسكر مصر ومقدمهم علاء الدين خوارزم شاه بن عز الدين مسعود صاحب الموصل فعدمت جرتهم وأمر صلاح الدين بمناجزتهم على هذا الحال وبلغه الخبر بموت الالمان وما أصاب قومه من الشتات فسر المسلمون بذلك وظنوا وهن الافرنج به ثم بعد يومين لحقت بالافرنج امداد فى البحر مع كند من الكنود يقال له الكندهرى ابن أخى الافرنسيس لابيه وابن أخى ملك انكلطيرة لامه ففرق فى الافرنج أموالا وجند لهم أجنادا ووعدهم بوصول الامداد على أثره فاعتزموا على الخروج لقتال المسلمين فانتقل صلاح الدين من مكانه الى الخروبة لثلاث بقين من جمادى الاخيرة لضيق المجال ونتن المكان من جيف القتلى ثم نصب الكندهرى على عكا مجانيق ودبابات فأخذها أهل عكا وقتلوا عندها جموعا من الافرنج فلم يتمكن من ذلك ولا من الستائر عليها لان أهل البلاد كانوا يصيبونها فعمل تلا عاليا من التراب ونصب المجانيق من ورائه وضاقت الاحوال وقلت الميرة وأرسل صلاح الدين الى الاسكندرية يبعث الاقوات فى المراكب الى عكا وبعث الى بيروت بمثل ذلك فبعثوا مركبا ونصبوا فيها الصلبان يوهمون انه للافرنج حتى دخلوا الى المرسى وجاءت بعد الميرة من الاسكندرية ثم جاءت ملكة من الافرنج من وراء البحر فى نحو ألف مقاتل للجهاد بزعمها فأخذت ببحر الاسكندرية هى وجميع ما معها ثم كتب البابا كبير الملة النصرانية من كنيسة برومة يأمرهم بالصبر والجهاد ويخبرهم بوصول الامداد وأنه راسل ملوك الافرنج يحثهم على امدادهم فازدادوا بذلك قوة واعتزموا على مناجزة المسلمين وجروا عسكر الحصار بعكا وارتحلوا حادى عشر شوال من السنة فنقل صلاح الدين أثقال العسكر الى

على ثلاثة فراسخ من عكا ولقي الافرنج على التعبية وكان أولاده الافضل علي والظاهر غازي والظافر خضر في القلب وأخوه العادل أبو بكر في الميمنة بعساكر مصر ومن انضم اليهم وعماد الدين صاحب سنجار وتقي الدين صاحب حماة ومعز الدين سنجر شاه صاحب جزيرة ابن عمر في الميسرة وصلاح الدين في خيمة صغيرة على تل مشرف نصبها من أجل موضعه فلما وصل الافرنج وعاينوا كثرة المسلمين ندموا على مفارقة خنادقهم وباتوا ليلتهم وعادوا من الغد الى معسكرهم فاتبعوهم أهل المقدمة ويتخطفوهم من كل ناحية وأجروهم وراء خنادقهم ثم ناوشوهم القتال في الثالث والعشرين من شوال بعد ان أكمنوا لهم عسكرا فخرج لهم الافرنج في نحو أربعمائة فارس واستطردهم المسلمون الى أن وصلوا كمينهم فخرجوا عليهم فلم يفلت منهم أحد واشتد الغلاء على الافرنج وبلغت الغرارة مائة دينار صوري مع ما كان يحمل اليهم من البلدان من بيروت على يد صاحبها أسامة ومن صيدا على يد نائبها سيف الدين علي ابن أحمد المشطوب ومن عسقلان وغيرها ثم اشتد الحال عليهم عند هيجان البحر وانقطاع المراكب في فصل الشتاء ثم هجم الشتاء وأرسى الافرنج مراكبهم بصور خوفا عليها على عادتهم في صور في فصل الشتاء ووجد الطريق الى عكا في البحر فأرسل أهلها الى صلاح الدين يشكون ما نزل بهم وكان بها الامير حسام الدين أبو الهيجاء السمين فشكى من ضجره بطول المقام والحرب فأمر صلاح الدين بانفاذ نائب وعسكر اليها بدلا منهم وأمر أخاه العادل بمباشرة ذلك فانتقل الى جانب البحر عند جبل حيفا وجمع المراكب والشواني وبعث العساكر اليها شيئا فشيئا كلما دخلت طائفة خرج بدلها فدخل عشرون أميرا بدلا من ستين كانوا وأهملوا أهل الرجل وتعينت دواوين صاحب صلاح الدين وكانوا نصارى على الجند في اثباتهم واطلاق نفقاتهم فبلغ الحامية بعكا وضعفت وعادت مراكب الافرنج بعد انحدار الشتاء فانقطعت الاخبار عن عكا وعنها وكان من الامراء الذين دخلوا عكا سيف الدين علي بن أحمد المشطوب وعز الدين ارسلان مقدم الاسدية وابن جاولي وغيرهم وكان دخولهم عكا أول سنة سبع وثمانين والله سبحانه وتعالى أعلم

(وفاة زين الدين صاحب اربل وولاية أخيه كوكبرى)

كان زين الدين يوسف بن زين الدين قد دخل فى طاعة صلاح الدين وكانت له اربل كما مر لابيه وحران والرها الاخيه مظفر الدين كوكبرى وكان يعسكر مع صلاح الدين فى غزواته وحضر عنده على عكا فأصابه المرض وتوفى فى ثامن عشر رمضان سنة أربع وثمانين فقبض أخوه مظفر الدين كوكبرى على بلد أمير من أمرائه وبعث الى صلاح الدين يطلب اربل وينزل عن حران والرها فأجابه وأقطعه اياهما وأضاف اليهما شهرزور وأعمالها ودار بند العرابلي وهى قفجاق وكاتب أهل اربل مجاهد الدين صاحب الموصل خوفا من صلاح الدين مع أن مجاهد الدين كان عز الدين قد حبسه كما مر ثم اطلقه وولاه نائبه وجعل بعض غلمانه عينا عليه فكان يناقضه فى كثير من الاحوال فقصد مجاهد الدين أن يفعل معه مثل ذلك فى اربل فامتنع منها وولاها مظفر الدين واستفحل أمره فيها ولما نزل مظفر الدين عن حران والرها وهما صلاح الدين لابن أخيه تقى الدين عمر بن شاهنشاه مضافة الى ميافارقين بديار بكر وحماة وأعمالها بالشأم وتقدم له أن يقطع أعمالها الجند فيتقوى بهم على الافرنج فسار تقى الدين اليها وقرر أمورها ثم انتهى الى ميافارقين وتجدد له طمع فيما يجاورها من البلاد فقصد مدينة حال من ديار بكر وسار اليه سيف الدين بكتمر صاحب خلاط فى عساكره وقاتله فهزمه تقى الدين ووطئ بلاده وكان بكتمر قد قبض على مجد الدين بن رستق وزير سلطان شاكرين وحبسه فى قلعة هنالك فلما انهزم كتب الى والى القلعة بقتله فوافاه الكتاب وتقى الدين محاصر له فلما ملك القلعة أطلق ابن رستق وسار الى خلاط وحاصرها فامتنعت عليه فعاد عنها الى ملاذكرد فضيق عليها حتى استأمنوا اليه وضرب لهم أجلا فى تسليم البلد ثم مرض ومات قبل ذلك الاجل بيومين وحمله ابنه الى ميافارقين فدفنه بها واستفحلت دولة بكتمر فى خلاط والله تعالى أعلم

(وصول امداد الافرنج من الغرب الى عكا)

ثم تتابعت امداد الافرنج من وراء البحر لاخوانهم المحاصرين لعكا وأول من وصل منهم الملك ملك افرنسة وهوذ ونصب فيهم وملكه ليس بالقوى هكذا قال ابن الاثير وعنى انه كان مستفحلا فى ذلك العصر لانه فى الحقيقة ملك الافرنج وهو فى ذلك

العصر أشد من كانوا قوة واستفحل الافرنج ... ووصل ثاني عشر ربيع الاول سنة أربع وثمانين في ستة مراكب عظيمة مشحونة بالمقاتلة والسلاح فقوى الافرنج على عكا بمكانه وولي حرب المسلمين فيها وكان صلاح الدين على معسكر قريبا من معسكر الافرنج فكان يصابحهم كل يوم عن مزاحمة البلد وتقدم الى أسامة في بيروت بتجهيز ما عنده من المراكب والشواني الى مرسى عكا ليشغل الافرنج أيضا فبعثها ولقيت خمسة مراكب في البحر وكان ملك الانكلطيرة أقدمها وأقام على جزيرة قبرص طامعا في ملكها فغنم أسطول المسلمين الخمسة مراكب بما فيها ونفذت كلمة صلاح الدين الى سائر النواب بأعماله بمثل ذلك فجهزوا الشواني وملؤا بها مرسى عكا وواصل الافرنج قتال البلد ونصبوا عليها المنجنيقات رابع جمادى وتحول صلاح الدين لمعسكره قريبا منهم ليشغلهم عن البلد فخف قتالهم عن أهل البلد ثم فرغ ملك انكلطيرة من جزيرة قبرص وملكها ونزل صاحبها وبلغ الى عكا في خمس وعشرين مركبا مشحونة بالرجال والاموال ووصل منتصف رجب ووافى في طريقه مركبا جهز من بيروت الى عكا وفيه سبعمائة مقاتل فقاتله فلما يئس المسلمون الذين به من الخلاص نزل مقدمهم وهو يعقوب الحلبي غلام ابن شقنين فخرق المركب خوفا من أن يظفر الافرنج برجاله وذخائره فغرق ثم عمل الافرنج دبابات وكباشا وزحفوا بها فأحرق المسلمون بعضها وأخذوا بعضها فرجع الافرنج الى نصب التلال من التراب يقاتلون من ورائها فامتنعت من نفوذ الحيلة فيها وضاق حال أهل عكا

(استيلاء الافرنج على عكا)

ولما جهد المسلمين بعكا الحصار خرج الامير سيف الدين علي بن أحمد الهكاري المشطوب من أكبر أمرائها الى ملك افرنسة يستأمنه لاهل عكا فلم يجبه وضعفت نفوس أهل البلد لذلك ووهنوا ثم هرب من الامراء عز الدين ارسل الاسدي وابن عز الدين جاولي وسنقر الارجاني في جماعة منهم ولحقوا بالعسكر فازداد أهل عكا وهنا وبعث الافرنج الى صلاح الدين في تسليمها فأجاب على أن يؤمنوا أهل البلد ويطلق لهم من أسراهم بعدد أهل البلد ويعطيهم الصليب الذي أخذه من القدس فلم يرضوا بما فعل فبعث الى المسلمين بعكا أن يخرجوا بجمعهم ويتركوا البلد ويسيروا مع البحر

ويحملوا على العدو حملة مستميتين ويجيء المسلمون من وراء العدو فعساهم يخلصون بذلك فلما أصبحوا زحف الافرنج الى البلد ورفع المسلمون اعلامهم وارسل المشطوب من البلد الى الافرنج فصالحهم على الامان على أن يعطيهم مائتي ألف دينار ويطلق لهم خمسمائة أسير ويعيد لهم الصليب ويعطي للمركيش صاحب صور أربعة عشر ألف

دينار فأجابوا الى ذلك وضربوا المدة للمال والاسرى شهرين وسلموا اليهم البلد فلما ملكوها غدروا بهم وحبسوهم رهنا بزعمهم في المال والاسرى والصليب ولم يكن لصلاح الدين ذخيرة من المال لكثرة انفاقه في المصالح فشرع في جمع المال حتى اجتمع مائة ألف دينار وبعث نائبا يستحلفهم على أن يضمن الفداء وبقية المال من الخلف والضمان خوفا من غدر أصحابه وقال ملوكهم اذا سلمتم المال والاسرى والصليب تعطونا رهنا في بقية المال ونطلق أصحابكم وطلب صلاح الدين أن يضمن الفداوية الرهن ويحلفوا فامتنعوا ايضا وقالوا ترسلون المائة ألف دينار والاسرى والصليب فنطلق من نراه ونبقي الباقي الى مجيء بقية المال فتبين المسلمون غدرهم وانهم يطلقون من لا يعبأ به ويمسكون الامراء والاعيان حتى يفادوهم فلم يجبهم صلاح الدين الى شيء ولما كان آخر رجب ركب الافرنج الى ظاهر البلد في احتفال وركب المسلمون فشدوا عليهم وكشفوهم عن مواقفهم فاذا المسلمون الذين كانوا عندهم قتلى بين الصفين قد استلهموا ضعفاءهم وتمسكوا بالاعيان للمفاداة فسقط في يد صلاح الدين وتمسك بالمال الذي جمعه لغيرها من المصالح والله تعالى أعلم

* (تخريب صلاح الدين عسقلان) *

ولما استولى الافرنج على عكا استوحش المركيش صاحب صور من ملك انكلطيرة وأحس منه بالغدر فلحق ببلده صور ثم سار الافرنج مستهل شعبان لقصد عسقلان وساروا مع ساحل البحر لا يفارقونه ونادى صلاح الدين باتباعهم مع ابنه الافضل وسيف الدين أبي زكوش وعز الدين خرديك فاتبعوهم يقاتلونهم ويتخطفونهم من كل ناحية فتمكنوا فيهم بالقتل والاسر وبعث الافضل الى أبيه يستمده فلم يجد العساكر مستعدة وسار ملك انكلطيرة في ساقة الافرنج فحملهم وانتهوا الى يافا فأقاموا بها والمسلمون قبالتهم مقيمون ولحق بهم من عكا من احتاجوا اليه ثم ساروا الى قيسارية

والمسلمون يتبعونهم ويقتلون من ظفروا به منهم وزاحموهم عند قيسارية فنالوا منهم
وباتوا بها متشاورين واختطف المسلمون منهم بالليل فقتلوا وأسروا وساروا من الغد
الى أرسوف وسبقهم المسلمون اليها فضيق الطريق فحملوا عليهم عندها حتى
اضطروهم الى البحر فحينئذ استمات الافرنج وحملوا على المسلمين فهزموهم وأثخنوا
في تابعهم وألحقوهم بالقلب وفيه صلاح الدين وتستر المسلمون المنهزمون بخمر الشعراء
فرجع الافرنج عنهم وانفرج ما كانوا فيه من الضيق المذكور وساروا الى يافا
فوجدوها خالية وملكوها وكان صلاح الدين قد سار من مكان الهزيمة الى الرملة
وجمع مخلفه وأثقاله واعتزم على مسابقة الافرنج الى عسقلان فمنعه أصحابه وقالوا
نخشى أن تزاحمنا الافرنج عليها ويغلبونا على حصارها كما غلبونا على حصار عكا
ويملكوها آخرا ويقووا بما فيها من الذخائر والاسلحة فندبهم الى المسير اليها وحمايتها
من الافرنج فلجوا في الامتناع من ذلك فسار وترك العساكر مع أخيه العادل قبالة
الافرنج ووصل الى عسقلان وخربها تاسع عشر شعبان وألقت حجارتها في البحر
وبقي أثرها وهلك فيها من الاموال والذخائر ما لا يحصى فلما بلغ الافرنج ذلك أقاموا
بيافا وبعث المركيش الى ملك انكلطيرة يعذله حيث لم يناجز صلاح الدين على عسقلان
ويمنعه من تخريبها فاخر بها حتى عجز عن حمايتها ثم رحل صلاح الدين من عسقلان
ثاني شهر رمضان الى الرملة فخرب حصنها ثم سار الى القدس من شدة البرد والمطر لينظر
في مصالح القدس وترتيبهم في الاستعداد للحصار وأذن للعساكر في العود الى بلادهم
للاراحة وعاد الى مخيمه ثامن رمضان وأقام الافرنج بيافا وشرعوا في عمارتها فرحل
صلاح الدين الى نطرون وخيم به منتصف رمضان وتردد الرسل بين ملك انكلطيرة وبين
العادل على أن يزوجه ملك انكلطيرة أخته ويكون القدس وبلاد المسلمين بالساحل
للعادل وعكا وبلاد الافرنج بالساحل لها الى مملكتها وراء البحر بشرط رضا الفداوية
وأجاب صلاح الدين الى ذلك ومنع الاقسة والرهبان أخت ملك انكلطيرة من ذلك
ونكروا عليها فلم يتم وانما كان ملك انكلطيرة يخادع بذلك ثم اعتزم الافرنج على
القدس ورحلوا من يافا الى الرملة ثالث ذي القعدة وسار صلاح الدين الى القدس
وقدم عليه عسكر مصر مع أبي الهيجاء السمين فقويت به نفوس المسلمين وسار الافرنج
من الرملة الى النطرون ثالث ذي الحجة والمسلمون يحاذونهم وكانت بينهم وقعات اسروا

في واحدة منها وخمس من مقاتلة الافرنج واهتم صلاح الدين بعمارة اسوار القدس ورمّ ماثلم منها وضبط المكان الذي ملك القدس منه وسدّ فروجه وامر بحفر الخندق خارج الفصيل وقسم ولاية هذه الاعمال بين ولده وأصحابه ونقلت الحجارة للبنيان وكان صلاح الدين يركب الى الاماكن البعيدة وينقلها على مركوبه فيقتدي به العسكر ثم ان الافرنج ضاقت أحوالهم بالنطرون وقطع المسلمون عنهم الميرة من ساحلهم فلم يكن كما عهدوه بالرملة وسأل ملك انكلطيرة عن صورة القدس ليعلم كيفية ترتيب حصارها فصوّرت له ورأى الوادي محيطا بها الا قليلا من جهة الشمال مع عمقه ووعرة مسالكه فقال هذه لا يمكن حصارها الا اذا اجتمعنا عليها من جانب وبقيت الجوانب الاخرى وان افترقنا على جانب الوادي والجانب الآخر كبس المسلمون احدى الطائفتين ولم تصل الاخرى لانجادهم خوفا من المسلمين على معسكرهم وان تركوا من أصحابه حامية المعسكر فالمدى بعيد لا يصلون للانجاد الا بعد الوفاة هذا الى ما يلحقنا من تعذر القوت بانقطاع الميرة فعلموا صدقه وارتحلوا عائدين الى الرملة ثم ارتحلوا في محرم سنة ثمان وثمانين الى عسقلان وشرعوا في عمارتها وسار ملك انكلطيرة الى مسلح المسلمين فواقعوهم وجرت بينهم حروب شديدة وصلاح الدين يبعث سراياه من القدس الى الافرنج للاغارة وقطع الميرة فيغنمون ويعودون والله تعالى أعلم

(مقتل المركيش وملك الكندهري مكانه)

ثم ارتحل صلاح الدين الى سنان مقدم الاسماعيلية بالشأم في قتل ملك انكلطيرة والمركيش وجعل له على ذلك عشرة آلاف دينار فلم يمكنهم قتل ملك انكلطيرة لما رأوه من المصلحة لئلا يتفرّغ لهم صلاح الدين وبعث رجلين لقتل المركيش في زي الرهبان فاتصلا بصاحب صيدا وابن بارزان صاحب واقاما عنده ستة أشهر مقبلين على رهبانيتهما حتى أنس بهما المركيش ثم دعاه الاسقف بصور لدعوى فوثبا عليه فجرحاه ولجأ أحدهما الى كنيسة واختفى فيها وحمل اليها المركيش لشدة جراحه فأجهز عليه ذلك الباطني وقتلوه ونسب ذلك الى ملك انكلطيرة ليتفرد بملك الافرنج بالشأم ولما قتل المركيش ملك المدينة زعيم من الافرنج من وراء البحر يعرف بالكندهري ابن أخت ملك افرنسة وابن أخي ملك انكلطيرة من أبيه

وتزوج بالملكة في ليلته وبنى بها وملك عكا وسائر البلاد بعد عود ملك انكلطيرة وعاش الى سنة أربع وتسعين وسقط من سطح ولما رحل ملك انكلطيرة الى بلاده أرسل هذا الكندهري الى صلاح الدين واستماله للصلح والتمس منه الخلعة فبعث اليه بها ولبسها بعكا والله تعالى أعلم

(مسير الافرنج الى القدس)

ولما قدم صلاح الدين القدس وكان قد بلغه مهلك تقي الدين عمر ابن أخيه شاهنشاه وان ابنه ناصر الدين استولى على أعماله بالجزيرة وهي حران والرها وسميساط وميافارقين وحاني وبعث الى صلاح الدين يسأل ابقاءها في يده مضافة الى ما كان لابيه من الاعمال بالشأم فاستقصره صلاح الدين لصغره وطلب منه ابنه الافضل أن يعطيها له وينزل عن دمشق فجابه الى ذلك وأمره أن يسير اليها وكاتب ملوك البلاد الشرقية بالموصل وسنجار والجزيرة واربل وسار لانجاده بالعساكر وعلم ناصر الدين انه لاقبل له بذلك فبعث للملك العادل يستشفع له عند صلاح الدين على أن يبقى بيده له ما كان لابيه بالشأم فقط وينزل عن بلاد الجزيرة فأقطعها صلاح الدين أخاه الملك العادل وبعثه يتسلمها ويرد ابنه الافضل فلحق بالافضل بحلب وأعاده وعبر الفرات وتسلم البلاد من ناصر الدين بن تقي الدين وأنزل بها عماله واستصحبه وسائر العساكر الجزرية الى صلاح الدين بالقدس ولما بلغ الافرنج أن صلاح الدين بعث ابنه الافضل وأخاه العادل وفرق العساكر عليهما ولم يبق معه بالقدس الا بعض الخاصة فطمعوا فيه وأغاروا على عسكر مصر وهو قاصد اليه ومقدمهم سليمان أخو العادل لامه فأخذوه بنواحي الخليل وقتلوا وغنموا ونجا فلهم الى جبل الخليل وساروا الى الداروم فخربوه ثم ساروا الى القدس وانتهوا الى بيت قوجة على فرسخين من القدس تاسع جمادى الاولى من سنة ثمان وثمانين واستعد صلاح الدين للحصار وفرق ابراج السور على أمرائه وسلط السرايا والبعوث عليهم فرأوا ما لاقبل لهم به فتأخروا عن منازلتهم بيافا وأصبحت بقولهم وميرتهم غنائم للمسلمين وبلغهم أن العساكر الشرقية التي مع العادل والافضل عادت الى دمشق فعادوا الى عكا وعزموا على محاصرة بيروت فأمر صلاح الدين ابنه الافضل أن يسير في العساكر الشرقية اليها

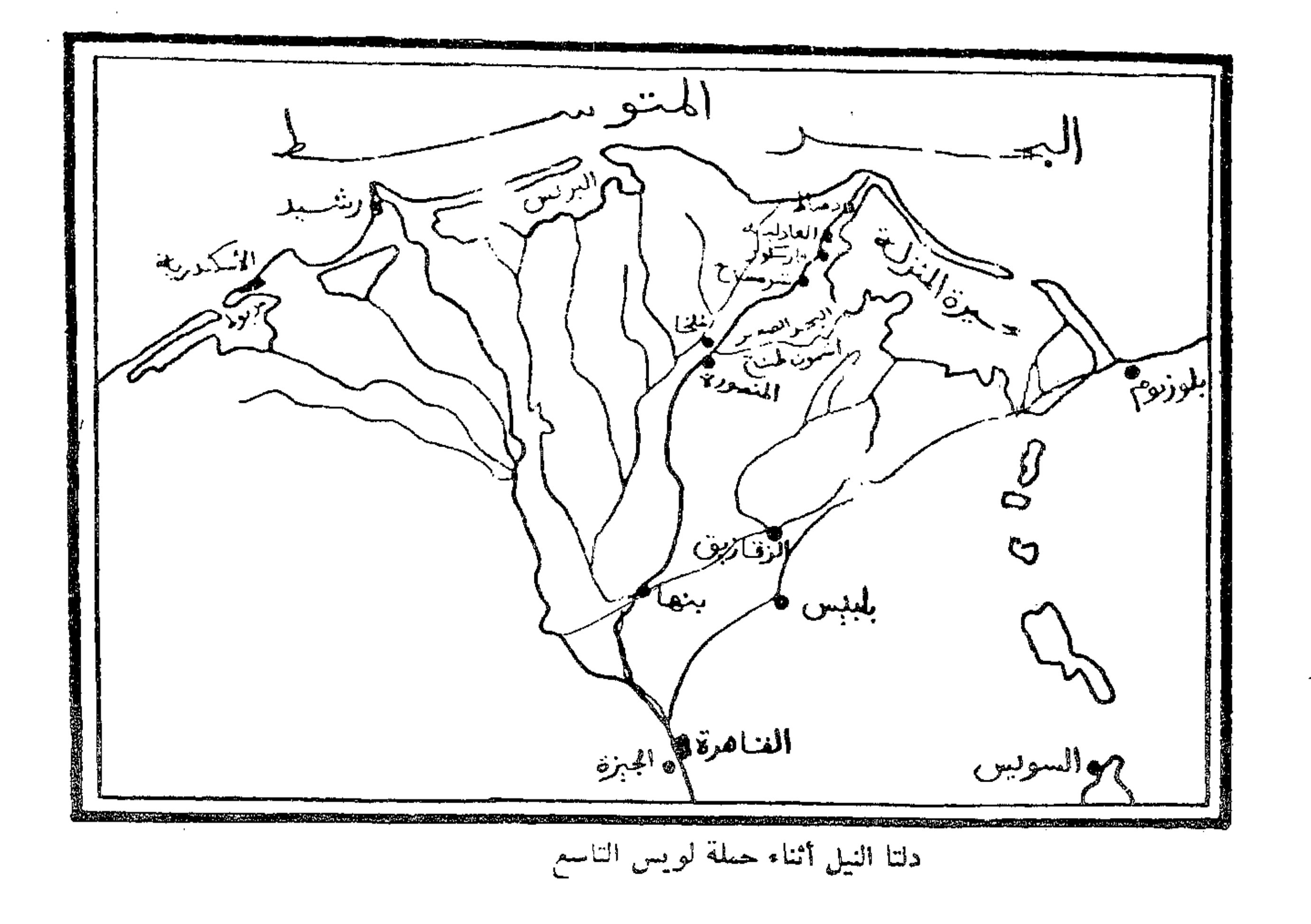
نسار وانتهى الى مرج العيون فلم يبرح الافرنج من عكا واجتمع عند صلاح الدين خلال ذلك العساكر من حلب وغيرها فسار الى يافا فحاصرها وملكها عنوة فى عشرى رجب من السنة ثم حاصر القلعة بقية يومه وأشرفوا على فتحها وكانوا ينتظرون المدد من عكا فشغلوا المسلمين بطلب الامان الى الغد فأجابوهم اليه وجاءهم ملك انكلطيرة ليلا وتبعه مدد عكا وبرز من الغد فلم يتقدم اليه أحد من المسلمين ثم نزل بين السماطين وجلس للاكل وأمر صلاح الدين بالحملة عليهم فتقدم أخ المشطوب وكان يلقب بالجناح وقال لصلاح الدين نحن نتقدم للقتال ومماليكك للغنيمة فغضب صلاح الدين وعاد عن الافرنج الى خيامه حتى جاءابنه الافضل وأخوه العادل فرحل الى الرملة ينتظر ما آل أمره مع الافرنج وأقاموا بيافا والله تعالى أعلم

(الصلح بين صلاح الدين والافرنج ومسير ملك انكلطيرة الى بلاده)

كان ملك انكلطيرة الى هذه المدة قد طال مغيبه عن بلاده ويئس من بلاد الساحل لان المسلمين استولوا عليه فأرسل الى صلاح الدين يسأله فى الصلح وظن صلاح الدين أن ذلك مكر فلم يجبه وطلب الحرب فألح ملك انكلطيرة فى السؤال وظهر صدق ذلك منه فترك ما كان فيه من عمارة عسقلان وغزة والداروم والرملة وبعث الى الملك العادل بأن يتوسط فى ذلك فأشار على صلاح الدين بالاجابة هو وسائر الامراء لما حدث عند العسكر من الضجر ونفاد النفقات وهلاك الدواب والاسلحة وما بلغهم أن ملك انكلطيرة عائد الى بلاده وان لم تقع الاجابة آخر فصل الشتاء امتنع ركوب البحر فيقيم الى قابل فلما وعى ذلك صلاح الدين وعلم صحته أجاب الى الصلح وعقد الهدنة مع رسل الافرنج فى عشرين من شعبان سنة ثمان وثمانين لمدة أربعة وأربعين شهرا فتحالفوا على ذلك وأذن صلاح الدين للافرنج فى زيارة القدس وارتحل ملك انكلطيرة فى البحر عائدا الى بلده وأقام الكندهرى صاحب صور بعد المركيش ملكا على الافرنج بسواحل الشام وتزوج الملكة التى كانت تملكهم قبله وقبل صلاح الدين كامز وسار صلاح الدين الى القدس فأصلح أسواره وأدخل كنيسة صهيون فى البلد وكانت خارج السور واختص المدارس والربط والمارستان ووقف عليها الاوقاف واعتزم على الاحرام منه للحج

فاعترضته القواطع دون ذلك فسار الى دمشق خامس شوّال واستخلف عليه الامير جرديك من موالى نور الدين ومرّ بكفور المسلمين نابلس وطبرية وصفد وبيروت ولما انتهى الى بيروت أتاه بها حمند صاحب انطاكية وطرابلس وأعمالها فالتزم طاعة صلاح الدين وعاد ودخل صلاح الدين دمشق فى الخامس والعشرين من شوّال وسرّ الناس بقدومه ووهن العدوّ والله سبحانه وتعالى أعلم

نقلا عن ابن الاثير . الكامل في التاريخ : ١٠ / ٢٧٢ ـ ٢٧٨



دلتا النيل أثناء حملة لويس التاسع

طرق المواصلات التجارية بين صقلية ودول البحر المتوسط الاسلامية (المغرب، الأندلس، مصر، بلاد الشام)

اعتماداً على اليعقوبي وابن خرداذبه والمقدسي وناصر خسرو والبكري والإدريسي وابن جبير وابن الخطيب والدكتور ابراهيم العدوي [illegible]

أهم مراكز التجارة الخارجية فى صقلية

١ ـ طرابنش

٢ ـ مرسى علي

٣ ـ لتاقة

٤ ـ قسمة شكلة

٥ ـ مسينى

اعتمادا على الادريسي : نزهة المشتاق ، وخريطة ابن جبير والحميرى .

أهم المراكز الثقافية فى صقلية

١ ـ بلرم

٢ ـ مازر

٣ ـ سرقوسة

اعتمادا على السلفى وياقوت والقفطى .

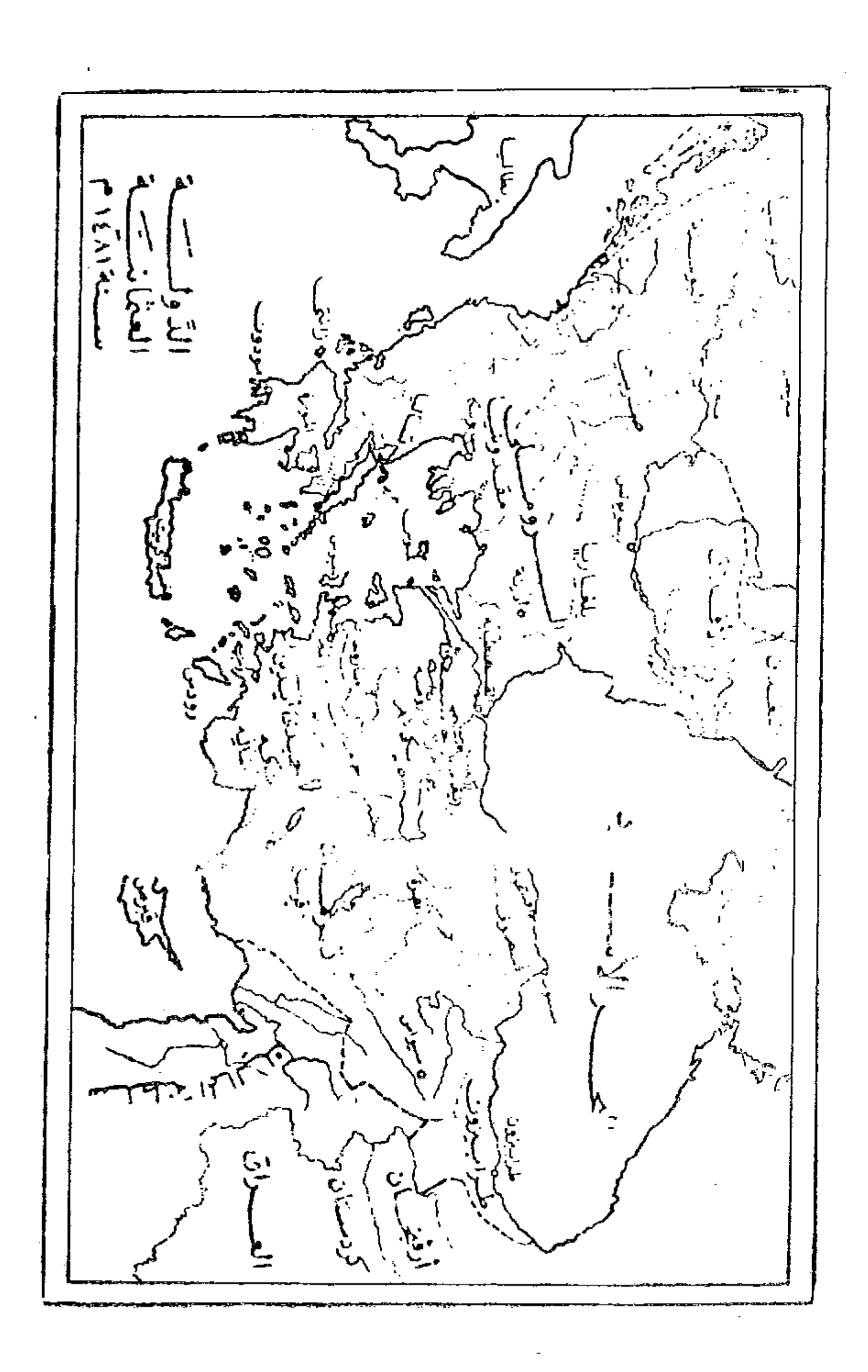
ايطاليا
قلورية

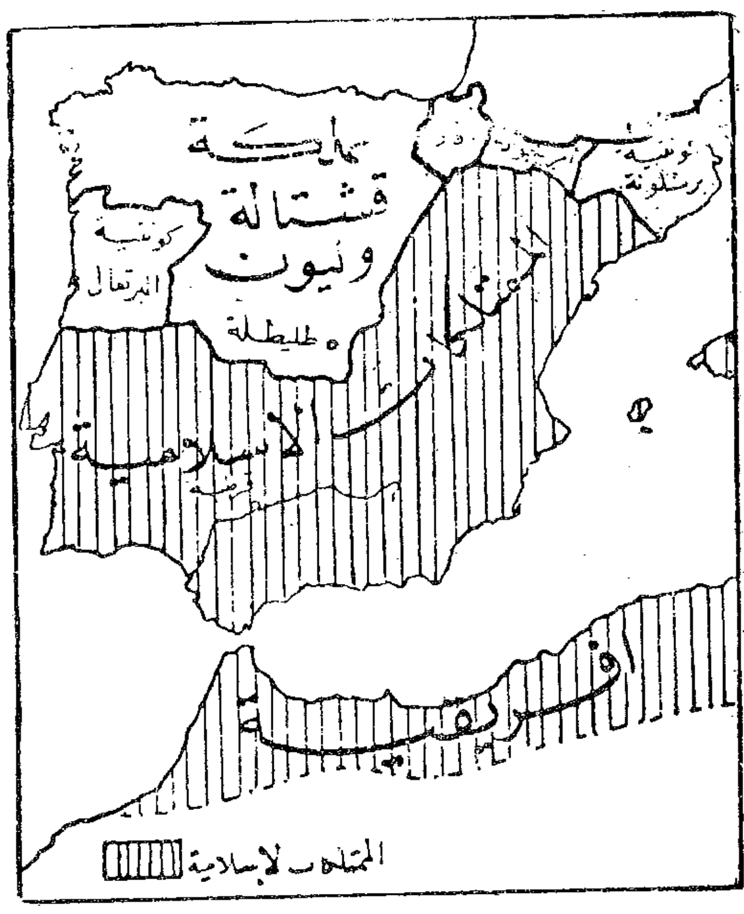
طرابنش ٢١٥ هـ
بلرم ٢١٦ هـ
شرو ٢٢٠ هـ
جفلوذي ٢٤٣ هـ
جرجنة ٢٢٥ هـ
رمطة ٢٨٩ هـ
مسينى ٢٢٨ هـ
قترنون ٢٢٥ هـ
قلعة أبي ثور ٢٣٧ هـ
طبرمين ٢٨٩ هـ
مازر ٢١٢ هـ
بلانه (بلوالة) ٢١٥ هـ
قصريانه ٢٤٤ هـ
ليياج ٢٨٩ هـ
جرجنت ٢١٣ هـ
حصن الغيران ٢٢٦ هـ
لنتيني ٢٣٢ هـ
بثيرة ٢٣٨ هـ
سرقوسة ٢٦٤ هـ
نوطس ٢٥٠ هـ
رغوس ٢٣٤ هـ
مودقة ٢٣٢ هـ
شكلة ٢٥٠ هـ

إستكمال الفـتوح العـربية الصقـلية

إعتمادا على ابن الأثير وابن عذارى والنويري وابن خلدون وأماري وفازييف
وخريطة الأدريسي وخرطة مصغرة في كتاب :

Sicilia Italia, Istituto Italiano d'Art. Grafichi
Bergamo, Italy.





اسبانيا الإسلامية